

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة .

نيابة مديرية الجامعة للتكوين العالي في الطور الثالث والتأهيل الجامعي والبحث العلمي وتكوين المعلمين

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية



المسيلة في 19 جتفي 2026

الرقم... 56/2026

إشهاد بتأليف وتنسيق كتاب جماعي

يشهد الدكتور عبدالله مقلاتي مدير مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية أن:

الدكتور عبدالقادر خليفني أستاذ بقسم التاريخ جامعة المسيلة .

أعد ونسق كتاب جماعي ضمن منشورات المخبر، السلسلة رقم 16 المسامي الأول جوان 2026 . وهو بعنوان التاريخ السياسي والاجتماعي للجزائر الحديثة والمعاصرة 1519-1962.

ملاحظة: سلمت هذه الشهادة بناء على طلب المعني لاستعمالها في حدود ما يسمح به القانون.

مدير المخبر

د. مقلاتي عبد الله



سلسلة منشورات مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
العدد: 16 السداسي الأول 2025

**أبحاث في التاريخ السياسي والاجتماعي للجزائر
1519 ـ 1962
أعمال مهداة للمرحوم الدكتور العيد مسعود**

الهيئة المشرفة

أ.د. أبو بكر الصديق حميدي

أ.د. عبد الله مقلاتي

أ.د. كمال ييرم

أ.د. عمر بوضربة

منسقا الكتاب

أ.د. عبد القادر خليف

د. نور الدين مقدر

المدير الشرفي للسلسلة

أ.د/ عمار بودلاعة - مدير الجامعة

مدير السلسلة

أ. د / عبد الله مقلاتي

رئيس التحرير

د / الطاهر خالد

المراجعة اللغوية

أ. د / عبد الحميد عمران

منشورات مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية

- جامعة محمد بوضياف بالمسيلة -

حي إشبيلية، ص ب 190 ولاية المسيلة-الجزائر

- جميع الحقوق محفوظة -

العدد 16 السداسي الأول 2025

تاريخ النشر: مارس 2025



abdalah19@yahoo.com



virtuelcampus.univ-msila.dz/lerra2



<https://www.facebook.com/profile.php>



066.632.793

رقم الإيداع القانوني: السداسي الأول 2025

ISBN: 978-9931-899-05-1

اللجنة العلمية للكتاب

الأستاذ	الجامعة	الأستاذ	الجامعة
أ.د/ صالح لميش	جامعة المسيلة	أ.د/ عبد الكامل جويبة	جامعة المسيلة
أ. د/ سعيدوني ناصر الدين	جامعة الكويت	أ.د/ عمران عبد الحميد	جامعة المسيلة
أ. د/ عبد الكريم الماجري	جامعة سوسة تونس	أ.د/ منى صالحى	جامعة المسيلة
أ. د/ محمد يعيش	جامعة المسيلة	د/ تاحي اسماعيل	جامعة المسيلة
أ. د/ أحمد مسعود سيد علي	جامعة المسيلة	د/ راجعي عبد العزيز	جامعة المسيلة
أ. د/ محمد السعيد قاصري	جامعة المسيلة	د/ بن رحال يمينه	جامعة المسيلة
أ.د/كمال يريم	جامعة المسيلة	د/ معوشي أمال	جامعة المسيلة
أ.د/ الطاهر بونابي	جامعة المسيلة	د/ بلعمري فاتح	جامعة المسيلة
أ.د/ عيسى بن قبي	جامعة المسيلة	د/ بلال كشيدة	جامعة المسيلة
أ.د/ مصطفى عبيد	جامعة المسيلة	د/ فاروق جياب	جامعة المسيلة
أ.د/ محمود بوكسيبة	جامعة المسيلة	د/ بن حامد سعدية	جامعة المسيلة
أ.د/ حسين محمد الشريف	جامعة المسيلة	د/ بومولة نبيل	جامعة المسيلة
أ.د/ فتح الدين بن أزواو	جامعة المسيلة	د/ الطاهر خالد	جامعة المسيلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



**أبحاث في التاريخ السياسي والاجتماعي للجزائر 1519 ـ 1962
أعمال مهداة للمرحوم الدكتور العيد مسعود**



التعريف بموضوع الكتاب:

هذا الكتاب التفاتة علمية تكريمية لمؤرخ جزائري مغمور الدكتور العيد مسعود الجلالي البسكري (1926-1999م)، وهو من أوائل المؤرخين الأكاديميين الذين كرسوا جهودهم لخدمة التاريخ الوطني، ويعود له الفضل في تأسيس وإدارة كلية الآداب ومعهد التاريخ في جامعة قسنطينة وكلية الآداب بجامعة الجزائر، تعطرت سيرته بالنضال والكفاح من أجل تحرير الوطن في إطار جمعية العلماء وحزب الشعب وجهة التحرير الوطني، وامتلك مسارا علميا زاخرا بالمعارف والشهادات، تتلمذ على يد ابن باديس والعربي التبسي، وتلقى تكوينا رصينا في الزيتونة ثم بالأزهر، أكمل دراسته في تخصص تاريخ الجزائر الحديث بالحصول على شهادة الدكتوراه من جامعة عين شمس بمصر مطلع السبعينيات.

في سجله تجربة مميزة في التعليم والانتساب إلى الهيئات الثقافية، ومن ذلك تدريسه بالسعودية وعضويته بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أوائل الستينيات، عاد إلى الجزائر عام 1965م حيث تولى في السنة الموالية إدارة المدرسة العليا للآداب بالمركز الجامعي الذي تحول إلى جامعة الإخوة منتوري بقسنطينة، وفي عام 1969 عين أول عميد لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بذات الجامعة، حيث رافق تأسيس أقسام الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع، واستقدم الأساتذة المعربين من المشرق العربي، وفي هذا الإطار أشرف على قسم التاريخ وحاضر فيه، وعرف بين الأساتذة والطلاب بمواقفه الشهمة وخبرته الإدارية والعلمية، ونبوغه في تخصص التاريخ العثماني للجزائر، وتأصيله لعدد القضايا العلمية المرتبطة بتاريخ بلاده الحديث والمعاصر من خلال المقالات والكتب التي نشرها، والتي عالجت إشكالية علاقة السلطة بالمجتمع.

لا شك أن السياسة والمجتمع في الجزائر الحديثة محور هام في البحث التاريخي، وخاصة ما تعلق بعلاقة السلطة بالمجتمع في العهد العثماني، حيث استحوذ العثمانيون على المشهد السياسي تاركين هامشا واسعا لحراك المجتمع، وهي المعادلة التي تغيرت جذريا زمن الفترة الكولونيالية من خلال تدخل السلطة الفرنسية لتحطيم البنى المجتمعية وتهميش أصحاب الأرض الشرعيين نخبا وجماهير، الذين وجدوا في المقاومة والحركة الوطنية وثورة التحرير طريقا لاستحضار الدور وإعادة الاعتبار.

وعليه، فإن إشكالية البحث التي أصّلها العيد مسعود ببواكر أعماله حول علاقة السلطة السياسية بالمجتمع ما تزال ميدانا خصبا للبحث، لاسيما وأن مناهج البحث التاريخي ومدارسه المعاصرة قد أصبحت تركز على مجال التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، ومن ثمة فإن تجربة المجتمع الجزائري وفعالياته السياسية والنقابية والعلمية في قيادة المقاومة والتصدي للسياسة الاستعمارية، وصولا إلى تحرير البلاد ورفع أطروحة "من الشعب وإلى الشعب" على عهد الدولة الوطنية تعبر عن إيديولوجية سياسية تميز المجتمع الجزائري الذي دفع ثمنا باهظا للإنجاز ملحمة تحررية تعد أنموذجا في مقارعة الاستعباد عبر العالم.

محاور الكتاب:

تعالج الأبحاث المقترحة قضايا السياسة والمجتمع في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر من خلال المحاور الآتية:

1. العيد مسعود في ذاكرة زملائه وطلابه.
2. العيد مسعود الإنسان والأكاديمي: حياته، نضاله، إنتاجه الفكري.
3. السياسة والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني.
4. سلطة الاحتلال الفرنسي وآليات إدارة المجتمع الجزائري.

5. المجتمع والقبيلة وحركات المقاومة الشعبية.
6. قضايا التاريخ السياسي والاجتماعي خلال مرحلة الحركة الوطنية.
7. قضايا التاريخ السياسي والاجتماعي خلال الثورة التحريرية.

كلمة مدير المخبر:

يشرفني ويسرني كثيرا تقديم هذا الكتاب الجماعي المتميز، إنه حصيلة أعمال علمية جادة لنحبة من الباحثين لبوا نداء النشر، وأنه مهدى للمرحوم المؤرخ العيد مسعود، والذي نسيناه لسنوات طويلة على الرغم من دوره الفعال في إنشاء قسم التاريخ بجامعة قسنطينة والجزائر العاصمة، واستقطاب الدكاترة من المشرق العربي للتدريس بالجزائر، وخوضه معركة التعريب ومحاربة الفرنسية والبيروقراطية التي وقفت في وجه مساعي العيد مسعود وأقرانه في إعادة الهوية الحقيقية للجزائر المسلمة العربية.

لم أحز شرف الدراسة عنده، ولكن أعماله وملاحمه في التعريب تعرفت عليها من زملائه الأساتذة، ومنهم الدكتور عبد العزيز لحرش والدكتور عبد الكريم بوصفصاف والدكتورة بوبة مجاني وغيرهم، أشادوا جميعهم بتكوين الرجل العلمي وبعد نظره في الإصلاح الجامعي، وتضحياته في خدمة إدارة كلية الآداب ومعهد العلوم الاجتماعية بقسنطينة، وخاصة معاركه في ترسيخ التعريب وتكوين الطلبة والباحثين وغرس قيم الوطنية الحققة.

وإن هذا الكتاب مجرد التفاتة بسيطة تذكربأعمال وخصال الرجل، ونأمل أن تنشر كتبه ومقالاته، وبعضها ما يزال مخطوطا، وأن يتم التعريف بالمسار العلمي والنضالي للرجل، ونتمنى أن تكون هذه الأعمال مفيدة للطلبة والباحثين

ونتقدم بالشكر الجزيل للمشرفين على الكتاب، وخاصة الدكتور مقدر نور الدين والدكتور خليفي عبد القادر على جهدهما في التنسيق والتحكيم، وكذا القائمين على إعداد الكتاب وتصفيفه، وخاصة الدكتور الطاهر خالد، فلكم جميعا شكري وامتناني.

الأستاذ الدكتور عبد الله مقلاتي

الفصل التمهيدي

حياة وأعمال المؤرخ الدكتور العيد مسعود

الدكتور الباحث العيد مسعود من جامع الأزهر إلى التدريس وإدارة الجامعة الجزائرية

كأ. الأخضر رحموني

جامعة بسكرة

من الشخصيات العلمية التي أنجبها ولاية بسكرة، وتركت بصمتها الواضحة في مجال البحث العلمي والتربوي، خاصة في رحاب الجامعة، وفي حملة التعريب التي شهدتها الجزائر في العقد السابع من القرن الماضي، ورغم ما تركه من أبحاث قيمة خاصة في ما يتعلق بتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، لا زال اسمه مجهولا عند الطبقة المثقفة، ولم يدرج ضمن الكتب التي تناولت علماء بسكرة أو أعلام منطقة الزيبان، بل أن أهله وأبناء عشيرته لا يعرفون عنه سوى معلومات بسيطة، ولم يكرم حتى من طرف بلدياته بإطلاق اسمه على أحد المرافق الثقافية أو التربوية، إنه الدكتور العيد مسعود الذي لا زال بقية من طلبته يتذكرون دروسه ومواقفه الجريئة في معركته مع المنسلخين ثقافيا، وصراعه مع من حاولوا بكل الوسائل الإدارية أن تبقى اللغة الفرنسية هي السيدة في تدريس المواد العلمية بالجامعة الجزائرية.

ولد الدكتور مسعود بن السعيد العيد عام 1926 بمدينة أولاد جلال من ولاية بسكرة. تلقى دراسته الأولى بمسقط رأسه، وبتوجيه من ابن بلدته الشيخ محمد العابد السماتي الجلالي انتقل في خريف عام 1939 إلى مدينة قسنطينة للدراسة على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس بالجامع الأخضر، وقد اعتبره بمثابة والده الروحي، والفترة التي قضها معه هي أزهى الأيام الحاسمة التي ساهمت في تكوين شخصيته. بعد وفاة الشيخ ابن باديس في

16 أفريل 1940 انتقل إلى مدينة تبسة لمواصلة دروسه كبقية الطلبة على يد الشيخ العربي التبسي، ومنها انتقل إلى جامع الزيتونة المعمور بتونس حيث أتم تعليمه العالي حتى تحصل على شهادة التطويع، ولحبه الشديد للعلم انتقل إلى مصر للالتحاق بجامعة الأزهر الشريف، وكانت رحلته صعبة للغاية، خاصة وأنها تزامنت مع أحداث معركة العلمين الثانية في أكتوبر 1942، حيث اجتاز التراب الليبي مشيا على الأقدام، وقد تم إلقاء القبض عليه من طرف القوات الألمانية بالقرب من مدينة طبرق الليبية بعد وشاية، وأدخل السجن، وعند الإفراج عنه، واصل رحلته على متن الزوارق البحرية.

وقد اختار الدراسة بالأزهر- كما يقول مترجمنا - لأنه (المعهد العتيق محط أنظار الطلاب ومعقد آمالهم، تهفو إليه قلوب أولئك الذين يرغبون في العلم، ويتطلعون إلى الاستزادة من مناهله العذبة، والأخذ عن علمائه المشهورين).

بعد سنوات الجد والمثابرة تحصل على شهادته العالية من كلية أصول الدين في يوليو 1954، بعد نجاحه في امتحانها المنعقد في سنة 1952. ثم على شهادة العالمية مع الإجازة في التدريس بجامع الأزهر بعد إجراء الامتحان سنة 1956، وقد صدر القرار بمنح هذه الشهادة مع حقوقها التي تخولها له القوانين واللوائح في 01 أفريل 1957.

عند الإعلان عن الحكومة الجزائرية المؤقتة استدعي للمشاركة في تحرير كلمة الجزائر التي كانت تذاغ على أمواج صوت العرب من القاهرة. انتقل سنة 1961 إلى المملكة العربية السعودية للتدريس بها مدة أربع سنوات. ثم رجع إلى مصر للالتحاق بجامعة عين شمس، وأتم دراسته بالحصول على شهادة الدكتوراه. وقد كان يزاوّل التدريس وطلب العلم في الوقت نفسه. كما انتسب عام 1964 إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم التابعة إلى جامعة الدول العربية.

في عام 1965 رجع إلى أرض الوطن التحق بجامعة الجزائر كأستاذ محاضر، وفي الوقت نفسه كان ينشر مقالات حول قضية العربية والفرنسية في الجزائر على صفحات جريدة الشعب، إلى غاية عام 1966 حيث عين كمدير للمدرسة العليا للآداب بالمركز الجامعي بقسنطينة.

وفي سنة 1969 عندما تحول المركز إلى جامعة عين الدكتور جمال قنان كأول عميد لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة قسنطينة ولكنه لم يمكث طويلا في منصبه، وبعد مغادرته خلفه الدكتور مسعود العيد، قد كانت تشمل على معاهد الآداب والفلسفة وعلم النفس والتاريخ والجغرافية. وخلال إدارته للكلية انتدب الأساتذة من الدول العربية منهم: محمد الصادق عفيفي وعمر الدسوقي وعلي عبد الواحد وافي وسلام زغلول سلام وعبد القادر طليمات ومصطفى العقاد. بالإضافة إلى أساتذة جزائريين زائرين ومنتدبين منهم: عبد الله ركيبي والحاج صالح ونعيم النعيمي وأحمد حماني ومختار نويوات.

كما كان له الفضل في تعريب العلوم رغم ما لقيه من ضغوطات من أنصار التعليم باللغة الفرنسية خاصة في الوزارة حيث كانت تتأخر في صرف مرتبات الأساتذة المتعاونين لمدة طويلة بهدف ترك الجامعة، غير أن الدكتور العيد مسعود كان يلجأ إلى طريقة القرض لتأمين معيشتهم والعمل على حل مشكل صرف مرتباتهم التي كانت تخضع لمركزية الإجراءات المالية.

في عام 1973 تحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة عين شمس بمصر. وفي عام 1976 عين مديرا على معهد العلوم الاجتماعية وأستاذا محاضرا بجامعة قسنطينة إلى غاية عام 1986.

خلال هذه الفترة أصدر مجلة سيرتا، وهي مجلة تاريخية اجتماعية تصدر عن معهد العلوم الاجتماعية، وهيئة تحريرها تضم نخبة من أساتذة المعهد منهم الدكاترة: عبد الكريم بوصفصاف ومحمد الصالح مرمول وعبد العزيز فيلاي وبلحشر الشريف سلطاني وبوبة مجاني وغيرهم، وقد أطلق على المجلة اسم سيرتا كما يقول الدكتور العيد مسعود (إحياء لاسم قسنطينة القديم، وتذكيرا بأمجاد الماضي، وإيماء إلى ما يجب أن تكون عليه المجلة من عراققة، وإلى ما يجب أن تستوحيه من موضوعات تعبر أساسا عن أصالة الشخصية الجزائرية). وقد نشرها مجموعة من الأبحاث منها:

- (العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق في العهد العثماني) بالعدد رقم 01 الصادر في ماي 1979.

- (حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني) بالعدد رقم 03 لسنة 1980.

- (المرابطون والطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني) بالعدد رقم 10 لسنة 1988.

بعدها تولى نفس المهام بجامعة الجزائر العاصمة التي كانت بحاجة ماسة إلى التسيير الإداري والإشراف على رسائل التخرج.

ورغم العروض العديدة التي اقترحت عليه للعمل بالخارج، خاصة في جامعات الدول العربية، ومنها أيضا اقتراحه لمنصب سفير أو عضو بهيات دبلوماسية، إلا أنه فضل البقاء في وطنه.

وحتى بعد افتتاح جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية بمدينة قسنطينة اقترح اسمه للإشراف على إدارتها، غير أنه فضل البقاء مربيا تتخرج على يديه قوافل الطلبة الجامعيين، إلى غاية حصوله على التقاعد الجزئي سنة 1995، بقي يلقي الدروس والمحاضرات بالجامعة.

توفي الدكتور العيد مسعود في 10/08/1999 بمدينة أولاد جلال وبها

دفن.

من مؤلفاته:

- المجتمع الجزائري في العهد العثماني.

- الصراع من أجل البقاء.

- يوم في حياتي.

- لغة الضاد.

الفصل الأول

بحوث في التاريخ الحديث

نشأة مدينة بوسعادة

د. خميسي سعدي

المركز الجامعي بركة

Khemissi.saadi@cu-barika.dz

مقدمة

يتميز القرن 15م بظهور المدينة ونشوء عقيدة التصوف (الطرق الدينية)، ففيه ظهرت الحياة الحضرية بشكل بارز واصبحت المدينة تؤدي دورها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي ساهم بشكل كبير مهاجرو الاندلس في انجازه، وكان من بين المهاجرين علماء واطباء ومهندسين ومعماريين وادباء وشعراء وحرفيين في مختلف المهن شاركوا بأنشطتهم في تنشيط مختلف المدن الجزائرية¹.

وأما عن ظهور المرابطين والأولياء وانتشار الزوايا فيزداد انتشارا تحت الوجود العثماني في الجزائر، ولا شك أن انتشار هذه الظاهرة يعزى إلى ضعف الدولة أمام الانحلال الداخلي والخطر الخارجي².

ويتميز ذلك الزمن بتقديس وتبجيل الإشراف (الذين يتصلون بنسبهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم) خاصة في الوسط الذي يتميز بارتفاع نسبة الأمية فيه وندرة وجود العلماء وبعد المدن، لذا فإن ذرية الأولياء هي بديل عن

1 - بشير التجاني: التحضر والتهيئة العمرانية في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (ب)، (ت)، ص 14.

2 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ط 2، مج 1، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005، ص 48.

العلماء¹. لذا فإن كل قبيلة تحتاج إلى أن تكون متمسكة بدينها الإسلامي وبما أنهم أميون لا يمكنهم التعمق أكثر في أمور الدين فإنهم يظهرون ذلك عن طريق تبجيل واحترام من يعتقد فيهم أنهم شرفاء وصلحاء ممن استقروا بينهم².

ونحن الآن أمام نوعين من المعلومات، المعلومات التي مصدرها تاريخي ثابت وهي قليلة في الكثير من الأحيان، والمعلومات التي تقدمها التقاليد القبلية وتتكون من روايات أسطورية، انتشرت بين الناس وبمرور الزمن صدقوها³. من بين الوسائل التاريخية التي تثار في وجه الدراسات التاريخية المحلية تلك المتعلقة بتأسيس وظهور المدن التي غالبا ما يتأرجح فيها التاريخ بين الحقيقة والأسطورة بين المعطى الجغرافي والمعطى الديني (المرباط، الولي). فكل مدينة لها روايات شعبية تغلب عليها الأسطورة وكل مدينة لها ولي أو مرباط يلقي عليها حمايته وكراماته.

ومدينة بوسعادة لا تشذ عن هذه القاعدة، فقد أحيط تاريخ بنائها وظهورها عدة تساؤلات تاريخية بين المهتمين بها، ولم يدخر في هذا الإطار الكتاب الفرنسيون الجهد لإثبات أنها قديمة وعلة وجودها مرتبطة بالاحتلال الروماني بينما تذهب بعض الدراسات الجزائرية الحديثة إلى اعتبار مدينة بوسعادة ظهرت في القرن الـ 15 م⁴.

1- ارنست غلنر: مجتمع مسلم، ترجمة ابو بكر أحمد باقادر، ط 1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005، ص 227.

2- نفسه، ص 238.

3 - الشريف كمال دحومان الهاشعي: إشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 112.

4- Youssef nassib:Op.Cit ,p 148.

إن أكثر ما يلاحظ على المدن في الحضنة هو ارتباط نشأتها أو تكوينها أو كما يقال إعادة بنائها برجل دين (مرابط) التي غالبا ما تثير عدة أسئلة حول أصول المدينة وتبقى مدينة بوسعادة أكثر المدن إثارة للجدل من الناحيتين الجغرافية والتاريخية سواء من ناحية تسميتها أو بنائها فكبار الرحالة العرب لم يذكروا هذه المدينة البكري، ابن جبير، ابن بطوطة، وفي العصر الحديث يستمر إغفال ذكر واحة بوسعادة أو أنها ليست موجودة بالنسبة إليهم كما فعل ليون الإفريقي ومارمول كاربخال، وأول من يشير إليها في العصر الحديث بحسب ما توفر من معلومات لحد الآن هو الدكتور شو، ونفس الأمر بالنسبة للمؤرخين فقد ذكروا جبل سالات والرمال المحيطة وبعض المناطق القريبة منها¹.

ولتتبع مسار ظهور قصر بوسعادة ونموه والعوامل المؤثرة في ذلك يتحتم علينا الاستعانة ببعض العلوم الأرى المساعدة كالجغرافيا والآثار وعلم الاجتماع وعلم النخيل فهي ستعطينا حتما إجابات قريبة من المنطق التاريخي وتساعدنا على فهم الأحداث وترتيبها.

1 - أبي عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر (ب ت).

- ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت لبنان، (ب ت)
- ابن بطوطة: تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط 1، المطبعة الخيرية، 1322 هـ.
- حسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

- مارمول كاربخال: إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 1984.

- Thomas Shaw : voyage dans la régence d'Alger au 18 siècle, traduit de l'anglais par E. Mac Carty (1830) liminaire et notes critiques supplémentaire par Abderrahmane Rehabi ,éditions grand Alger livres,Algerier,2007.

أساس مدينة بوسعادة هو قصر وجمعه قصور وهي اللفظة التي تطلق عادة على مدن الجنوب وعلى قراه ومداشره، وهي تعد ظاهرة معمارية خاصة بالجنوب الجزائري، وهي ذات أبعاد حضارية تجسد بعمق طيلة قرون تاريخ مناطق برهنت على مدى قدرة الإنسان الجزائري على التأقلم والتكيف¹. وتتجه الدراسات الحديثة إلى تعريفها للقصر بأنه: «الفضاء المشترك المغلق والمقسم إلى مساحات موزعة توزيعاً نوعياً الذي تخزن فيه مجموعة بشرية، ذات المصلحة الواحدة حصولها الزراعي الموسمي وقت السلم لممارسة نشاطاتها التربوية الطقوسية الاجتماعية والتجارية ووقت الحرب للاحتماء عند هجوم العدو»².

ومن بين المواصفات الخاصة بالبناءات الصحراوية وتنطبق إلى أبعد حد على قصر بوسعادة الذي فقد الكثير من معالمه خاصة السور المحيط به، إنه عبارة عن قرية محصنة بها مساكن متراصة يسكن بها عائلات ذات أصول مشتركة أو فئات اجتماعية مختلفة، ويحيط بها سور به فتحات تستعمل كأبواب³. وفي هذا الصدد ترك لنا ذلك الأسير الهارب فابر سنة 1838م من منجم الأمير عبد القادر بالمدينة وصفا لقصر بوسعادة، الذي نزل به لمدة أسبوع أنه محاط بسور وله أبواب⁴.

1- محمد جودي: المسكن الإسلامي في القصور الصحراوية بالجزائر دراسة تحليلية مقارنة لقصور مزاب وورفلة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم تخصص علم الآثار والمحيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الموسم الجامعي 2013 - 2014 م (رسالة غير منشورة) ص 64، 65.

2 - علي حملاوي: نماذج من قصور منطقة الاغواط دراسة تاريخية وأثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006، ص 22.

3 - نفسه، ص 18. الهامش رقم 21.

4- M. Fabre : Voyage par terre de T'aza à Tunis, Tom IX, in Exploration scientifique de l'Algérie, Imprimerie Royale, Paris, M DCCC XLVI, p 374.

ويعرف القصر في بعض المناطق بالدرشة، وبالأغام وبالمغرب الأقصى ايغارم ن تيغرمت، وفي هذا المعنى وصف الرحالة الإنجليزي شو* أن بوسعادة هي اسم لعدة مداشر¹.

ومن جهة أخرى تفيد المعلومات التي قدمها سي احمد وليد بومزراق باي التيطري السابق التي ضمنها المسار الواجب اتباعه من تازة إلى بوسعادة أنه يمر على قريتين بالقرب من بوسعادة سماهما بقصر بن زوه وقصر الديس².

1- العوامل المؤثرة في نشأة قصر بوسعادة

إن المدن والقصور التي بنيت وظهرت في القرن الـ 15 م والتي من بينها بوسعادة هي امتداد للمدينة العربية في العصر الوسيط، وأنه من المفارقات أن نتكلم «عن قضايا تاريخ المدينة المغاربية دون الالتفات إلى المقاربات التي أنجزت حول ثوابت المدينة العربية الإسلامية أو ملامح المدينة الغربية الوسيطة، ذلك لأن المقارنة تساعد على صياغة المفاهيم والتعرف على

1- Thomas Shaw: op.cit, p71.

*- الدكتور توماس شو رحالة إنجليزي ولد حوالي سنة 1692 بإنجلترا وتوفي بها سنة 1751 درس بجامعة اكسفورد اللغة العربية والعبرية بالإضافة إلى اللغة اللاتينية والاعريقية حصل على شهادة الدكتوراه وعين قسا للكنسالية البريطانية بالجزائر سنة 1720 إلى غاية 1732، ثمزار كل تونس، مصر، سوريا، السعودية. يعد كتابه الذي نشر سنة 1738 م واعيد طبعه باللغة الفرنسية سنة 1830 بمناسبة احتلال الجزائر، من المصادر الهامة لتاريخ الجزائر في العهد العثماني. أنظر:
- لخضر بوطبة: جوانب من الحياة الاجتماعية للمجتمع الجزائري خلال العهد العثماني من خلال الرحالة الإنجليزي طوماس شو، ص - ص 187، 195، بحث مقدم في الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 12-13 هـ / 18-19 م من خلال المصادر المحلية، يومي 24 - 25 جانفي 2012، المركز الجامعي بالوادى.

2- Sid Ahmed –Oulid –Bou-mezrag: Itinéraire et renseignement rout de Taza à Bou-saada , , in Exploration scientifique de l' Algérie , Imprimerie Royale ,Paris, M DCCC XLVI, p 345,347.

الخصوصيات¹.

وقد بين علماء عرب في الفترة الوسيطة الشروط الواجب توفرها لظهور المدن أو الظروف التي تساعد على نموها وازدهارها، فقد كتب أحدهم «أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي النهر الجاري، والمحراث الطيب، والمحطب القريب، والصور الحصين والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبايرتها²».

ونشأة المدينة يتوقف أيضا على مدى قدرتها في دفع المضار-أي العدوان - بأن تكون مسيجة بسور يحميها وفي مكان يصعب الوصول إليه أو أن يحيط بها بحر أو نهر، وجلب المنافع والمرافق مرهون بوجود الماء والمراعي والأراضي الصالحة للزراعة والمناخ المناسب³.

أن المتفحص لهذه المواصفات التي اقرها العلماء يجد أنها تنطبق تماما على واحة بوسعادة، فهي قد أقيمت على ضفاف نهر جارو على صخرة مرتفعة ومحاطة بسور وأراضيها توفر ما يحتاجه أهلها لضروريات الحياة.

وبينت لنا الجغرافيا التي اهتمت بنشأة المدينة في العصر الحديث عدة جوانب تسمح لنا بأعداد تصور أو مقارنة عن نشأة مدينة بوسعادة، أن نشأة المدن ونموها وازدهارها هو من عمل الإنسان، لكن الظروف الطبيعية في البيئة التي يعيش فيها الإنسان، هي الحافز الأول والمهم الذي جعله يفكر في بنائها، ويبدو أن الطبيعة توفر المكان والإنسان يصنع منه مدينة على

1 - عبد الأحد السبتي، حليلة فرحات: المدينة في العصر الوسيط قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1994، ص 5.

2 - ابن أبي زرع: قرطاس، ص 33. نقلا عن عبد الأحد السبتي، حليلة فرحات: المرجع السابق.

3 - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، ج 2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000، ص 617، 621.

طريقته¹. ولا يخفى على الملاحظ أن قصر بوسعادة قد أقيم بذكاء في مواضع ومواقع تتأكد فيها بصورة واسعة النطاق جوانب الموارد والثروة المتمثلة في التربة الخصبة والطرق المتعددة والمناخ الحسن والمياه ومواد البناء².

ولتوضيح العامل الجغرافي ودوره الحاسم في اختيار مكان إقامة القصر يفرق أهل الاختصاص من الجغرافيين بين مصطلحين هما: الموضع والموقع. فالموضع هو ما يتوفر عليه المكان من امكانات طبيعية والموقع هو الذي يسمح بإقامة العلاقات التجارية والزراعية والمبادلات الاجتماعية مع المناطق القريبة³. ويحتمل جدا أن تعمير المنطقة الأول يعود بدرجة كبيرة إلى الموقع الجغرافي المتميز بأنه ملتقى طرق ويتوفر المياه⁴.

ومن جهة أخرى توجد علاقة بين الدين والمدينة بصفة عامة فالكثير من المدن قد أقيمت على أضرحة أولياء أو على مكان مقدس وبوسعادة لم تشذ عن ذلك، فهي قد أقيمت حول مسجد تولى بناؤه (أولياء) كان بمثابة النواة التي تولدت عنها التجارة والصناعة والفلاحة، ويظهر السوق لتبادل البضائع والسلع والمنتجات ثم تنمو أوجه النشاط الأخرى مع الزمن، ويجتذب المركز الجديد السكان اليه تدريجيا، وبهذا الشكل استطاعت بوسعادة كنواة علم ودين أن تكون مركزا للتجارة والصناعة والثقافة بمرور الزمن⁵.

1- مصطفى عباس الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية والاسلامية، دار الرشيد للنشر، العراق، 1982، ص 199، 200.

2- نفسه، ص 200.

3- نفسه، ص 200، 201.

4- youssef nacib: Op. Cit, p 138.

5- عند مطالعتنا لمختلف الروايات التي تناولت تأسيس مدينة بوسعادة لاحظنا أن بناء المسجد كان أساسيا في تركيز السكان من حوله وأن البدو المقيمون في تلك الجهة بدأوا في الإقبال على الوليين الصالحين (سيدي سليمان وسيدي ثامر) للاستفادة من علمهما. حول دور الدين في نشأة المدن انظر: مصطفى عباس الموسوي: المرجع السابق.

ولقد وصفت بعض التقارير الفرنسية الاولى لقصر بوسعادة بأنه مدينة مستودع ومخزن للبضائع تستقبل التجار والفلاحين من مختلف الجهات والمناطق وهي همزة وصل بينها، ومن مواصفات هذا النوع من المدن انها تنمو وتتضخم وتمتاز بموقع يمنحها تسهيلات وامتيازات تجعل القوافل التجارية تمر بها، وهكذا كانت بوسعادة ملتقى التجار القادمين من الشمال (التل) حاملين معهم بضائعهم ومنتجاتهم مع التجار القادمين من الصحراء ليتبادلوا ما جلبوه معهم¹.

2- بوسعادة في التاريخ والرحلات

من الأمور التي تبعث على التساؤل عدم ورود اسم بوسعادة في التاريخ القديم والوسيط وكأن المدينة لم تكن موجودة، أو لا توجد بها حياة أو لمسات للبشر بها، الآثار التي يمكن البناء عليها غير موجودة، والنصوص التاريخية العائدة لفترات تاريخية قديمة أو وسيطة لا تذكر شيئاً باسمها.

لقد اكتشفت آثار قديمة تعود لفترة ما قبل التاريخ بالقرب من بوسعادة مما يوحي أن هذه المنطقة قد عاش بها الإنسان وترك آثاره على ضفاف وادي بوسعادة منذ العهد الإيبيروموريزي (Ibèromaurusien) أي منذ حوالي ثمانية آلاف أو عشرة آلاف سنة².

إن الاكتشافات الأثرية والدراسات التاريخية خاصة في الفترة القديمة بنت وجود آثار للحياة في بوسعادة ومناطقها المجاورة، وفي الفترة الرومانية نتساءل بجد هل قام الرومان ببناءات في بوسعادة مهما كان نوعها؟ (حصن عسكري، بناية دينية).

- جمال حمدان: جغرافية المدن، ط 2، عالم الكتب، القاهرة، مصر (ب ت).

1- نفسه، ص 50.

2- يوسف نسيب: واحة بوسعادة، ص 10.

من المحتمل جدا أن الرومان وصلوا إلى المنطقة وكشفوها ومروا بها مرارا لكنهم لم يقيموا بها، لأن الكتابات الرومانية تسكت عن ذكر بوسعادة وتشير وتتكلم عن المراكز التي بنوها والقلاع والحصون والأديرة وكذا النقاط التي اقيمت لدعما لخط الدفاعي الليمس مثل القاهرة، سدوري في بن سرور، والحصن العسكري في امجدل، ومدينة مسعد وموقع بير القلالية بمسيف قد مر الرومان أو استقر بعضهم بها.

ولقد دأب الكتاب الفرنسيون بمختلف مشاربهم الالهام بأن بوسعادة ذات أصول رومانية تبعا لاستراتيجيتهم الرامية إلى نسب كل شيء إليهم وبأنهم ورثتهم، فلذلك وجب عليهم استرجاع هذه البلاد¹.

ولقد أعطى البارون هنري اوكبيتان الذي زار واحة بوسعادة صيف 1858م بعد تسع سنوات من دخولها تحت الاحتلال الفرنسي معلومات لا نعرف مدى صحتها، فهو يورد بأن سي ثامر أحد مؤسسي بوسعادة توقف بالقرب من بقايا بناء مسيحي قديم. وأعاد نفس المعلومات المترجم العسكري شارل فيرو في كتابه عن تاريخ مدن قسنطينة سنة 1872².

لكن كلا الكاتبين لم يبينا المصادر التي اخذا منها ويبدو أنهما اعتمدا على ما توفره الإدارة الاستعمارية من تقارير عسكرية أضاف إليها اوكبيتان ملخصا لبعض الروايات المحلية، التي لم يبين لنا كيف جمعها وعمن أخذها، ونستنتج من خلال استعماله للتاريخ الهجري دون ذكر ما يقابله من الميلادي

1- Commandant Cauvet : l'occupation romaine de Bou-saada, Bul. Sté. Géog.'Afr. Du Nord, N°132, Alger, 4e trim, 1932, pp 457-501.

2- Aucasitain Henri : les fondateurs de Bou-Saada, Revue Africaine, 1857, Volumes 2, p 490

- Notice sur Bou-saada, Revue Africaine ,1862, Volume 6, p46.

حينما يتحدث عن العثمانيين والبايات الذين حلوا ببوسعادة أنه ربما قد يكون اطلع او اخذ وثائق دون أن يفصح عنها.

وحتى الاطلس الاثري الذي أعده ستيفن غزال حول الآثار الرومانية في الجزائر، فالورقة المخصصة لبوسعادة لا تحتوي على شيء ذو قيمة يمكن أن يعتد به، وكل ما تحويه الورقة رقم 36 عبارة عن مواقع محيطة بها، واما عن المدينة ذاتها فقد اعاد تكرار ما كتبه او كبيتان بأن البناءات الواقعة في أعلى المدينة أقيمت على حجارة مصقولة، دون أن يتثبت من الأمر أو يعطي لنا تفسيراً واضحاً لوجود هذه الحجارة، هل الرومان فقط هم الذين يحسنون صقل الحجارة¹ ؟

إلا أنه توجد كما سبق ذكره عدة مواقع رومانية هامة على بعد من بوسعادة أقيمت للتحكم في المنافذ الرئيسية المؤدية إلى الشمال حيث الأراضي الخصبة، مثل القاهرة بن سرور، وعين الريش، وحصن دميدي (مسعد) خلف جبل بوكحيل وحصن مجدل².

وعمل الرائد كوفي على إبراز التواجد الروماني في بوسعادة، معتمداً على الاشارات التي لا تصمد أمام المنطق وحقيقة الواقع، من خلال مقال مطول نشرته الجمعية الاثرية والجغرافية لمدينة الجزائر سنة 1933م، حيث عنوانه ب: الاحتلال الروماني لبوسعادة، مما يوحي للقارئ أن هناك تواجد روماني في بوسعادة³.

1- Stephane Gsell : Atlas Archéologique de l'Algérie (Texte), Jourdan, Alger, 1911, Feuille N°36.

2 - محمد البشير شنيقي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني) ومقاومة المور، ج 1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 132.

3- Commandant Cauvet, Op. Cit, p 461.

وقد ادعى أن الشواهد والآثار التي تدل على الاحتلال الروماني للمنطقة كانت موجودة وأن العرب قاموا بإخفائها واتلافها خاصة المكتوبة منها وعملهم هذا بسبب علمهم أننا نبحث عن تلك المعطيات التي تثبت حقوقنا في ملكية هذا البلد الذي احتله اسلافنا الرومان¹.

وقد بين أحد الباحثين الجزائريين من خلال دراسته السوسولوجية التي أعدها حول بوسعادة أنه لا توجد إشارات قوية تدل على أن الموقع روماني أو على استقرار الرومان به، كل ما في الأمر مجرد احتمال أن تكون مجرد نقطة عبور ومكان لراحة الجند²، وقد عنون الفصل الذي عالج فيه الموضوع بطريقة تترك انطبعا لدى القارئ من الوهلة الأولى أن الوجود الروماني في بوسعادة أمر مشكوك فيه، حيث صاغه على النحو التالي:

- Des Romains a Bou-saada³?

وفي الفترة الوسيطة أي الحقبة الإسلامية التي أعقبت الفتح وإلى غاية القرن 15م لا نجد ذكرا لبوسعادة في الأحداث التي جرت بالمنطقة أو قريبا منها (الدولة الأغلبية وقاعدتها القريبة منه طبنة) (الدولة الرستمية) (حركة أبي يزيد الخارجي) في المصادر التي تؤرخ لتلك الفترة أو من خلال كتب الجغرافيين والرحالين.

1- وقد تأسف الرائد كوفي على وفاة ستيفن غزال لأنه كان ينتظر منه أن يواصل عمله وأن يبين للناس آثار التواجد الروماني في بوسعادة، ومن جهة أخرى فقد أشار إلى أن شيخ زاوية الهامل قد ساهم من جهته في اتلاف بعض الشواهد لما كان يعمل على بناء قنوات الري في جهة عين السلطان التي أصبحت تعرف بعين سي محمد بن بلقاسم.

_ ibid, p 460,484.

2- Youssef nacib: Op.cit, p90, 91.

3- Ibid, p 78.

ولقد كان جبل سالات (يبعد عن بوسعادة حوالي 12 كلم إلى الشمال الغربي) ملجأً وحصناً لأبي يزيد الخارجي، إذ جاء ذكره في عدة مصادر، ولم نجد إشارة إلى بوسعادة، فهذا أحد مؤرخي الدولة الفاطمية يقول: «وتوجه اسماعيل في طلب أبي يزيد، وقد بلغه أنه بجبل «سالات» وهو جبل وعر شامخ دونه قفر ومغاوير ورمال ودكادك¹...».

ومن جهة أخرى، فقد ذكر ابن خلدون المدن التي مر بها المنصور الفاطمي مطارداً لأبي يزيد ولم يذكر بوسعادة: «... وبلغه أن أبا يزيد نزل بسكرة... فارتحل المنصور إلى بسكرة... وفر أبو يزيد إلى بني برزال بجبل سالات، ثم إلى جبل كتامة وهو جبل عياض لهذا العهد، وارتحل المنصور في أثره إلى جبل ومرة (مقرة) وبيته أبو يزيد هناك فانهزم ولم يظفر به وانحاز إلى جبل سالات ثم لحق بالرمال... وسار المنصور حتى نزل جبل سالات، وارتحل وراءه إلى الرمال²...».

ولقد تجول ابن خلدون في المسيلة وضواحيها وذكر بعض المناطق التي مر بها مثل الدياليم، مسيف، القطفة، لكنه لم يشر إلى وجود ما اسمه بوسعادة، وفي عبارة موجزة يتكلم عن أحد أمراء الزيانيين: «فوجده متدلياً من المسيلة إلى الصحراء، ولقيه على الدوسن» هذا ما يؤكد أن ما بين المسيلة ومدن الزاب قفار وفلاة من جهة جبل سالات³.

وفي كتب الجغرافيا والرحلات لا نكاد نجد ذكراً لبوسعادة أو بعض ضواحيها، فأغلبهم يتكلم عن المسيلة، وهاز، وطبنة، والزاب، وحتى السبخة

1 - أبي عبد الله محمد الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 38.

2 - ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 22.

3 - نفسه، ص 581، 582.

المعروفة بشط الحضنة لا يشار إليها الا نادرا¹.

فابن سعيد المغربي في كتابه الجغرافيا يقول: «والبلاد (أي) المسيلة التي حولها مجالات لعرب رياح وتمتد الصحاري في شرقها إلى أن يكون جبل رحوبة [الذي يمتد] من المغرب إلى المشرق ... ويخرج منه نهر يغوص في شمالية حيث الأرض السواخة التي هي كالصابون وطالما هلك فيها من أخذ جنوبا من بلاد الجريد وكان جاهلا بها²».

حسن الوزان يذكر عدة مدن قريبة من بوسعادة كالمسيلة، نقاوس، طولقة، الدوسن، لكنه لا يذكرها بالاسم، هذا معناه أن المدينة الحالية عبارة عن ضيعة صغيرة بدون أهمية وغير معروفة أو الأكثر احتمالا أنها لا تضم أو لا تحوي تجمعاً سكانياً، ومن جهة أخرى، فهو يتكلم عن العرب الذين يشغلون الصحراء المجاورة لمملكة تلمسان وتونس، ومن المحتمل جدا أن تكون هذه الصحراء هي قفار بوسعادة³.

وأول ذكر على ما يبدو لبوسعادة كان على يد الرحالة الإنجليزي الدكتور شو في القرن 18م وذكر معها بعض المناطق المحيطة بها، حيث يبين أن بوسعادة هي اسم لعدة دشور (دشرة - قصر) حيث يعتمد السكان في عيشهم كثيرا على التمر⁴.

1 - ابن عبيد البكري، المصدر السابق، ابن حوقل: كتاب المسالك والممالك، مطبعة ليدن، ألمانيا، 1872.

2 - ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 126.

3- حسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

- Youssef Nacib: Op. Cit, p158.

4- Thomas Shaw: Op. Cit, p171.

3- الرواية الشفهية وتأسيس مدينة بوسعادة

أن الضباط الفرنسيين الذين كتبوا في بدايات الاحتلال عن تاريخ الجزائر اعتمدوا على مصادر اهلية وهي على نوعين مكتوبة وشفوية، فالمكتوبة منها تتمثل في وثائق العائلات الكبيرة وعقود الملكية ومذكرات رجال العلم، أما المصادر الشفهية التي اعتمدوا عليها كانت كثيرة مكنهم من تسجيل قصص وأحداث من مختلف المشارب والانواع¹.

رغم تعدد الروايات الشفوية التي تتكلم عن نشأة مدينة بوسعادة إلا أن جميعها تتفق في الكثير من الاشياء وتختلف في بعض التفاصيل ومعظمها دون من طرف الرحالة الفرنسيين الذين زاروا المنطقة او من طرف الضباط الفرنسيين العاملين بها الذين جمعوا معلومات حول المدينة، وتختلف هذه الرواية عن تلك التي جاءت في بعض الاوراق المخطوطة من مصادر محلية تتكلم عن تاريخ بوسعادة.

إلا أن ما يلاحظ على هذه الروايات هي افتقادها لعناصر الوحدة الموضوعية ونجمل تماما الظروف التي تم فيها استقبالها، بالإضافة إلى أن الزمن فيها غير واضح ولا فرق بين الزمن الخرافي والزمن الواقعي والرابط بين أجزاء الرواية هو حرف الواو فقط².

4- الشفهي بأقلام فرنسية

من بين الروايات الأولى - وهي مثقلة الاسطورة والخرافة - تلك التي تلقاها البارون هنري اوكبيتان في بوسعادة سنة 1857م ونشرها في المجلة الإفريقية من نفس السنة تحت عنوان مؤسسو بوسعادة، ملخص روايته أن المنطقة

1 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، القسم 1 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 22.

2- Nadir marouf: lecture de l'espace oasien ,Sindabad, Paris, 1980,p 49.

الممتدة بين الحضنة وجبال أولاد نايل هي ملك لرجل يدعى بلوحش زعيم قبيلة البدارنة، وأنه خلال القرن 06 هـ وصل إلى سفح جبل امساعد شريف يدعى سليمان بن ربيعة ما لبث أن لحق به عالم آخر درس بفاس، وصل إلى المنطقة وأقام بموضع حجارة مصقولة من بقايا آثار بناء مسيحي قديم وقريبا منه الواد الدائم الجريان، فقام بطرد الثعالب من المكان بمساعدة رجال سي سليمان قام ببناء بيت لتعليم الناس القرآن ودراسة الكتب وللتفكير والتأمل. البدو المتريدين على المنطقة من اولاد ماضي وأولاد نايل استقروا بالمنطقة وقاموا ببناء مساكن حول بيت سي ثامر ليستفيدوا من علمه، البدارنة تخلوا عن ملكيتهم للمكان مقابل 45 جمل و45 ناقة، بعدها شرع سي سليمان وسي ثامر لبناء المسجد¹.

ومن جهة أخرى ترك لنا الرحالة دي غالون رواية استقاها من القائد الأعلى لدائرة بوسعادة، مفادها أنه خلال القرن 5 هـ قدم من تافيلالت رجل دين يدعى سليمان بن ربيعة توقف على بعد 2 أو 3 كلم من المدينة الحالية وقام ببناء بعض المنازل له ولأقاربه، بعد مدة من الزمن لحق به سي الدهيم اصيل المدية، في هذه الاثناء ظهر في المنطقة سي ثامر ليهما، وتقدمه الرواية على أنه زعيم عصابة متعود على حياة الترحال و المغامرة التقى سي سليمان الذي أقنعه بالعدول عن ذلك، والتوبة إلى الله، انطلق الرجال الثلاثة بحثا عن مكان خصب للاستقرار به فتوقفوا بالموضع الحالي لقصر بوسعادة، حيث كان مليئا بالأشجار التي خرجت منها ذئبة وعوض أن تفر تقدمت منهم، فأدركوا أن في الأمر معجزة الهية وكرامة ربانية، فبادروا إلى بناء المنازل

1-Aucapitaine Baroun Henri : les Fondateurs de bou-saada, in revue africaine, N°2, p 490,491.

والمسجد¹ .

وتصف الرواية البدارنة على أنهم قطاع طرق وأن مضاربهم بجبل كردادة وحتى يسلم الحي الجديد من غاراتهم منحوهم 90 ناقة، فاخفى البدارنة من المنطقة وتحولت منازلهم إلى خرائب وأثار² .

ويقدم رحالة آخر زار مدينة بوسعادة سنة 1899م رواية مغايرة لما سبق وتبدو عناصرها مضبوطة، حيث تفيد بأن البدو المنتجعين في المنطقة تعبوا من الحل والترحال ولما توقفوا للاستراحة على حافة الواد، اعجبهم المكان وبقوا فيه، إلى أن وفد عليهم نحو القرن 6 هـ الأولياء الثلاثة (الشريف سليمان بن ربيعة والطالب سي ثامر، وسي الدهيم)، الذين استقروا مع البدارنة وسارعوا إلى بناء المسجد. الرحالة تلقى هذه الرواية من أحد أعيان المدينة القائد الطيب بن محمد بن قويدر³ .

ويرى كوفي أن المكان الذي توجد به واحة بوسعادة هو ملك لقبيلة عربية تدعى البدارنة وزعيمهم يسمى بلوحش، يعيشون في حالة من الرخاء والسعادة، ومن أجل شكر الله حمده على النعمة التي وهبها إياهم دعوا الله أن يرسل إليهم وليا من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم يقيم بينهم ويعلمهم الدين وأحكامه.

خلال القرن 12م وفد عليهم رجل من الساقية الحمراء استقبلته القبيلة بالترحاب والتبجيل، اسمه سليمان بن ربيعة الذي كان يتنقل بين دواوير المنطقة وقراها أعجب بالمكان الذي نزلت به قبيلة البدارنة، فأقام خيمته

1- De Galland : Excursion à Bou-Saada et M'sila, Ollendorf, Paris, 1899, p31.

2- ibid, p32.

3- Paul Eudel: D'Alger à Bou-Saada, Challamel, Paris, 1904, p116.

بينهم بسفح جبل امساعد بعيون الدفلة¹ .

بعد مدة لحق به سي ثامر الذي وصف بأنه مغامر ومحترف للسلب والنهب وبلقائه سي سليمان تحول سلوكه إلى رجل صالح، ويرى كوفي أن سي ثامر وسي سليمان أن مجيئهم إلى المنطقة كان بمحض الصدفة وربما كانا في سفر وأعجبهم المكان الذي نزلوا به وسط قبيلة البدارنة، حيث عاشا معهم في تفاهم وتفرعا للعبادة وتعليم الناس حتى ذاع صيتهما، وأصبحا الرجلين محل زيارات من طرف القبائل المحيطة بالمكان² .

وبما أن المكان الذي استقروا به لم يعد يتسع لهما ولطلبتهما خرجا بحثا عن أراض خصبة بديلة فانتخوا إلى الموضع الحالي الذي به بوسعادة، فشرعوا في بناء المساكن والمسجد وذلك بعد أن دفعوا للبدارنة أصحاب الأرض 45 ناقاة و 45 جمل وغرسوا النخيل³ .

ويرى فونتان أنه حدث جفاف مس المنطقة أدى إلى هلاك الإنسان والحيوان والذين نجوا واصلوا البحث عن مكان يجدون فيه ما يسد رمقهم ويروي عطشهم، فانهيروا بما وجدوا من الماء والخضرة، أخذوا ما يلزمهم وعادوا ليخبروا البقية ليلتحقوا بهم وأشاروا عليهم بأن هناك مصدر للسعادة ينتظركم فسارع الجميع للاستقرار في المنطقة⁴ .

خلال القرن 5 هـ شريف يدعى سليمان بن ربيعة قدم من تافيلالت أعجب بالمكان الذي وجدته، استقر به وبني مساكن له ولأقاربه، ثم جاء شخص آخر من المدينة يسمى سي الدهيمي استقر معه، بعد مدة لحق بهم سي ثامر الذي

1- L. Lehureau: Bou-Saada Cité du Bonheur, Édition Baconnier, (S.D), p 14,15.

2- L. Lehureau: Op.Cit,p,15,16.

3- Idem : p15,16.

4- Pierre Fontaine : Bou-Saada Porte de Désert, Edition Dervy, Paris,1952, p 17.

كان رئيس عصابة ولكن العناية الإلهية جعلته يتوب على يد سي سليمان، هؤلاء الاشخاص الثلاثة لم يبقوا في العوينات بل تقدموا مع مجرى الوادي بحثا عن مكان خصب للاستقرار به فوصلوا إلى الموضع الحالي الذي أقيمت عليه المدينة، حيث خرجت من بين الأغصان ذئبة تقدمت منهم طالبة الاستقرار، فأدركوا أنها منحة ربانية ومعجزة من الله وكرامة فشرعوا في بناء المساكن والمسجد¹.

ويضيف هذا السائح الأوروبي أن بوسعادة بنيت من طرف قبيلة شبه بدوية تسمى بني سعادة، مستقرة منذ مدة في منطقة عين خرام².

5- الشفهي بأقلام جزائرية

تفيد الرواية المحلية التي جمع عناصرها من عدة روايات بأن أول من أم بوسعادة هو الولي الصالح سيدي سليمان بن عبد الرحمان الملقب بريعة، اختلف في أصله فمن قائل أنه قدم من ناحية تافيلالت، ومنهم من قال أنه من جهة عين الريش، ومن قائل أنه منحدر من منطقة ونوغة، نزل بالموضع المسى الاعوينات، حيث بنى فيه منزلا، وأسس فيه زاوية، وانتصب لتلقين الأوراد وتعليم القرآن، والصلاة على الجنائز، وافتاء السائلين عما يسألون في أمر دينهم³.

في هذه الجزء الأول من الرواية الزمن غير واضح وغير معلوم وعكس الجزء الثاني من الرواية التي تفيد بقدم سيدي ثامر رفقة كل من سيدي ادهيم ومولاه ميمون في نهاية القرن 14م إلى بوسعادة واستقبالهم من طرف

1- Pierre Fontaine : Op. Cit, p 20,21.

2- ibid : p25.

3 - خليفة محمد بن الزروق: ارشاد الحائر إلى ما علم من أحوال بوسعادة وأخبار سيدي ثامر، دراسة وتحقيق محمد بسكر، دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة، الجزائر، 2014، ص 141، 143.

سيدي سليمان بعد مدة كثر أتباع الشيخ وتلامذته فبادروا إلى بناء مسجد ومساكن من حوله ثم اتصلوا بابن وهاس زعيم قبيلة البدارنة الذي طلبوا منه أن يتمازل أو يسمح لهم بإقامة مساحات مزروعة على مياه الوادي فتنازل لهم عن ذلك مقابل شيء معلوم¹.

أن المنطقة الممتدة بين شط الحضنة جنوبا وجبال أولاد نايل شمالا كانت منتجعا لقبيلة البدارنة تتجول فيه قطعانها من حين لآخر، وخلال القرن 15م قدم من الساقية الحمراء سيدي سليمان الذي التقى سيدي ثامر صدفة في مكان غير بعيد عن الواحة، سيدي ثامر الذي يتمتع بإرادة وعزيمة وقوة في الحرب أعجب بالسمات الروحية والصفات الأخلاقية لسيدي سليمان فتبعه².

لاحظ البدارنة الخصائص التي يتمتع بها الرجلين فسمحا لهما بالإقامة بينهم وأقطعوهما الأرضية التي أقيمت عليها المدينة، شرع سيدي سليمان في تعليم القرآن للبدارنة وسيدي ثامر بادر إلى بناء المسجد وبعض المنازل ثم قام بغرس النخيل³.

ومن جهة أخرى تقدم الرواية المحلية سيدي ثامر كقائد حربي أنهكته المعارك والحملات العسكرية التي خاضها في الاندلس ضد الإشبانيين وضد المرينيين فتوغل في الداخل الجزائري بحثا عن مكان بعيد معزول عن العالم ليرتاح فيه ويبدأ حياة جديدة⁴.

1 - خليفة محمد بن الزروق: المصدر السابق، ص 146، 143.

2- youssef nacb: Op. Cit, pp 146,147.

3- ibid, p147.

4- idem, p147.

الأسطورة تضيف بأنه وصل تلمسان ومنها انتقل من مكان إلى مكان إلى أن وجد نفسه صدفه أمام سيدي سليمان في جهة عين الملح في المكان المسمى شجرة الطلبة، الذي رافقه إلى بوسعادة وهناك شرعا في بناء المسجد والمنازل وبدأ الرجلين يشعان بعلمهما على المنطقة¹.

الملاحظ على كل مدن الحضنة أنها تنتسب إلى ولي حتى تنتسب مع ثقافة العصر الذي أنشئت فيه، فالمسيلة أنشئت من طرف سيدي أبوجملين الذي قام ببناء مسجد في المكان الذي برك فيه الجميلين، وهذه الحادثة هي اقتداء بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قام ببناء المسجد النبوي الشريف بالمدينة في الموضع الذي بركت فيه ناقته².

6- النخيل ونشأة بوسعادة

أمام غياب النصوص التاريخية والادبية التي تتحدث عن تاريخ نشأة مدينة بوسعادة وعجز الروايات الشفوية الممزوجة بالأسطورة لجأ يوسف نسيب إلى طرح السؤال هل وجدت الواحة قبل السكان؟ أم أنها هي من عمل السكان الأولون لبوسعادة؟

يعتقد بأن الواحة هي من عمل الإنسان وأن تاريخ هذه النخيل هو جزء من تاريخ نشأة، فشرع في دراسة إعمار نخيل بوسعادة - علم دراسة النخيل Phoeniciculteurs- لفحص علامات الكبر(العجز) ليساعدنا على تحديد وتقييم عمر النخيل لمعرفة ظهور وبروز المدينة على اعتبار أن الأثر الشفوي أقل مصداقية³.

1- Youssef nach: Op. Cit, p148.

2- Paul Massiera: M'sila du Xe au XVe siecles, Bul. Sté.H. Géog. De Sétif,

3- Youssef nacibe : Op.Cit, p 155.

- عبد اللطيف تامر: التكلم اللهجي عند قبيلة اولاد نايل «دراسة صوتية دلالية»، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علم اللهجات، ص 14.

ومن الملاحظات التي سجلها انطلاقاً من التقارير الأولى لقادة الحملات العسكرية التي اجتاحت بوسعادة بأن نخلها ناضجاً ومثمراً ومستهلكاً وله عدة استعمالات، فالأبواب من جذوع النخيل الصلبة التي لا تقطع ولا تحرق إلا بصعوبة، وأحياناً تستعمل الجذوع في سقوف المنازل¹.

وفي كتاب الرحالة الإنجليزي الذي ظهر في النصف الأول من القرن 18م يشير إلى شهرة تمر بوسعادة وأنه يباع في أسواق التل والهضاب، وحتى يصبح التمر قابلاً للتسويق وسلعة تجارية يجب على الأقل أن يكون أكثر من قرن على وجه الاحتمال من غرس النخل حتى يصبح ناضجاً ومثمراً وطيباً².

وأضاف الدكتور شو معلومات حول مراحل نمو النخلة استقاها من الفلاحين أنها تبلغ وتنضج بعد ثلاثين سنة من غرسها وتعطي أكثر من 15 إلى 20 عرجونا لأكثر من سبعين سنة، بعد هذا تبدأ علامات الكبر والعجز تظهر عليها إلى أن تموت شيئاً فشيئاً قبل مائتي سنة³.

وأصحاب الواحة هم في حاجة على الأقل لحقبة زمنية ليس فقط من أجل ترويج وادخال التمر في الاستهلاك اليومي للمدينة، ولكن لتحسين النوعية وجودة الانتاج والتقنيات الفلاحية، وعلى هذا الأساس يمكن القول إن بدايات القرن 16م بدأ سكان الواحة في غرس النخيل⁴. أن هذه المقاربة تعطي بدون شك نتائج معتبرة حول نشأة مدينة بوسعادة، فتحديد عمر النخيل هو قريب من فترة تأسيس المدينة، وبالتالي تستبعد تلك الادعاءات التي تقول إنها تأسست في القرن 12م⁵.

1- Youssef Nacib: Op. cit, pp. 155,156.

2- Thomas Shaw: Op. Cit, p.171.

3- ibid

4- Youssef Nassib: Op. Cit, p. 158.

5- عبد اللطيف ثامر: المرجع السابق، ص 14.

وهناك مصدر آخر وجبت الإشارة إليه، حيث يذكر حسن الوزان في كتابه الذي ظهر سنة 1550م، أن إنتاج التمر كان مزدهرا، لا يذكر بوسعادة لكنه يعطي عبارة تحتل عدة أوجه فهو يقول: «بعد الأطلس التلي نجد سهول نوميديا حيث النخيل، أنها البلاد الرملية» من يكون هذا السهل¹؟

مع العلم أنه يحدده بعد السلسلة التلية باتجاه الجنوب، من يكون هذا البلد الرملي في حدود الإقليم؟ الجلفة لا تنطبق مع الخصائص المحددة في النص، الأغواط ونخيل الزيبان بعيدان، المدن والقرى القريبة من الجزائر ليس لها نخل، تبقى سهوب الحضنة، كثبان ونخيل بوسعادة².

وترك لنا الفرنسي البارون هنري اوكيبتان معلومة مهمة عن نشأة مدينة بوسعادة، فهو يخبرنا نقلا ولا شك عن كبار فرقة الموامين أنهم استقروا بالواحة منذ قرنين ونصف (250 سنة) قادمين إليها من الجنوب (الهجرة ورقلة)، ويستنتج من هذا أن المدينة او الواحة موجودة وبنيت منذ فترة، وقد نشر اوكيبتان معلوماته حول بوسعادة في المجلة الإفريقية سنة 1857 م مما يفيد أنهم استقروا بالمنطقة سنة 1657³ م.

إذن استقرارهم ببوسعادة يفيد أن المدينة والواحة موجودتين منذ فترة من الزمن، وقد قاموا ببناء حارتهم الخاصة بهم في الجزء السفلي من المدينة، وأنهم قد واجهوا عدة صعوبات مع بقية فرق بوسعادة⁴.

1- حسن الوزان: المصدر السابق، ص 50.

- عبد اللطيف ثامر: المرجع السابق، ص 15.

- youssef nacib: op.cit, p158.

2- youssef Nassib: Opacit, p. 158.

3- Aucapitaine Henri : Les Fondateurs de Bou-Saada, p. 491.

4- idem.

ويبدو من خلال ما سبق أن ترجيح ظهور بوسعادة في نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م أمر مقبول، وما سكوت ابن خلدون وابن بطوطة عنها يبين ربما أن الواحة بدأت في الظهور منذ نهايات القرون الوسطى أو مع بدايات القرن 15م، وتصادف ذلك مع بدايات الوجود العثماني بالجزائر، ونزوح المسلمين عن الأندلس¹.

ومسألة بناء بوسعادة لا يتوقف أو لا يقتصر فقط على دور الوليين الصالحين بل يفيد بوجود نواة لمدينة اقيمت من طرف البدارنة الذي استقبلوا الوليين.

7- تسمية المدينة

دأب الفرنسيون في حديثهم عن القطر الجزائري إثبات مختلف أسماء المدن والمواقع والحصون بأنها رومانية في إشارة خفية تحمل نزعة استعمارية مفادها أن الحضارة أو المدنية في بلاد الجزائر بدأت فقط مع التواجد الروماني، واجتهدوا في إثبات ذلك، وعلى غرار هذا النهج سار بعض الجزائريين أحيانا على هذا النحو للتمايز والتباهي بعراقة مدينة أو موقع دون الانتباه إلى تحديد البدايات أو ربط تاريخ الجزائر القديم بالاحتلال الروماني.

سميت المدينة ببوسعادة ولحد الساعة لا يعرف سبب ذلك، والتفسيرات التي قدمت أغلبها لتعليل ذلك مرتبطة بروايات محلية مشبعة بالخرافة، لا يمكن الاطمئنان إليها.

ولقد لا حظ العديد من الذين كتبوا عن اشتقاق اسمها أن ذلك متعلق بذهنية الانسان العربي ذو المخيال الشرقي الذي يحب أن يجعل كل شيء حوله ينبض بالشاعرية والروعة والعجائب حتى في الاسم أحيانا، لأن كل اسم مكان، قرية، نقطة مياه، إلى غير ذلك تأخذ أصولها من الأسطورة التي تنتقل

1- youssef Nacib: Op. Cit, p.158,159.

من جيل إلى جيل حتى تكتسب حق الإشارة اليها في التاريخ المحلي، وبوسعادة لا تستثنى من هذه القاعدة¹.

هناك رأيين لتبيين أصل كلمة بوسعادة فهناك مخلفات الرواية المحلية التي دونها مختلف الكتاب الاجانب دون تمحيص ونقد، والتي تشير إلى رغبة مؤسسو المدينة في منحها اسما يدل عليها فاختلفوا في ذلك إلا أن نقاشهم أوصلهم إلى الاتفاق على تحكيم أول من يقدم عليهم، في هذه الأثناء مرت بالقرب منهم قافلة خرجت منها أمة سوداء تبحث وتنادي عن كليتها باسم سعادة، سعادة، فظهر لهم أن هذا اسم طيب وجميل وذو وقع حسن فاتفقوا على تسميتها بـ أبو السعادة².

غير أن بعضهم استبعد تماما مثل هذا الطرح خاصة وأن الأمر يتعلق بأولياء الله الصالحين، وكيف لهم أن يتفاءلوا بظهور حيوان في أحكام الدين نجس ومدنس، وهل عجزوا أن يعطوا اسما لمدينتهم، إن هذا من الأمور المستبعدة³.

ويرفض بعض الكتاب الفرنسيين هذا الطرح بحجة أنه أسطورة ولا توجد فيها عناصر حقيقة تدعو إلى الأخذ بها، ويعتبرون أن أصل الكلمة يعود إلى الفترة الرومانية مثله مثل المدينة التي لم تكن من بناء العرب وأن اسمها هو تحريف لاسم بوفادة Buffada جريا على عاداتهم الذين يحول كل شيء في المناطق المفتوحة إلى أسماء ذات دلالات عربية، وأن بعض رجال الدين المسيحيين يعتقدون أن بوسعادة على الطرف الجنوبي الشرقي للهضاب العليا،

1-L. Lehureau : Op. Cit, p.14.

2- Aucapitaine Henri : notice sur bou-saada, p.47.

3- خليفة حاج محمد: الإفادة بما علم من اخبار بوسعادة ويليهِ إرشاد الحائر إلى ما علم من أحوال بوسعادة وأخبار سيدي ثامر، دراسة وتحقيق محمد بسكر، دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة، الجزائر، 2014، ص، 129.

والتي احتلت من طرف روما، الجزء العلوي من المدينة اقيم على بقايا حصن روماني¹.

ويضيف هؤلاء أن من بين الاسقفيات التي لم يتم التعرف عليها في نوميديا وموريطانيا السطايفية اسقفية بوفادة Buffada وأن الاسقف Crescens الذي يسيرها كان حاضرا مع الاساقفة والاحبار في اجتماع قرطاج سنة 484، وأنه تظهر في نفس القائمة أسقفية Eddistionensis، والتي يفترض أن تكون المنطقة المجاورة لبوسعادة وهي الديس².

وهناك من يرى أن اسم مدينة بوسعادة هو تيمنا وتبركا بسيرة المصلح سعادة الذي ظهر في طولقة وواحات الزاب³.

وعلم أسماء الأماكن toponymie لا يعطينا في الوقت الحاضر إجابات شافية عن تسمية بوسعادة وسبب وصفها بالسعيدة، أن هذا الأمر قد قادنا إلى ملاحظة بتسمية بعض الأماكن في المنطقة، فغير بعيد عن مدينة بوسعادة توجد كتلة جبلية ضمن سلسلة جبال أولاد نايل تعرف باسم جبل أم ساعد (امساعد، مساعد)، وشط الحضنة في بعض مناطقه يعرف لدى السكان المحليين بالسعيدة (سعيدة أولاد ماضي).

1- Commandant Cauvet :Op.Cit, p.490,

- Commandant Cauvet , Les Marabout Petit Monument Funéraires et Votifs du Nord d l'Afrique, in revue Africaine ,N°64/1923, p.461,462.

- L. Lehureaux : Op. Cit, p.20.

2- Commandant Cauvet : l'occupation Romain à Bou-Saada, pp.490,492.

3- خليفة حاج محمد: الافادة بما علم من اخبار بوسعادة ويليهِ ارشاد الحائر إلى ما علم من احوال بوسعادة واخبار سيدي ثامر، دراسة وتحقيق محمد بسكر دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة، الجزائر، 2014، ص 127، 128، الهامش رقم 4.

وإلى الجنوب من مدينة بوسعادة بولاية الجلفة مدينة كبيرة وعريقة تسمى مسعد (أم السعادة) وأن هذه التسمية قد منحت لها من طرف ساكنيها الأوائل بنفس الطريقة التي سميت بها بوسعادة مع اختلاف الحاليتين، الرواية بالنسبة إلى بوسعادة نسبة إلى كلبة وفي مسعد نسبة إلى امرأة، مع العلم أنه قد وجد بها حصن روماني Castellum Dimmidi¹.

وهناك من يفيد بأن اسم بوسعادة مرتبط بالموقع الجغرافي، حيث تحدها الكثبان الرملية القاحلة من جهة، ومن جهة أخرى الجبال الجرداء، في منظر حزين، ثم تكتشف واحة تتوفر على كل عناصر الحياة مثل الأرض الموعودة بظلالها ومياهها المتدفقة².

وما يوفره واديها من مياه وظلال أشجار مثمرة لمسافرين ورحل أضنانهم بعد المسافة والطريق كل هذه الظروف تهيئ محطة للراحة بامتياز تبعث في النفس الغبطة والابتهاج والسعادة، لاسيما أن الأماكن التالية: بوسعادة، جبل ام ساعد، مسعد، السعيدة، بن الزوه، كلها عبارة عن مساحات غنية بالمياه والخضرة والثمار الطيبة.

قائمة المصادر والمراجع

* المصادر العربية

ابن بطوطة: تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط1، المطبعة الخيرية، 1322 هـ.

ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت لبنان، (ب.ت).

ابن حوقل: كتاب المسالك والممالك، مطبعة ليدن، ألمانيا، 1872

ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسعى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، ج 2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000.

ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

1- Mohand-Akli Haddadou : Dictionnaire toponymique et historique de l'Algerie, Editions Achab, Alger, 2012, p-p.19,408.

2- De Galland: Op.Cit, p.32.

أبي عبد الله محمد الصنهاجي: اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق جلّول احمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

ابي عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، مصر (ب ت).
حسن الوزان: وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

حسن الوزان: وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

خليفة حاج محمد: الافادة بما علم من اخبار بوسعادة ويليّه ارشاد الحائر إلى ما علم من احوال بوسعادة واخبار سيدي ثامر، دراسة وتحقيق محمد بسكر دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة، الجزائر، 2014، ص، 129.

خليفة محمد بن الزروق: ارشاد الحائر إلى ما علم من أحوال بوسعادة وأخبار سيدي ثامر، دراسة وتحقيق محمد بسكر، دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة، الجزائر، 2014.

مارمول كاربخال: افريقيا، ترجمة محمد حجي واخرون، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 1984.

*المصادر الاجنبية

- 1- Aucapitaine Hen : Notice sur Bou-saada, Revue Africaine ,1862, Volume 6.
- 2- Aucapitaine Henri : les fondateurs de Bou-Saada, Revue Africaine, 1857, Volumes 2.
- 3 - Commandant Cauvet : l'occupation romaine de Bou-saada ,Bul. Sté. Géog.'Afr. Du Nord, N°132, Alger, 4^e trim, 1932.
- 4- Commandant Cauvet , Les Marabout Petit Monument Funéraires et Votifs du Nord d l'Afrique, in revue Africaine ,N°64/1923.
- 5- De Galland : Excursion à Bou-Saada et M'sila, Ollendorf, Paris, 1899.
- 6- M. Fabre : Voyage par terre de T'aza à Tunis, Tom IX, in Exploration scientifique de l'Algérie, Imprimerie Royale, Paris, M DCCC XLVI.
- 7- Paul Eudel: D'Alger à Bou-Saada, Challamel, Paris, 1904.
- 8- Sid Ahmed —Oulid —Bou-mezrag: Itinéraire et renseignement rout de Taza à Bou-saada , , in Exploration scientifique de l' Algérie , Imprimerie Royale ,Paris, M DCCC XLVI.
- 9- Stephane Gsel : Atlas Archéologique de l'Algérie (Texte), Jourdan, Alger, 1911, Feuille N°36.
- 10- Thomas Shaw : voyage dans la régence d'Alger au 18 siècle, traduit de l'anglais par E. Mac Carty (1830) liminaire et notes critiques supplémentaire par Abderrahmane Rehabi, éditions grand Alger livres, Alger, 2007.

*المراجع باللغة العربية

- ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ط 2، مج 1، ج 1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 2005.
ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، القسم 1 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

ارنست غلنز: مجتمع مسلم، ترجمة ابو بكر احمد باقادر، ط 1، دار المدار الاسلامي، بيروت، لبنان، 2005.
الشريف كمال دحومان الهاشمي: اشرف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

بشير التجاني: التحضر والتهيئة العمرانية في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (ب، ت).
جمال حمدان: جغرافية المدن، ط 2، عالم الكتب، القاهرة، مصر (ب، ت).
عبد الاحد السبتي، حليلة فرحات: المدينة في العصر الوسيط قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الاسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1994.

علي حملاوي: نماذج من قصور منطقة الاغواط دراسة تاريخية وأثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006.

محمد البشير شنيقي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني) ومقاومة المور، ج 1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.
مصطفى عباس الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية والاسلامية، دار الرشيد للنشر، العراق، 1982.

يوسف نسيب: واحة بوسعادة.

*الرسائل الجامعية

- محمد جودي: المسكن الإسلامي في القصور الصحراوية بالجزائر دراسة تحليلية مقارنة لقصور مزاب وورقلة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم تخصص علم الآثار والمحيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة ابي بكر بلقايد تلمسان، الموسم الجامعي 2013 - 2014 م (غير منشورة).
- عبد اللطيف تامر: التكلم اللهجي عند قبيلة اولاد نايل «دراسة صوتية دلالية»، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علم اللهجات.

*الملتقيات

- لخضر بوطبة: جوانب من الحياة الاجتماعية للمجتمع الجزائري خلال العهد العثماني من خلال الرحالة الانجليزي طوماس شو، ص - ص 187، 195، بحث مقدم في الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 12-13 هـ / 18-19 م من خلال المصادر المحلية، يومي 24 - 25 جانفي 2012، المركز الجامعي بالوادي.

*المراجع باللغة الاجنبية

- L. Lehureau: Bou-Saada Cité du Bonheur, Édition Baconnier, (S.D), p 14,15.
- Mohand-Akli Haddadou : Dictionnaire toponymique et historique de l'Algerie,
- Nadir marouf: lecture de l'espace oasisien ,Sindabad,Paris,1980,p 49.
- Paul Massiera: M'sila du X^e au XV^e siecles, Bul. Sté.H. Géog. De Sétif,
- Pierre Fontaine : Bou-Saada Porte de Désert, Edition Dervy, Paris,1952, p 17.
- Editions Achab, Alger, 2012, p-p.19,408.

جدلية مسار العلاقات الجزائرية العثمانية بين التبعية والتحالف

✉ أ.د. حميدي أبوبكر الصديق

جامعة المسيلة

hamidiboubakeur@yahoo.fr

مقدمة

تباينت الكتابات التاريخية التي تدور حول العلاقات الجزائرية العثمانية من توصيف هذه العلاقة بالاحتلال أو التبعية أو التعاون والتحالف وما ينجر عنه حول قضية التبعية والاستقلال عن الدولة المركزية، ويبدو أن الكثير من الدراسات تحتاج إلى تحديد منطلقات أساسية للخوض في هذا الموضوع، طبيعة القدوم العثماني، الظروف السياسية المحيطة، مسارات تطور العلاقة مع الدولة العثمانية، وظيفية الدولة الجزائرية بين تجسيد التبعية أو تشكيل كيان له خصوصياته.

وبين التبعية والتحالف يتم النظر في الشرعية الدينية والسياسية للعثمانيين، فالرأي القائل بالشرعية يساند إلى طبيعة الدخول والبعد الديني والحاجة إلى الحماية من الخطر الخارجي، وهو ما أكسب الأتراك القادمين صفة الجهاد والدفاع عن دار الإسلام والافتقار والقوة وعزز ذلك القبول العام من المجتمع الذي رحب بهم وحررهم من الإسبان وعبر عن هذا التوجه وجهاء المجتمع أمثال ابن القاضي الذي قال لعروج وأخيه: "إن بلادنا بقيت لك ولأخيك أول للذئب"، وكذلك في الرسالة التي بعث بها أعيان مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1517م يظهرون فيها ولاءهم ورغبتهم في الطاعة والانضمام "نحن لزاماً أموركم وطاعتكم مستبشرون وعليكم لا محالة اعتمادنا، فقد أطعنا أمركم. ونفس الموقف لأعيان قسنطينة في رسالة

لسليمان القانوني حول طاعة صالح رايس.

وبالتالي فالراية الإسلامية في نظر الجزائريين في هذه المرحلة تمثلها القوة العثمانية، ومن ثم وجب الانضواء تحتها لحماية البلاد والعباد وهي التقاليد السياسية التي سار عليها العرف الإسلامي قبلها، حيث كانت الكيانات العرقية والثقافية والجغرافية ضعيفة أمام الرابطة الإسلامية وخاصة في مثل هذه الظروف.

وإن كان أصحاب هذا التوجه يجعلون من الحكم العثماني فرصة لتوحيد البلاد سياسيا وحققت استقرارها حتى وإن احتكروا السلطة وأن الإجحاف والظلم هو تصرف سلطة الذي قد يمارسه حاكم وطني

وهناك أصحاب الرؤية المعاكسة الذي يجعل منه حكما استبداديا استعماريًا وفي غالبيتهم متأثر بالكتابات الأوروبية وبالمناهج الأوروبي وبإسقاط الواقع الحالي على معطيات الماضي، وأحيانا تخفي هذه الكتابات ميولا سياسية واستعمارية لتبرر للاحتلال الفرنسي فيما بعد ونافيا أي كيان للجزائر في ظل الحكم العثماني، وقد أخذ بعض المشاركة بهذا المنهج.

ويتجلى أن الطرح المتوازن هو أن الدولة الجزائرية لها خصوصيتها وحكومة لها سياستها ظهرت بعامل التحدي في غرب المتوسط وفرضتها الظروف الداخلية والخارجية، وساهمت في حماية أقطار المغرب العربي. وتمثل نموذجا للدولة المستقلة في ظل الشرعية العثمانية، والوحدة من خلال التنوع، والخصوصية في إطار التكامل.

ضمن هذه الأفكار والجدليات المطروحة نتوجه بالنقاش لمعالجة هذا الموضوع الهام هل كانت التبعية؟ أم التحالف؟ أم الخصوصية؟ ونعتقد أن منحنى هذه القضية يجد طريقه من خلال توجه الباحثين المعاصرين بتكليف النقاش والكتابة وفق الظروف السياسية والدينية لتلك المرحلة، وليس

بذهنية الحاضر.

أولاً: الحكم العثماني بين النقد والتمجيد

إن تسليط الضوء على أهمية العلاقات التاريخية والحضارية بين الجزائريين والأتراك في العصر الحديث يساعدنا على الفهم الإيجابي للتاريخ الذي من خلاله يمكن اليوم تأسيس علاقات تعاون متينة في مختلف الميادين والنظر للمستقبل بإيجابية على غرار الماضي الذي تجسدت فيه ملامح الانسجام والتوافق والتعاون والنصرة وتبادل الأدوار في حوض البحر الأبيض المتوسط، وإجمالاً يمكن تسجيل السمات التي ميزت المرحلة العثمانية بالجزائر.

- أن العلاقة القائمة بين الجزائريين والأتراك كانت منطلقاتها قائمة على الاستنجاد وليس الغزو أو التدخل العسكري على غرار بعض الدول الأخرى.
- الوحدة العقدية السنية. المالكية والحنفية. التي شكلت نموذجاً للتعايش بين المجتمعين دون سعي طرف لاحتواء الآخر أو إلغائه.
- مبدأ الثقة والولاء جعل الأتراك يهتمون بالبحر والوقوف في وجه الأوروبيين دون التركيز على الداخل.

- ظاهرة الاندماج الاجتماعي من خلال الزواج مع الجزائريات وميلاد عنصر وسيط دعم من روابط العلاقة الدموية - الكراغلة -
- التكامل والنصرة في مواجهة الهجمات الأوروبية فالأسطول الجزائري هو الأسطول الوحيد في العالم العربي، الذي ظل يقف إلى جانب الخلافة العثمانية ضد الحملات الأوروبية ومعركة نافارين 1827 كآخر نموذج لذلك قبل احتلال الجزائر.

- رغم بعض الخلافات وبقاء العنصر التركي متميزاً واستثنائه بالحكم والتقصير في بعض الجوانب العلمية لكن التوافق بين المجتمعين ظل قائماً. فهل هذا

يعود إلى شعور كل طرف بالحاجة للآخر؟ أم أن هذه النقائص كانت تهون أمام التحدي القائم؟ وكيف تم استثمار العوامل السابقة الذكر في تذليل العقبات التي كانت موجودة؟ وكم كان عامل الولاء للخلافة حاضرا في هذا التوافق؟

إن هذه التجربة التاريخية التي دامت أكثر من ثلاث قرون لجديرة بالدراسة على ضوء العناصر السابقة والعمل على استثمارها في الوقت الراهن وتوظيفها في التقارب والتعاون بين البلدين في المجال السياسي والاقتصادي والثقافي وخاصة أن كل العوامل التاريخية والنفسية تخدم هذا الاتجاه.

ثانيا: اختلاف الرؤية بين الأتراك والعرب

تباينت الرؤية بين العرب والأتراك في تقييم الدولة العثمانية وخاصة في أواخر العهد العثماني ونعتقد أن مرد ذلك يعود إلى عدة عوامل:

- التراكمات الطويلة لإخفاقات الدولة العثمانية مع تزايد التغول الأجنبي ونظرة الأطراف والولايات بتقصير الدولة وانتشار الكراهية المتنامية.
- المساعي الحثيثة التي قدمها الإنجليز والغرب عامة بواسطة العملاء أمثال لورانس وغيره في الوقية بين العرب والترك.
- التوجه الجديد للاتحاديين في محاربة العربية والإسلام وسياسة التريك، والتي كانت في عمومها موجهة ضد الارتباط بالعرب وإن كان تأثيرها ضعيف على الجزائر.

- التشجيع الأوروبي والأمريكي المتنامي للنصارى المتواجدين بالشرق العربي على الكراهية للدولة العثمانية من خلال أن العثمانيين مستبدين وظلمة وجهلة، مستغلين المراكز الثقافية والمدارس والمناهج لبث الكراهية واستغلال الخلافات السياسية والحدودية لفك الروابط التاريخية والحضارية بين

العرب والأتراك. وإن تركّز هذا الأمر في المشرق العربي ولكن المؤرخين الفرنسيين حاولوا تعميم النظرة والحكم على الجزائر.

- الدعاية التي مارسها الإنجليز والفرنسيين عقب ثورة الشريف حسين أثناء مجريات الحرب العالمية الأولى وتوجيه الدعاية الخاطئة للصدام بين أنصار العروبة والتريك والطورانية وما انجر عنها من صراع فكري.

ثالثاً: علاقة الدولة العثمانية بالجزائر

كان التشابه كبيراً بين مجلس الديوان بالجزائر والديوان الهمايوني بالدولة العثمانية، وبالتالي فهو يحاكي أو يماهي المؤسسة المركزية في الحكم. ولكنه يعين أو ينتخب باشا أو دايًا ولا ينصبه كخليفة. وربما أن عامل البعد والتبعية الاسمية ولا توجد ضرائب مباشرة من الرعية نحو السلطنة المركزية ماعدا الدنوش الرمزي المعروف جعل العلاقة القائمة بين الآستانة والجزائر تتسم بالحميمية عامة وحفظاً للتعاون في زمن الأزمات الحربية التي كانت محل تعاون الجيشين العثماني والجزائري¹.

رابعاً: الكتابات التاريخية والحكم العثماني بالجزائر

أما في الجزائر فكانت الكتابات التاريخية التي تدور حول العثمانيين تتراوح بين الشرعية الدينية والسياسية وفريق آخر يجعل من الدولة العثمانية نظام احتلال واستبداد. وفي ذات السياق تطرح قضية التبعية والاستقلال عن الدولة المركزية.

فالرأي القائل بالشرعية يستند إلى طبيعة الدخول والبعد الديني والحاجة إلى الحماية من الخطر الخارجي، وهو ما أكسب الأتراك القادمين صفة الجهاد والدفاع عن دار الإسلام والافتقار والقوة وعزز ذلك القبول العام من المجتمع

1. مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ج 1،

الذي رحب بهم وحررهم من الإسبان وعبر عن هذا التوجه وجهاء المجتمع أمثال ابن القاضي الذي قال لعروج وأخيه: "إن بلادنا بقيت لك ولأخيك أو للذئب"، وكذلك في الرسالة التي بعث بها أعيان مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1517م يظهرون فيها ولاءهم ورغبتهم في الطاعة والانضمام "نحن لزام أموركم وطاعتكم مستبشرون وعليكم لا محالة اعتمادنا، فقد أطعنا أمركم¹ ونفس الموقف لأعيان قسنطينة في رسالة لسليمان القانوني حول طاعة صالح راييس.

وبالتالي فالراية الإسلامية في نظر الجزائريين في هذه المرحلة تمثلها القوة العثمانية ومن ثم وجب الانضواء تحتها لحماية البلاد والعباد وهي التقاليد السياسية التي سار عليها العرف الإسلامي قبلها حيث كانت الكيانات العرقية والثقافية والجغرافية ضعيفة أمام الرابطة الإسلامية وخاصة في مثل هذه الظروف.

وإن كان أصحاب هذا التوجه يجعلون من الحكم العثماني فرصة لتوحيد البلاد سياسيا وحققت استقرارها حتى وإن احتكروا السلطة وأن الإجحاف والظلم هو تصرف سلطة الذي قد يمارسه حاكم وطني.

وهناك أصحاب الرؤية المعاكسة الذي يجعل منه حكما استبداديا استعماريًا وفي غالبيتهم متأثر بالكتابات الأوروبية وبالمناهج الأوروبية وبإسقاط الواقع الحالي على معطيات الماضي وأحيانا تخفي هذه الكتابات ميولا سياسية واستعمارية لتبرر للاحتلال الفرنسي فيما بعد ونافيا أي كيان للجزائر في ظل الحكم العثماني، وقد أخذ بعض المشاركة بهذا المنهج.

1 . ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص

وقد ذهب الأستاذ سعيدوني ناصر في معالجة هذه القضية أن الكيان الجزائري لم يأخذ شكل الأمة الكاملة والسيادة الكاملة الصلاحية، بل كان كيانا محليا وفق بيئته وعصره¹. فالظاهرة العثمانية كانت عامة في العالم العربي والجزائر لم تكن أمة بالمعنى الحديث ولكن دولة لها خصوصيتها وحكومة لها سياستها ظهرت بعامل التحدي في غرب المتوسط وفرضتها الظروف الداخلية والخارجية، وساهمت في حماية أقطار المغرب العربي. فهو يراها تمثل نموذجا للدولة المستقلة في ظل الشرعية العثمانية، والوحدة من خلال التنوع، والخصوصية في إطار التكامل².

إن المتتبع لمختلف الدراسات حول علاقة العثمانيين بالجزائر فإنه يشخصها على أن الرابطة بينهما هي عقيدة الإسلام المتمثلة في ولاء الخلافة، ونظر الجزائريون على أنهم تحت دولة تحمهم من الأخطار الخارجية. ورحبوا بهم منذ البداية. ولكن العثمانيين لم يحترموا هذا المبدأ "فتركوا" الحكم ونظروا للجزائريين نظرة الغالب للمغلوب، والدليل على ذلك أنهم حكموا باسم الإسلام سكان البلاد ولكنهم لم يشركوهم في الأمر أو يختلطوا بهم، وأسأوا التصرف أحيانا إليهم، فكانوا فئة متميزة احتكروا الحكم طيلة العهد العثماني. وأن همهم جمع المال والتسلط³، وحكموا الجزائريين بيد من حديد وكثروا في عهدهم سلب الأموال والرشوة والهدايا وحتى التعدي على الأوقاف وأموال الأيتام، ومكنوا اليهود في الاقتصاد ولا يتكلمون العربية ولا يستعملونها في الإدارة إلا قليلا، كما كانوا جفاة غلاظا في التعامل. وظل الجزائريون الفئة الأكثر دفعا للضرائب، ومعظمهم في الأرياف لممارسة الزراعة وبعيدين حتى

1 . ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 189.

2 . نفسه، ص 189.

3 . نفسه، ص 176.

عن المناصب الإدارية والعسكرية الدنيا¹.

ومن جهة أخرى لم يعامل الجزائري كالتركي (لا يعاقب التركي أمام الملأ). ورغم مرور ثلاث قرون لاحظ بعض الباحثين تمسك غالبية الأتراك بالأسماء الدالة على أنهم أترك أو يحملون أسماء لها صلة بالوظيفة الإنكشارية. فطابع الهوية التركية بقي متميزا رغم مرور أجيال ولدت بالجزائر² ووظفت بعض القبائل المخزنية أو قبائل الأجواد لآداء دور الوسيط في استتباب الحكم (أولاد بن قانة، بن لحرش، أولاد بن عاشور، الحنانشة، أولاد عز الدين، الداودة ...، ومنحت بعض الألقاب والرتب كشيخ القبيلة والباشاغا للإشراف على الضرائب والأمن.

ويرى سعد الله أن المظهر العسكري الجهادي للعثمانيين في الجزائر والتهديد الخارجي جعل حالة الخوف الدائم من الخارج والاستبداد في الداخل ووصل إلى أن نظام الحكم العثماني أشبه بالنظام الجمهوري العسكري المغلق (جمهوري . لأن الحكم منتخب . وعسكري . من رياس البحر أو الإنكشارية . ومغلق . لأنه نظام لا يسمح فيه إلا للوجق بممارسة السلطة). وامتد الانغلاق إلى أن حكام البلاد لم يكونوا قد ولدوا بالجزائر أو تربوا فيها أو تعلموا لغة أهلها والأغرب من ذلك أن أبناء الباشاوات يمكن أن يرتقوا لمناصب آبائهم إذا كانوا من أمهات تركيات أو حتى أسيرات مسيحيات بينما لا يسمح لمن كانت أمه جزائرية مسلمة.

1 . سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 14، 15.

2 . فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة. مدينة وموروثات، ميديا بلوس، قسنطينة، 2009، ص50.

وبين الإنصاف للعثمانيين ونقدهم كثيرا ما عدد سعد الله مناقب العثمانيين في رسم ملامح الدولة الجزائرية الحديثة بل زين صورتها بإبراز الكنوز الثقافية للجزائريين خلال العهد العثماني ليرد على رواد المدرسة الاستعمارية أنه لا ماضي سياسي وثقافي للجزائر. ولكنه في نفس الوقت كان صريحا في نقد العثمانيين بالجزائر ويجدر بنا هنا ذكر أمرين فقط على سبيل المثال: الجانب السياسي المتمثل في الحكم، والثاني الجانب الثقافي والعلمي. أ. فحول طبيعة الحكم العثماني ونمط حكامه وعلاقتهم بالسكان كان ناقدا لهم ومشخصا لحالهم وهو ليس من باب عد المثالب ولكنه من باب الحقيقة التاريخية والوقوف على المحطات التي كانت ضمن الأخطاء الكثيرة التي ساهمت في تراجع الدور الحضاري للدولة العثمانية، ورصد لنا الدكتور سعد الله بعضا منها لتكون في دائرة التجربة التاريخية والاستفادة منها.

ومن قبيل التمثيل والاختصار نسجل ما كتبه الدكتور سعد الله في هذا الباب "كان حكام الجزائر الأتراك في معظم الأحيان جهلة لا يعرفون القراءة والكتابة...إنهم كانوا يحكمون الجزائريين بيد من حديد ويسلبونهم أموالهم وثرواتهم عن طريق الضرائب والرشوة والهدايا...وقد مكنوا طائفة اليهود في الاقتصاد وكانوا يفضلون الأسيرة المسيحية على المرأة الجزائرية..."¹. وأنهم احتكروا الحكم طيلة العهد العثماني ولم يشركوا السكان المحليين في أمر بلدهم². وفي مواقع كثيرة أسدى للعثمانيين دورهم في درأ الخطر الخارجي وحماية المسلمين عامة والأندلسيين خاصة وتحرير سواحل الجزائر ولكنه لام الأتراك على تقصيرهم وتركيزهم على حماية

1. حنيفي هلايلي، أبو القاسم سعد الله بين ازدواجية التأليف والترجمة، مجلة عصور، عدد 13، ربيع. أبريل 1435 هـ 2014، جامعة وهران، الجزائر، ص 264.

2 - سعد الله أبو القاسم، مرجع سابق، ص 141.

الحكم، وسوء تصرفاتهم.¹

أما حكم المقاطعات فإن الدكتورة فاطمة الزهراء قشي قالت بأن الرؤية اتضحت نسبيا حول هذا الموضوع في الدراسات الأخيرة بأن الكراغلة حكموا في المقاطعات وربما أن أسرة مصطفى بوشلاغم المسراتي ببايلك الغرب الجزائري قد تبوأ هذا المنصب، بينما هناك شك في عروبة عائلة فرحات بقسنطينة.²

ومنهم من عاتب العثمانيين على تأخرهم في مساعدة الجزائريين في محنتهم حين سقطت في يد الفرنسيين ومن هؤلاء حمدان بن عثمان خوجة من خلال مراسلاته التي وجهها للسلطان العثماني حينها.³

وأرجع بعض الباحثين ظاهرة الخضوع للسلطة العثمانية عامة أحيانا رغم التجاوزات لارتباطها بعناوين سياسية وشرعية كبيرة كالدفاع عن الثغور والتصدي للتهديدات التي ذكرناها سابقا وبالتالي تضيي على أصحابها لونا من الشرعية العامة التي تصل حد مسحة القداسة أحيانا باعتبارهم يقومون بأدوار تساهم مباشرة في حفظ مرتكزات الأمة واستمرارها، وهو ما أوجد تقاليد سياسية تنظمها رابطة الأخوة المجاهدة وهو شرط أساسي في تجمع مختلف القوى السياسية والفكرية والاجتماعية حول أي مشروع.⁴

خامسا: قضية توارث الحكم بالجزائر

ومن الباحثين من توصل إلى أنه فعلا لم يصل إلى المراتب العليا

1 . سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ج 01، ص 20.

2 . فاطمة الزهراء قشي، مرجع سابق، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة، 2005، ص 49.

3 . عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان، تونس، 1985، ص 114.

4 . حسن الضيقة، الدولة العثمانية الثقافة والمجتمع والسلطة، ط 1، دار المنتخب العربي،

1417، 1997، ص 58.

بالجزائر إلا الأتراك ولكن إلا للقادرين منهم ممن تخرج من صفوف الإنكشارية وكان جديرا بها. أما حول توارث الحكم فلم يكن الصيغة السائدة باستثناء بعض الحالات، وأوعزت الأستاذة فاطمة الزهراء قشي الأمر إلى أن الحكم لم يكن سلاليا ولكن انحصر بين مجموعة من الأوليغارشية وضمنها حدث أن خلف الابن أباه في أعلى المناصب باستثناء منصب الداي ولكنها لم تصبح قاعدة عامة ومتبعة¹.

وهذه الظاهرة وإن نجحت التجربة الملكية في تونس أثناء العائلة الحسينية وبروز الظاهرة في ليبيا مع الأسرة القرمانلية لم يكتب لها النجاح في الجزائر.

والملاحظ أن فترة البايكربايات التي استمرت إلى غاية 1587 لم يكن التوارث إلا لحسن بن خير الدين وفي فترات متقطعة وخلالها كان التعيين من الباب العالي دون تحديد المدة، ولكن بعدها أصبح التعيين لمدة ثلاث سنوات وهو تخوف من السلطة المركزية من حدوث عملية استقلال، وهذا ما حال دون الانفراد بالسلطة أو الاستقلال بها بالجزائر أو توريثها ويبدو أنها نفس التجربة طبقت في الأقاليم.²

سادسا: العلاقة مع يهود الجزائر

ومن جهة أخرى لا يمكن إغفال بعض مظاهر الحظوة التي حصل عليها اليهود ومنهم من ذكر أنهم ساهموا في بعض الأزمات التي مرت بها الجزائر، كإثارة الفتن، والاحتكار الممارس وخاصة المواد الغذائية مما سبب الكثير من الكراهية لهم وذكر أحد الباحثين أن جميع فئات الشعب من

1. فاطمة الزهراء قشي، مرجع سابق، ص 46.

2. نفسه، ص 49.

انكشاريين ومدنيين وفقراء وأغنياء كانوا ضد اليهود¹. وظن هؤلاء أن الظلم الذي لحق بهم في عهد الداى مصطفى بسببهم، فيتدخلوا في عزل من لا يروقهم، وانتشار المجاعة بسبب احتكار الحبوب وبيعها للخارج، وربما هذا الكره المتنامي هو الذي ساهم في قتل بوشناق سنة 1805 وقتل أكثر من 50 يهوديا والتجأ الباقي للقنصلية الفرنسية رغم الخلافات التي كانت قائمة بين اليهود والقنصل الفرنسي في هذه المرحلة².

وفي الأخير: فإن تقييم الدولة العثمانية بين دورها المركزي والممارسات التي وظفتها في الأطراف التي تدور في فلكها يجب ألا تكون خارج السياق التاريخي الذي عاشت فيه من جهة، ومن جهة أخرى فإن النظرة الأولية السلبية أو الإيجابية نحوها تعتبر عائقا في إنجاز دراسة موضوعية أو قريبة من الموضوعية التاريخية.

كما أن الفترة العثمانية التي تجاوزت الأربعة قرون واكبتها تحولات كبيرة في العالم القديم منها ما تأقلمت معها وفرضت وجودها ومنها ما تجاوزتها فزادت من عيوبها وانعكس ذلك على العالم العربي. وعليه ألا نحاكم الدولة العثمانية على قرون خلت بمقاييس حالية.

وإذا ذهب البعض أمثال عبد الرحمان الجبرتي إلى سرد الكثير من المناقب للدولة العثمانية وخاصة في عهد السلطان سليم الأول وسليمان القانوني وركز على وقف المظالم والتصدي للغزاة وتحصين الثغور وإقامة الشعائر وتعظيم العلماء وإقامة المنشآت العسكرية من مدفعية وهندسة

1 . يبدو أن هذه الظاهرة عمت العالم الإسلامي وليس الجزائر فقط للمزيد أنظر: عبد الله التل، الأفعى اليهودية في معازل الإسلام، ط 2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989، ص 74.

2. عزيز سامح البتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، ط 1، دار النهضة العربية، 1989. ص 583.

عسكرية. ولم يتطرق إلى المثالب وقد نلتمس له حول ما ذكرناه لأنه تكلم عن فترة حكم معينة، وكانت المعايير التي يقاس بها الصلاح والإعمار هي التي تطرق إليها¹.

وبالمقابل رأى إحسان حقي أن الذين يرمون العثمانيين بأنهم جعلوا من البلدان العربية خرابا مخالف للواقع بدليل أن بلادهم لم تكن أقل من أوربا عمراناً وبنوا الجسور والمساجد الفخمة والقصور والمطاعم المجانية والمشافي والحمامات وتفننوا في الخط والزخرفة. وكانوا أمة حرب وقوة واخترعوا المدفع وغزوا البحر ومدت الخطوط الحديدية وأسلاك البرق. وأنه يجب أن نقوم الدولة العثمانية وفق زمانها وعصرها².

ونعتقد أن النظرة كانت جد متباينة بين المشرق والمغرب العربيين تجاه الدولة العثمانية، وهي تنطلق في بنائها على العلاقة الأولى مع الدولة العثمانية والظروف التي مرت بها كل جهة. ولكن تطور الدراسات من طرف أجيال ازدادت بعداً زمانياً جعلها تقلل من هذه الهوة الحاصلة.

ولكن الأمر ظل إلى حد كبير يعتمد على تقييم الحضور العثماني المتمثل: طبيعة السلطة . حضور الإدارة . فاعلية العناصر المحلية وموقعها من السلطة العثمانية . الدور والتقصير أمام الضفة الأخرى من المتوسط . الحضور العلمي . التفاعل والاندماج مع الشعوب العربية هي المعايير التي تحاكم عليها الدولة العثمانية في الأداء والتقصير ومواطن النجاح والفشل.

1 . جمال عبد الهادي محمد مسعود، وفاء محمد رفعة جمعة، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ الدولة العثمانية، ج 2، ط1، دار الوفاء للطباعة والنشر، 1416 هـ، 1995، ص 128.

2 . جمال عبد الهادي محمد مسعود، مرجع سابق، ص 130.

التغيرات المجالية لبلاد الزاب خلال العهد العثماني في ضوء مدونات الرحلة والجغرافيا

د. زياني الصادق

جامعة سطيف 02

s.ziani@univ-setif2.dz

الملخص

تشكل هذه الدراسة استمرارية للبحوث المخصصة لبلاد الزاب، والتي انطلقنا فيها منذ قرابة العشر قرن، ويتقصى التحولات السياسية، والمجالية لبلاد الزاب في ضوء النصوص الوصفية بمدونات الرحالة والجغرافيا من بداية القرن 10هـ/15م إلى نهاية العهد العثماني، بتحديد انخراطه في الفلك السياسي العثماني، التغيرات المجالية الطارئة عليها، والمدن المشكلة له، كما يبرز البحث العديد من الطبونيمات (الأعلام الجغرافية) المعاصرة للفترة العثمانية وتصنيفاتها. وقد ضمنا بالبحث عرضا موجزا لشبكة المسالك الداخلية ومحطاتها (المواقف) المشار إليها في كتابات الرحالة، وإشارة موجزة لشبكة المسالك الخارجية على الحدود الغربية والشرقية للزاب العثماني.

الكلمات المفتاحية: بلاد الزاب، العهد العثماني، الرحالة، المجال، المسالك، الطبونيميا.

Abstract

The study is part of the history of geographical research Bilād Zab across geographical indications traveler blogs, and research studies of Zab space transformations Ottoman specifying geographic extensions and places formed for him because. research highlights many of the contemporary toponyms for the Ottoman period and their classifications. And The study included a brief presentation of the interior track network and its mentioned stations, and a brief reference to the exterior track network.

Keywords: Bilād Zab, Ottoman, territory, travelers, routes, stations, toponym.

مقدمة

لماذا بلاد الزاب؟ يعود ارتباطنا بالبحوث المخصصة لبلاد الزاب إلى فترة اشتغالنا عليها خلال المرحلة الوسيطة منذ سنة 2015م في دراستنا السابقة الموسومة بـ: "الجغرافية التاريخية لبلاد الزاب من نهاية الفتح الاسلامي إلى نهاية القرن 9هـ/15م"¹. وعليه، جاءت الفكرة لمواصلة البحث في تاريخ هذه المنطقة العتيقة، بالانطلاق من الحد الزمني الذي انتهينا به في البحث سالف الذكر ألا وهو: نهاية ق 9هـ/15م، ففيه تشكلت مرحلة انتقالية مهمة له، وحتى التسمية التي يمكن استعمالها في هذا التحقيق الزمني هي: "الزيبان" بدلا عن "بلاد الزاب"، بتتبع مختلف التحولات: السياسة، المجال، والانسان خلال العهد العثماني، معتمدين المصنفات الجغرافية والرحلاتية كمصادر أساسية للبحث، بحيث شكلت أصولا مهمة لتدوين تاريخ وجغرافية بسكرة وواحاتها خلال العهد العثماني، لوقوعها في درب ركب الحج، وهو ما جعلها دائمة الذكر والوصف في هذا النوع من المصادر. على أنه يجب التذكير هنا، بأننا خصصنا بعض المقالات التي نشرت بمجلات جزائرية²، ومداخلات بملتقيات ما بين 2020م إلى 2023م للتحولات التي مست الخارطة البشرية، والموقعية بمختلف أصنافها، والوضعية الصحية للسكان بالزاب خلال الفترة العثمانية³.

1 طُروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية، قسنطينة/الجزائر، 2019م.

2 الطوبونيميا بالزاب العثماني: المواقع المرتبطة بالتصوف، مجلة الابراهيمي، 3 (200)، ص 27-46.

3 تاريخ الأوبئة بالفضاء العسكري وواحاته بين 10 و13هـ/16-19م من خلال كتابات الرحالة: الأوبئة عبر التاريخ، دار خيال للنشر والترجمة، الجزائر، 2021م، ص 122-135.

لقد أسهمت جملة من العوامل في إبراز جغرافية مدن الزاب العثماني فيها بشكل واضح، ويكفي ذكر المعالم والمؤسسات الصوفية التي تستقر بها، وأضرحة العلماء والصلحاء المنشرة على طول محطات مسالكها الداخلية، والمواضع الأثرية الضاربة في القدم، حيث تستوقف هذه المعالم الرحالة من خلال زيارتها، للفضول، أو للتبرك بالولي والمتصوف، أو لاستكشاف المواقع الأثرية ووصفها، أو الصلاة بالمساجد وتفقد زواياها، ويدون الرحالة خلالها جملة من المشاهدات التي وقف عليها سواء بالنزول الفعلي بالمواضع، أو بالملاحظة عن بعد، فينشئ وصفا للمواقع في شتى المناحي (المجتمع، المسالك، العمارة، السلطة، الاقتصاد، العلم، العلماء...)، وهذه المعطيات التي توفرها هي التي نتخذها منطلقا في دراستنا هذه لبلاد الزاب باعتبارها مصدرا أساسيا. وتعالج الدراسة إشكالية تتمحور حول المعطيات الجغرافية المتعلقة بالمجال الجغرافي لبلاد الزاب وحدوده في العهد العثماني، وتحولاته، والمدن المشكلة له، وكذا المسالك الداخلية والخارجية بمحطاتها الواردة في مدونات الرحالة من بداية القرن العاشر الهجري/16م إلى نهاية العهد العثماني. وقد اعتمدنا لمعالجة الموضوع على عدد من المناهج انطلاقا من مادة جغرافية ووصفية تندرج ضمن منهجية البحث التاريخي؛ كما فرض توجهات البحث لإدراج المنهج الوصفي بهدف تتبع الملاحظات التاريخية والجغرافية المدونة من قبل الرحالة؛ والمنهج التحليلي الذي يعتني بالبحث في الأسباب؛ كما كان للمنهج المقارن حضور نسبي بالبحث خصوصا فيما تعلق بتتبع تواصل و/أو انقطاع الموقعية، المحطات، المسالك بمجالات الزيبان ومقارنتها بمعطيات الفترة الوسيطة بنفس المجال الجغرافي.

أما مصادر الدراسة فقد شملت جل الرحلات المغاربية خلال القرون الثلاثة من الحكم العثماني، وهي رحلات حجازية، واتبعنا فيها منهجا اشتمل

على: التعريف بصاحب الرحلة وتاريخ وفاته، وزمنها، ومنطلقها ونهايتها، ثم عرض ما حملته من نصوص جغرافية تخدم الموضوع المطروح، وتجاوز إشكالية الدراسة. ولم يخل البحث من الاقتباسات الهادفة في حدود ما يسمح به البحث التاريخي، في حين استهللنا الدراسة بمدخل تاريخي حول انخراط الزاب في الفلك السياسي العثماني، ومعطيات متعلقة بحضورهم بمجالاته والظروف التي صاحبت ذلك، ثم تتبع المجال الجغرافي للزاب والمسالك والملاحظات المختلفة بمدنه تتبعاً كرونولوجياً. وقد جاءت الدراسة في تسلسل وترابط على النحو الآتي:

أولاً- الزيبان والانخراط في الفلك السياسي للخلافة العثمانية:

بعد سلسلة من التقلبات السياسية التي عاشها بلاد الزاب (الزيبان) في نهاية القرن التاسع الهجري/15م، والتجاذبات السلطوية من خلال صراع الكيانات: الحفصي-الزياني-المريني على هذا المجال الجغرافي الاستراتيجي، سيؤشر النصف الأول من القرن الهجري العاشر/16م على انخراط تدريجي له ضمن الفلك السياسي للخلافة العثمانية، جاء هذا على عهد الباشا حسن آغا 941هـ/1534م¹، وحملاته بالقاعدة بسكرة، على ما أورده المؤرخ والعسكري الأسباني مارمول كربيخال (توفي بعد 979هـ/1571م) في نصوصه المصدرية ذات الطابع الأيديولوجي-العنصري بوصف سلطة الخلافة العثمانيين على حاضرة بسكرة بأنّها: "اليوم تحت نفوذ الأتراك الذين احتلوها في عهد الحسن آغا حاكم الجزائر"².

1 العدواني، تاريخ العدواني، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، ص 200؛ زباني الصادق، "الطوبونيميا بالزاب العثماني: المواقع المرتبطة بالتصوف..."، ص 28.
2 مارمول كربيخال، إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، دار النشر المعرفة، الرباط، 1989م، ج3، ص 168.

وأدرجت بلاد الزاب ضمن بايلك الشرق بقاعدته قسنطينة¹، وانتشرت حامية تركية² بمدينة بسكرة بعدما: "ضم حسن آغا 1541م مناطق الحضنة والزاب"³، وسعت الخلافة العثمانية من وراء ذلك إلى حماية نفوذها وسلطتها بهذه المجالات الهامة لما تدره عليها من مداخيل التجارة العابرة للصحراء، ومركز عبور متواصل ودائما لمواكب الحج، وهذا في ظل انتشار الفساد والظلم والعصيان جراء تسلط أعراب الصحراء وفرض المغارم على السكان، ومن النماذج عرب أولاد نصر بن بوعكاز ببسكرة⁴، بالاضافة إلى استعصاء السيطرة الكاملة على جنوب أوراس والملاص للزاب الشرقي بفعل عدم خضوع لبعض قبائلها كما هو الحال مع عرب النمامشة⁵، وقد ساعدها في إنجاح أهدافها بالمنطقة سلطة ونفوذ عائلة بن قانة بين العرب والترك⁶.

1 " تابعا لحاكم قسنطينة وهو الذي يتولى استخلاص جباية الاقليم بكامله وله حرص على الرفق بالسكان وإبعاد العسف عنهم". كريخال، إفريقيا، ج3، ص 6 و12.

2 « Biscara ou Bescarah, appelée par Léon l'Africain Pescarah, chef-lieu du Zab, il y a une garnison turque ». Shaw. Th, *voyage dans la régence d'Alger*, Editeur marlin, Paris, 1830, p. 398.

3 ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص 478.

4 العياشي، ماء الموائد (الرحلة العياشية)، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات، 2006م، ج2، ص 539.

5 الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، دراسة وتحقيق: المهدي الغالي، دار أبي رقراق، الرباط، 2013م، ص 242.

6 الورثيلاني، نزعة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثيلانية، تصحيح: محمد بن أبي شنب، مطبعة ببيرون فونتانا الشرقية، الجزائر، 1908م، ص 105.

وبالإضافة إلى إبعاد الظلم والاستبداد عن السكان ببلاد الزاب، فقد حاولت السلطة حماية مصالحها المادية بالسعي لتسهيل عملية جمع الجبايات كأحد أهداف نشر حامية بقاعدته بسكرة، فبلاد الزاب اليوم صار: "تابعاً لحاكم قسنطينة وهو الذي يتولى استخلاص جباية الاقليم بكامله وله حرص على الرفق بالسكان وإبعاد العسف عنهم"¹.

وقد عززت السلطة قوتها ببسكرة من خلال تشييد برجين الأول بداخل المدينة، والآخر على مشارفها²، كما تصدت لتحركات عرب النمامشة بسكان الزرايب بالاتحاد مع الأعراب الموالين لسلطتهم: "وهذا البلد من الزرايب إلى هنا كانت من قبل تسكنها الظلمة الفجرة النمامشة والشائبة...فسلط الله عليهم بعض أمراء الترك، ومن انضاف إليهم من الأعراب، فأجلوهم..."³.

ثانيا- الخريطة المجالية للزاب العثماني في الفترة (12-10هـ/16-18م)

بداية بالمعطيات الواردة خلال ق 10هـ/16م، وفي مقدمتها نصوص رحلة وصف إفريقيا للحسن الوزان الشهير بليون إفريقيا (توفي بعد 957هـ/1550م)، تنير معطياتنا الجغرافية حول مجال بلاد الزاب وحدوده خلال هذه المرحلة، التي بدأ فيه المغرب الأوسط عموماً إلى التحول تحت السلطة العثمانية، وفيه مجال الزاب: "يبتدئ غرباً من تخوم مسيلة، ويحده

1 كريخال، إفريقيا، ج 3، ص 6.

2 العياشي، ماء الموائد، ج 2، ص 540 (الحصن)؛ الورثيلاني، نزهة الأنظار، ص 87 (البرج)؛ الناصري، الرحلة الكبرى، ص 224 (قلعة). وقد أشار الرحالة والدكتور الإنجليزي توماس شو إلى وجود قلعة محصنة واحدة ببسكرة في معطيات رحلته في الربع الأول من القرن 18م:

« Le bey de Constantine y a fait bâtir un château fort qui n'est armé que de six petites pièces de canon, et de quelques lourds mousquets montés sur des espèces d'affûts ». Shaw, voyage dans la régence, p. 398.

3 الناصري، الرحلة الكبرى، ص 242.

شمالا جبال مملكة بجاية، ويمتد شرقا إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس، وجنوبا إلى القفار التي تقطعها الطريق المؤدية من تقرت إلى وركلة¹. المدن المشكلة لبلاد الزاب حتى نهاية ق 10هـ/16م، يذكرها الوزان في قوله: "يشمل الإقليم خمس مدن وعددا كثيرا من القرى... بسكرة... البرج... نفطة... طولقة... دوسن"². وتتقاطع ملاحظات ليون إفريقيا مع النصوص الواردة في كتاب إفريقيا للرحالة والعسكري الإسباني مارمول كريخال (ت بعد 979هـ/1571م)، وفيه: "يبتدئ هذا الإقليم غربا بتخوم صحراء مسيلة التي يجوها أعراب أقوياء، وتحده شمالا جبال بجاية، وغربا إقليم الجريد التابعة لمملكة تونس، وجنوبا يتاخم الصحاري"³. يورد مارمول مدنها في قوله: "الزاب أحد أقاليم صحراء نوميديا... توجد بها خمس مدن قديمة... بسكرة... البرج... نفطة... دوقة... دوسن"⁴.

نلاحظ استمرارية واضحة لطوبونيمات وردت خلال المرحلة الوسيطة على غرار: بسكرة، طولقة، والدوسن، في حين يحضر موقعان جديداً الأول (البرج)، ونرجح أن يكون موقع (برج بن عزوز) لوقوعه إلى الغرب من بسكرة، كما نذهب إلى القول بأنه أحد المدن الثلاثة المشكلة لواحات طولقة الواردة في جغرافية محمد بن يوسف الوراق (ت 363هـ/974م) المنسوخة من قبل أبو عبيد عبد الله البكري (ت 487هـ/1094م)⁵، وهو ما يعني تواصل اسم

1 الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج2، ص 138.

2 نفسه، ص 138-140.

3 كريخال، إفريقيا، ج3، ص 167.

4 نفسه، ص 168-170.

5 البكري، المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/2003م، ج2، ص 254؛ زباني الصادق، "نصوص جغرافية وتاريخية من كتاب المسالك والممالك المفقود

الموقع من الفترة الوسيطة. بينما يكتنف الغموض الموقع الثاني (نفطة) حيث ذهب محمد حجي والأخضر إلى أنها قد تكون موقع (أوماش)، في حين أرجح بأنها تمثل موقع (بادس)، وهذا لتقاطع نصوص الوزن مع النصوص الجغرافية للبكري في أن الموقع يمثل نقطة عبور إلى السوادان: "ومن باديس إلى قيطون بياضة وهو أول بلاد سماطة ومنه يفترق الطريق إلى بلاد السودان"¹؛ "على الطريق المؤدية إلى بلاد السودان"².

انطلاقاً من سجلماسة متوجهاً إلى بلاد الحجاز، يقدم لنا أبو العباس أحمد بن أبي محلي السجلماسي (ت1022هـ/1613م) في رحلته الموسومة: "إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت"، بعض المعطيات الجغرافية المختصرة عن بلاد الزاب من خلال وصفه لمساره عبر درب الصعاليك في رحلته الأولى التي ابتدئها في 1001هـ/1593م انطلاقاً من سجلماسة، والتي ضاع عليه فيها الحج: "فكانت مع طريق الصعاليك لفقد الركب يومئذ مع هجوم الحال وقوة السبب القاذف بالعزم في يوم الترحال دون شروط الوجوب"³. وفي المخطط الذي ألحقه محقق الرحلة، يظهر الحد الغربي للزاب إلى الأغواط، والحد الشرقي الممتد عبر مسلك توزر عبر جنوب تبسة، ويوضح مخطط الرحلة تواصل مدن الفترة الوسيطة على غرار قاعدة الزاب بسكرة، بالإضافة إلى بروز مواقع جديدة بالزاب الغربي كما هو الحال مع موقع سيدي

لمحمد بن يوسف الورّاق (ت.363هـ/974م) مجموعة من كتابي المغرب للبكري والبيان لابن عذاري المراكشي"، المجلة التاريخية الجزائرية، 2-7 (2023)، ص 161-170.

1 المصدر نفسه، ج2، ص 257.

2 الوزن، وصف إفريقيا، ج2، ص 139.

3 عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي النائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، الرباط، 1991م، ص 94.

عقبة¹.

خلال نفس الفترة، تظهر الحدود الجغرافية للزاب غامضة، وحتى المدن المشكلة لمجالاته الشرقية والغربية، مع تواصل العديد من الطوبونيمات مع تحريفات وتصحيفات بسيطة في بعضها، وفي مقدمة هذه النصوص تاريخ العدواني لمحمد بن عمر العدواني (من أهل القرن الهجري الحادي عشر/السابع عشر الميلادي)، وهو أحد المصنفات المتعلقة بالجماعات العربية هجراتها واستقرارها، وكذا الموقعية²، وفيه يبرز مدنا ومعالم جغرافية مرتبطة ببلاد الزاب متواصلة من الفترة الوسيطة، كما هو الحال مع جبل الملح بلوطاية، بسكرة قاعدة الزيبان، قصر باديس، تهودة، طولقة، ليانة³، مع تصحيفات لطوبونيمات: فرفور (فرفار) وابن طيوس (بنطيوس).

كما نلاحظ بروز طوبونيمات معاصرة للفترة العثمانية بتصنيفات متعلقة بالتضاريس (جبل أحمر خدو، الفيض، الخنقة)، مرتبطة بالولاية (سيدي خالد)، وميكروطوبونيم (قرية أم العز)، إضافة إلى: أوماش، جلال، ليانة، الزايب (الوادي وحامد). وكل هذه المعطيات تؤثر على تواصل المجال الجغرافي السابق، من خلال تسيد بسكرة لقاعدة الزيبان⁴؛ الزاب الغربي بالمدن: طولقة، سيدي خالد، بنطيوس، فرفار، أوماش⁵؛ الزاب الشرقي

1 المصدر نفسه، ص 100 (المخطط).

2 تاريخ العدواني: كتاب في أخبار الهجرة واستقرار بعض القبائل العربية مع ذكر الاحوال والتقلبات السياسية والاجتماعية لمنطقة المغرب العربي وأصول بعض المدن والقرى، والعلاقات الروحية بين المشرق والمغرب منذ الفتح الاسلامي.

3 علاوة عمارة، "بين جبل أوراس والواحات: ظهور وانتشار واختفاء الجماعات الإباضية بالزاب (ق2-3 هـ/ 8-9م)، ترجمة: عبد القادر مباركية، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، 9 (2017)، ص 249.

4 العدواني، تاريخ العدواني، ص 302.

5 نفسه، ص 306 و308-309.

بمدنه: تهودة، قصر باديس، الفيض، زريبة الوادي، زريبة حامد، جلال، جبل أحمد جدو (مشونش)، ليانة، قرية أم العز¹.

المعطيات الواردة في تاريخ العدواني نجدها مكتملة وبصورة أدق في ماء الموائد لعبد الله بن محمد بن موسى العياشي (ت 1090هـ/1679م)، والتي تؤرخ للنصف الثاني من القرن 11هـ/17م، وفيه أضحت بلاد الزاب إقليما من الأقاليم العثمانية، والملاحظات التي يشير إليها العياشي في رحلته الحجازية، يظهر فيها زاب بسكرة من خلال المصطلح الجغرافي المشرقي (بلاد): "وكان ارتحالنا من بلاد بسكرة قاعدة بلاد الزاب"، كما يؤشر على الزابين الشرقي من خلال بعض مدنه الواردة من شاكلة: زريبة الوادي²، سيدي عقبة³ الذي طبعته الصبغة الصوفية الولائية من خلال الجذر (سيدي)، وخلف الموقع التاريخي الشهير تهودة⁴. وإلى الغرب من زاب بسكرة: "وسرنا إلى قرب الغرب"، تستقر جملة من الواحات على غرار: أملي (ملي)، الدويسة، وليوة، وأولاد جلال، وسيدي خالد ذو التصنيف الصوفي⁵، مشكلة الزاب الغربي بقاعدته المختفية طولقة.

وأخذ الزاب الشرقي حظه الوافر من الوصف في رحلة المجاجي لصاحبها عبد الرحمن بن محمد بن خروب المجاجي الشلفي⁶، وهي إحدى الرحلات

1 العدواني، تاريخ العدواني، ص 298 و300 و306 و308.

2 العياشي، ماء الموائد، ج2، ص 538.

3 المصدر نفسه، ج2، ص 539.

4 الصادق زباني، "الحركة الصوفية لسعادة الرحمان وعلاقتها بمجتمع وطوبونيميا بلاد الزاب على العهد الحفصي": أعمال الملتقى الوطني حول التصوف والمتصوفة في الغرب الإسلامي، دار نور للطباعة والنشر، سرابروغ-ألمانيا، 2018م، ص 234.

5 العياشي، ماء الموائد، ج2، ص 542-544.

6 دراسة وتحقيق: سعاد آل سيد الشيخ، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، 2017م.

الحجبة الشعرية، وابتدئها المجاجي من مسقط رأسه إلى مكة سنة 1063هـ/1652م، وأمير الركب فيها عبد الكريم الفكون القسنطيني، وبرفقتة أحد أعيان الزاب أبو الحسن بن ناجي¹، ويظهر بوضوح حدود الزاب الشرقي من خلال ذكر المجاجي لموقع قيصران (غيسران) الواقعة إلى الجنوب من نقرين (تبسة)، وهذه الأخيرة تمثل إحدى المواقع الحدودية للزاب الشرقي بالمجالات الجزائرية، كما ذكر المجاجي موقعا قريبا إلى الحدود الجزائرية التونسية عند تبسة على الطريق الجنوبي إلى توزر وهو موقع (الشبيكة) الواقعة إلى الشمال الغربي لتوزر، ويبرز المجاجي في رحلته المدن المشكلة للزاب الشرقي، وكذا قاعدة الزاب بسكرة: زريبة حامد، خنقة سيدي ناجي، ليانة، سيدي عقبة². ويغيب الزاب الغربي في رحلته لأن مسار رحلته كانت على متيجة وبلاد حمزة وبلاد الحضنة مرورا بمقرة، ثم باريكة (بريكة) حتى يلج بلاد الزاب³.

ودون أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي⁴ (ت1129هـ/1717م) في رحلته المسماة "الرحلة الناصرية"⁵ جملة من النصوص الجغرافية المتعلقة ببلاد الزاب خلال النصف الأول من القرن 12هـ/18م، وفيها أن قاعدة بلاد الزاب هي بسكرة، وزابها الغربي مبتدئه سيدي خالد وحده إلى مجالات أولاد

1 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج2، ص 388.

2 وليد زوهري، "أدب الرحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة-دراسة وصفية تحليلية"، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، 1 (2012)، ص 159.

3 سعاد آل سيد الشيخ، "رحلة عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي نموذج الرحلة الحجية النظامية خلال القرن 11هـ/17م"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، 20 (2014)، ص 206.

4 تعمّدت إحالة رحلته بأصله (الدرعي) للفرقة بينه وبين رحلة الناصري الأخرى المسماة: الرحلة الناصرية الكبرى.

5 تحقيق وتقديم: عبد الحفيظ ملوكي، دار سويد للنشر والتوزيع، 2011م.

نايل بذكره للمواقع: دمت (قصر دمد)، البرج (برج المهاش)¹؛ وإلى مجالات الأغواط منبوع (وادي أمز)، والذي يصدر منه وادي الجدي إلى حدود شط ملغيغ، وهذا بذكره للمواقع: العسافة (العسافية)، عين الماضي (عين ماضي)، تجموت، والأغواط². أما مجمل مدن الزاب الغربي الواردة فهي: سيدي خالد، أولاد جلال، ومليلة- مليلية (مليلي)³.

أما الزاب الشرقي، فحده المجالات الجنوبية لتبسة من ناحية نقرين، بما ذكره من مواقع: غيسران، وفركان، عبر المسلك إلى الجريد عند توزر تحديدا بذكره للمواقع: الشبكة⁴. ويورد الدرعي مدن الزاب الغربي وهي: سيدي عقبة، المنصف، أوماش، خنقة سيدي ناجي، أليانة (ليانة)، قرية أم الخير (بادس)، زريبة الوادي، زريبة حامد⁵.

إن النصوص الوصفية المنسوبة إلى الفقيه أبي علي الحسن اليوسي المغربي (ت 1102هـ/1697م) والمدونة من قبل ابنه محمد العياشي بن الحسن اليوسي (ت 1131هـ/1719م)⁶، والتي تندرج ضمن النصوص الجغرافية لارتباطها بمسالك ركب الحج متعلقة بالنصف الأول من القرن الهجري 18/12م، تتقاطع إلى حد كبير مع نصوص الرحلة العياشية فيما يتعلق بمجالات بلاد الزاب والمدن المشكلة للزاين الشرقي والغربي. إن

1 الدرعي، الرحلة، ص 132-133 و716.

2 نفسه، ص 130-132 و718-719.

3 نفسه، ص 134 و138 و711-712.

4 نفسه، ص 160 و706-707.

5 نفسه، ص 146 و159 و708 و710-711.

6 رحلة اليوسي (الحجازية)، مركز ودود للمخطوطات، رقم 3128 (مصدر المخطوط: الخزانة الملكية بالرباط). الموقع الإلكتروني: <http://wadod.com/bookshelf/book/694>. وقد تم تحقيق مخطوط الرحلة من قبل أحمد الباهي، منشورات بيت الحكمة، تونس، 2018م. وقد اعتمدنا على النسختين المخطوطة والمحققة الموقع الإلكتروني: <https://archive.org/details/alyousejourneyarabic>.

معطيات رحلة اليوسي في معظمها قد تمثل امتدادا، بل تواصلًا لواقع الزاب خلال القرن الماضي، بداية تختفي المدينة التاريخية الإسلامية التي مثلت منطلقًا للحملات الأموية لبلاد الزاب ممثلة في (تهودة)، ليخلفها موقع جديد كان له حضور خلال القرنين السابقين ممثلًا في الطوبونيم الصوفي (سيدي عقبة).

وتظهر صورة مجال بلاد الزاب في رحلة اليوسي ممتدة من مجالات أولاد نايل والأغواط غربًا من خلال المواقع الحدودية الواردة في صورة: تجمت (تاجموت)، ولغواط (الأغواط)؛ دمد (قصر دمد)، وعين الحوجب (البرج)¹؛ كما تمتد شرقًا إلى حدود نقرين (تبسة)، وهذا من خلال المواقع الحدودية الشرقية منها: جارش في الغرب من نقرين، وغسران الواقعة إلى الجنوب من نقرين، كما يتمدد المسلك ليربطها مع الشبكة الواقعة إلى الشمال الغربي لتوزر التونسية²، في حين تغيب المعطيات المتعلقة بالامتدادات (الحدود) الشمالية والجنوبية ماعدا إشارة لوادي أجدي (الجدي)، الذي منبعه من الأغواط ويصب في نهايته عند شط ملغيغ³، والذي يمثل أحد الحدود الجنوبية إلى سوف للزاب العثماني خلال القرن الهجري 18/12م.

ومن الملاحظات البارزة في رحلة اليوسي خلال وصفه للمدن المشكلة لمجالات بلاد الزاب، حضور مواقع جديدة لم يأت ذكرها في المصادر السابقة، ففي الزاب الشرقي يحضر موقع البسباس، وادي الجدي، ووادي البسباس، ووادي سيدي خالد، وهذه الأعلام الجغرافية الثلاثة الأخيرة المرتبطة بأكبر

1 رحلة اليوسي، المخطوط، ص 4/ و 8-9؛ أحمد الباهي، رحلة اليوسي (النسخة المحققة)، ص 76-

77.

2 المخطوط، ص 6/ و 12؛ أحمد الباهي، النسخة المحققة، ص 85 والهامش و 187.

3 صلاح الدين معلم، الموارد المائية واستعمالها بدائرة طولقة (ولاية بسكرة)، ماجستير في تهيئة الاوساط الفيزيائية، جامعة منتوري-قسنطينة، الجزائر، 2010/2011م، ص 19.

عنصر يحتاجه سالكو الطريق الصحراوي أو ركب الحج الحجازي، وهو الماء وتصنف ضمن الهيدرونيم¹. في حين يحضر الطوبونيمين: وادي الحكف (الحقف)، ووادي أم الهنا بالزاب الغربي. باقي المواقع تؤثر على تواصل طوبونيمي من الفترة الوسيطة أو العثمانية القريبة على السواء: سيدي خالد، أمليليه (مليلي)، بسكرة²، سيدي عقبة، زريبة الوادي، زريبة حامد³.

في النصف الثاني من القرن الهجري 18/12م، تطل علينا النصوص الرحلاتية لأبي عبد الله محمد الحضيكي السوسي (ت1189هـ/1775م) في رحلته الحجازية، والتي تكمل وتثبت المعطيات الواردة في رحلة اليوسي، حيث يظهر الحد الغربي لبلاد الزاب ممثلاً في مجالات الأغواط وأولاد نايل التي تظهر في الرحلة من خلال المواقع: عين ماضي، والأغواط، والطريق بين الموقعين يقطع لا محالة المدن الواردة في رحلة اليوسي نتحدث عن: تاجموت، ودמיד (قصر دمد) بمسعد من مجالات أولاد نايل، قبل الولوج لمجالات الزاب ترجيحاً عبر فيض البطمة ورأس الميعاد، إلى أول موقع ذكر في رحلة الحضيكي، وهي سيدي خالد، من خلال قوله: "ونزلنا بعده قرية يقال لها عين ماضي... وارتحلنا منها ومررنا بالغد على قرية ذات نخيل ومياه وفواكه على يمين الطريق يقال لها الأغواط...وبعدها نزلنا وادي سيدي خالد..."⁴.

1 Abdelffatah. N, «Toponymes maghrébins», *Cahiers de sociolinguistique*, 11 (2006/1), p.128; Pellegrin. A, *Essai sur les noms des lieux D'Algerie et de Tunisie (Etymologie, Signification)*, Edition S. A. P. I, Tunis, 1949, p. 159-162.

2 المخطوط، ص 5/10-11؛ أحمد الباهي، رحلة اليوسي (النسخة المحققة)، ص 80 و82 و188.

3 المخطوط، ص 6/12؛ أحمد الباهي، رحلة اليوسي (النسخة المحققة)، ص 84-85.

4 الحضيكي، الرحلة الحجازية، تحقيق: عبد العالي مدبر، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 2011م، ص 84-85.

معطيات الحضيكي تبرز بلاد الزاب وشساعتها تتخللها: "قرى كثيرة ونخيل"، وتشكل تبسة عبر المسلك نحو توزر التونسية حد زابها الشرقي، وقد ذكر من مدنها موقع سيدي عقبة: "ثم ارتحلنا منها [بسكرة] ونزلنا سيدنا عقبة"، ويظهر ذلك من خلال المواقع: وادي الناموس، وغسران الواقعة في جنوب نقرين (تبسة)¹، والمسلك إلى غسران ثم الشبيكة ثم إلى توزر يمر بحسب ما أورده اليوسي عبر الزرايب: زريبة الوادي، وزريبة حامد، وهي من المدن المشكلة للزاب الشرقي.

وبالإضافة إلى البعد التاريخي لرحلة الحسين بن محمد الورثيلاني (ت1193هـ/1779م) الموسومة بـ: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، إلا أنها تحتوي على معطيات متنوعة يمكن أن يستفاد منها، وفيها وردت إشارات هامة عن بلاد الزاب، بداية بالمعطيات المجالية التي تشير إلى قاعدة الزاب من خلال قول الورثيلاني: "هذا الوطن أعني الزاب منوط ببلدة بسكرة وهي الكافية بالجميع"².

كما يشير الورثيلاني إلى طوبونيم ذو صبغة صوفية يصنف ضمن الهجيونيم³، ممثلا في سيدي زرزور على وادي بسكرة: "ما تعلق بأحوالنا ببسكرة فإننا بقينا فيها يومين...زيارة الأفاضل الأحياء والأموات مثل... الشيخ سيدي زرزور"⁴.

1 نفسه، ص 86.

2 الورثيلاني، نزهة الأنظار، ص 88.

3 Farid. B, « Espace signe et identité au Maghreb. Du nom au symbole », Insaniyat, 9 (1999), p. 7 ; Hagionyme — nom propre d'un saint". Mohand. T, « Toponymie et aménagement linguistique : vers une terminologie amazighe? », Iles d Imesli, 4-1 (2012), p. 112. <https://www.asjp.cerist.dz/en/Articles/397>.

4 الورثيلاني، نزهة الأنظار، ص 109.

ويواصل الورثاني وصفه لجغرافية بلاد الزاب، وينتقل بنا إلى الزاب الشرقي من خلال حصره للمدن المشكلة له: سيدي عقبة، زريبة الوادي، زريبة حامد، خنقة سيدي ناجي¹. على أنه يظهر بوصفه موقع جديد لم يذكر سلفا ممثلا الطوبونيم المرتبط بالتضاريس أو الأورونيم²، والمطبوع بالصبغة الصوفية (خنقة سيدي ناجي)، وهو الموقع الدلالي للحدود الشرقية للزاب من خلال المواقع الواردة في وصف الرحلة: غزران (غسران) جنوب نقرين (تبسة) وكذا مجالات خنشلة عند بابار عبر الطريق الوطني رقم 83 انطلاقا من المواقع التاريخية الأثرية: بادس-القصر- ليانة. والطريق من مجالات النمامشة الجنوبية إلى توزر ثم نفطة (تونس)³.

وتؤشر نهاية القرن 12هـ/18م على الرحلة الحجية لمحمد بن عبد السلام الناصري التامكروتي السجلماسي (ت1239هـ/1823م) المسماة: الرحلة الناصرية الكبرى، ابتدئها في صائفة 1196هـ/1782م، منطلقا من موطنه تامكروت بإقليم سجلماسية، ويورد الناصري في رحلته جملة من النصوص المتعلقة ببلاد الزاب العثمانية، و: "الزاب اليوم في عرف أهله على قسمين: غربي، وهو الذي في غرب بسكرة؛ وشرقي ما في شرقيها إلى بادس"⁴. وبسكرة قاعدة الزاب: "من أمهات المدن كمراكش وفاس ومكناسة"⁵.

1 الورثاني، نزهة الأنظار، ص 94 و105 و117.

2 Farid. B, « Microtoponymie de souche arabe: période médiévale - xxème siècle, Étude de cas: la région de Tiaret (Tihart / Tahart) », CRASC Oran, Algérie, p. 142 ; « La toponymie de l'ouest algérien: de l'Homme, de l'habitat, du relief et de l'eau », CRASC Oran, Algérie, p. 104-105.

3 نفسه، ص 107 و120.

4 الناصري، الرحلة الكبرى، ص 240.

5 نفسه، ص 225.

من الناحية المجالية يعتبر الناصري موقع سيدي خالد هو أول بلاد الزاب الغربي¹: "وهو قرى كثيرة متصلة ذات أشجار ومياه منوعة"²، ويظهر حد المجال الغربي مرتبطا بمجالات الأغواط عبر المسلك إلى البيض من خلال المدن الواردة في نصوصه الوصفية: عين ماضي³، تجموت، الأغواط⁴ من مجالات الأغواط وحدودها مع البيض بموقع الوادي الأحمر والغاسول⁵، كما يشمل حد مجالها الغربي إلى حدود مجالات أولاد نايل من خلال ورود موقع واد الحميضة (واد مسعد)، دمت (قصر دمد)، البرج (قصر برج المهاش)⁶. ويقدم لنا الناصري المدن المشكلة للزاب الغربي قبل مغادرته باتجاه قاعدة الزاب بسكرة، ويحصرها في: سيدي خالد، أولاد جلال، زاوية الأخضرى أو منطيسوس (بنطيسوس)، أوماش، طولقة، واد أمز= واد أجد (وادي الجدي)⁷. والزاب الشرقي مجال واسع إلى الشرق من بسكرة، ويذكر الناصري حدوده عند جنوب تبسة، من خلال ذكره: موقع غيسران جنوب نقرين على المسلك المؤدي إلى الجنوب الغربي لتوزر عبر: الشبيكة، والسبخة. أما المدن المشكلة للزاب الشرقي، فيذكرها عبر مسار رحلته إلى جريد تونس انطلاقا من قاعدة الزاب بسكرة: فلياش، سيدي عقبة، جبل حمر خد (مشونش)، زريبة الوادي، أليانة (ليانة)، خنقة سيدي ناجي، زريبة حامد⁸.

1 الناصري، الرحلة الكبرى، ص 218-219.

2 نفسه، ص 219.

3 نفسه، ص 194 و203.

4 نفسه، ص 205.

5 نفسه، ص 198.

6 نفسه، ص 208.

7 نفسه، ص 219-226.

8 نفسه، ص 219 - 220 و229 و240-241.

ثالثا- الفضاء البسكري وواحاته مع نهاية العهد العثماني

قبل أفول العهد العثماني، تبرز رحلة حجازية بخصوصيتها الجزائرية، ممثلة في رحلة إبراهيم بن بحمان الثميني اليسجني المصعبي الميزابي (ت1232هـ/1817م) الموسومة برحلة المصعبي¹ مبتدئا من بني يسجن (وادي ميزاب) إلى الحجاز سنة 1196هـ/1782م، وقد احتوت الكثير من التسجيلات والمعلومات التاريخية المتعلقة بأواخر فترة حكم العثمانيين للجزائر، لهذا تعتبر من أبداع الرحلات الحجازية وأجملها في تلك المرحلة². ويورد المصعبي تقييدات عن بلاد الزاب منطلقا من مسقط رأسه عبر الطريق إلى مجمع ركب الحج (بسكرة)، فبعد أن يعبر بني يزقن- غرداية ينتقل إلى الأغواط ثم الفج ثم الزاب الغربي، ثم إلى قاعدة الزاب وملتقى الحجاج بسكرة، ومنها إلى قابس ببلاد تونس عبر الزاب الشرقي (الزرايب) من طريق توزر³.

وتؤشر بداية القرن 13هـ/19م في فترة يتدرج الحكم العثماني على الزاب إلى نهايته، على واحدة من الرحلات المهمة لرحالة جزائري آخر ذو الأصل البسكري هو محمد بن أحمد بن عزوز البرجي الحسني الادريسي البسكري

1 رحلة المصعبي، تحقيق: يحيى بن بهون حاج أحمد، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م (الجزائر عاصمة الثقافة العربية). وقد أعيد طبعه بمناسبة تلمسان عاصمة الثقافة الاسلامية: رحلة المصعبي، تحقيق وتعليق يحيى بن بهون حاج احمد، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م. (رحلات إباضية: رحلات جزائرية 2).

2 بعلي الحفناوي، الرحلات الحجازية المغاربية: المغاربة الأعلام في البيت الحرام، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2018م، ص 455.

3 يراجع: المصعبي، الرحلة، ط 2007، ص 54/ المصعبي، الرحلة، ط 2011م، ص 44-54 (تفاصيل الرحلة) وص 102 (خريطة رحلة المصعبي إلى الحجاز)؛ رشيد حفيان، الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغاربية وأثرها الحضاري في العهد العثماني 11-12هـ/17-18م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة-الجزائر، 2013/2014م، ص 25.

(ت1233هـ/1818م)¹، وهي إحدى رحلات آل بن عزوز البرجية الحجازية، وكان مبتدئها مسقط رأسه البرج (برج بن عزوز) في الجنوب الغربي لبسكرة سنة 1232هـ/1817م، انطلق بن عزوز في موكب حجه رفقة تلامذته الكاملين سيدي علي بن عمر الطولقي، وسيدي عبد الحفيظ الخنقي، وكذا مرافقهم سيدي مبارك بن خويدم²، وتظهر صورة الزاب في الرحلة من خلال مدنه، فالزاب الغربي منطلق الرحلة تمثله مدن برج بن عزوز وطولقة وليشانة قبل الولوج إلى مجمع الحجاج وقاعدة الزاب بسكرة، كما تظهر صورة الزاب الشرقي في خنقة سيدي ناجي.

وإضافة إلى رحلته الأولى³ إلى الحجاز الموسومة ب:"الرحلة العريضة لأداء حج الفريضة"⁴، التي كانت في حدود 1265هـ/1848م، حاول أبو حامد محمد العربي بن علي المشرفي⁵ الكرطي المعسكري (ت1313هـ/1895م) إعطاء صورة لبلاد الزاب، وهذا لمعايشته نهاية عهد العثمانيين وبداية العهد الفرنسي من خلال رحلته⁶: "ذخيرة الأواخر والأول في أخبار الدول" سنة

1 أحمد بن داود الأخضر، العقد الجوهري في التعريف بالقطب الشيخ عبد الرحمن الأخضرى ويلييه شرح أم البراهين ويلييه أزهر المطالب، تحقيق: لحسن بن علجية، دار الكتب العلمية، 2018م، ص 42.

2 الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيارفوننتان الشرقية، الجزائر، 1906م، ص 475-476: الحفناوي بعلي، الرحلات الحجازية، ص 456.

3 حول الانتاج المخطوط للمشرفي، يراجع: أبو القاسم سعد الله، مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر"، مجلة الثقافة الجزائرية، 75 (1983)، ص 75-86.

4 خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ج4، ص 224.

5 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص 99.

6 مخطوط، مكتبة الخزنة العامة، الرباط، رقم 2659. يصف المخطوط أبو القاسم سعدالله: "...يحتوي على 58 صفحة (ورقة ا) مكتوبة بخط جميل على ورق كراس عادي...ويوجد عليه تملك

1294هـ/1877م¹، وقد انتهى من تدوين رحلته سنة 1299هـ/1882م تقديم نظرة عن بلاد الجزائر² في جزء خاص في رحلته (من أولها إلى حدود الصفحة 25)³، وجاء فيها حديث عن إقليم الزاب ومجاليه الجغرافي.

وينقل لنا عبد الحق شرف النص المقتبس حول إقليم الزاب من (مخطوط الذخيرة للمشرف، ص 25)، وفي مجمله أن: إقليم الزاب مدائن وقرى كثيرة، وبسكرة قاعدته، أما حده الغربي فهو يمتد إلى حدود الجريد التونسي باتجاه توزر ونفطة كما ورد في الرحلات الحجازية سألقة الذكر، ويمتد إلى حدود سوف دقلة نور الموازي لحدودها مع الجريد، وانطلاقاً من المسلك الزاب عبر شط ملغيغ باتجاه سوف. أما الزاب الشرقي فينتهي إلى حدود المجالات الواقعة إلى شرق جبل عمور وهي مجالات أولاد نايل والأغواط من خلال ذكره لمواقع عين ماضي، والأغواط⁴.

خاتمة

من خلال النصوص التي تم جمعها وعرضها سلفاً، انتهينا إلى أن بلاد الزاب أو الزيبان قرى ومدن ووحدات واسعة كانت خلال العهد العثماني

مكتوب بخط أفرنجي (لاتيني) منقوش على المطاط...". أبو القاسم سعد الله، "مؤلفات المشرفي العسكري": أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990م، ج2، ص 183.

1 الزركلي، الأعلام، ج4، ص 224: حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية، ص 464.

2 وهي الرحلة الموسومة بـ "الرحلة الجزائرية" التي نقلها لنا أبو القاسم سعد الله عن عبد السلام بن سودة في كتابه دليل مؤرخ العرب، ط 1950م، ص 395، ذكر فيها أن للمشرفي رحلة إلى بلاد الجزائر تقع في مجلد، وكذلك أخبر بذلك بن محمد الهواري من خلال مقاله في مجلة العرب السعودية، عدد 1972، ص749. أبو القاسم سعدالله، "مؤلفات المشرفي العسكري": أبحاث وآراء، ج2، ص 185.

3 أبو القاسم سعدالله، "مؤلفات المشرفي العسكري": أبحاث وآراء، ج2، ص 183.

4 عبد الحق شرف، "الجزائر في عيون الرحالة الجزائريين خلال القرن التاسع عشر الرحالة المشرفي أنموذجاً"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، 10(2013)، ص 174.

محطة مهمة للرحلات الحجازية عبر مواقع عديدة، من خلال تفردا بثلة من العلماء والفقهاء والأدباء، كما اختصت بمقامات وقبب وزوايا لشخصيات مقدسة على غرار: زاوية سيدي عبد الرحمن الأخضر وأضرحة عائلته ببنطوس قرب المخادمة، وضريح سيدي خالد بن سنان بسيدي خالد، ومقام ومسجد سيدي عقبة بن نافع الفهري بسيدي عقبة، وقبة سيدي زرزور الفارسي عند وادي بسكرة، وعائلة سيدي ناجي وابن ناصر بمدريتهم الناصرية بخنقة سيدي ناجي.

مع نهاية ق10هـ/16م وحتى ق13هـ/19م، ومع نهاية العهد العثماني انحصر مجال بلاد الزاب أو الزيبان في الفضاء البسكري وواحاته، بتواصل قاعدته العتيقة بسكرة، وزاين شرقي وغربي: أما الأول، فحدوده تنتهي بحسب النصوص الجغرافية والوصفية إلى مجالات أولاد نايل من خلال ما ذكر من مواقعها: البطمة (فيض البطمة)، واد الحميضة (واد مسعد)، دمت (قصر دمد)، البرج (قصر برج المهاش) وعين الحواجب، ومجالات الأغواط شرق جبل عمور من خلال ما ذكر من مواقعها: عين ماضي، تجموت، الأغواط. وأما الزاب الغربي فارتبط عبر المسلك الجنوبي مع الحدود الجنوبية لتبسة من خلال ما ذكر من مواقعها: جارش، غيسران، والمسلك الممتد إلى الجريد وتحديدًا توزر من خلال ما ذكر من مواقع: الشبيكة؛ ويمتد الزاب جنوبًا إلى حدود مجالات سوف عبر شط ملغيغ مصب (وادي الجدي) الذي مبتدئه الأغواط من مجرى (وادي أمز).

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

أ-المصادر المخطوطة:

مخطوط رحلة اليوسي (الحجازية)، مركز ودود للمخطوطات، رقم 3128.

ب-المصادر المطبوعة:

البكري، المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج2.

- الحضبيكي، الرحلة الحجازية، تحقيق: عبد العالي لمدير، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 2011م.
- الدرعي، الرحلة الناصرية، تحقيق وتقديم: عبد الحفيظ ملوكي، دار سويد للنشر والتوزيع، 2011م.
- العدواني، تاريخ العدواني، تحقيق وتقديم: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب، بيروت، 1996م.
- العياشي، ماء الموائد (الرحلة العياشية)، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات، 2006م، ج2.
- كربخال، إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرين، دار النشر المعرفة، الرباط، 1989م، ج3.
- المجاعي، رحلة المجاعي، تحقيق: سعاد آل سيد الشيخ، مركز جمعة الماجد، دبي، 2017م.
- المصعبي، رحلة المصعبي، تحقيق: يحيى بن بهون، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م.
- الناصر، الرحلة الناصرية الكبرى، تحقيق: المهدي الغالي، دار أبي رقرق، الرباط، 2013م.
10. الورثيلاني، نزهة الانظار المشهورة بالرحلة الورثيلانية، ببيروتنا الشرقية، الجزائر، 1908م.
11. الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي والأخضر، دار الغرب، بيروت، 1983، ج2.
12. اليوسي، رحلة اليوسي، تحقيق: أحمد الباهي، منشورات بيت الحكمة، تونس، 2018م.
13. Shaw. Th, *voyage dans la régence d'Alger*, Editeur marlin, Paris, 1830.

2- المراجع:

أ-باللغة العربية:

- ابن داود أحمد الأخضر، العقد الجوهري في التعريف بالقطب الشيخ عبد الرحمن الأخضرى ويلييه شرح أم البراهين ويلييه أزهر المطالب، تحقيق: لحسن بن علجية، دار الكتب العلمية، 2018م.
- آل سيد الشيخ سعاد، "رحلة عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاعي نموذج الرحلة الحجة النظامية خلال القرن 11هـ/17م"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، 20 (2014).
- الحفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغاربية: المغاربة الأعلام في البيت الحرام، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2018م.
- الحفناوي محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيارفونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م.
- حفيان رشيد، الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغاربية وأثرها الحضاري في العهد العثماني 11-12هـ/17-18م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة-الجزائر، 2013/2014م.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ج4.
- زوهري وليد، "أدب الرحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة-دراسة وصفية تحليلية-"، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، 1 (2012)، ص 149-169.
- زياني الصادق، "الحركة الصوفية لسعادة الرحمانى وعلاقتها بمجتمع وطوبونيميا بلاد الزاب على العهد الحفصي"، أعمال الملتقى الوطني حول التصوف والمتصوفة في الغرب الإسلامي، دار نور للطباعة والنشر، سرايبروغ-ألمانيا، 2018م، ص 226-236.

زياني الصادق، "نصوص جغرافية وتاريخية من كتاب المسالك والممالك المفقود لمحمد بن يوسف الوزاق (ت.363هـ/974م) مجموعة من كتابي المغرب للبكري والبيان لابن عذارى المراكشي"، المجلة التاريخية الجزائرية، 7-2 (2023)، ص 159-178.

زياني الصادق، الجغرافية التاريخية لبلاد الزاب من نهاية الفتح الاسلامي إلى نهاية القرن 9هـ/15م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط: المغرب الأوسط وحضارته، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة/الجزائر، 2019م. زياني الصادق، "الطوبونيميا بالزاب العثماني: المواقع المرتبطة بالتصوف..."، مجلة الابراهيمي، 3 (200)، ص 27-46.

زياني الصادق، "تاريخ الأوبئة بالفضاء البسكري ووحداته بين 10 و13هـ/16-19م من خلال كتابات الرحالة": سلسلة أعمال المؤتمر-الأوبئة عبر التاريخ-، دار خيال للنشر والترجمة، الجزائر، 2021م، ص 122-135. سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990م، ج2. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج2. سعد الله أبو القاسم، مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر"، مجلة الثقافة الجزائرية، 75 (1983)، ص 75-86.

سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، 2009م.

شرف عبد الحق، "الجزائر في عيون الرحالة الجزائريين خلال القرن التاسع عشر الرحالة المشرفي أنموذجا"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، 10 (2013)، ص 159-180.

عمارة علاوة، "بين جبل أوراس والواحات: ظهور وانتشار واختفاء الجماعات الإباضية بالزاب (ق2-3 هـ / 8-9م)، ترجمة: عبد القادر مباركية، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، 9 (2017)، ص 244-281. القدوري عبد المجيد، ابن أبي محلي الثائر ورحلته الإصليية الخريت، منشورات عكاظ، الرباط، 1991م. معلم صلاح الدين، الموارد المائية واستعمالاتها بدائرة طولقة (ولاية بسكرة)، ماجستير في تهيئة الأوساط الفيزيائية، جامعة منتوري-قسنطينة، الجزائر، 2010/2011م.

ب-بالغة الأجنبية:

Abdelffatah. N, «Toponymes maghrébins», *Cahiers de sociolinguistique*, 11 (2006/1), p. 117-143.

Farid. B, « Microtoponymie de souche arabe: période médiévale - xxème siècle, Étude de cas : la région de Tiaret (Tihart / Tahart) », *CRASC Oran, Algérie*, 2005, p. 117-157.

Farid. B, « Espace signe et identité au Maghreb. Du nom au symbole », *Insaniyat*, 9 (1999), p.1-4.

Farid. B, « La toponymie de l'ouest algérien: de l'homme, de l'habitat, du relief et de l'eau », *CRASC Oran, Algeria*, 2013, p. 103-110.

Mohand. T, « Toponymie et aménagement linguistique : vers une terminologie amazighe? », *Iles d Imesli*, 4-1 (2012), p. 81-116.

Pellegrin. A, *Essai sur les noms des lieux D'Algerie et de Tunisie (Etymologie, Signification)*, Edition S. A. P. I, Tunis, 1949

أساليب تعيين حاكم الجزائر خلال عصر الدايات (1671م-1830م)

د. هشام بن سالم

المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة

مقدمة

من أبرز ملامح الحكم العثماني في الجزائر هو طول المدة التي استغرقتها، حيث عمر أكثر من ثلاثة قرون، وتميز بتعاقب أربع مراحل، اختلفت من حيث المدة الزمنية والأحداث والوقائع والتغيرات والتحولات في جميع الميادين، كما يعد الحكم العثماني في الجزائر حكما من نوع خاص، إذ اختلف عن غيره في البلدان والولايات التي خضعت للعثمانيين، فلم تعرف الجزائر الحكم الوراثي أو حكم العائلات، بل ظل حكما متداولا بين طائفتي رياس البحر وضباط الإنكشارية.

إنَّ الحديث عن أساليب تعيين حاكم الجزائر خلال عصر الدايات (1671م-1830م) يجرنا لتسليط الضوء عن مسألة شائكة في تاريخ الجزائر الحديث، تتمثل في مدى تطور الفكر السياسي ونضجه ومسايرته لتغيرات ذلك العصر، وقدرة دايات الجزائر على التعامل مع مختلف القضايا والأحداث والوقائع وسياسة الرعية، فمنذ إعلان الجزائر كمقاطعة تابعة للسلطان العثماني في إسطنبول، كان حاكم الجزائر يعين من قبل الباب العالي سواء في فترة البيلربايات (1519م-1588م) أو فترة الباشوات (1588م-1659م)، في حين كان عصر الأغوات (1659م-1671م) محاولة جدية لاختيار حاكم الجزائر دون موافقة السلطان العثماني، وصولا إلى عصر الدايات الذي

جسد فعلا استقلالية في اختيار وتعيين من يحكم الإيالة.

يعد عصر الدايات أطول فترات الحكم العثماني في الجزائر، شهدت فيه الإيالة محطات حاسمة وتطورات كبيرة وتغيرات جذرية، أبرزها تعيين الداوي من طائفة رياس البحر، بإشراف الديوان العسكري والقاضي والمفتي الحنفيين ونقيب الأشراف وأعيان مدينة الجزائر، وإلغاء منصب الباشا العظيم ممثل السلطان العثماني، وانفراد عثماني الجزائر بقرار التعيين، بالإضافة إلى تطور قوة الجزائر على المستوى الخارجي، وذلك بالتدخل في شؤون إيالة تونس وعقد المعاهدات والاتفاقيات مع الدول الأوروبية، كما تم تحرير وهران والمرسى الكبير 1792م، وبالمقابل تحطم الأسطول البحري وتراجع مداخله، وانفجار الثورات ضد حكم الدايات، بالإضافة إلى الحصار البحري الفرنسي واحتلال الجزائر سنة 1830م.

تكمن أهمية الموضوع في استكشاف أبرز الأساليب المتبعة في اختيار وتعيين حاكم الجزائر في عصر الدايات، والتعرف على طبيعة هذا نظام ومدى مساهمته لمتطلبات العصر وصموده في وجه الهزات، مما يجعله جديرا بالدراسة.

والإشكالية التي يتمحور حولها هذا الموضوع هي: لماذا بلغت الجزائر في عصر الدايات مبلغا عظيما من القوة والعظمة، ثم لماذا تلاشت هذه القوة؟ هل يرجع هذا لطبيعة نظام حكم ومنظومته؟ أم أنّ هذا النظام لم يعد يواكب متطلبات ذلك العصر؟

وتنبثق عن هذه الإشكالية التساؤلات التالية:

- ما هي ظروف وملابسات قيام حكم الدايات؟

- كيف كان يتم تعيين الداوي؟

- من هم أهم الدايات الذين تداولوا على حكم الإيالة؟

1-قيام حكم الدايات سنة1671م

بدأ عصر الدايات بعد نهاية عصر الآغوات (1659م-1671م)¹، هذا العصر الذي يشكل مرحلة انتقالية بين عصري الباشوات والدايات، حاول خلالها هذا النظام إيجاد نوع من التوازن والمرونة والتداول داخل مختلف أجهزة وأجنحة المؤسسة العسكرية المسيطرة على السلطة، كما يعد هذا العهد عهد تسلط ضباط الجيش البري على الحكم، ويمثل أحلك فترة في تاريخ الحكم العثماني في الجزائر²، غير أنَّ الثورة التي انتهت باعتلاء الآغوات لسدة الحكم لم تستطع أن تأتي بنظام مستقر ودائم، ولذلك لم يدم الحكم الجديد سوى 12 سنة، سقط خلالها الآغوات الأربعة الذين وصلوا إلى العرش بسيوف الإنكشارية³.

تعتبر سنة 1671م فاتحة لعهد جديد، نظرا لأن نظام حكم الآغوات حمل بذور فنائه، فقد قام هذا النظام على أساس الانقلاب على آخر باشا معين من قبل السلطان العثماني، وكذلك بسبب الطريقة التي انتهجت في اختيار الأغا حاكم الإيالة، كما أنَّ الآغوات لم يؤسسوا لأنفسهم قاعدة شعبية متينة ولم يعطوا لحكمهم بعدا جماهيريا يركزون عليه، لذلك ضاق الجميع بهم ذرعا، وأصبح الاستمرار في هذا النظام يؤدي إلى عهد مليء

1-الآغا: كلمة فارسية استعملها الأتراك كلقب شرفي معناه العظيم أو الأمر أو الرئيس أو السيد، وله معاني كثيرة في اللغة التركية، ينظر: الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، الجزء 03، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، دت، ص 157.

2-هلايلي حنفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط 1، الجزائر، دار الهدى للنشر والطباعة، 2008م، ص 1342.

3-كان عدد الآغوات أربعة هم: خليل آغا (1659م-1660م)، رمضان آغا (1660م-1661م)، شعبان آغا (1660م-1665م)، علي آغا (1665م-1671م)، ينظر: محرز أمين، الجزائر في عهد الآغوات (1659م-1671م)، ط 1، الجزائر، دار البصائر، 2011م، ص ص 77-137.

بالثورات والتمردات وازدياد المكوس والضرائب، فما كان من طائفة رياس البحر¹، سوى التدخل لإنهاء عهد الآغوات، حيث اختاروا الحاج محمد التركي ونصبوه على عرش الجزائر، ولقبوه بلقب "الداي"². وكان نجاح رياس البحر في هذه الخطوة يعود لاعتبارات، في مقدمتها العداء التقليدي بينهم وبين الآغوات الذين يمثلون ضباط الجيش البري، بالإضافة إلى تعودهم على القيادة والحكم منذ عهد البيلربايات، وأيضا لهم دالة على العامة ووجاهة في صفوفهم أكسبتهم نوعا من الشرعية بأنهم أجدر الناس بحكم البلاد وتحقيق الأمن والاستقرار³.

على الرغم من هذا التغير الجذري في نظام الحكم إلا أنَّ أغلب المؤرخين اعتبروا حكومة دايات الجزائر عبارة عن جمهورية عسكرية، نظرا لأنَّ الداى كان يصل إلى الحكم عن طريق انتخابه من طرف أقرانه العسكر⁴. وفي هذا الصدد يقول حمدان خوجة: "...الحكم في الجزائر ليس

1-الرياس: هم طائفة الجيش البحري، تأسست هذه الطائفة من عهد خير الدين بربروس الذي كون منهم ثمانية آلاف جندي، ثم ازدهرت في عهد البيلربايات، وتتألف من الأتراك والأندلسيين والجزائريين في أوائل الحكم التركي، ثم أصبحت الكثرة الغالبة منهم فيما بعد تتكون من الفئة التي اعتنقت الإسلام وهم العلوج، ينظر: بونار رابح، المغرب العربي تاريخه وثقافته، ط3، الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2000م، ص352.

2-الداي: كلمة تركية تعني الخال ولم تستخدم للدلالة على عمل وظيفي إلا في الجزائر وتونس، وكانت في بادئ الأمر لقباً تركياً، ثم استخدم لوظيفة عسكرية في الجيش الإنكشاري في الجزائر وتونس، واستعملت بمعنى الحاكم أو الرئيس، ينظر: هلايلي حنيفي، المرجع السابق، ص136.

3-جون-ب-وولف، الجزائر وأوروبا 1500م-1830م، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، 143-144.

4-رهيوي رجاء، دايات الجزائر صور وأبعاد (1671م-1830م)، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، 2007م-2008م، ص70.

وراثيا، إذ أنَّ الاستحقاق الشخصي لا ينتقل إلى الأطفال، وبعبارة أوضح نستطيع القول بأنَّ الجزائريين اختاروا مبادئ الحكم الجمهوري ورئيس الجمهورية هو الداوي...¹، وبالمقابل اعتبر البعض الآخر أنَّ نظام حكم الدايات كان أقرب إلى الملكية، بسبب تمتع الداوي بالحكم المطلق، غير أنهم ذكروا خصائص أخرى للحكومة شهوها بالجمهورية، وإن كانوا يميلون إلى فكرة كونها استبدادية ملكية أكثر من أي شيء آخر. وعليه حكم كل فريق على هذا النظام من خلال خاصية واحدة ليستطيع تصنيفه، فكما رأى الفريق الأول بأنَّ الحكم جمهوري لكون الداوي يصل إلى الحكم عن طريق الانتخاب، يرى الفريق الثاني أنه حكم ملكي بسبب تمتع الداوي بالحكم المطلق مدى الحياة، ومع هذا فكل فريق لم يهمل الخاصية التي اعتمد عليها الفريق الآخر، في دعم رأيه، حيث نجدهما يستعيران ويتبادلان المصطلحين في كتاباتهم². ومع ذلك يمكن القول أنَّ نظام حكم الدايات أشبه بحكم الأوليغارشية (حكم القلة)، أو حكم الطبقة العسكرية الممتازة³، الأمر الذي يجعل الباحث يتسأل عن طبيعة نظام حكم الدايات، فيمكننا حينئذ الاستئناس برأي الدكتور محمد العربي الزبيري الذي يقول: "... والواقع أنها لم تكن هذه ولا تلك (إشارة إلى الحكم الجمهوري والحكم الملكي)، وإنما كانت تحكم بنظام من نوع خاص لم يعرف في أي بلد آخر، وأهم ميزاته أنه كان يجمع بين الصبغة المدنية والعسكرية، تتجلى الصبغة المدنية في أنَّ الداوي كان دائما يلجأ إلى العلماء لحل المشاكل العويصة، ولا يستطيع

1- بن عثمان خوجة حمدان، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق الدكتور محمد العربي الزبيري، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982م، ص127.

2- رهيوي رجا، المرجع السابق، ص71.

3- المرجع نفسه، ص72.

مخالفهم في شيء. أما الصبغة العسكرية فتتمثل في الديوان الذي يعين الداى أو يعزله، والذي كان يتكون من غالبية عسكرية، وأنه كان حكما جماعيا شوريا في القمة، وفرديا مطلقا في القاعدة، تبدأ القاعدة في نظرنا من البايات وتشمل أعوانهم والقواد والمشايخ، لقد كانوا جميعا مستبدين بالأمر...¹، ولا ننسى الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي اعتبره نظاما جمهوريا عسكريا مغلقا، فهو جمهوري لأنَّ منصب الحاكم انتخابي وليس وراثيا، وهو عسكري لأنَّ الحاكم كان من العسكريين، وهو مغلق لأنه نظام لا يسمح فيه إلا للوجع بممارسة السلطة حيث أن حكام الجزائر العثمانيين كانوا من خارج البلاد².

يعد منصب الداى أعلى منصب في جهاز حكم إيالة الجزائر، فهو رئيس الدولة وقائد القوات النظامية الإنكشارية، وكانت مهامه تشمل الإشراف على اجتماعات الديوان وشؤون الإدارة العامة، كما يعين البايات على رئاسة البايلكات، والموظفين الرسميين في مختلف مناصب الحكومة المركزية، وهو صاحب القرار في تسير الشؤون الخارجية، فيعلن الحرب ويوقع معاهدات السلام ويحدد أو يفرض حقوق الاستغلال للشركات الأجنبية ويتلقى الضرائب والإتاوات المختلفة من الدول الأوروبية. وقد أوجبت هذه المهام على الداى مواصلة الحضور في جلسات ديوان الموظفين من أول النهار إلى الساعة التاسعة صباحا وهي وقت الفطور³، ثم يعرج على كاتبه الخاص فينفرد به حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة مساء ليفحص ويتحقق ويسوي جميع الأمور التي لا تتصل باختصاص القاضي، أما القضايا ذات الطابع

1- التجارة الخارجية للشرق الجزائري، د.ط، الجزائر، الشركة الوطنية والتوزيع، 1972م، ص19.

2- رهيوي رجا، المرجع السابق، ص72.

3- Venture De Paradis, Alger au 18siècle, édité par E.Fayon, Alger, 1868, p09.

الديني والثقافي فكان يسند البحث فيها إلى رجال العلم والإفتاء من شيوخ وقضاة¹.

إنَّ الامتيازات المالية التي كان يتمتع بها الداي تتكون أساساً من الراتب الذي يتقاضاه عن رتبته العسكرية، وهو أربعون رغيفاً يسلمها له شيخ البلد، بالإضافة إلى ما كان يتقاضاه من هدايا وعوائد من قناصل الدول أو من البايات والقياد المحليين عند زيارتهم لدار السلطان، زيادة عن المؤونة التي كانت تتكفل بها الدولة له ولموظفيه وهي تتمثل في ضروريات العيش من حبوب وفواكه ولحم ضأن وسكن². إذن فقد تباينت مداخيل الداي وموارده المالية، حيث كانت غير مستقرة ومحدودة ومتأثرة بالمناسبات والظروف، وعلى الرغم من هذه المداخيل المحدودة فإنَّ نهاية الدايات غالباً ما تكون محزنة، ففي صورة ما إذا تعرض الدايات لغضب الجنود ونقمة الوشاة، فإنَّ أموالهم تصادروا وتعرض عائلتهم وأبنائهم وأقاربهم للانتقام، أما في حالة وفاتهم فإنهم يحظون بالتمجيد وتحفظ نساؤهم وأولادهم بما عندهم في المنازل ولا يرث البايك من ثروتهم إلا ما وجد منها في القصر³، وفي هذا الصدد يقول شارل أندري جوليان: "...لقد كان الداي رجلاً ثرياً لا يتصرف في كنوزه وأباً يدون أولاد وزوجاً بلا زوجة وطاغية غير حر وملكاً لعبيده وعبداً لرعاياه..."⁴.

1- سعيدوني ناصر الدين، موظفو الإيالة الجزائرية في أوائل القرن التاسع عشر، صلاحياتهم الإدارية، مهامهم الاقتصادية والاجتماعية، مجلة المؤرخ العربي، العدد 31، السنة الثانية عشرة، تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1987م، ص 183-184.

2- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي، البشير سلامة، الدار التونسية للنشر، 1983م، ص 375.

3- سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص 184.

4- شارل أندري جوليان، المصدر السابق، ص 376.

وقد تعززت سلطة الداوي بعد إلغاء منصب الباشا مبعوث السلطان الشرفي سنة 1711م بعد أن رفض الداوي علي سوكلي استقبال مبعوث إسطنبول شركان إبراهيم باشا، ومنذ ذلك الحين صار الدايات يحكمون بمطلق الحرية، كما أن الباب العالي أصبح لا يقوم بأي دور في اختيار داوي الجزائر وظل دوره ينحصر في إصدار مرسوم (فرمان) لتثبيت اختيار الديوان العسكري بالجزائر¹، فأضحى الداوي يجمع بين وظيفة الداوي ومنصب الباشا الشرفي، فهو ممثل أترك الجزائر وفي نفس الوقت ممثل للسلطان العثماني²، لذلك منح الدايات رتبة الباشا ذي الثلاث شرطات³.

2- أساليب تعيين الدايات

كان تعيين الداوي أمرا بالغ الأهمية في هذه الفترة، ولكن هل اتبعت أساليب محددة بذاتها في اختيار وانتخاب الدايات الذين تولوا حكم إيالة الجزائر؟، أم أنه أصبح ملكا جبريا وراثيا آن واحد؟، غير أن الواقع يظهر عدم اتباع أسلوب محدد ومضبوط لاختيار الداوي وتعيينه، لذا سنستعرض دايات الجزائر الذي تولوا هذا المنصب ونتعرف على ضوء ذلك على أساليب تعيينهم كما يلي:

أ- أسلوب الاختيار

من الدايات الذي اعتلوا عرش الإيالة بأسلوب الاختيار، نجد الداوي

1- سبنسر وليام، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة عبد القادر زبادية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م، ص 77.

2- صالح عباد، المرجع السابق، ص 277.

3- بعد سنة 1711م لم يعد دايات الجزائر ملزمين إزاء الدولة العثمانية إلا بالخطبة وضرب السكة باسم السلطان العثماني مقابل تمتعهم بالألقاب الشرفية مثل لقب "ميرمران" الذي يخول لحامله الحصول على نيشان ذو الطيريف والتزول منزلة بيلرباي الرومي، وهو أعلى منصب إداري في الدولة العثمانية، ينظر: سعيدوني ناصر الدين، موظفو...، المرجع السابق، ص 183.

الحاج محمد التركي الذي يقول عنه جون ب. وولف: "...وهنا اقترح بعضهم أن يكون الحاج محمد، الذي هو رجل متقاعد وغني جدا، والذي كان محل احترام الجميع باعتباره رجلا نزيها، والذي من الممكن أن يوفر دراهم يدفع بها أجور الإنكشارية- هو الذي يجب أن يطلب منه تولي السلطة، وقد توجه الجمع الحاشد إلى محل إقامة الحاج محمد. ولم يكن هو يعرف، أو على الأقل ادعى أنه لم يعرف، ما إذا كانوا يهاجمون منزله أو كانوا قادمين لتكريمه. ولما عرضت عليه مهمة السلطة رفض في أول الأمر ثم أعاد النظر أساس أن صلاحياته ستكون مطلقة. ولم يرغب هذا الرئيس الحاج في حمل لقب الأغا. ولذلك أصبح دايا...¹، كان هذا الداى غنيا ومتقاعدا ومحل احترام الجميع، كما أنه لم يحاول الاستئثار بالحكم شخصا، بل كان صهره بابا حسن هو الحاكم الحقيقي نظرا لما قام به من تعديلات فيما يخص الوزراء ورجال السياسة الذين أصبح لهم دور كبير في تسير شؤون الدولة بدلا من استئثار الديوان بها². وتم اختيار الداى بابا حسن (1697م-1700م) بعد وفاة الداى الحاج أحمد³. وكذلك الداى الحاج مصطفى (1700م-1705م) الذي اختير كداى للجزائر بعد اعتزال الداى بابا حسن، وقد اعتبرت الكيفية التي اعتزل بها الداى السابق، وتولى بها هذا الداى، مثالا رائعا للاعتدال، يكون من العبث البحث عنه ثانية في تاريخ الإيالة⁴.

ب- أسلوب الانقلاب العسكري: اعتمد هذا الأسلوب الداى حسين ميزومورطو أحد رياس الإيالة، حيث تخلص من الداى بابا حسن، وتبوء

1- سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص143.

2- المرجع نفسه، ص144.

3- رهيوي رجا، المرجع السابق، ص35-36.

3- المرجع نفسه، ص37.

مكانه في حركة جريئة سريعة سنة 1683م، بعد أن كان أسيرا لدى دوكين، وبعد ثلاثة سنوات تلقى من الباب العالي قفطان رتبة الباشا، فتخلى عن منصب الداى وتولى منصب الباشا العظيم ممثل السلطان العثماني¹. أما الداى الحاج شعبان خوجة فهو الآخر وصل إلى الحكم عن طريق تزعمه للتمرد ضد حسين ميزومورطو، وتخلص منه، وتم تعيينه دايا في 24 ذي الحجة 1101هـ/ 28 سبتمبر 1690م²، كما تولى الداى الحاج أحمد عرش الإيالة بعد تمرد قاده الجنود ضد الداى شعبان، حيث أنزلوه من العرش وسجنوه، ثم أمر الحاج أحمد بشنقه³. ومن الدايات الذين حكموا الجزائر نتيجة تمرد العسكر الداى حسين خوجة (1705م-1707م)، إذ تولى الحكم بعد خنق الداى مصطفى على يد جنوده، وقام حسين خوجة بتعذيب زوجة الداى مصطفى وابنته للحصول على أمواله من أجل إسكات ثورة الجند ولو لوقت قصير⁴. وكذلك تولى الداى محمد خوجة باكداش (1707م-1709م) الحكم بعد أن نفى الداى حسين خوجة إلى بجاية⁵، ثم تعرض هو نفسه للقتل بسبب تمرد الجند، حيث شارك إبراهيم دالي في قتله وتولى مكانه عرش الإيالة حيث اعتلاه وهو يلبس قفطان الداى المقتول ملطخا بدمه⁶، لكن انتهى به المطاف بالقتل والتمثيل بجثته، وتولى مكانه الداى علي سوكلي (1710م-1718م)⁷.

1- رهيوي رجاء، المرجع السابق، ص30-31.

2- المرجع نفسه، ص32.

3- المرجع نفسه، ص35.

4- المرجع نفسه، ص39.

5- المرجع نفسه، ص40.

6- المرجع نفسه، ص42.

7- المرجع نفسه، ص43.

تولى الداى كور عبدي (1724م-1732م) حكم البلاد بعد مقتل الداى محمد على يد الجنود، لكن الخزناجي المصاب بضربة سيف في رأسه أفضل مخطط المجموعة التي قضت على الداى محمد، في تعيين داى من طرفها، حيث كان أسرع منها إلى القصر، وبمعية حرس الباب قام بإجبار آغا الصبايحية الصديق الحميم للداى السابق بتولي الحكم¹. ويعد الداى أحمد خوجة (1805م-1808م) ممن تولوا حكم الإيالة عن طريق التمرد بسبب عزل الداى مصطفى له من منصب الدفتر دار²، أما الداى علي خوجة الغسال (1809-1808م) فقد تولى حكم بعد مقتل الداى أحمد خوجة، إذ بايعه الجنود باعتباره مسؤول التشريفات في القصر³، وانتهى به المطاف إلى القتل، حيث تولى مكانه الداى علي خوجة شريف 1809م-1815م⁴، كما وصل إلى منصب الداى، عمر آغا (1815م-1817م) بعد قتله للداى الحاج محمد⁵.

ج- أسلوب الترشيح: استخدم هذا الأسلوب بشكل واسع في عصر الدايات، حيث كان الداى يرشح شخصا من رياس البحر قد تدرج في مناصب الدولة، فإذا بلغ منصب الخزناجي صار المرشح الأول لتولي منصب الداى، كالداى محمد (1718م-1724م) الذي كان خزناجي الداى علي سوكلي، حيث انتخب ليلة وفاة هذا الأخير، وأعلن الأمر في الصباح دون إراقة الدماء⁶. كإبراهيم أفندي (1732م-1745م) الذي كان خزناجي الداى كور عبدي وصهره⁷.

1- رهيوي رجاء، المرجع السابق، ص 45.

2- المرجع نفسه، ص 82.

3- المرجع نفسه، ص 59.

4- المرجع نفسه، ص 60.

5- المرجع نفسه، ص 62.

6- المرجع نفسه، ص 44.

7- المرجع نفسه، ص 47.

وكذلك الداى إبراهيم خوجة (1745م-1748م)¹، وأيضاً الداى علي باشا بوصباى (1754م-1766م) هو الآخر شغل منصب الخزناجى مدة سبع سنين، وكان له خبرة كبيرة فى تدبير أمور الدولة ومعرفة دقيقة بأحوال البلاد وأهلها²، وحتى الداى محمد عثمان باشا (1766م-1791م) كان خزناجياً³، بالإضافة إلى ابن أخيه الداى سيدي حسن (1791م-1798م) الذي تولى بعده⁴، ونفس الأمر ينطبق على قريب هذا الأخير الداى مصطفى (1798م-1805م)⁵، وفي سنة 1815م تولى الخزناجى الحاج محمد منصب الداى مرغما بعد أن فوجئ بمقتل الداى علي خوجة الشريف⁶.

3-مراسيم تنصيب حاكم الجزائر فى عصر الدايات

لقد اتبعت مجموعة من المراسيم خلال عصر الدايات لتنصيب حاكم البلاد، يذكرها حمدان خوجة بقوله: "...وعندما يموت الباشا، يجتمع الديوان كما تنص على ذلك القوانين، ومن توفرت فيه جميع الشروط الضرورية يتم انتخابه ويعلن باشا ثم يجلس حيناً على أريكة الملك بعد أن يكون قد ارتدى قفطان الداى الراحل. بعد ذلك يؤدي اليمين القانونية ويحتفل بتعيينه. وعندما تنتهي عملية التنصيب يكلف أحد الأشخاص بالذهاب إلى الباب العالي للإخبار عن وفاة الباشا القديم وقيام الديوان بانتخاب الحاكم الجديد. وهذه المناسبة تكتب رسالة تحمل إمضاء وخاتم

1- رهيوي رجاء، المرجع السابق، ص 49.

2- الزهار أحمد شريف، مذكرات أحمد شريف الزهار (نقيب أشرف الجزائر)، تحقيق أحمد توفيق المدني، ط 1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م، ص 15.

3- المصدر نفسه، ص 23.

4- رهيوي رجاء، المرجع السابق، ص 55.

5- المرجع نفسه، ص 57.

6- المرجع نفسه، ص 61.

كل واحد من أعضاء الديوان وخاصة القاضي والمفتي ونقيب الأشراف، ويوافق أعيان المدينة كذلك على هذا الاختيار ويشهدون على مقدرة الشخص المعين..."¹، إذن تبدأ مراسيم تنصيب الداوي الجديد إثر وفاة سلفه، وذلك عندما يجتمع الديوان الذي يتألف من كبار الضباط وكذا الموظفين السامين في الدولة، بالإضافة لكتاب الدولة والقاضيين والمفتيين الحنفي والمالكي، وهو بمثابة برلمان يرأسه الداوي، ويعتبر صاحب الكلمة العليا. كان يحظى بعطف واهتمام الباب العالي الذي اعتبره عيناً له يراقب القيادة في الخفاء وينبئها بكل ما يجري في أرض الجزائر²، كما أنّ القواد برتبة بولكباشي هم الذين يكونون الديوان، وعددهم حوالي ستين شخصاً يجتمعون كل يوم في محل مخصص لهم بصفتهم هيئة عليا³. ويعتبر دور الديوان حاسماً، فهو يشرف على توجيه سياسة البلاد، إذ ظهر ذلك جلياً في عهد الباشاوات، فأصبح القوة الفاعلة الرئيسية في أواخر هذا العهد، ثم غدى مصدراً للسلطة في الأغاوات، وقد حاول خضرباشا أن يحد من سلطته سنة 1595م، لكنه فشل في محاولته. وفي عهد الدايات تعرض هذا الديوان لضربات عديدة أعنفها، هي التي وجهها له علي خوجة سنة 1817م في الوقت الذي كان يفقد فيه هذا الديوان نفوذه، كان دور الحكومة أو الديوان الأصغر يتقوى إلى أن أصبح هو السلطة الحقيقية⁴، وعليه يعتبر دور الديوان محورياً في نظام حكم الإيالة إذ بيده الحل والعقد وهو العين الساهرة على سير أحوال البلاد، وله اليد الطولى في اختيار الداوي وتوليته، وهو المتصرف في أمور

1- رهيوي رجاء، المرجع السابق، ص 132-133.

2- الزبيري محمد العربي، المرجع السابق، ص 60.

3- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 121.

4- عباد صالح، الجزائر خلال العهد التركي 1514م-1830م، ط3، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2011م، ص 280.

الخزينة ونفقات الجيش ومصالح الدولة، ولما بدأ دوره يضمحل شيئا فشيئا دخلت البلاد في دوامة من الفوضى والاضطراب أدت إلى سقوط الحكم العثماني نهائيا. ويقرر الديوان تنصيب الداوي الجديد الذي يتم انتخابه، حيث يعلن كحاكم جديد للبلاد ويحمل لقب الباشا الشرفي، ثم يقوم بالجلوس على أريكة الملك، وبعدها ينتقل إلى أداء اليمين من أجل مباشرة مهامه، ثم تبدأ الاحتفالات بتعيينه، وذلك بحضور أعضاء الديوان والقاضي والمفتي ونقيب الأشراف وأعيان المدينة.

لقد ذكر الشريف الزهار كيفية تنصيب الداوي محمد عثمان باشا (1766م-1791م) قائلا: "...ومن الغد يوم الاثنين قدم الدولاتلي أعني آغا العسكر، وكاهيته وكافة الديوان والمفتين والقضاة، ونقيب الأشراف، وأعيان الناس واجتمعوا بدار الإمارة، فجلس محمد باشا على كرسي الملك وبايعه العلماء، ثم نقيب الأشراف، ثم الوزراء وكافة الديوان وجميع الناس، ولبس الخلعة السلطانية، وأطلقت المدافع ثم انفض الموكب..."¹، كما أشار أيضا إلى كيفية تنصيب الداوي حسين بقوله: "...ولما مات علي باشا بالبواء، لم يطلع أحد على موته فرأى صهره السيد الحاج مصطفى بن الشيخ بن مالك أن يذهب إلى حسين بمحله بالعلي، فدخل عليه وأخذ عنه العهد أن لا يضره وأخبره بموت صهره الباشا... وذهب به إلى دار الملك، غير وقت دخول الوزراء، فلما وصلوا للعسة التي بباب دار الملك لم يقدرُوا على رده لأنه جاء مع صهر الباشا ظنا منهم أن الباشا هو الذي طلبه، ثم ذهب به إلى كرسي الملك وأجلسه عليه والخزناجي ومن حضر من العمال ينظرون... وأخبرهم بموت الباشا، وأنه أوصى بالولاية

1- الزهار أحمد شريف، المصدر السابق، ص23.

لحسين باشا، ثم تقدم هو بايعه وتقدم الوزير وكافة العمال وبايعوه...¹.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ مباشرة الدايات لمهامهم السياسية والإدارية والمالية والعسكرية له تأثير على سلوكهم وأمزجتهم الخاصة، وعلى هذا الأساس يمكن تمييز نوعين منهم:

أ-النوع الأول: كان همهم الأول تنظيم أمور الدولة والسهر على راحة الرعية، وقد غلب عليهم طابع التقشف والابتعاد عن ملذات الدنيا والرغبة في الأعمال الخيرية، مثل الداوي بابا محمد عثمان (1766م-1791م) الذي وزع ثروته التي جمعها أثناء حكمه الطويل في تشييد المسجد المقابل لقصره حيث كان يصلي الجمعة، وكذلك في تشييد القلاع والحصون لحماية مرسى الجزائر²، كما أنه عندما انتقل إلى حصن القصبة- نزولا عند رغبة الأعيان- بسبب رجوع الإسبان لقنبلة ميناء الجزائر، وضع في خزانة الدولة مائتي ألف جزائرية، كانت موجودة عنده وهي مق دار ما اقتصده من مرتبه الخاص، ورفض أن يستردها بعد ذلك من الخزانة بحجة أنه لا يحتاج شيئا، وأنه ما دام سيترك بعد موته كل ثروته للخزانة، فالأولى به أن يسلم ذلك وهو على قيد الحياة³.

ب-النوع الثاني: غلب على هذا النوع الضعف وعدم المقدرة على تسيير شؤون الدولة، وأكثرهم كان دافعهم الطمع والشجع والتمتع بامتيازات الملك دون مراعاة أحوال الرعية، وليس أمرا غريبا إذ أن أغلبهم وصل إلى الحكم عن طريق التمردات والانقلابات، والأسوأ ما في الأمر أن هؤلاء الدايات كانوا

1- الزهار أحمد شريف، المصدر السابق، ص 141.

2- حنيفة هلايلي، أوراق...، المرجع السابق، ص 138.

3- سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1722م-1830م)،

ط2، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م، ص 25.

يمارسون مهنا وضيعة، كمهن الفحامين أو الاسكافيين أو الكناسين¹، وأصدق مثال على ذلك الداوي علي الغسال الذي كان يشتغل بتغسيل الموتى قبل سنة 1808م². ويمتاز هذا الصنف بالإسراف والتبذير، كالداوي الذي سبق بابا علي، فقد أنفق جل ما في الخزينة على رفاهية أولاده وزوجته وترك الخزينة فارغة أو تكاد³.

وقد تباينت فترة حكم كل داوي بين الطول والقصر، فمنهم من قضى ردحا طويلا من الزمن ومنهم من لم يبق إلا أياما، كما تأثرت أوضاع إيالة الجزائر بقوة وضعف شخصية الداوي سواء على المستوى المحلي أو الدولي، ومع ذلك فقد كانت للداوي هيبة خاصة في العلاقات مع دول أوروبا، إذ كان يشكل أحد أهم الشخصيات التي يحسب لها ألف حساب في التعامل معها.

الخاتمة

من خلال ما سبق يمكن القول:

- أن عصر الدايات جسد فعلا استقلالية في اختيار وتعيين من يحكم الإيالة الجزائرية.

- أن عصر الدايات أطول فترات الحكم العثماني في الجزائر، حيث شهدت فيه إيالة الجزائر محطات حاسمة وتطورات كبيرة وتغيرات جذرية، أبرزها تعيين الداوي من طائفة رياس البحر، بإشراف الديوان العسكري والقاضي والمفتي الحنفيين ونقيب الأشراف وأعيان مدينة الجزائر، وإلغاء منصب الباشا العظيم ممثل السلطان العثماني وانفراد عثمانيي الجزائر بقرار

1-Benachanhou, L'etat algérien en1830, des institution sous l'Emir-53 Abdelkader,s.n.e.d,Alger,S.D ,p29.

2- De Grammont H,Histoire de l'Algérie sous la domination turque(1515-1830),édition-54 Leroux,Paris,1887,pp369-370.

3-سعيدوني ناصر الدين، موظفو...، المرجع السابق، ص184.

التعيين، بالإضافة إلى تطور قوة الجزائر على المستوى الخارجي، وذلك بالتدخل في شؤون إيالة تونس وعقد المعاهدات والاتفاقيات مع الدول الأوروبية، كما تم تحرير وهران والمرسى الكبير 1792م، وبالمقابل تحطم الأسطول البحري وتراجع مداخله وانفجار الثورات ضد حكم الدايات، بالإضافة إلى الحصار البحري الفرنسي واحتلال الجزائر سنة 1830م.

-أنَّ أغلب المؤرخين اعتبروا حكومة دايات الجزائر عبارة عن جمهورية عسكرية، نظرا لأنَّ الدايا كان يصل إلى الحكم عن طريق انتخابه من طرف أقرانه العسكر.

-أنَّ أساليب تعيين داي الجزائر تمثلت في أسلوب الاختيار وأسلوب الانقلاب العسكري وأسلوب الترشيح.

إطلالة على الأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني من خلال مضمون رحلة الحسين الورتلاني "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"

د. عبد النور أيت بعزیز

جامعة البليدة 02

الملخص

تميّزت فترة الوجود العثماني بالجزائر بالرّخم الإداري والعسكري وتناولت معظم المصادر هذه المجالات بكثرة وتبعتها المراجع المعاصرة من كتابات ودراسات وبحوث، بينما بقي الجانب السياسي نسبيا والاجتماعي خاصة أقل اهتماما، إلا أن بعض المصادر تعد استثناءا ومن بينها كتاب رحلة الحسين الورتلاني "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" الذي اشتمل على كثير من المعلومات والأخبار عن الحياة السياسية والاجتماعية. تهدف هذه الدراسة إلى بيان ما تضمنته الرحلة الورتلانية من إفادات مصدريّة من شاهد عيان رحالة سجل مشاهداته بنزاهة ومصداقية عالية، مقارنة بما ذكره معاصروه من الجزائريين في هذا المجال. فما هي القيمة والإضافة التي تقدّمها لنا المعطيات والمعلومات والأحداث التي وردت في الرحلة وهل حظيت بالقدر الكافي من الدراسة أم لا؟

مقدمة

الحسين الورتلاني (1125-1193هـ) / (1713-1779م) هو الحسين بن محمد السعيد، ولد في قرية "أنو" قرب قرية بني عشاش، يعرف بالورتلاني نسبة لمسقط رأسه بني ورتلان وهي دائرة إدارية تقع شمال غرب ولاية سطيف حاليا، تتلمذ على يد والده محمد السعيد وشيوخ المنطقة، حفظ القرآن والمصنفات والمتون والشروح. درس في أماكن مختلفة بالمنطقة وتصدى للإفتاء وفصل المنازعات والقضايا الاجتماعية بحزم وشدة، وكان محبا للاستطلاع والتّرحال للتعرف على أحوال الناس في القرى والحوضر،

حريصا على زيارة زوايا ومقامات الأولياء الصالحين، والاجتماع بالقائمين عليها للأخذ عنهم والاستفادة من علمهم وتجاربهم.

استغل حجاته الثلاثة وأقام مدة في مصر وتعلّم على يد العديد من علماء الأزهر الأجلاء الذين ذكرهم في رحلته، وأجازوه في المنقول والمعقول. اشتهر بكثرة تنقلاته ورحلاته وزياراته عبر ربوع الجزائر حيث زار الكثير من أنحاء البلاد من عنابة شرقا إلى تلمسان غربا. وحج ثلاث مرات إلى مكة المكرمة براً، كان آخرها سنة 1179هـ / 1759م، وقد ذكر الورتلاني مسار رحلته الثالثة إلى الحج ضمن الركب الجزائري وتوقّفه بالأزهر للدراسة وذكر أسماء العلماء الذين زارهم وأخذ عنهم وأجازوه في القاهرة وما جاورها. وخلال عودته من الحج ذكر إقامته في مصر مدة لاستكمال دراسته. وعاد إلى مسقط رأسه قرية أنوبيني ورتلان سنة 1181هـ / 1761م. وبذلك استغرقت رحلته حوالي أربع سنوات ذهابا وإيابا، وشملت إيالة الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر والحجاز.

تنقّل الحسين الورتلاني إلى العديد من مناطق الجزائر خاصة الوسطى والشرقية منها، وتحدّث عن الوضع السياسي والاجتماعي وعالج وناقش عدة مسائل وقضايا اجتماعية مطروحة آنذاك مثل: قضية شرب القهوة، وتناول الدخان، وتبرّج المرأة وقطع الميراث عنها في بعض الجهات، وطريقة الحكم العثماني، وقلة العلم في عهده، وشيوع ظاهرة الرشوة والاستيلاء على الأوقاف، وانتشار الظلم، وطباع الجزائريين المشكّكين لركب الحج، والأخلاق الحسنة والذميمة في المجتمع الجزائري وعلاقة هذا الأخير مع السلطة العثمانية محليا. كما دافع عن التاريخ وبَيّن فضله ومنزلته بين العلوم، واعتبر علم السّير جزء من التاريخ، وعرفّه بأنه "علم يزيد الإنسان في الفضائل ويُبعد عنه القبائح، وتعلو به همة الإنسان ويدفع إلى المعالي من

الأمر، ونصح الناس أن لا يُهملوا علم التاريخ وأن يُصحّحوا علمهم به بالاعتماد على الكتب الصحيحة والنقول السليمة...". هذا بعض ما كتبه الحسين الورتلاني عن تاريخ الجزائر السياسي والاجتماعي في رحلته، فهل كان محل اهتمام ودراسة من الباحثين والمهتمين والمؤرخين أم لا؟ وكيف يمكن لنا إظهار قيمة مضمون هذه الرحلة في هذا المجال؟ وما هي الإضافة التي يمكن أن تقدّمها الرحلة الورتلانية في مجال كتابة تاريخ الجزائر السياسي والاجتماعي في العهد العثماني؟

قبل التعريف بشخصية الحسين الورتلاني صاحب الرحلة لابد من الإشارة أنه رغم أهمية هذا المصدر وقيّمته خاصة في مجال التاريخ، إلا أن ضياع النسخة الأصلية والكراريس والكناشات التي كان يحرّرها الورتلاني بخطّه، وتأخّر تحقيقها حتى سنة 1908م أي بعد مرور 129 سنة من وفاته وكون النسخ المعتمدة في التحقيق كلّها مملات إضافة إلى كثرة الأخطاء المطبعية والمعرفية وصعوبة تصحيحها، وقلة الدراسات التي تناولت الرحلة بالشرح والتدقيق والنقد والمقارنة، واعتماد الطبقات التي ظهرت حديثا على نفس النسخة أو الطبعة التي حقّقها ابن أبي شنب منذ 113 سنة وإهمال الطبعة التي قبلها والتي صدرت بتونس سنة 1903م طبعة حجرية بتعليق صالح بن مهنا القسنطيني، كل هذه الاعتبارات وغيرها تجعل الاستفادة من هذه الرحلة ومعرفة كل مكنوناتها واستخراج مضامينها وعرضها على مشرحة النقد التاريخي أمرا غير متاح في الوقت الحاضر.

وهو ما يجعل هذه الدراسة العلمية تعد مجرد محاولة متواضعة منا غرضها وهدفها لفت انتباه المهتمين والدارسين والمختصين من أساتذة وباحثين وهواة وطلبة في مختلف التخصصات ذات الصلة بموضوع ومضمون الرحلة، إلى ضرورة تخصيص دراسات وأبحاث ومذكرات تخرّج

حول موضوعات الرحلة الورتلانية حتى تعم الفائدة أولاً في التعرف على هذا الكنز من تراثنا الجزائري ونشره بين الناس، ثم مقارنة ما جاء فيه من معلومات مع بقية الرحلات الجزائرية المعاصرة ومع رحلات المغاربة وكتابات العثمانيين والأتراك والغربيين من مستشرقين واستعماريين وغيرهم. مع ضرورة اعتماد آراء الورتلاني في مجال التاريخ وغيره من المجالات، وتدريبها للطلبة ونشرها على أوسع نطاق ممكن، على غرار آراء ابن خلدون في التاريخ وعلم الاجتماع مثلاً، لأن الجزائر تزخر بالكثير من أمثال الورتلاني ورحلته، ولكنهم مجهولون حتى لدى المتخصصين والباحثين، فهذه دعوة من مهتم إلى الجهات الوصية كي تهتم بإدراج مثل هذه الكتب في المناهج الدراسية، حتى نعزز بتراثنا وتاريخنا وعلمائنا ونُحصن أنفسنا من التهديدات والاستهدافات التي تطالنا من جهات داخلية وخارجية.

1. التعريف بشخصية الحسين الورتلاني

1.1. أصوله ونسبه

أخبر الحسين الورتلاني في رحلته أن جده (الخامس) سيدي أحمد الشريف، شريف النسب، وأنه سمع من أعالي أسلافهم أنه من شرفاء تافيلالت (سجلماسة)، وأما مقره ومقر أوائله فمن بجاية، وهو نجل الشيخ سيدي علي البكاي، وكانت له زاوية عظيمة وسمع أنه قدم ومعه 500 طالب إن صحّ، وثبت من بعض الثقات من بني يعلى أن طلبة جده عندما يقرؤون القرآن في مقره -الواقع بين قريتي عباد الشريف وإيث عشاش (بني عشاش)- يسمعونهم من قرى إيث يعلى (بني يعلى) وهي (الكدية، الخميس، الذراع)، ونسب إليه كرامات مثل اجتماعه مع النبي ﷺ يوم الجمعة ومع سيدي عبد الرحمان الجيلاني يوم الإثنين في محل كان لا يزال معروفاً في وقته هو بعلامة

ظاهرة، وأن قبره يُزار، وكانت له خزانة عظيمة (مكتبة)، وكان مفتيا.¹ ورغم هذا التصريح والبيان الواضح من صاحب الرحلة إلا أن بعض الكتّاب الذين تناولوا رحلته وحياته وقعوا في بعض الأخطاء عندما نقلوا عن "محمد حاج صادوق" في المقال الذي نشره في المجلة الإفريقية (la Revue Africaine) سنة 1951م بعنوان: "مع الرحالة الحسين الورتلاني عبر بلاد البربر الشرقية" حيث ذكر هذا الأخير أن جد الورتلاني "أحمد" قدم من "ميلة" في حين أن صاحب الرحلة ذكر أنه قدم من بجاية، وقال أنه تزوّج من ابنة "محمد أمقران" أمير مجانة، بينما ذكر صاحب الرحلة أنه تزوج من بنت سيدي محمد بن علي المتصرّف في الأوطان بإذن من له الحكم من بجاية، وهو الذي مسك جدّه في هذه البلدة وزوّج بنته له وأمر الناس أن يبنوا له في بني يعلى، فهل هو نفسه محمد أمقران أم لا؟ وقد نقل عن محمد حاج صادوق أبو القاسم سعد الله، ونقل آخرون عن سعد الله وهكذا انتشر الخطأ بسبب غياب التدقيق والتمحيص وعدم العودة إلى الرحلة نفسها كمصدر². وقد أشار المرحوم الأستاذ محمد أوسليمان بجوجو³ إلى هذه الأخطاء وقال بأن الجد الأول للرحالة أي "الحسين" هو الذي انتقل من بني يعلى إلى بني

1 - الحسين الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق: محمد بن أبي شنب، مطبعة ببيروناتنة الشرقية، ط1، الجزائر، 1908م، ص ص 73-76.

2 - Mahammed Hadj- Sadok, Revue Africaine, V 95, Journal des Travaux de la Société Historique Algérienne, A. Jourdan, Libraire-Éditeur, Alger, 1951, p 315- 399.

- أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، (1500- 1830م)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م، ص 394.

3 - محمد أوسليمان بجوجو ولد بتاريخ 07 فيفري 1945 في قرية عبّاد الشريف (بني ورتلان) مدير مدرسة متقاعد، مهتم بتراث وتاريخ المنطقة، ناشط جمعي، مشارك في التظاهرات الثقافية العلمية، ألقى العديد من المحاضرات حول تاريخ المنطقة وأعلامها، مؤلف كتاب "تاريخ شمال

ورتلان وشيّد زاوية كبيرة في موضع يقع بين "أقروي إخران" أي رأس الخرائب وهي قرية إيث حافط القديمة (بني حافط) وبين قرية إيث عشاش (بني عشاش) قرب وادي "ئاغزويث"، ثم نقلت الزاوية إلى مكان آخر هو "أنو" الذي أصبح يسمى قرية "أغلاذ إمجاط" ربما من طرف جدّه الأول الحسين أو والده محمد الشريف، ثم انتقل الرحالة الحسين الورتلاني إلى موقع "إرزا" الذي أصبح يسمى قرية "أنو" الجديدة الواقعة قرب سوق الجمعة ببني ورتلان. ولا زالت الحقول الواسعة التي كان يملكها الرحالة قرب أنو الأولى تدل على ذلك مثل "بليازيط"، "أخرموش"، "إرزي العشاشي"، "تزميرين نسيدي الحسين". وأضاف الكاتب يقول إن الأخطاء التي وقع فيها محمد حاج صادوق في مقاله السالف الذكر نقلها عنه كُتّاب آخرون عندما كتبوا عن الرحالة دون أن يعرفوا الخطأ، مثل مختار فيلالي في دراسته "رحلة الورتلاني عرض ودراسة"، والدكتور يونس عدلي¹ وغيرهم.

أما سيرة الحسين بن محمد السعيد، فقد نشأ وتعلّم في قرية "أنو" الأولى، وتتلّمذ فيها على يد والده محمد السعيد وجدّه (الحسين) وشيوخ المنطقة، حفظ القرآن والمصنفات والمتون والشروح في الفقه والتصوّف

سطيف من العصور القديمة إلى نهاية الثورة التحريرية" (بني ورتلان، بني يعلى، إيث عيديل، بني معوش)، مطبعة متيجة، الجزائر، 2020م.

1 - يونس عدلي: باحث جزائري أكاديمي درس في فرنسا، كاتب، له عدة مؤلفات بالفرنسية منها: Si Mohand Ou Mhand ، Arezki L'Bachir ، La Kabylie à l'épreuve des invasions, des Phéniciens à 1900, les Efforts de Préservation de la Pensée Kabyle aux XVIIIe et XIXe Siècles.

هذا الكتاب الأخير هو الذي أشار إليه محمد أوسليمان بجوجو، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه تحت إشراف سعيد دومان، ناقشها سنة 2009م بمعهد "إنالكو" بباريس، ثم طبعت في كتاب وهي في جزأين، الجزء الأول حول الفترة العثمانية طبع سنة 2010م في مطبعة الأوديسيا (l'Odyssée) بتيزي وزو، والجزء الثاني عن فترة الاحتلال الفرنسي.

والتوحيد والنحو واللغة والأدب والعروض والتاريخ. واصل تعليمه في زوايا منطقة القبائل وفي مدينة بجاية عاصمة الحماديين، فأصبح من أبرز علماء بني ورتلان وما جاورها، ومن أشهر المدرّسين وشيخ زاوية الأسرة، وصار يُدرّس في بجاية وتخرّج على يديه عدد كبير من الطلبة الذين تولوا وظائف دينية هامة في المنطقة وخارجها. اشتهر بكونه صوفيا أكثر منه فقها وكان يجمع بين علوم الظاهر والباطن ويتبع الطريقة الشاذلية في مذهبه الصوفي، وكان يكره أهل الحضر والحكام العثمانيين، وأصبح كمربط يتدخل بين الناس لإصلاح ذات البين ويُعلّم مبادئ الدين التي حرّفها البعض حسب رأيه¹.

كان الحسين الورتلاني شغوفا بالعلم والمعرفة ولديه رغبة كبيرة في الاستزادة منه فاعتنم فرصة مروره على مصر ذهابا وإيابا في طريقه إلى الحجّ خلال حجّاته الثلاث لمواصلة تعليمه العالي، حيث تعلّم على يد العديد من علماء الأزهر الأجلاء الذين ذكّروهم في رحلته، مثل الصعيدي والحفناوي والجوهري، والنفراوي والعفيفي والسيد البليدي، والملوي والصباغ والعمروسي، و خليل الأزهري وعمر الطحلاوي والزياتي، والإشبيلي وأبي القاسم الربيعي، والهاشمي وابن شعيب والكردي والفيومي، وأجازوه في المنقول والمعقول². وتعلّم الورتلاني الكثير من العلوم والفنون على العلماء والمتصوّفة وأرباب الزوايا والطرق الصوفية الذين زارهم واجتمع بهم وتناقش معهم أثناء زياراته الكثيرة والمتكرّرة التي قادته إلى العديد من المناطق داخل الجزائر مثل: سيدي خالد، بسكرة، طولقة، مجانة، زواوة (تيزي وزو)، دلس، بجاية، زمورة، قصر الطير، خنقة سيدي ناجي، مليانة، القليعة، سيدي فرج، البليدة، المدية، المسيلة، عنابة، تلمسان، وغيرها.

1 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص 394.

2 - لا يتسع المقال هنا لتناول حياة مشايخ الحسين الورتلاني الأزهريين وغيرهم نظرا لكثرة عددهم.

وقد ترك الحسين الورتلاني بالإضافة إلى رحلته المذكورة عدة شروح وقصائد ورسائل ضاع معظمها ولم يبق منها إلا عناوينها وهي: الكواكب العرفانية وشوارق الأنسية في شرح ألفاظ القدسية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، دارالخلدونية، الجزائر، 2012م. - شرح الرسالة السمرقندية.

2. مضمون كتاب الرحلة

قال الحسين الورتلاني عن رحلته "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" ما يلي: "أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار، مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة، والحكايات المستحسنة، والغرائب العجيبة، وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من التصوف مما فتح به علي، أو منقولا من الكتب المعتمدة، سيما وأن اعتمادا في ذلك على رحلة شيخنا سيدي أحمد بن ناصر الدرعي الجعفري"¹.

أما مصحح الرحلة محمد بن أبي شنب² فذكر من جهته أنه عثر على أربع نسخ من الرحلة منها ثلاثة مخطوطة بخط مغربي مجموع صفحاتها (1135 صفحة) أما الرابعة فهي مطبوعة طبعة حجرية في تونس سنة 1321هـ/1902م، ومجموع صفحاتها يبلغ (724 صفحة) وهي في ثلاثة أجزاء.

1 - الحسين الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المصدر السابق، ص 3 من المقدمة.

2 - محمد بن شنب (1869-1929م): محمد بن العربي ولد في ثاكبوا (عين الذهب) في المدينة (شمال وسط الجزائر)، درس في مسقط رأسه، حفظ القرآن، تعلم الفرنسية ونبغ فيها، تدرّج في مستويات التعليم حتى نال شهادة الدكتوراه من جامعة الجزائر سنة 1924م، ثم أصبح أستاذا فيها، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق والمجمع العلمي بباريس، مثل الإدارة الفرنسية بالجزائر في عدة ملتقيات وندوات دولية، اهتم بتحقيق كتب التراث المخطوطة والمطبوعة، وألف أزيد من 20 كتابا بين تأليف وتحقيق وتصحيح، يحسن الإنجليزية والإسبانية واللاتينية والألمانية والتركية.

ويبدو أن النسخ الثلاث المخطوطة والنسخة الرابعة المطبوعة لم تخط في وقت واحد، بدليل ما ذكره الجامع، وهو أنه وجد في أصل نسختين ما نصه: "انتهت الرحلة المباركة تأليف الشيخ الصالح والقطب الواضح ... الشيخ سيدي الحسين بن محمد بن الشريف الورتلاني... وكان الفراغ من نسخها ضحى يوم الاثنين الفاتح لشهر شعبان عام 1182هـ إثنين وثمانين ومائة وألف (1762م) ... نسختها للشيخ المذكور من مسودته... على يد كاتبها... سعيد بن أحمد بن يدير العباسي القلعي دارا ومنشأ...".¹

1.2. المصادر التي اعتمد عليها الورتلاني في رحلته

اعتمد الورتلاني في كتابه (رحلته) على مشاهداته الخاصة وما رواه له العلماء الذين لقهم، وعلى مصادر كثيرة ومتنوعة كالرحلات السابقة مثل رحلة الدرعي، والعياشي وأحمد بن ناصر، والتيجاني، وأبو سالم وغيرهم². مما مكنه من تحديد مسار رحلته بدقة وساعده على تدوين ملاحظاته وتفصيل الأحداث، وذكر أسماء العلماء في كل منطقة وناحية ومدينة وبلدة وقرية ومحطة. واعتمد أيضا على كتب الفقه والتفسير، إذ كان على دراية واسعة بالفقه وأصوله ومدارسه، وكان يقدم فتاوى وتفسيرات متميزة حول ظواهر مستجدة ويُنَبِّه إلى البدع الدينية في ثقافة العامة. منها كتاب "الوغيلسية" وكتاب "النبراس على منكر القياس"، وعلى كتب اللغة مثل "ألفية ابن معطي في النحو" وغيرها، كما اعتمد الورتلاني على كتب التاريخ مثل "النبتة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة" و"مختصر الجمان في أخبار أهل الزمان" و"حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" و"عنوان

1 - الحسين الورتلاني، الرحلة الورتلانية، مصدر سابق، ص 713.

2 - لا يتسع المقال هنا للتعريف بهؤلاء الرحالة المغاربة الذين اعتمد عليهم الحسين الورتلاني في رحلته.

الدراية..."¹.

تاريخ الجزائر السياسي والاجتماعي في مضمون رحلة الورتلاني

أورد الورتلاني في رحلته أخبارا عن عدة شخصيات تاريخية مثل عبد الرحمان ابن خلدون بوصفه شاهدا على حال انحطاط الأمة بعد أفول الحضارة الإسلامية في الشرق والأندلس، لكن نص رحلته لم يتضمن الكثير من التحليل الاجتماعي، بل اعتمد أكثر على الشواهد الآنية في إشارته إلى ظاهرة التفكك الاجتماعي الناتجة عن انتشار المظالم والمفاسد، والجهل بفقهاء العبادات والمعاملات، وعدم الاحتكام إلى القرآن والسنة النبوية في تنظيم وتسيير شؤون البلاد والعباد. وتحاشى إصدار أحكام على الخلافة العثمانية التي وردت في رحلته باسم "الترك" في الجزائر وحتى في تونس وطرابلس الغرب ومصر والحجاز.

وفي المجال السياسي ربما كان حذرا من بطش الحكام الأتراك واكتفى بذكر الولاة المحليين من الأتراك أحيانا بالنقد وأخرى بالثناء حسب المناطق، وربما يعود سبب حصر كتابه في الجانب الروحي والتاريخي وتجنبه الخوض في المسائل السياسية -إلا نادرا- إلى وجود القيود، ولكون الخلافة ذات طبيعة إسلامية، فاعتبر نظام حكمها أمرا طبيعيا، بل اعتبره سدا منيعا في وجه حملات الغزو الصليبي المتكررة على المدن الساحلية الجزائرية والمغربية. ويذكر في حالات محدودة الظلم المنسوب إلى "الترك" في شكل حجم "الخراج" أي الضرائب المسلطة على الناس في الجريد بتونس، أو الدمار الذي يحدثه "عسكر الترك" أثناء تدخلهم لفك النزاعات المحلية مثلما حدث في المدينة

1 - عبد الرحمان عزي، التواصل القيمي في الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، كنوز الحكمة، الجزائر، 2012م، ص 26-30.

القديمة بسكرة.¹

تقديم أبو القاسم سعد الله وعبد الرحمان عزي لمساهمة الورتلاني في تدوين تاريخ الجزائر الحديث

اعتنى الورتلاني بموضوع تسجيل الحوادث التاريخية وبين أهمية تقييدها ولاحظ أن الجزائريين كانوا يحسبون التاريخ أمرا مضحكا لا يدرسه أهل الجد والدين بل هو عند البعض ضد الدين والأخلاق، لذلك حكم بأن علم التاريخ منعدم عند أهل الجزائر، حيث قال: "علم التاريخ منعدم فيه وساقط عندهم فيحسبونه كالاستهزاء، أو اشتغالا بما لا يعني، أو من المضحكات المنهي عنها. فترى المتوجّه منهم إلى الله يرى الكلام فيه مسقطا من عين الله تعالى... ليس (هو عندهم) من علم يذكر، إذ لا طائل فيه أصلا بل بنفس ذكرهم عندهم ينكر"². ولعل الذي أضر بالتاريخ عند الجزائريين المتديّنين في زمن الحسين الورتلاني (ق 12 هـ / ق 18 م) هو كونه منسوباً عندهم إلى الأخبار والسير العامة ومتصلا بالأدب والمجون، رغم أن آراء ابن خلدون في التاريخ كانت معروفة عند بعضهم، وأن كتب التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية كانت متوفرة، فكيف سقط التاريخ عندهم إلى هذه المنزلة من الإهمال؟ وربما يعود ذلك إلى سيطرة نزعة التصوّف والخوف من الحكام (الأتراك)، لأن التاريخ آنذاك كان تاريخا لكبار السياسيين، وكان لا يُدرّس للثقافة والمتعة والعبرة والتقليد، فكان معظم الذين كتبوا عن التاريخ في العهد العثماني مؤيدين للحكام.

ويذكر أبو القاسم سعد الله أن تعريف التاريخ لدى المؤرخين الجزائريين ظل غامضا إذ كانوا يخلطونه بالدين تارة والسيرة تارة أخرى،

1 - عبد الرحمان عزي، المرجع السابق، ص ص 30-32.

2 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص ص 321، 322.

وبالعلم أحيانا وبقيمة الإنسان وسمعته الاجتماعية أحيانا أخرى، فإذا قارنا بين الورتلاني وبين معاصريه في هذا المجال نجد أن ابن المفتي¹ قال في التاريخ أنه "علم التاريخ عبادة ومنة جزية، ومعرفة أخبار العلماء منقبة جلية" وهو تمهيد منه لدراسة أخبار العلماء، وأخبار الباشاوات الذين أَلَّف رسالته فيهم. أما أبو راس الناصر² فقد عرّف التاريخ في مخطوطه "الحلل السندسية" بأنه: "تحفة المجالس المغني عن الأنيس والمجالس" ويقصد بذلك قصص الأولين وسير الأنبياء وأخبار الحكام، لأن المفهوم القصصي للتاريخ هو الشائع آنذاك، إذ كان يطلق على الحافظ وطلّيق اللسان وسريع البديهة اسم العالم بالأخبار والسير، وأشار أبو راس إلى أهمية علم التاريخ وقال: "أن الأدباء الأفاضل

1 - ابن المفتي: ولد بمدينة الجزائر، كرغلي الأصل (أبوه تركي وأمّه جزائرية)، تولى منصب المفتي الحنفي بالجزائر مثل والده حسين بن رجب، له عدة مؤلفات ضاعت، كتب عنه كل من: نور الدين عبد القادر في كتابه "صفحات من تاريخ مدينة الجزائر"، والفرنسيان: ألبير ديفوكس في المجلة الآسيوية (1922م)، وديلفان في كتابه "المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر". أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، المرجع السابق، ص ص 366-376.

2 - أبو راس الناصر محمد بن أحمد (1165-1238هـ) / (1753-1826م)، ولد بمعسكر غرب الجزائر وفيها تعلّم على علامتها عبد القادر المشرفي الذي رشّحه لخلافته في التدريس، تولى القضاء والفتوى، اشتهر بالحفظ والذكاء وكثرة التأليف، هاجر إلى المغرب وتونس ومصر والحجاز والشام، من أشهر شيوخه الجزائريين أحمد بن عمار، ومن المصريين محمد مرتضى الزبيدي، الذي خصّه بكتاب "السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشيخ مرتضى"، ومن أشهر تلامذته بالجزائر أبو حامد المشرفي صاحب التأليف في التاريخ والأدب والرحلات، كانت له علاقة وطيدة مع الباي محمد الكبير باي وهران، الذي خصّه بالقصائد والتأليف، كان يفتي بالمذاهب الأربعة، ويُعدّ من المؤرّخين الجزائريين الموالين للحكام العثمانيين بالجزائر وللدولة العثمانية، كتب في التاريخ والأنساب والأخبار وغيرها، بلغ مجموع مؤلفاته بين 83 و137 كتابا معظمها مفقود والباقي مخطوط، أهمها: رحلته "فتح الإله ومُنْتَه في التحدّث بفضل ربي ونعمته"، "الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية"، "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"، "الدرة الأنيقة"، "اسماع الأصم"، "الحلل السندسية". تُرجمت بعض كتبه ونُشرت بالفرنسية، وكتب عنه جورج جويس الفرنسي في المجلة الإفريقية، مجلد 5، سنة 1861م. للمزيد أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، المرجع السابق، ص ص 376-381.

وجهاً بذه كل طبقة وملة قد اعتنوا به من صلحاء السلف وحقّاق الخلف في كل عصر... فألّفوا وأفادوا وصنّفوا وأجادوا"، وذكر أسماء المؤرخين قبل الإسلام، والمؤرخين المسلمين حتى السيوطي وأحمد المقرئ¹.

بينما نجد الورتلاني دافع عن علم التاريخ وبيّن فضله ومنزلته بين العلوم واعتبر علم السير جزء من علم التاريخ، وتساءل مستغرباً: كيف يدرس الجزائريون حياة الرسول ﷺ وقصص الأنبياء ولا يدرسون التاريخ الذي امتلأت به كتب السيرة بل القرآن نفسه؟ واستدل بقوله تعالى: "وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتَ بِهِ فَؤَادُكَ"². كما استدل بالحديث الشريف الذي يدل على أن التفكير في الماضي ساعة أفضل من عبادة سنوات عديدة. واعتبر أن "مرتبة العلماء تزيد أو تنقص بقدر معرفتهم للتاريخ" لأنه علم يزيد الإنسان في الفضائل ويُبعد عنه القبائح، إنه علم تعلو به همة الإنسان لأنه يدفع إلى المعالي من الأمور. ثم تساءل مستغرباً مرة أخرى قائلاً: "أليس أكثر القرآن من التاريخ؟ ومن الممكن أن يُعتبر ذام التاريخ لأن ذمّه يقود إلى ذم القرآن نفسه وهو الذي يحتوي على أخبار الماضين وأحوال الجبابرة المنقرضين وأولياء الله الصالحين، لذلك نصح الورتلاني القارئ بعدم إهمال علم التاريخ، وبضرورة تصحيح علمه به، بشرط الاعتماد على الكتب الصحيحة والنقول السليمة.

وتجدر الإشارة هنا أن المؤرخين الجزائريين في هذه الفترة قد اقتصرَت أعمالهم على التواريخ المحلية والتراجم والرحلات، ولم يكتبوا تاريخاً عاماً للجزائر كلّها يغطي أخبارها داخل حدودها من القديم إلى الحديث، أو حتى في القرن الذي عاشوا فيه، لأن "المؤرخ" في العهد العثماني كان يعيش حدوداً

1 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص ص 322، 323.

2 - سورة هود، الآية 120.

ضيقة فرضتها عليه السياسة والثقافة والجغرافيا، لأن العثمانيون لم يطوروا فكرة التواصل بين المؤرخ وبيئته، فظلت البيئة عنده هي حدود القرية أو الناحية أو الحادث، كما ظل المؤرخ حبيس الزاوية أو المدرسة التي تخرج منها، فلا يُترجم أو يكتب إلا في نطاق محصور تمليه عليه ثقافته. ولعبت الجغرافيا دورها في الموضوع لأن القطر الجزائري كان في عصر المواصلات البدائية يبدو قارة بذاتها واسعة الأطراف.

ويمكن القول بأن فكرة الحس الوطني قد ظهرت عند الورتلاني باعتباره طاف معظم القطر الجزائري وسجل انطباعاته للأجيال اللاحقة، وربما يشبهه في ذلك أبو راس الناصر، ومثلما افتقر مؤرخو هذه الفترة إلى النظرة الشمولية للتاريخ الوطني الجزائري، افتقروا إلى نفس النظرة لتاريخ الإسلام، فباستثناء كتب السيرة لا نجد منهم من أرن للإسلام أو العرب بالمعنى العام، وربما يمثل المقرري في موسوعته "نفح الطيب" وأبو راس في "الحلل السندسية" أقرب مثال عن ذلك لكنهما ركزا على الأندلس.

لقد اشتهر علماء الجزائر في العهد العثماني بالحفظ وكان علم التاريخ في وقتهم يعتمد على الحافظة القوية للمؤرخ، وهناك ظاهرة ميّزت كتابات هؤلاء المؤرخين في هذه الفترة وهي اعتمادهم في تناولهم للقضايا التاريخية أو التراجم على شرح القصيدة أو الرجز، فكان أساس تأليفهم التاريخي هو الأدب، فأصبح تاريخهم عبارة عن تفسير ما عجز أو ضاق عنه الأدب، فالمؤرخ كان يقوم بعمل يعتمد على الحافظة أكثر من الذكاء والموهبة، وهناك بعض الأعمال التي كتبها أصحابها في شكل نثر تاريخي أو مجموعة من التراجم.

أما الظاهرة الثانية فتمثلت في ضياع الكثير من أعمال وتأليف هؤلاء

المؤرخين مثل تأليف أبي راس وابن حمادوش¹ وأحمد بن عمار²، وبعض هذه الأعمال صغيرة الحجم وأخرى ضخمة، وعموما يمكن القول إن فكرة التاريخ لدى هؤلاء كانت بعيدة من أذهانهم³.

إن هذه المقارنة وهذا التحليل الذي أجراه المؤرخ أبو القاسم سعد الله بين ما كتبه الورتلاني في رحلته وما كتبه معاصروه عن التاريخ المغربي والعربي الإسلامي عامة وعن تاريخ الجزائر خاصة في كتاباتهم ورحلاتهم، تبين

1 - عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش: (1107-1197هـ / 1695-1785م؟) ولد بالجزائر العاصمة وتعلّم فيها وعلم، واشتغل في التجارة، كان موسوعيا واهتم بعلوم العصر، هاجر إلى المغرب ومصر والحجاز (حجّ عدة مرات)، ترك العديد من المؤلفات أهمها: فتح المجيب في علم التكعيب، الجواهر المكنون من بحر القانون، صورة الكرة الأرضية، حظيت حياته ومؤلفاته باهتمام الباحثين منهم الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي أفرد له كتابا مستقلا بعنوان: الطبيب الرحالة عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، د.م.ج، الجزائر، 1982م. وحقق رحلته "لسان المقال..."، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983م ضمن مجموعة رحلات ومذكرات. وتناوله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ط1، المرجع السابق، ص ص 425-436.

2 - أحمد ابن عمار: ولد حوالي 1119هـ / 1707م مفتي مالكي بمدينة الجزائر، حجّ مع الحسين الورتلاني عام 1166هـ ووصفه بقوله: "الفاضل بالاتفاق والعلامة على الإطلاق" ودرسا معا في مسجد الحسين بالقاهرة على الشيخ خليل المغربي، بقي مُجاورا للحرم المكيّ مدة 12 سنة، ثم عاد إلى الجزائر، واستقر مدة في تونس العاصمة، ثم عاد إلى الحجاز ويُعتقد أنه توفي في مكة في تاريخ مجهول (حوالي 1206هـ / 1794م)، تخرّج على يده علماء كبار منهم: محمد أبو راس الناصر من الجزائر، أحمد الغزال من المغرب، إبراهيم السيالة من تونس، محمد خليل المرادي من الشام، عمر بن عبد الكريم من مكة، برع في الأدب والشعر والحديث، ترك أكثر من عشر مؤلفات أهمها: رحلة بعنوان "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"، وكتاب في التراجم "لواء النصر في فضلاء العصر"، وكتاب "تاريخ البايع علي باشا بن حسن" (باي تونس)، "رسالة في الطريقة الخلوتية"، رسائل وإجازات وتقاريط كثيرة، ديوان شعر، ثبت "مقاليد الأسانيد"، شرح على صحيح البخاري، وغيرها. للمزيد أنظر: أبو القاسم سعد الله، إجازة ابن عمار الجزائري إلى محمد خليل المرادي الشامي ضمن كتاب تجارب في الرحلة والأدب، م.و.ك، الجزائر، 1983م، ص ص 63-66. - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص ص 224-235.

3 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص ص 323-326.

الجوانب التي امتاز بها الورتلاني في هذا المجال، حيث قال الكاتب المذكور أن الورتلاني أسهم بعمل كبير في التاريخ وهو يستحق منا وقفة، وأشار أنه سبق وأن أنجز دراسة عن "الرحلات الحجازية الجزائرية" ضمّنها نبذة عن حياة الحسين الورتلاني وتحليلاً لما كتبه عن الجزيرة العربية ومصادره في ذلك. وبعد أن استعرض الكاتب سيرة الورتلاني وتأليفه في الفقه والتصوّف والتوحيد، اعتبر رحلته أكبر عمل ألفه في التاريخ والأخبار، ولاحظ أن الورتلاني كان له شعور قوي بالتاريخ خلافاً لبعض علماء عصره، وعزم أن يكتب عملاً ضخماً يضاهي به أو يفوق عمل الدرعي والعياشي وغيرهما من كتّاب الرحلة المغاربة، واعتبر أن التسمية التي سعى بها رحلته تلفت النظر. ثم تطرّق الكاتب إلى مسار رحلة الورتلاني والمصادر التي اعتمد عليها، وقال إنه كان ينوي كتابة رحلة عظيمة تكون مفخرة له ولبلاده، ولكنه سرعان ما ظهر عليه الفتور، وأكثر من النقل والاستطراد وتداخلت معلوماته. وتساءل المؤلف بقوله: ولا ندري إن كان الورتلاني قد ألف هذه الرحلة دفعة واحدة أو على مرات، فهو يذكر أن دفترًا ضاع منه في ليبيا أثناء عودته وكان يحتوي على ملاحظاته حول أماكن الماء في برقة الليبية.

وأخبرنا أنه كان يغتنم فرصة استراحة القافلة لكتابة ملاحظاته، وربما كان يأخذ أثناء الحج ملاحظات في شكل مذكرات وتقاييد حتى لا تضيع منه المعلومات، وعندما عاد إلى الجزائر شرع في كتابة الرحلة أو في إملائها، ويبدو أنه كان يملئها على تلاميذه وأنه لم يُراجع ما أملاه، لذلك كثرت التكرار والأخطاء وتداخلت المناسبات، وربما حال كبر سنّه دون المراجعة. ويضيف الكاتب أن الورتلاني كان عند وعده وكلمته حيث خصّص لأخبار المتصوّفة بالجزائر قسماً كبيراً من رحلته، وتحدّث عن الخرافات والغيبات والكرامات المنسوبة إليهم، وذكر شروط قيام الساعة، ومن الأمور التي ناقشها الورتلاني

في رحلته قضية شرب القهوة وتناول الدخان وسماع الموسيقى وتبرّج المرأة وقطع الميراث عنها في بعض مناطق الجزائر، وغيرها من العادات القبيحة في نظره والتي سمّاها عمل الجاهلية.

كما استنكر الورتلاني طريقة الحكم العثماني وقلة العلم في عهده وشيوع الرشوة والاستيلاء على الأوقاف وانتشار الظلم، وقال عن أهل الجزائر أثناء الحج: "إن أهل وطننا فيهم الغلظة والجفاء وسوء الأدب وعدم إذعانهم للحكم". وأضاف يقول عنهم: "وأما الركب الجزائري فلا حكم عندهم أصلا، ولا يتوقّفون عند الأمر والنهي". وهذا يدل على صراحته ونقده واستهجانته لهذه السلوكات والتصرفات. وخلص أبو القاسم سعد الله في نهاية وقفته القصيرة مع رحلة الورتلاني إلى القول بأنها رغم كل ما فيها (من نقائص)، إلا أنها تعتبر موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في القرن 12هـ/18م، واعتبرها من المراجع (المصادر) التي لا غنى عنها في هذا المجال، واعتبر تكرار حجّه واتقانه للعربية ومعرفته بعادات الشرق والغرب قد جعلت منه حكما مُنصفا على عصره وأهله في كثير من المناسبات، واعتبر أنه من المفيد للتاريخ أن نعثر على كنّاشاته التي كان يسجّل فيها ملاحظاته، أو على النسخة الأصلية التي أملاها من الرحلة، فرجل كالورتلاني تضم أوراقه هاتيك الملاحظات والانطباعات والأحكام جدير بالدراسة والبحث بطريقة أكثر عمقا وشمولا مما دُرِس به حتى الآن¹.

أما عبد الرحمان عزي فاعتبر أن نهج الورتلاني في مقارنة القضايا الإيمانية والمسائل الاجتماعية والعلاقة مع الحكام آنذاك كان نهجا وسطيا يقوم على الحجة والدعوة بالتي هي أحسن، وتميّز الورتلاني بنزعتة العقلانية القوية وبتشبعه بنهج القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وانشغاله

بقضايا المجتمع الذي كان يعيش نوعاً من التفكك الاجتماعي، إذ كان يقطع المسافات الطويلة لإصلاح ذات البين، وكان يردّ على القضايا الدينية والفلسفية الجدلية، ويظهر البدع التي تسربت إلى الطرق الصوفية وانتشرت بين العامة. وأن الرحلة تُعدّ معلماً تاريخياً وثقافياً بارزاً في دراسة الجوالتريوي والعقدي والاجتماعي والنفسي الذي ميّز تاريخ الجزائر في تلك الفترة، وساهم إشعاعه العلمي في بروز العديد من العلماء في مسقط رأسه في القرنين 14/13هـ - 20/19م¹.

2.3. نماذج من التاريخ السياسي والاجتماعي للجزائر في العهد العثماني من مضمون رحلة الورتلاني

إن المتصفح للرحلة الورتلانية يلاحظ أنها لا تحتوي على عناوين ولا فصول ولا أبواب، كما أن المعلومات الخاصة بالجزائر متداخلة مع ما يخص البلدان الأخرى (تونس، طرابلس الغرب، مصر، الحجاز)، ولم يتبع الرحالة التسلسل الزمني للأحداث لكونه غير متخصص في التاريخ ولم يكن غرضه التأريخ، وكان تركيزه على المجال الديني والأدبي وخاصة موضوع التصوّف الذي يعتبر الموضوع الرئيسي باعتباره أخذ حصة الأسد من حجم ومحتوى ومضمون الرحلة، ثم موضوع رحلته إلى الحج منذ خروجه من مسقط رأسه والتحاقه بركب الحج الجزائري انطلاقاً من قصر الطير حتى الحدود التونسية خلال الذهاب، ثم منذ دخوله الحدود الجزائرية إلى بلوغه مسقط رأسه بني ورتلان خلال الإياب.

كما أن الورتلاني لم يفرد عنصراً أو فصلاً من كتابه للحديث عن التاريخ السياسي والاجتماعي للجزائر، لكنه يذكر عرضاً بعض الأخبار والأحداث ذات الصلة أو الصبغة السياسية والاجتماعية بين ثنايا حديثه عن

1 - عبد الرحمان عزي، نفس المرجع السابق، ص ص 131 - 134.

ركب الحج أو الفقه أو التصوّف أو غيرها، مما يجعل الوقوف عليها وتحديدتها واستخراجها أمر في غاية الصعوبة ويتطلّب قراءة كتاب الرحلة بالتفصيل وتتبع كل كلمة وجملة وسطروفقرة لتحديد ما أورده من عبارات وأقوال وآراء وانطباعات في هذا المجال. وخلال تصفّحنا للرحلة لاحظنا أن أول ما ذكره في المجال السياسي كان بمناسبة زيارته منطقة جمعة الصهاريج بالزواوة أين التقى بشخصية سياسية محلية جزائرية وهو سلطان الزواوة محمد بن القاضي الذي حجّ معه وتوفي خلال العودة ودفن بين ينبع ونقب علي في محرم 1180هـ / 1760م، وقال عنه الورتلاني في مكان آخر من رحلته: "الأديب الصدوق الود الخل الفاروق سيدي محمد بن القاضي الملقب بأبا وغثوش أو وعشوش أمير زواوة". وذكر أنه عندما توفي ليلا بسبب مرضه بالإسهال تم دفنه وصلى عليه كل من في الركب الجزائري من الفضلاء وأصابتهم بموته مصيبة عظيمة لم ينسها الورتلاني، واعتبره من الشهداء لكونه تاب وقبلت توبته وهو غريب وفي طريق الحج¹. ثم التقى الورتلاني بأمير مجانة الذي لم يذكر اسمه من أجل قضاء حوائج الناس خلال زيارته لمجانة، أما في المجال الاجتماعي فكان أول ذكر له خلال زيارته لقرية أولاد سيدي بهلول في بوجليل حيث ذكر أنه أصلح بين الناس فيها.

ثم جاء ذكر العلاقة بين السلطة السياسية التركية وبين سكان منطقة بني ورتلان مسقط رأسه بمناسبة حديثه عن بلده أي منطقته التي ينحدر منها حيث قال: "... غير أنه خال عن السلطان وأحكامه فالوطن سائب عمّره الله بالأحكام الشرعية وأزال منه الفتنة وبدّل ذلك بالعافية الدائمة...فنسأل الله تعالى أن يعمره على يد سلطان عدل"². وهذا يدل على

1- الحسين الورتلاني، الرحلة الورتلانية، مصدر سابق، ص 619.

نفوذ السلطة التركية على هذه المنطقة كان ضعيفا وكليا وهو ما جعل الورتلاني يصفه بأنه "سائب" أي مهمل مما أدى إلى انتشار الفتنة وغياب العدل والعافية.

بعد هذه الإشارة توسّع الورتلاني في حديثه عن العلاقات الاجتماعية والأخلاق الحسنة التي يجب أن يتحلّى بها الإنسان الذي يحجّ، عندما استعد هو للسفر إلى الحج، حيث جمع طلبته وأولاده الذكور وأمرهم بالاشتغال بالعلم والمودة بينهم وطاعة الله، وقال إن الحاج يجب أن يودّع الأهل والأقارب ويقضي حوائج الناس قبل سفره مهما كانت صغيرة، ويترك ما ينفق على أهله ويتوب إلى الله تعالى ويطلب المغفرة والصفح من الذين هتك أعراضهم ويدعو لمن مات منهم، وأن يعامل المرافقين له في الركب بأدب ومودة ورفق¹.

ومن الظواهر الاجتماعية التي تناولها الورتلاني في رحلته منع الأنثى من الميراث وتأثيره السلبي على تماسك الأسرة والعلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع والعدل وتطبيق أحكام الشريعة في الحياة بكل صرامة ودون تهاون، حيث ذكر أن أحد علماء منطقة بني ورتلان وهو الشيخ سيدي محمد صالح أوقلميم عندما كان مقيما في قرية بويكني انزعج من انتشار الظاهرة وهاجر بسببها إلى بني عيدل ولما لاحظ وجود نفس الظاهرة عندهم قرّر هجرتهم ولكنهم تعلّقوا به وألحّوا عليه بالبقاء فاشترط مقابل بقائه عدولهم عن هذه العادة السيئة فامتثلوا².

وفي إشارة أخرى في الجانب السياسي ذكر الورتلاني أن الشيخ سيدي الحسين أوقلميم وهو عالم من نفس العائلة والمنطقة اشتهر بالتقشّف والزهد وعندما زاره فرحات باي قدّم له طعاما متواضعا يسمى أجعجوع مكون من

1- الحسين الورتلاني، نفسه، ص 33.

2 - نفسه، ص 60.

كسرة الشعير وزيت الزيتون والتوابل وهو ما يدل على عدم تصنّع وعدم مجاملة علماء منطقة بني ورتلان للحكام الأتراك المحليين وشجاعتهم وصدقهم.

ثم أشار إلى ظاهرة اجتماعية أخرى تتمثل في صنعة التزمير بالمزمار خلال الأعراس في بني ورتلان واعتبرها أنها محرّمة لأن زمارته تلهي وتؤدي إلى مفاسد أخرى كحضور النساء والشبان والرقص وذكر الخدود والقُدود¹. وعندما تحدّث عن مسقط رأسه وأسرته عرّج على ذكر بعض الظواهر السلبية المنتشرة في بعض قرى المنطقة منها قرية وسّر وأولاد الخلف مثل الزنى والسرقة وأن الورتلاني حصل على تفويض مباشر من أحمد باي لمحاربة المفسدين، وقال: "وقد أعاني فيهم المجاهد في سبيل الله القامع للمتمرّدين سيدي أحمد باي إذ نصرني وأعطى أمر المحلة في يدي وأحرقت أولاد الخلف وقرية وسّر وسكانها وبني عشاش وفي تلك السنة جعلت عليهم وأمرت الخليفة أن يأخذ منهم مائة وسبعين (رهينة) إلى أن يتوبوا لله ولرسوله ويرجعوا إلى الأحكام الشرعية أزال الله منهم ذلك"². وهذه المسألة لها جانب سياسي وآخر اجتماعي تكشف لنا من جهة علاقة الورتلاني بالسلطة التركية واهتمامه بإصلاح حالة المجتمع واستئصال الآفات الاجتماعية بضرب المتسبّين فيها بعد رفضهم الانصياع للحق والنصح والهداية.

وفي معرض حديثه عن المشاهد التي ينبغي على الحاج زيارتها في المدينة المنورة ذكر مشهد أحمد البدوي واستنكر ما يقع فيه من المناكر بسبب اختلاط النساء مع الرجال، مثلما يقع في اجتماع آخر رمضان في بجاية، واجتماع يوم عرفة عند قبر يحيى العيدلي (في تاموقرة) وعند علي بن شداد

1 - الحسين الورتلاني، الرحلة الورتلانية، مصدر سابق، ص 71.

2 - نفسه، ص 74.

وعلي بن موسى وعبد الرحمان الثعالبي وسعد السفري بقسنطينة، وفي جبلنا المثقوب (أزرويفلان)، وفي قبر جدنا أحمد الشريف، وقبر سيدي علي بن عبد العزيز، ومسجد حنيف (أحنيف) وغيرها من المواضع التي يكون الاجتماع فيها في الظاهر على الله وفي الباطن على شهوات النفس وخطوات الشياطين ووساوس اللعين فإن مفاصد تلك المحال أعظم من خيرها.

ويضيف الورتلاني حول ظاهرة اختلاط النساء مع الرجال يقول: "نعم قد شاهدنا من تلك الجموع حين كنا نجتمع معهم قوة الحب في الله والشوق لديه بل والله كنت شابا لا يخطر لي خاطر فاسد وإنما شغفت بحب الله وحب رسوله (ص) وغيري ممن له قوة نفس وشغف في النساء قد حصل له مقصوده من هؤلاء الجموع كما حكي لي عن بعض الطلبة من فساقهم وكذا بعض الفقراء المدعين بالكذب، بيد أنني لم أشاهد منهم ذلك".¹

وهناك موضوع طريف في المجال الاجتماعي تناوله الورتلاني في رحلته وهو شرب القهوة وقال في ذلك: "أكثر العلماء مائلون إلى الإباحة ... زاعمين أنها تعين على السهر في العبادة ويستعين بها الطلبة كثيرا في المطالعة الليلية". ثم جاء بنقول وأقوال العلماء في الموضوع، وقد كتب باحث ألماني مقالا مقتضبا عن هذا الموضوع وخلص فيه إلى الاستنتاج بأن الورتلاني يبين بأن القهوة لها فوائد صحية وأضرار اجتماعية تشبه النبيذ لأنها تؤدي إلى الصحبة السيئة وإضاعة الوقت في القيل والقال والجدال العقيم في المقاهي وغيرها من السلبيات الاجتماعية.²

1 - الحسين الورتلاني، الرحلة الورتلانية، مصدر سابق، ص 558.

2 - Wittwer, Carol, Wer trinkt schon nicht gerne Kaffee? : methodisches Vorgehen bei der Interpretation der Reisebeschreibung von al-Wartln , Asiatische Studien : Zeitschrift der Schweizerischen, Heft 4, Band (Jahr): 55 (2001), p.p. 1091- 1097.

الخلاصة

نستنتج من هذه الدراسة أن الحسين الورتلاني رغم كونه رجل دين ومتصوف وفقهه، إلا أنه في نفس الوقت يعتبر مصححا اجتماعيا ومهتما بالأمور السياسية في الفترة العثمانية التي عاش فيها (القرن 18م) حيث أورد في رحلته العديد من الموضوعات الاجتماعية والسياسية وناقش وأبدى رأيه في الكثير منها، فهو مهتم بإصلاح حالة المجتمع وعلاقته مع السلطة السياسية التركية الحاكمة، ويرى أن العلماء والفقهاء والقضاة والمدرسين والأئمة والطلبة وغيرهم من الشرائع والفئات المتعلّمة والمثقفّة في المجتمع الجزائري يجب أن يساهموا بقوة في هذا المسار، واستنكر انتشار بعض المظالم والأخلاق السيئة بسبب تهاون بعض الحكام وبعض الانتهازيين والمفسدين ودعا إلى التصدي لهم ولو باستعمال القوة في حالة الضرورة مثلما فعله شخصا ضد بعض المفسدين من أبناء منطقته.

إن هذه المساهمة التي قدّمها الورتلاني تعد إضافة هامة في مجال كتابة التاريخ الاجتماعي والسياسي للجزائر خلال العهد العثماني تحتاج إلى مزيد من الاهتمام والبحث والتنويه والنشر والدعاية حتى يطلع عليها الطلبة والباحثين والمهتمين ويتخذون منها مادة خامّة لإنجاز دراسات وبحوث ومذكرات تخرّج تغذي المكتبة الجزائرية المتعطّشة.

قائمة المصادر والمراجع

- الحسين الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق: محمد بن أبي شنب، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، ط1، الجزائر، 1908م.
- أبو القاسم سعد الله، إجازة ابن عمار الجزائري إلى محمد خليل المرادي الشامي ضمن كتاب تجارب في الرحلة والأدب، م.و.ك، الجزائر، 1983م.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، (1500- 1830م)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م.

-محمد أوسليمان بجوجو، تاريخ شمال سطيف من العصور القديمة إلى نهاية الثورة التحريرية (بني ورتلان، بني يعل، إيث عيدل، بني معوش)، مطبعة متيجة، الجزائر، 2020م.

-عبد الرحمان عزي، التواصل القيمي في الرحلة الورثانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، كنوز الحكمة، الجزائر، 2012م.

-Mahammed Hadj- Sadok, Revue Africaine, V 95, Journal des Travaux de la Société Historique Algérienne, A. Jourdan, Libraire-Éditeur, Alger, 1951, p 315- 399.

-Wittwer, Carol, Wer trinkt schon nicht gerne Kaffee? : methodisches Vorgehen bei der Interpretation der Reisebeschreibung von al-Wartln , Asiatische Studien : Zeitschrift der Schweizerischen, Heft 4, Band (Jahr): 55 (2001).

الفصل الثاني

بحوث في التاريخ المعاصر

سياسة الاستيطان الفرنسي والتغيير الراديكالي لبنية المجتمع الجزائري

د. سعدية بن حامد

جامعة المسيلة

saadia.benhamed@univ-msila.dz

مقدمة

منذ أن وطأت أقدام الاحتلال الفرنسي أرض الجزائر تعرضت بلادنا إلى كل أنواع الاستعمار الحديث من غزو عسكري ونهب وسلب اقتصادي إلى استعمار استيطاني، و إلى غزو فكري وديني وثقافي وغيرها، إذ رسخت وجودها بالتوسع داخل البلاد، ولم يكن الاستيطان الفرنسي في الجزائر مجرد الاستيلاء على أراضي الجزائريين حوالي 05 ملايين هكتار فقط، بل العلاقة التأثيرية بين الاستيطان والمجتمع، لأن سياسة الاستيطان الفرنسي في الجزائر بنيت على فرضية التغيير الراديكالي لبنية المجتمع الجزائري وخصوصياته في جميع المجالات قصد تغريبه ماديا ومعنويا، لذلك قامت الادارة الاستعمارية بالتخطيط الجيد للاستيطان حيث هيأت له كل الظروف وسخرت له كل الإمكانيات والطاقات من أجل انجازه وبلوغ الاهداف المسطرة على الصعيدين التفكيكي والبنائي معا وذلك من خلال عدة مراحل، وعليه سنعالج في هذه الورقة البحثية إشكالية سياسة الاستيطان الفرنسي وأبعادها الخطيرة على المجتمع الجزائري، من خلال اعتماد المنهج التاريخي الوصفي وكذا التحليلي والإحصائي الذي يتلاءم وطبيعة موضوع دراستنا التاريخية.

1- مفهوم الاستيطان

ينبغي إدراك تصور المستعمر للاستيطان حتى يتسنى لنا معرفة طبيعة التواجد الفرنسي بالجزائر، وذلك من خلال ما كتبه مفكروه، فقد حاول منظرو الاستعمار وضع مفاهيم أو تحديد قواعد لمفهوم الاستيطان، فقد عرف على أنه انتقال مجموعة بشرية من مكان إلى آخر، وهذا نتيجة لثورة صناعية اجتاحت أوروبا وهو مصطلح حديث الاستعمال، يعتبر من الأساليب الاستعمارية، يعتمد على توطين أكبر عدد ممكن من الفرنسيين والأوروبيين بالجزائر لإخضاعها إلى أخطر أنواع الاستعمار الحديث⁽¹⁾.

إن الاستعمار الاستيطاني في الأصل لا يختلف عن الاستعمار القديم، بل هو نموذج آخر في الاستبداد والغزو والاحتلال، كما أن هناك ارتباط وثيق بين الظاهرتين، ويتجلى ذلك في تاريخ تكوين المستعمرات الاستيطانية، حيث كان أحد دوافع الاستعمار التقليدي الذي تبنته فرنسا صراحة عكس بريطانيا التي لم تستطع أن تجاريها فيه، ويرجع ذلك إلى أن الكيانات الاستيطانية الأوروبية قد تطورت لتصبح أهم الأدوات التي يعتمد عليها استمرار النظام الاستعماري⁽²⁾.

فالاستيطان مرتبط بالاستعمار، وهو مرحلة موائية له وتمثل حده الأقصى، ولا يتم الاستيطان إلا في بيئة ومناخ استعماري يشرف عليه ويرعاه، وهو ينهب الأرض وملكها⁽³⁾، والاستيطان من أقدم أشكال الاستعمار، إذ تتوافر في هذه المستعمرات نسب كبيرة من المستعمرين، بسبب الهجرة من

1- محمد حسين: الاستعمار الفرنسي، ط4، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1968، ص 80.

2- شوقي الجميل: تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971، ص 147-150

3- يحيى محمد نهان: معجم مصطلحات التاريخ، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2006، ص 23.

البلد الأم إلى البلد المستعمر لاستغلال ثروات هذه المستعمرات والإقامة فيها⁽¹⁾.

يعتبر الاستعمار الفرنسي للجزائر تجربة خاصة وأسلوباً مميزاً، في فرض الهيمنة الأوروبية بغض النظر على أنه يقوم على الآلة العسكرية، ويستند إلى سياسة استيطانية، تهدف إلى تغيير المعطيات البشرية والقيم الحضارية، فإن هذا الاستعمار من حيث منهجه وطرقه يشكل ظاهرة فريدة من نوعها بل نموذجاً خاصاً، يتمثل في تعامل قوة أوروبية مع كيان آخر يتناقض معه في التوجهات ويختلف عنه في القيم الحضارية، مما يجعل المشروع الاستعماري في الجزائر بمثابة، المخبر الأول لتطبيق الأساليب والإجراءات هدفها إلغاء الوجود التاريخي وتحطيم البنية الاجتماعية⁽²⁾.

وعليه فالاستعمار الاستيطاني يصدر أساساً عن المصالح الاقتصادية والاعتبارات الاستراتيجية، ويندرج في إطار المحاولات التي تستهدف تحقيق السيطرة العالمية للحضارة الغربية، ولهذا لا يصح تجزئة هذه الظاهرة عن طريق تفسيرها من منظور الظروف الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية التي تميزها الواقع الأوروبي خلال القرن 19م بصفة خاصة، كما لا يصح إدراج مختلف الخجرات الاستيطانية تحت نفس المجموعة من الأسباب العامة⁽³⁾.

1- الطيب بن براهيم: الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، دار المنابع، الجزائر، 2004، ص ص 157، 160.

2- ناصر الدين سعيدوني: الجزائر منطلقات وأفاق، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 19.

3- جورج جبور: الطبيعة العنصرية للاستعمار الاستيطاني، المجلة المصرية، المجلد 27، 1971، ص 181.

02-تهجير القوة البشرية الأوروبية

ارتكز الاستعمار الفرنسي منذ المراحل الأولى على الاستيطان المدني لدعم الاستيطان العسكري، وإيجاد مجتمع دخیل على الشعب الجزائري ويكون حليفا لوجود العسكري، حيث أدركت فرنسا أن لا وجد لها في الجزائر بدون مستوطنين مدنيين وفرنسيين وأوربيون يدعمون جيش الاحتلال. بدأ هذا النوع من الاستيطان يأخذ شكلا أكثر حدة وتصعيدا في هجرة الفرنسيين إلى الجزائر في السبعينات من القرن 19م حيث أصبحت خطة الاستيطان مدروسة وجماعية برفقة تشريعات فرنسية لحماية المدنيين والمستوطنين ودعمهم.⁽¹⁾

كما شجعت الكثير من الشخصيات العسكرية والمدنية هذه السياسة، وربطوا الاحتلال بالاستيطان، فالاستيطان بلا احتلال سيكون عمل غير مكتمل في نظر المفكر الفرنسي ألكسي طوكفيل (TOCQUEVILLE)⁽²⁾ ويظهر هذا في قوله: "إذا تركنا العرب لأنفسهم، وتركناهم يتشكلون في قوة منتظمة في مؤخرتنا، فلا مستقبل إطلاقا لمبادرتنا في إفريقيا"، ووضح قائلا: "...السيطرة الكاملة والاستيطان الجزئي هو النتيجة التي أعتقد القيام

1- عبد المالك خلف التميمي: الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، دراسة تاريخية مقارنة، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص 23.

2- طوكفيل: هو ألكسي دو طوكفيل وهو أحد كبار المنظرين الفرنسيين المحدثين، مؤرخ وعالم اجتماع ورجل سياسي معروف ولد سنة 1805 وتوفي سنة 1859، انتخب عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية من 1839 إلى 1849 ووزيرا للخارجية فرنسا فيما بعد، وكان من الموافقين على غزو الجزائر ومن دعاة الاستيطان فيما بعد، قام بزيارة للجزائر سنة 1841 وكلف بدراسة استعمار الجزائر، من أهم نصوصه: عن الاستعمار في الجزائر، رسالة عن الجزائر، عمل عن الجزائر والنص الأخير يوميات رحلته إلى الجزائر وهي ملاحظات عن رحلة سنة 1841. أنظر: الكسي دوطوكفيل: نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، ترجمة وتقديم: ابراهيم صحراوي، ديوان مطبوعات الجامعة، الجزائر، 2008م، ص 38.

بها، إلى أن تظهر استحالة بلوغها".

في الحقيقة أن المشروع الاستيطاني يتطلب تهجير قوة بشرية، من داخل فرنسا وكامل أوروبا إلى الجزائر، وإتاحة الفرصة لها في الحصول على امتيازات في هذا البلد، فعملية الاستيطان كانت مشروعا أوروبيا أكثر منه فرنسيا حيث قامت على شعار "ليكن الاحتلال فرنسيا، لكن الاستيطان يجب أن يكون أوروبيا"⁽¹⁾، لذا فقد عمل الاستعمار الفرنسي من خلال تشجيعه على الهجرة، ولذلك أصبح متشردو أوروبا وصعاليكها يتمتعون بحق المواطنة في الجزائر، وذلك لتحقيق هدف أساسي يتمثل في محاولة خلق شعب تنصهر فيه جميع هذه العناصر المهاجرة.

إن تجارب التاريخ تبين أن كثيرا من الشعوب والدول والإمبراطوريات، تغيرت بنيتها وشخصيتها وثقافتها جراء الهجرة، فالاستيطان يمر بثلاث مراحل هي الهجرة الاستيطانية، والاستعماري الإستيطاني ثم الدولة الاستيطانية، فهناك تأثير كبير للمهاجرين الأجانب، وذلك لما يحملونه من عقائد وأفكار والبلدان التي أتوا منها⁽²⁾، وكذا مدى تفاعلهم وإندماجهم في المجتمع المستوطن الذي هاجروا إليه وما مدى قبول ذلك المجتمع لهم⁽³⁾، ففي الجزائر نجد مجموعة من الطوائف الأجنبية الأوروبية التي كانت فرنسا تريد أن

1- عدة بن داهة: الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1962،

ج2، ط خاصة، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2008، ص34.

2- مجدي حماد: النظام السياسي الاستيطاني دراسة مقارنة "إسرائيل جنوب إفريقيا"، بيروت، 1981م، ص28-29.

3- قد يرى البعض إمكانية اندماج المستوطنين في المجتمع الجديد، لكن ذلك لا يتم إلا في حالات محدودة أين تنتهي موجات الهجرة بالذوبان في المجتمع الأصلي في حالة الهجرة السلمية، أما الهجرة الاستيطانية الاستعمارية فكثيرا وغالبا ما يستحيل الاندماج لأنها في الأصل مبنية على القوة والفرقة والطبقية والعنصرية.

تجعل منها وحدة اجتماعية متجانسة في مواجهة الجزائريين، حيث عمدت إلى استقدام عدة أجناس كالإسبان واليهود، المالطيون...، مما ولد مجتمع أجنبي داخل المجتمع المحلي من الطوائف الأجنبية التي استقدمتهم فرنسا إلى الجزائر.

3- الفئات الأوروبية الوافدة إلى الجزائر

- الإسبان

تعد الفئة الاسبانية من أكبر الفئات الأوروبية عددا، إذ كانت تمثل ثلثي سكان الأوروبيين⁽¹⁾، ولقد كان قدومهم وتواجدتهم في الجزائر منذ عهد الدولة الزيانية، والذين كان أغلبهم قادمين من مناطق المحاذية للبحر الأبيض المتوسط، خاصة من مقاطعات فرنسية (MURCIE) وأليكانت، الميرية، بلنسية، قرطبة... واستقروا في الشرق والغرب كفلاحين ومزارعين ومصالحين للأرض، أين قدر عددهم سنة (1896م) حوالي 160.000، كما أن ثلثي الإسبان كانوا يستقرون في غرب البلاد.

- الإيطاليون

وهم الفئة الثانية من الناحية العددية، وأغلبهم ينحدرون من صقلية ومناطق نابولي وبيلام *pilame , trapani*، ولقد اشتغلت هذه الفئة بالصيد البحري وبالمناجم والبناء والأشغال الكبرى، كما كانت وجهتهم إلى شرق البلاد نظرا لقربها الجغرافي، ففي سنة (1896م) ارتفع عددهم إلى 35268 مستوطن، و37000 مستوطن في سنة 1911،⁽²⁾ ولقد كان الإيطاليين أكثر قدرة على العمل لكنهم لم يكونوا بنفس مكانة الإسبان.

1- عبد الحميد زوزو: محطات في تاريخ الجزائر دراسة تحليلية في حركة الوطنية والثورة التحريرية على ضوء وثائق، ديوان المطبوعات جامعية، م7، 2010، ص310.

2- شارل روبير أجرون: تاريخ الجزائر المعاصر، ص198.

-الألمان

ولأن ألمانيا كانت رائدة لفكرة الاستيطان وكان لها مدارس لتلك، فكان من ضروري قدوم هؤلاء المغامرين والطلبة والمثقفين والقساوسة، حيث توجهت الكثير من العائلات الألمانية لتعمير الجزائر، وكان معظم هؤلاء ينحدرون من مناطق *rhénanie, bavière, le puy de fougère*، ولقد استقروا منذ قدومهم سنة 1832 كانوا يشتغلون في استغلال الأراضي والممارسة الحرة، وكذلك وبسبب ظروف الصعوبة التحقوا بالجيش الفرنسي ولقد قدر عددهم في سنة 1846 بـ 1140 فرد يعملون كعمال وبستانيون وفي صناعة الذمور وأعمال الحفر.⁽¹⁾

- السويسريون

وهم بين أهم الفئات التي وفدت إلى القطر الجزائري، وكانت قد اشتغلت في نشاطات الفلاحية خصوصا في مزارع الكروم والتبغ، ولقد جاء معظمهم عن طريق شركة السويسرية جنيفية وشركة لاجينفوز خلال سياسة الاستيطان المنتهجة.

- اليهود

لقد كان لليهود مكان بارز في حركة الاستيطان الفرنسية في الجزائر وخاصة بعد إقرار تجنسهم، فحتى سنة (1886م) كان هناك حوالي 43 ألف، وكان أغلبهم من التجار والحرفيين، وقد كان اليهود أشد تعاوناً مع الاستعمار الاستيطاني الذي كان دليلاً كافياً على ضعف انتمائهم إلى المجتمع الجزائري.⁽²⁾

1- محمد بن عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج 4، ط6، 1983، ص29.

2- عبد المالك خلف التميمي: المرجع السابق، ص24.

-المالطيون

حيث كانوا من المهاجرين الأوائل الذين حطوا بالجزائر، وقدر عددهم بالعاصمة وقسنطينة سنة (1833م) بـ 1213 مستوطن، وكان أغلبهم يشتغلون في التجارة والأعمال الحرة والخدمات العامة فيما كانت القلة منهم يشتغلون في الميدان الزراعي.

-البلوروسيون

تحول في بداية (1831م) حوالي 700 مهاجر بلوروسي وبينهم مهاجرون من سويسرا والألزاس إلى الجزائر بعدما كانوا في طريقهم إلى البرازيل والولايات المتحدة الأمريكية، وذلك تحت تأثير الدعاية الفرنسية ووعودها بالحصول على الأرض.

تطور المستوطنين الأوروبيين في الجزائر بين 1831/1872

السنوات	1831	1836	1841	1846	1851	1857	1861	1866	1872
عدد المستوطنين	3.228	14.561	57.374	109.400	131.283	188.872	205.888	235.225	245.117

ومن خلال استنطاق إحصائيات الجدول يتبين لنا أن أكثر وتيرة للهجرة تم تسجيلها بين 1831/1872 وهما فترتا حكم كل من المارشال بيجو-راندون على التوالي، وهذين الشخصيتين العسكريتين كانت لهما جهود حثيثة في الحركة الاستيطانية، برزت من خلال توفير عقود الامتياز المجانية للمعمرين، وإنشاء عدد كبير من المراكز الاستيطانية.

تشير إحصائيات السكان باستثناء الجند واليهود أن عدد الأوروبيين عرفت تزايدا ديمغرافيا ملحوظا على مر السنوات، والجدول التالي يوضح ذلك:

السنوات	عدد المستوطنين
1871	119.000
1876	247.749
1881	376.000
1886	467.000
1891	83.465
1896	529.717
1901	583.844
1926	833.000
1931	881.600
1954	984.000

ومهما تكن من حقيقة هذه الأرقام فإن الانخفاض الطفيف لوتيرة نمو السكان الأوروبيين حقيقة لا ينتابها أدنى شك، كما أن تناقص العدد السنوي للمهاجرين الوافدين إلى الجزائر عرف انخفاضا بحيث لوصل إلى 51.000 مهاجرا⁽¹⁾، والجدول التالي يوضح معدل الزيادة في عدد المستوطنين.

4- مصادرة أراضي الجزائريين وانتشار الفقر

استطاعت الإدارة الاستعمارية سلب أراضي الشعب الجزائري، بدعوى أن ملكيتها مشاعة وغير معروفة، ومصادرة الممتلكات إثر الانتفاضات المتتالية، وهذا وفقا لسياسة الجنرال "بيجو" بنظريته "المدفع يفتح الطريق للمحراث"، حيث تتم مصادرة الأراضي بالقوة وبأساليب متعددة، فقد تم إصدار جملة من القرارات والمراسيم التي تهدف إلى نقل الأرض من الأهالي إلى المستوطنين فيما بين (1871/1917م) تم الاستيلاء على 897000 هكتار، وحتى (1954م) تم الاستيلاء على 2726000 هكتار، أي حوالي 5/2 من مجموع الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة⁽²⁾.

1- شارل روبير أجيريون: الجزائريون المسلمون وفرنسا 1870-1919، دار الرائد للكتاب، ج 1، ترجمة، حاج مسعود، الجزائر، 2007، ص 858.

2- محمد العربي ولد خليفة: الاحتلال الاستيطاني للجزائر "مقاربة للتاريخ الاجتماعي والثقافي"، دار تالة، الجزائر، 2005م، ص 59-60.

ومن تبعات السياسة الاستيطانية انتشار الفقر والمجاعات والأوبئة، فالظاهرة الثابتة بين الأهالي هي البؤس، فهناك حوالي مليون عاطل عن العمل من بينهم 800.000 في الأرياف و100.000 مكرسين في الأحياء القصديرية، وأكثر من نصف السكان يعيشون في أكواخ مبنية بالطين والقش وأغصان الأشجار.

وإذا كان المستعمر يرد أسباب فقر الجزائريين إلى نقص خصوبة أرضهم، واستخدام الوسائل التقليدية في موازاة زيادة المواليد، فإن الواقع يثبت أن السياسة الاستيطانية والتمادي في الهيمنة على الأراضي الخصبة، كانت السبب الأساسي في تفكير الأهالي وتجويعهم مما ترتب عليه مشكلات جمة، إذ كان الفلاحون مقسمون بين مزارعين "خماسة" وعمال زراعيين مأجورين، وكانت سياسة الاستيطان تقضي بالاستفادة من الطاقة البشرية المحلية وطرد الشعب الذي لا يحتاجه، مما أدى إلى تخلف القبائل التي كانت تشكل غالبية السكان.

5- سياسة تفكيك المجتمع الجزائري

- تفتيت القبيلة

من خلال مما ذكرناه آنفا بأن تفتيت القبيلة كان ضمن الأهداف التي سعى مشروع قانون سيناتوس كونسيلت 1863م إلى تحقيقها، واستدللنا على ذلك بتصريح الجينرال آلار (Allar) في معرض حديثه عن دوافع صدور هذا القانون، والذي جاء فيه: "لن تغفل الحكومة عن حقيقة أن سياستها يجب أن تنشد على العموم التخفيف من تأثير الزعماء وتفتيت القبيلة"⁽¹⁾، وبالتالي فإن تفتيت القبيلة هي بيت القصيد، استهدفت تحطيم أواصر

1- صالح حيمر: السياسة العقارية الفرنسية في الجزائر 1830/1930، دكتوراه ت ح وم، قسم

التضامن والتكافل بين أفراد القبيلة⁽¹⁾، ويؤدي ذلك إلى أن تحل العائلة محل القبيلة في صون الوحدة الاجتماعية والأخلاقية في المجتمع⁽²⁾، كسر شوكة هذه الأخيرة بما يسمح بتغلغل الاستيطان الفرنسي داخل أراضي القبائل وإضعافها، لأجل هذا سنجد بأن القبائل ذات الشوكة والتي رفعت لواء المقاومة هي من ستسلط عليها عقوبات صارمة بتشتيت شملها ومصادرة أراضيها. لقد أدى تطبيق قانون سيناتوس - كونسلت والذي شكل أرضية صلبة لبقية القوانين العقارية التي تليه- إلى إحداث تغييرات جذرية على بنية القبائل، حيث تم تفتيتها وتحويلها إلى وحدات إدارية صغيرة هي الدواوير، وقد أطلق على هذا الكيان الإداري المصطنع اسم مركب هو الدوار-كومين(Douar-Commune)، وهو يتكون في الغالب من مجموعة سكانية غير متجانسة، هي في الأساس بقايا القبائل المفتتة، ولا شك بأن إنشاء هذه الدواوير، يؤدي من الناحية العملية إلى حصر الأهالي في مساحات محددة المعالم⁽³⁾، كما أن هذا الإجراء يعطي للإدارة الاستعمارية حرية التصرف في أراضي الدوار، وفق ما تمليه مصالح الاستيطان.

إن عملية تفتيت القبائل ما هي إلا خطوة هامة نحو تفتيت المجتمع الجزائري برمته، لذلك نجد بأن الإدارة الاستعمارية قد أنجزت هذه العملية وفق ما يخدم المصالح العليا للاستعمار الفرنسي، فأحيانا نجدها تقوم

1- بن عيسى محمد المهدي: المجتمع والتنمية في الجزائر، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع1،

ديسمبر 2010، جامعة ورقلة، ص 4، 5

2- عبد الحميد بوقصاص: تطور السكان في المجتمع الجزائري وثنائية" الريفي -الحضري"، مجلة الأسرة والمجتمع، د. ت، ص293.

3- جمال ورتي: تطور نظام الإدارة الفرنسي في عمالة قسنطينة خلال النصف الثاني من القرن 19م، سوق أهراس نموذجاً (1843-1900)، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والأثار، جامعة قسنطينة، السنة الجامعية 2009-2010، ص603.

بتقسيم القبيلة الواحدة إلى مجموعة من الدواوير، وأحيانا تقوم بجمع أقسام من قبائل مختلفة ودمجها في دوار واحد، بينما تلجأ في حالات أخرى إلى إلحاق بعض القبائل بالمراكز الاستيطانية مباشرة، دون أن تقوم بتقسيمها إلى دواوير، وبهذا الشكل تم تحطيم القبيلة كوحدة سياسية واجتماعية متماسكة.⁽¹⁾

وللإشارة فإن عملية تفتيت المجتمع الجزائري، لم تتم بموجب تطبيق التشريعات العقارية فقط، بل حتى عمليات الحجز والمصادرات التي سلطتها الإدارة الاستعمارية على القبائل الثائرة، فضلا عن سياسة التفجير والتهجير، قد أدت بدورها إلى هذه النتيجة وخير مثال على ذلك ما حدث لقبيلة الحشم التي قادت انتفاضة المقراني سنة 1871م، والتي تم تهجيرها جماعيا من موطنها الأصلي بمنطقة "مجانة" ونواحيها إلى منطقة "الحضنة"، وهذا بداية من سنة 1876م⁽²⁾ هذا ما أدى إلى تشتت قبائل الحشم وأدخلها في صراعات مع سكان الحضنة، وبهذا تكون الادارة الاستعمارية قد زرعت الفتنة والنزاعات بين ابناء الوطن الواحد.

ونخلص إلى أن التشريعات العقارية الفرنسية، التي استهدفت تفتيت المجتمع الجزائري، من خلال تفتيت القبيلة قد أدت إلى خلخلة البنية الاجتماعية للريف الجزائري، ومن جهة أخرى فإن تأسيس الملكية الفردية قد أحدث هزة عنيفة داخل المجتمع الجزائري، حيث وجد الفرد الجزائري نفسه وحيدا في مواجهة تحديات اقتصادية واجتماعية لا طاقة له بها، ذلك

1- عدى الهواري: الاستعمار الفرنسي في الجزائر" سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830م/1962، ترجمة: جوزيف عبد الله، ط1، دارالحداثة، لبنان، 1983، ص 86.

2- كمال بيرم: بلدية المسيلة المختلطة دراسة اقتصادية واجتماعية بين 1884-1945م، مذكرة ماجستير في تاريخ وحضارات البحر المتوسط، قسم التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية 2005-2006، ص70.

لأن كل الأجهزة التي كانت توفر له الحماية قبل ذلك قد تم تكسيها تباعا، بالعنف أولا والقانون ثانيا وبمفعول الاقتصاد ثالثا⁽¹⁾.

- تغيير البنية الاجتماعية التقليدية للمجتمع الجزائري

لقد أحدثت السياسة العقارية الفرنسية تغييرات جذرية على الملكية العقارية في الجزائر، أدت إلى تحطيم البنية الاجتماعية التقليدية للمجتمع، وهذا ما أثر بدوره في مختلف مستويات التصنيف الاجتماعي داخل المجتمع، ويمكن إرجاع التغيرات التي عرفتها التركيبة الاجتماعية للمجتمع إلى عاملين هما: العامل الأول: أن التركيبة الاجتماعية التي كانت قائمة قبل الاحتلال مرتبطة بالأرض، وبالتالي فإن تغيير هذه التركيبة كان إفرازا منطقيا للتغيرات التي أدخلت على الملكية العقارية، أما العامل الثاني: فيتمثل في ظهور فئة جديدة قوية ودخيلة على المجتمع-تتمثل في فئة المعمرين- تركزت على قوة اقتصادية وسياسية هامة، وبالتالي خلخلت البنية الاجتماعية القائمة، وإعادة فرزها وفق نمط جديد، ويمكن إبراز أهم التطورات التي عرفتها التركيبة الاجتماعية في النقاط التالية:

- تلاشي الأرستقراطية التقليدية: كان المجتمع الجزائري قبل الاحتلال يركز على التنظيم القبلي، وهذا ما أدى إلى بروز ما يمكن أن نسميه بالأرستقراطية القبلية" الحربية والإدارية والسياسية والدينية، وهي الأرستقراطية التي أطرت القبائل والعروش والعائلات⁽²⁾، ويمكن أن نميز بين نوعين هما:

- الأرستقراطية الدينية: التي وقفت إلى جانب المقاومة، فقد سلطت

1- عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، ج3، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999، ص132.

2- إبراهيم مهدي: الأرستقراطية التقليدية الوهرانية خلال القرن 16م والرأسمالية الاستعمارية، مجلة إنسانيات، ع4، جانفي/أفريل 1998، ص83.

علمها عقوبات عقب فشل المقاومة، والتي تمثلت في الحجز والمصادرات الجماعية والفردية التي سلطت على هذه القبائل والغرامات المرهقة التي حطمت قواها المادية، كما منعت القبائل من الانتفاع من الغابات، مع زيادة الضرائب التي فرضت على الفلاحين والتي وصلت إلى 15 ضريبة⁽¹⁾.

- **الارستقراطية المخزنية:** فرغم وقوفها إلى جانب الاستعمار الفرنسي، وتفانها في خدمته إلا أن ذلك لم يشفع لها، فقد حاولت فرنسا في البداية أن تحذو حذو الأتراك، من خلال احتفاظها بالألقاب وتأمين المزايا المادية لها، لكن ذلك لم يدم طويلا إذ سرعان ما عملت على الحد من سلطة هذه القبائل، وتحويل وظائفها إلى مجرد ألقاب شرف⁽²⁾، وبهذا تكون الإدارة الاستعمارية قد حطمت العائلات الجزائرية الكبيرة التي كانت تتولى قيادة المجتمع الجزائري روحيا وماديا، بل "وحتى إداريا واجتماعيا وسياسيا"⁽³⁾، وكان من نتائج ذلك زوال سلطة الأجواد كهيئة تتمتع بمكانة اجتماعية ودينية متميزة، كثيرا ما كانت تشكل الإطار الامثل لحل النزاعات بالطرق السلمية.

- **بروز ارستقراطية استعمارية جديدة:** تتكون هذه الفئة من كبار الملاك العقاريين، من المعمرين الأوروبيين الذين يملكون أكثر من 100 هكتار، الذي استفادوا من عملية تركيز الملكية العقارية، وتتمتع هذه الفئة بقوة اقتصادية وسياسية هامة، اكتسبتها بفضل الدعم المادي والعنوي⁽⁴⁾، الذي ظلت تحظى

1- عدة بن داهة: الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال ج2، المرجع السابق، ص23.

2- إبراهيم مهدي: المرجع السابق، ص84.

3- يحي بوعزيز: سياسة التسلط المرجع السابق، ص35.

4- عبد السلام فيلاي: هيكل المجتمع الجزائري المعاصرين التزعتين الحضرية والريفية. مجلة التواصل، عدد24، جامعة عنابة، جوان 2009، ص152.

به من جانب الإدارة الاستعمارية، ويمكن أن نضيف إلى هذه الفئة تلك الأقلية المحظوظة من الجزائريين، والتي تتألف في الأساس من العائلات المتنفة والمتحالفة مع الرأسمالية الاستعمارية، وأبدت تفانيها في خدمة الاستعمار، وإذا كانت هذه الفئة لم تحصل على الدعم المالي والسياسي من جانب الإدارة الاستعمارية، إلا أن ذلك لم يمنع من حصولها على بعض الامتيازات العقارية والمكانة الاجتماعية⁽¹⁾.

- تحول الفلاحين إلى خماسين ومزارعين وعمال أجراء

وفي ظل الانفتاح الذي عرفته السوق والتي شملت حتى الملكيات التي كانت غير قابلة أصلا للمعاملات العقارية، هذا أدى إلى إحداث تغييرات عميقة على الوسط الفلاحي، ولعل أكبر المتضررين من هذا التحول، هو الفلاح الجزائري الذي تحول من مالك إلى مجرد خماس، غير أن ذلك لم يدم طويلا إذا سرعان ما اكتشف المعمرون بأن نظام الخماسة يكلفهم كثيرا، خاصة إذا كانت الأرض المزروعة خصبة وذات مردود وفير، لذلك لجؤا إلى إدخال تصنيفات جديدة على الوسط الفلاحي الجزائري، تمثلت في فئتي المزارعين⁽²⁾ والعمال الأجراء.

أما المزارعون فكانوا يؤجرون من طرف المعمرين، حيث يتم التعاقد معهم سنويا، وقد كانوا يشكلون نسبة 3.12% من مجموع اليد العاملة

1 - يسين وادفلي: التنظيم العقاري بمنطقة الأوراس بين 1863/1900، وأثاره الاقتصادية والاجتماعية، رسالة ماجستير في تاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة باتنة، 2010/2011، ص 92.

2- يقصد بالمزارعين- حسب أجرون- تلك الفئة التي يربطها تعاقد بمالك الأرض، خارج الخماسة، شبيهة بالعقود الأوروبية التي تحدد شروط تقاسم الغلة بين المستأجرين وصاحب الأرض. أنظر: أجرون: الجزائريون المسلمون....، ج2، المرجع السابق، ص353.

الريفية⁽¹⁾، أما عن فئة العمال الأجراء فتتألف من عمال موسمين ودائمين وشبه دائمين، وقد كانوا في القرن 20م يمثلون نسبة 12%، لترتفع نسبتهم سنة 1930 إلى 18% من مجموع اليد العاملة الريفية⁽²⁾، وكان معظم هؤلاء العمل الأجراء، في البداية من الخماسين وصغار الفلاحين، لتتحول هذه الفئة فيما بعد إلى بروليتاريا حقيقية، تتألف من الفلاحين الذين فقدوا أراضيهم وصاروا يشتغلون بالأجر اليومي⁽³⁾.

إن الحركة السريعة التي عرفتھا السوق العقارية، منذ الشروع في تطبيق قانون فيفري 1897م، قد أدت إلى تجريد الفلاحين بشكل ملفت للانتباه، وهذا ما أدى بدوره إلى تحويل عدد كبير منهم إلى مزارعين وعمال أجراء، وقد تم هذا التحول بسرعة أدى إلى دق ناقوس الخطر بإفقار المجتمع الجزائري وتحويله إلى بروليتاريا يائسة تعاني من الاستغلال والعنصرية، هو الذي سيقوي لديه الشعور بالظلم ومن ثمة تترسخ لديه القناعة بشأن ضرورة التحرر والانعقاد، وهذا الذي حدث فعلا⁽⁴⁾.

6- بروز ظاهرة تمدن سكان البدو

لم يقتصر تأثير القوانين العقارية على تحطيم البنية الاقتصادية التقليدية، وتغير تركيبته الاجتماعية فحسب، بل تعدى ذلك إلى التأثير على الثقافة المادية لهذا المجتمع، والتي تبرز بوضوح في نمط السكن، الذي يشكل

1- مغنية الأزرقي: نشوء الطبقات في الجزائر، ترجمة: سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1980، ص ص 53-54.

2- شارل روبر أجرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، المرجع السابق، ص ص 101-102.

3- عبد السلام فيلاي: هيكلية المجتمع الجزائري المعاصر بين النزعتين الحضرية والريفية، المرجع السابق، ص 52-53.

4- صالح حيمر: المرجع السابق، ص 290-291.

حصيلة التطور الاقتصادي داخل المجتمع وعلاقتها بالحياة الاجتماعية والثقافية.

فقد حدث تحول هام في نمط السكن لدى سكان الريف الجزائري، وتمثل هذا التحول في بروز ظاهرة تمدن سكان البدو الرحل، أو بعبارة أخرى ظاهرة الانتقال من الحياة المتنقلة في الخيام إلى الحياة المستقرة في الأكواخ، وهذه الظاهرة هي نتيجة حتمية لحالة الفقر التي دفع إليها المجتمع الجزائري، فعملية الانتقال من الخيمة إلى الكوخ (القربي)، هو دليل على تلاشي البنية الاقتصادية التقليدية⁽¹⁾، وقد أخذت عملية التخلي عن الخيمة والتحول إلى الكوخ، منحى خطيرا منذ مطلع القرن 20م، ويمكن إبراز هذا التحول من خلال المثال التالي:

في إقليم الحضنة مثلا، بدأت ملامح هذا التحول منذ إنشاء الإدارة المدنية بالمسيلة في 1885، لكن العملية عرفت تطورا متسارعا منذ 1911، ففي هذه السنة تم إحصاء 9192 مسكن مقابل 5797 خيمة، في حيث لم تعد تمثل سنة 1936 سوى 19.5% من مجموع المساكن⁽²⁾، فإذا أخذنا بعين الاعتبار بأن الخيمة بالنسبة لهذه المنطقة، لم تكن مجرد مسكن فحسب بل كانت أيضا مظهر شرف وقيمة اجتماعية وثقافية⁽³⁾، وهو مرتبط إلى حد بعيد بالتحويلات الهامة التي طرأت على الملكية العقارية، والتي يمكن إثباتها في النقاط التالية:

1- صالح حيمر: المرجع السابق، ص 293

2- كمال بيرم: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الحضنة الغربية "فترة الاحتلال 1954/1840"، أطروحة دكتوراه تاريخ، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة، 2010/2011، ص 113.

3- نفسه، ص 293.

الطريقة التي تم بها تطبيق سيناتوس كونسيلت، الذي كان سببا لتخلي الفلاحين عن حرفة الرعي لم يعد هناك ما يجبرها على السكن المتنقل- الخيمة-، ومن جهة أخرى فإن هذا القانون قد أدى إلى تفكيك القبيلة⁽¹⁾. تطبيق قانون 16 فيفري 1897: الذي كان ضربة قاضية لأراضي العرش، كانت لها عواقب وخيمة على الفلاحين، ودفعها إلى بناء الأكواخ، التي لا تتطلب تكاليف كبيرة مقارنة بتكلفة الخيمة وصيانتها.

خاتمة

وصفوة القول نذكر بأن هذا التحول الذي حدث على الصعيد الاجتماعي هو نتيجة حتمية لسياسة الاستيطان على حساب أراضي الجزائريين الذين استوطنوا واستعبدوا من طرف الاستعمار الغاشم، فمنهم من فروا إلى الجبال وللكهوف والمغارات، ومنهم من هاجروا خارج البلاد، والحقيقة أن حالة الفقر التي دفع إليها المجتمع، ولا يمكن أن تكون مظهرا من مظاهر تقدمه، كما أن هذا التحول قد أثر بدوره على الحياة الاجتماعية التقليدية لسكان الريف الجزائري، حيث ساهم في ظهور العائلة المصغرة، التي حلت محل العائلة الكبيرة⁽²⁾، التي لم تعد تجتمع إلا في مناسبات محدودة، فضلا عن فقدان المجتمع لواحدة من موروثاته الثقافية، التي كانت تمثلها الخيمة بما تحمله من دلالات اجتماعية وثقافية.

1- لم يكن قانون سيناتوس كونسيلت 1863، قانونا عقاريا فحسب بل كان قانونا إداريا. أنظر: أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 91.

2- بن عيسى محمد المهدي: المرجع السابق، ص 5.

المجتمع الجزائري في ظل الدراسات والسياسات الاستعمارية الفرنسية

د. كوثر هاشمي

جامعة 8 ماي 1945 – قالمة

kaouthar.hachemi@univ-guema.dz

الملخص

تعتبر الأنثروبولوجيا علم استعماري بامتياز حيث تجمع كل الدراسات النظرية التي تناولت الأنثروبولوجيا كتاريخ علمي أنها نشأت بين أحضان المنظومة الاستعمارية، حيث استعملتها المنظومات الاستعمارية من أجل الإحاطة بأنماط الشعوب المستعمرة من الناحية الاجتماعية، الثقافية، الدينية ولم تعد فرنسا كقوة استعمارية على هذه القاعدة، التي اعتبرت أساسية لفرض منطق الهيمنة الاستعمارية وطبقها في مستعمراتها وعلى رأسها الجزائر التي اعتبرت جوهرة التاج الفرنسي، سواء في بداية الحملة العسكرية، من خلال التحقيقات المدنية التي قام بها القادة والعسكريين أو الدراسات الأكاديمية التي تلت الفترة والتي كانت أبرزها ما قدمه إيميل مسكوراوي، لتستثمر فرنسا في الأنثروبولوجيا كورقة رابحة لكسب رهان القضاء على الثورة التحريرية من خلال توظيف مجموعة من الأنثروبولوجيين في إدارة ديوانها الحاكم في الجزائر.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار – الأنثروبولوجيا – الدراسات الفرنسية – علم استعماري – الجزائر – فرنسا

Abstract

Anthropology is a distinctive colonial science, with all theoretical studies collecting that it is the result of the colonial system, where colonial powers used it to capture the characteristics of colonial peoples in terms of socio-cultural and religious aspects, France as a colonial power, used anthropology for the opportunities of its power to dominate its colonies, foremost of which was Algeria, which was considered the jewel of the French crown.

Either the start of the military campaign through field investigations of the French military leaders, which, if not specialized, represented the first basis for colonial anthropological studies in Algeria, which evolved into academic and theoretical studies that printed the second stage and among the distinguished works in this period, we mention the work of Emil Mosqueray.

Key words: Colonization – Anthropology – French colony – Colonial science – Algeria – France

مقدمة

بعد التطورات الحضارية والسياسية التي عرفتها أوروبا بعد عصر النهضة، وموجة الكشوفات الجغرافية، اتجهت بعدها إلى مرحلة جديدة، وهي التوسع خارج حدودها الإقليمية وتوسيع ممتلكاتها فيما عرف في التاريخ بالحركة الاستعمارية الأوروبية، التي كانت تقوم بالأساس على السيطرة على أراضي، وشعوب جديدة خارج الأطر الإقليمية للقارة الأوروبية لذلك كانت الدول الاستعمارية الأوروبية بحاجة إلى معرفة خصائص الشعوب التي ترغب في السيطرة عليها سواء قبل احتلالها أو بعد الاحتلال، ولم تحد فرنسا كإمبراطورية استعمارية كبيرة على هذه القاعدة الاستراتيجية للسيطرة والتوسع، فقد توصل المحتل الفرنسي إلى أنّ الاحتلال العسكري يجب أن تصحبه معرفة بالخصائص الجغرافية للأرض وكذا الأنماط الثقافية والاجتماعية والدينية المهيمنة على الأوساط الشعبية، لذلك فالواقع الذي فرضته الحركة الكولونيالية العالمية فرض ظهور علم جديد يكون في خدمة الأطماع التوسعية للدولة الاستعمارية وهو الانثولوجيا.

انطلاقا مما سبق نطرح الإشكال التالي:

- كيف وظفت الحركة الاستعمارية الفرنسية الأنثروبولوجيا لخدمة مساعيها للسيطرة والتوسع في الجزائر؟

وهذا الإشكال الرئيسي يدفعنا لطرح الأسئلة الفرعية التالية:

- ما مفهوم الانثروبولوجيا؟

- ما علاقة الانثولوجية بالحركة الاستعمارية؟

- ما هي المراحل التي مر بها توظيف الانثولوجيا كعلم استعماري لإخضاع

الشعب الجزائري والتوسع في أراضيه؟

أولاً: مفهوم الحركة الاستعمارية

1/ لغة

هي كلمة مشتقة من الفعل عمر، يعمر، وإعمار، حيث نقول عمّر المكان واستعمره، وأعمر الأرض، والعمارة، ما يعمر بها المكان والاستعمار من الفعل عمر، يعمر أي ملئ فراغاً وأرضاً لم تكن اهلة¹. ومنه فأصل هذه الكلمة في لغتنا العربية طبيب، وفروعها طبية لكن إخراجها من معناها العربي إلى معناه الأجنبي ظلم لها².

2/ اصطلاحاً

هو تسلط دولة على بلاد غير بلادها الأصلية من أجل استغلال ثروتها الاقتصادية، مع العمل على بسط سيطرتها ونفوذها السياسي في البلاد المستعمرة³.

كما يقصد بمصطلح الاستعمار قيام دولة بالسيطرة الكاملة خارج حدودها على شعب دولة أخرى، وتقوم هذه السيطرة على استغلال الإقليم المستعمر وسكانه مما يفقد هذا الإقليم سيادته فيصبح إقليماً مستعمر⁴. ويعد الاستعمار ظاهرة قديمة قدم الإنسان، فقد ظهر في عصور الغرب القديمة وفي تاريخ آسيا البعيد، الذي عرف بالتوسع الإمبراطوري

1 ألفيرو أبادي، القاموس المحيط، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط 68 القاهرة، 2008م، ص 445.

2 عبد المالك مرتاض، المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية 1954-1962، دار الكتاب العربي، الجزائر، د س ن، ص 18.

3 يحي محمد بنهيان، معجم مصطلحات التاريخ، ط1، دار يافا للنشر، الأردن، 2008، ص 21.

4 حسين سيد سليمان، ظاهرة الاستعمار في إفريقيا والعالم العربي مجلة بحوث الدراسات الإفريقية، العدد "2" المركز الإسلامي الإفريقي، السودان 1986، ص 55.

للأراضي الإمبراطورية الفرنسية والرومانية، والصينية... الخ بتوسعات متتالية.¹

ولكن هذه التحركات لم تكن مقننة أو مخططة حيث أنها لم تتجه بشكل واضح نحو الاستعمار، إلاّ مع تطور المجتمع، والحضارة وزيادة الارتباط البيئي، عضويا أو مجتمعيا بين الجماعات والأقاليم مع زيادة نمو الدولة كشكل سياسي.²

وقد عرفت الحركة الاستعمارية تطورا كبيرا خاصة بعد التطورات التي شهدتها القارة الأوروبية، مع بداية العصور الحديثة لما تميزت به هذه الفترة التاريخية من أحداث وتطورات كان لها تأثير في أوروبا في جميع المجالات وامتد تأثيرها إلى خارج أوروبا، بداية من "عصر النهضة" الذي يمتد من القرن 14 وحتى القرن 17 تقريبا لتستمر ذيل النهضة في حركة الكشف الجغرافية وفي صورة الإصلاح الديني، وبداية الصراعات في أوروبا خاصة الصراع المذهبي بين الكاثوليكية والبروتستانتية.³

ويمكن تقسيم الاستعمار الغربي في العصور الحديثة إلى مرحلتين أولهما تشمل القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتركز على الاستعمار الاستيطاني لحد بعيد، وثانيهما خلال القرن التاسع عشر ويسودها طابع الاستعمار الاستغلالي⁴، فالمرحلة الأولى ترتبط بتطور الكشف الجغرافية التي صاحبت التوسع التجاري في المرحلة الأولى ليعود ويرتبط بالثورة الصناعية

1 بيار بونت، مشال ابراز، الإثنولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع مجد، 2008، ص 63.

2 جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، ط1، دار الشروق، بيروت، 1983، ص 13.

3 أشرف صالح محمد السيد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ط1، دارناشري للنشر الالكتروني، الكويت، 2009 ص 09.

4 حسين سيد سليمان، مرجع سابق، ص 55.

في المرحلة الثانية¹، وبانتشار حوالي 60 مليوناً من العنصر الأوروبي الأبيض على القارات الجديدة، أرادت أوروبا أن تحقق عالمية العنصر الأبيض أو أوروبا الكبرى بالولاء والتبعية بطريقة أو بأخرى².

ثانياً: تعريف الأنثروبولوجيا

هناك عدة تعاريف للأنثروبولوجيا ولكنها عموماً تصب في قالب واحد ويمكن أن نستشهد ببعض منها، فبتريك شابنان يعرف الأنثروبولوجيا بـ "التخصص الذي يدرس نمط عيش المجتمعات البدائية عاداتها وتقاليدها وهو علم واكب الحركة الاستعمارية في العالم التي ساهمت في إنشائه وكان إحدى وسائلها التي وظفت بطريقة جيدة وفعالة في التجسس على الشعوب المستعمرات"³.

كما أنّ الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان في ثقافته وبنائه الاجتماعي ويذكر جاك لومبار (Jacques lembaire) أنّ هذا العلم يهتم بدراسة المجتمعات البعيدة والغريبة، أي دراسة الإنسان "الأخر" الذي يختلف عن الإنسان الغربي في ثقافته وعاداته وتقاليده ودرجة وعيه وتقدمه وهذه إشارة إلى الشعوب البدائية ذات الثقافة البسيطة والتقليدية مقارنة بثقافة الإنسان الأبيض⁴.

ويمكن اعتبار الأنثروبولوجيا علماً حديثاً يقرب عمره من قرن وربع القرن تقريباً، كما نستطيع بنفس الوقت أن نعتبرها من أقدم العلوم التي تعتنى بالبشرية، فالجامعات لم تبدأ بتدريس الأنثروبولوجيا إلا حديثاً فقد

1 حسين سيد سليمان، مرجع سابق، ص 55.

2 نفسه.

3 Patrick champagne, *la sociologie*, édition milan, paris, 1998, p26.

4 جاك لومبار، مدخل إلى الأنثولوجيا، ترجمة حسن تبيسي ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت 1997، ص 19.

عين أول أستاذ لها في جامعة أوكسفورد وهو السيد إدوارد تايلور عام 1884، لكن بما أنّ الانثروبولوجيا تعني بدراسة النظريات التي تتعلق بطبيعة المجتمعات البشرية، فإننا نستطيع أن نعتبرها من جهة أخرى، من أقدم العلوم، إذ يمكن إرجاعها إلى أولى تأملات الإنسان حول تلك الموضوعات، فهناك من يعتبر المؤرخ الإغريقي (هيرودوت) أبو "الأنثروبولوجيا" كما هو أبو "التاريخ"، ذلك لأنه وصف لنا بإسهاب التكوين الجسدي لأقوام قديمة كقدماء المصريين وغيرهم من الشعوب القديمة، وصور أخلاقهم وعاداتهم¹، لكن يعتبر القرن الثامن عشر نقطة بدء مناسبة للأنثروبولوجيا شهد خلاله ظهور مكوناتها الأساسية كعلم، ومع منتصف القرن التاسع عشر بدأت الكتب الانثروبولوجية القديمة في الظهور حيث كان أشهرها كتاب "هنري مين" بعنوان القانون القديم عام 1861، وفي مطلع القرن العشرين برزت في الانثروبولوجيا أسماء كبيرة أمثال (جيمس فريزر) و (إميل دوركايم) والتي تزامنت مع ظهور مدارس انثروبولوجية هامة مثل (مدرسة الانتشار الحضاري)، و(المدرسة الوظيفية)².

ثالثا: العلاقة بين الاستعمار والانثروبولوجيا

إن كانت الانطلاقة والنشأة الأولى لعلم الانثروبولوجيا كانت في الغرب الأوروبي فإنّ بيئته الأولى وميدانه التطبيقي كعلم كان الدول المستعمرة، حيث استعان الاستعمار الأوروبي في حركته الاستعمارية بعلماء الانثروبولوجيا لدراسة المستعمرات، بسبب غياب الدراسات التاريخية حول هذه الشعوب المستعمرة أو بسبب قلة، لذا ألصقت بالأنثروبولوجيا صفة

1 عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان "الأنثروبولوجيا" منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص 08.

2 نفسه، ص 08.

العلم الاستعماري أي الذي يخدم الحركة الاستعمارية ذلك لأنّ الدراسات الاثنولوجية التي أنجزها الغرب على الشعوب التي استعمرها عملت على كشف خصوصيات المجتمعات¹، حيث أنّ الاثنوبولوجيا خدمت الاستعمار أحسن خدمة لتوظيف هيمنته على الشعوب، وفي هذا الصدد يعبر الاثنوبولوجي الإنجليزي (إ. بريتشارد) عن العلاقة بين الاستعمار والاثنوبولوجيا بقوله: "إذا كانت السياسة الاستعمارية لحكومة ما تقوم على حكم شعب من الشعوب بواسطة رؤسائه، فمن من المفيد أن يعرف من هم هؤلاء الرؤساء، ما هي وظيفتهم، وسلطتهم و امتيازاتهم، وواجباتهم، فإذا سلمنا بأنّ حكم شعب ينبغي أن يتم وفقا لشرائعه الخاصة وعاداته الخاصة، فيجب أولاً أن نكشف العادات"².

وتجمع جل الدراسات النظرية التي تناولت الاثنوبولوجيا كتاريخ علمي أنها نشأت بين أحضان المنظومة الاستعمارية، حيث استثمرت بها الآلية الكولونيالية بغرض الإحاطة بعقلية الشعوب وأنماطها السلوكية والاعتقادية، إذ سخرت المنظومة الكولونيالية الاثنوبولوجيا وعلمائها لأغراض استعمارية بحتة، حيث تم استغلال واستثمار أبحاثهم من أجل معرفة عقلية الشعوب ومظاهرها الثقافية والمادية، والمعنوية والسلوكية³، فقد تفتنت المنظومة الفكرية والسياسية الاستعمارية وايدولوجيتها في وقت مبكر إلى الدور الريادي الذي يمكن أن يقوم به الأثنوبولوجيون لذلك سعت إلى إرسالهم في شكل بعثات علمية أو إدارية أو حتى دينية في مناطق مختلفة

1 بوحسون العربي، الاستشراق، الاثنوبولوجيا والاستعمار - دراسة تحليلية - مجلة الانسان والمجتمع، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان العدد 2، الجزء الثاني ديسمبر 2001، ص 48.

2 المرجع السابق، ص 49.

3 محمد سعدي، الأثنوبولوجيا بين النظرية والتطبيق، دراسة في مظاهر الثقافة الشعبية في الجزائر، أطروحة دكتوراه في الاثنوبولوجيا، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان 2006-2007، ص 05.

من العالم، حتى يدرسوا ويسجلوا ثقافات، عادات، تقاليد معتقدات وحتى النظم المعاشية الاقتصادية والاجتماعية والعرفية والعقائدية لثلث شعوب العالم¹.

رابعا: الانثروبولوجيا في الجزائر كمستعمرة فرنسية

عندما نكون بصدد الحديث عن حضور الانثروبولوجيا الاستعمارية في الجزائر كمستعمرة فرنسية، نكون مضطرين إلى تقسيمها إلى مراحل ومحطات نظرا للتطورات التي مرت بها ولخصوصية كل فترة على حدى، وإن كان الهدف واحد وهو خدمة التوسع الاستعماري لفرنسا.

1- مرحلة ما قبل الاستعمار الفرنسي

فقبل بداية الحملة الاستعمارية الفرنسية فإن الإدارة الاستعمارية قد وفرت كل الشروط الضرورية لإنجاح العملية الكبرى المتمثلة في مشروع احتلال الجزائر.

ونجد في هذا الصدد كتابا هاما لفرنسوا بناتي (F.Panati) الذي نشر سنة 1830 والذي يركز على أهمية احتلال الشمال الإفريقي بالنسبة لأوروبا، حتى أنه يعود إلى الماضي الاستعماري لهذه المنطقة والمتعلق خاصة بالوجود الروماني².

كما شهدت فترة القرن الثامن عشر في البلاد المغاربية بصفة عامة والجزائر على وجه الخصوص وجود العديد من القناصل والديبلوماسيين الذين يعملون على تمثيل بلدانهم في الجزائر، بفضل الامتيازات التي منحهم

1 محمد سعيدي، المرجع السابق، ص5-6.

2 فراحي أكلي، الإشكالية المعرفية للسياسيولوجيا الكولونيالية في الجزائر، دراسة عينة من الأبحاث الكولونيالية التي أنجزت حول منطقة القبائل، دار القصة للنشر، الجزائر، 2004، ص 93، 94.

إياها الخلافة العثمانية، ومن بين الشخصيات البارزة التي كان لها كبير الأثر في هذه المرحلة نذكر شخصية المستشرق الفرنسي جون ميشال فونتير دو باردي (Jean Michel venture de paradis)، والذي كتب العديد من المخطوطات الوصفية الدقيقة حول الجزائر، حيث رصد فيها تفاصيل الحياة الاجتماعية اليومية للمجتمع الجزائري، وكذا خصائص المنطقة الاقتصادية بما فيها الجانب التجاري والزراعي ومن أهم كتبه نذكر كتاب "الجزائر خلال القرن 18" "Alger au 18 siècle"¹.

لذلك نجد أنّ العديد من المتخصصين في الدراسات الانثروبولوجية يربطون بين الانثروبولوجيا والاستشراق، فالربط بين هذه المفاهيم ينطلق من واقع ارتباط الانثروبولوجيا في بداياتها بالسياسة الاستعمارية للدول الكبرى ولذلك اعتبرت جزء من البحث الاستشراقي.²

2- المرحلة الاستعمارية

لقد ارتبطت الانثروبولوجيا بالجزائر – عند الكثير من الباحثين – بحركة المد الاستعماري الأوروبي خصوصا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث كانت الإدارات الأوروبية في حاجة إلى استكشاف خصائص الشعوب التي يريدون احتلالها، أو كانوا قد احتلوها بالفعل وذلك باعتبار أنّ الانثروبولوجيا ليست مجرد نتاج فكري ولا نظريات أو أفكار متداولة عن الإنسان، بقدر ما هي رؤية شاملة ودقيقة للواقع الاجتماعي والثقافي والأخلاقي، التي تميز أفكاره وسلوكياته، فالرؤى التي نقدمها عن الإنسان محل

1 Mohamed meouak, *langue et société, histoire d'Alger au 18 éme siècle d'après les données de venture de paradis (1739 – 1799)*, Alger, p 303.

2 بوحسون العربي، المرجع السابق، ص 49.

الدراسة ما هي إلا انعكاس للظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تحيط بهذا الإنسان¹.

أ- الدراسة الأنثروبولوجية للعسكريين الفرنسيين

وأغلب الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية الخاصة بالجزائر في بداية الفترة الاستعمارية، هي الدراسات التاريخية العسكرية، وهي تلك الأبحاث التي تمت في المرحلة الممتدة بين سنوات 1830 حتى 1870، وذلك كون هذه الأبحاث تترجم بصورة واضحة الوجود العسكري في الميدان الذي أقيمت فيه الدراسات نفسها وتترجم كذلك طبيعة الأهداف والأفكار التي تسعى إلى تحقيقها ويمكن أن نذكر دراستين هامتين خلال هذه الفترة دراسة (هانوتو) (Hanoteau) وكذلك لوتورنو (Letourneux) في دراستهما المشهورة حول منطقة القبائل، الذي حمل عنوان منطقة القبائل وأعرافها الذي صدر سنة 1893².

والدراسة الثانية هي لجول ليورال (jules liorel) حول الأعراق البربرية لمنطقة القبائل وبما أنّ هذه الدراسة صدرت سنة 1892 فهي جاءت مباشرة بعد الدراسات التي سبقتها وكان من الطبيعي أن يظهر عليها تأثيرها بتلك الدراسات خاصة بالخلاصات والنتائج السياسية والأيدولوجية التي توصلت إليها هذه الأخيرة³.

1 بلقاسم بن زنين، الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، رسالة ماجستير في الأنثروبولوجيا، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، 2000، ص 02.

2 الصديق ثياقة، الأنثروبولوجيا في العالم العربي - حالنا مصر والجزائر - مجلة التغيير الاجتماعي والعلاقات العامة العدد الثاني، جامعة بسكرة، الجزائر، فيفري 2017، ص 45.

3 المرجع نفسه، ص 46.

لكن يبدو أنّ العسكريين الفرنسيين ورغم أعمالهم الغزيرة عجزوا عن الإلمام والإحاطة بكل أبعاد وتفاصيل الفعل الانثروبولوجي الذي تتشكل فيه العادات والمعتقدات والسلوكيات الفردية والجماعية، فأغلب الكتابات الانثروبولوجية للعسكريين الفرنسيين حول المجتمع الجزائري، لم تكن في أغلبها سوى أوصاف انطباعية، عادة ما اتسمت بالسطحية والسذاجة وبذلك شكلت دراسات العسكريين الفرنسيين في ميدان الانثروبولوجيا - في أغلبها - باستثناء البعض منها، أحكاما قبلية غير مؤسسة على أي مرجعية علمية وهذا يرجع بالأساس إلى عدم الاختصاص في المجال الانثروبولوجي، لكنه يبقى نقطة بدأ مهمة للاكتشاف الانثروبولوجي للجزائر¹، ومن بين أهم مؤلفات العسكريين حول الانثروبولوجيا في الجزائر نذكر القاموس الفرنسي الأمازيغي الذي ألفه العقيد "لابان" (Lapéne) سنة 1837².

وعند التطرق للدراسات الانثروبولوجية الاولى للفترة الاستعمارية ، لا يمكن أن نستثني الدراسات والتقارير الباكورة التي قدمها الآباء البيض خاصة على منطقة القبائل، ففي سنة 1867 تم تعيين شارل المان لافيغري (Charles allemand Lavigerie) على راس اسقفية الجزائر فستأنف نشاطه بإنشاء جمعية المرسلين إلى إفريقيا (société des missionnaires d'Afrique) او ما يطلق عليهم الآباء البيض (les pères blancs) (balances) وهم أعضاء تلك الهيئة التبشيرية الكاثوليكية المسماة "مرسلي الجزائر"، وبغية التوغل أكثر في عمق المجتمع الجزائري ضم لافيغري الأخوات

1 El Baki Hermasi, *état et société au Maghreb*, Edition anthropoïde, paris, 1975, p70.

2 بلقاسم بن زنين، المرجع السابق، ص 24.

البيض (Les soeurs blanches) إلى هذه الجمعية سنة 1869¹ ورغم أنّ الهدف من هذه الحملات على الجزائر وإفريقيا هي بالدرجة الأولى من أجل جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات حول المجتمع الجزائري بغية السيطرة عليه من جميع الجوانب، وبالتالي الطبيعة الانثروبولوجية للتحقيقات الميدانية والتقارير الدورية من قبل رجال الدين المسيحيين عن الجزائر التي تصب في مصلحة فرنسا ومنه في مصلحة الكنيسة الكاثوليكية المسيحية الفرنسية، إلا أنّ دراسات الآباء البيض حول منطقة القبائل كانت خالية من أي إشكالية علمية اثنولوجية، فقد كانت فاقدة تماما للثقافة الاثنولوجية، لذلك جاء وصفهم سطحي للمجتمع القبائلي، لكن هذا لا يمنع كم المعلومات الكبير الذي زودوا به الإدارة الاستعمارية².

فقد قام الآباء البيض بعمل كبير في مجال الدراسات البربرية والذي استمر إلى ما بعد استقلال الجزائر، فالأب جون ماري دالي أسس مركز للدراسات البربرية في منطقة القبائل، وهو الذي أشرف على إعداد ملف الوثائق البربرية، وبذلك يتبين أنّ المؤسسة المسيحية انطلاقا من طروحات خاطئة ومغرضة حاولت أن تخدم مشروعها التنصيري في الجزائر³.

ب- الدراسات الأكاديمية الأولى

إنّ المعرفة العلمية للانثروبولوجيا في الجزائر كمستعمرة فرنسية لم تبلغ نضجها المعرفي في السنوات الأولى للغزو الاستعماري وإنما بدأت مع ظهور

1 خوجة عبد العزيز، دواد عمر، مؤسسة الآباء البيض الفضاء الديني والاقترب المجتمعي، ملامسة سوسيولوجية تاريخية بمنطقة غرداية، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية.

2 بياربوردو ومولود معمري، أنثروبولوجية الجزائر، حوارات ومقالات، نصوص مختارة ومترجمة مقدمة من طرف كمال شاشوا وفلة بن جيلالي، وثائق المركز الوطني البحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الإنسان والتاريخ، سلسلة جديدة، العدد 09، الجزائر، 2014، ص 7.

3 خوجة عبد العزيز، دواد عمر، المرجع السابق، ص 37.

مدرسة الحوليات على رأسهم حوليات الجزائر (Annales Algérienne) لبيلسي (Pélissier) هذه الحوليات كانت تمثل بعض الاحصائيات الأولى المنتظمة التي بفضلها يمكن استقاء المعلومات وصياغة استراتيجية الهيمنة النشطة للمنظومة الاستعمارية الفرنسية¹.

بالتطرق إلى الدراسات الاكاديمية الكولونيالية الباكورة نذكر أيضا دراسات إميل مسكوراي (Emile Masqueray)، هذه الأخيرة التي يمكن إدراجها ضمن أهم الدراسات الباكورة للحقل الأكاديمي الاستعماري الفرنسي للدراسات الانثروبولوجية في الجزائر، كمستعمرة فرنسية، خاصة وأنّ التفاسير العلمية لهذه الدراسة تنصب أساسا على إيجاد التفاسير العلمية لبورة الاستراتيجية الاستعمارية في الميدان التنظيمي والإداري².

وقد أكد الأنثروبولوجي الجزائري مولود معمري على علمية ودقة أعمال مسكوراي في حوار جمعه مع عالم الاجتماع الفرنسي المهتم بالدراسات الجزائرية بيار بورديو (Pierre Bourdieu)، حيث صرح بما يلي³ "أظن أنّ البعض من هؤلاء المؤلفين الأوائل قد ساهموا فعلا في التعريف بالمنطقة وإن لم يكن بطريقة احترافية باستثناء مسكوراي".

كما تعتبر كتابات (أرنست مرسبي) (Ernest Mercier) الذي ينتهي من حيث أعماله إلى الفترة الممتدة ما بين (1870-1890) من أهم الأكاديميين الذين كتبوا في أنثروبولوجيا الجزائر في الفترة الكولونية، ومن أهم أعماله نذكر كتابه الذي صدر سنة 1901 تحت عنوان مسألة الأهالي في الجزائر في بداية القرن 20 (La question indigène en Algérie au communément

1 بلقاسم بن زنين، المرجع السابق، ص 21.

2 الصديق ثياقة، المرجع السابق، ص 47

3 M.Daumas et M.faber, la grande kabyle, étude historique, paris,1847, p,12 .

(de XX siecle) والذي خلص فيه إلى أنّ هناك فرق بين الأوروبيين والأهالي وبالتالي حق الأوائل في إدارة شؤون الآخرين، فالطابع الأكاديمي للدراسة لم يمنع صاحبها من التمسك بالنظرة الفوقية المبنية على مستعمر ومستعمر، وأحقية الأول في إخضاع الثاني واستغلاله دائما في خدمة منطق وجوهر الفكر الاستعمارية القائمة على الهيمنة والتوسع¹.

2- الأنثروبولوجيون الفرنسيون والثورة التحريرية

لقد كانت اندلاعه ثورة الفاتح من نوفمبر المباركة حدثا مباغتا للسلطات الفرنسية لذلك تميزت ردود فعلها بالارتباك من جهة وباستنفار كل مقوماتها الدفاعية من جهة أخرى، فإلى جانب الهمجية العسكرية التي طالما طبعت الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر لجأت فرنسا إلى ورقة طالما كانت رابحة في مسيرتها الاستعمارية، وهي توظيف علماء الأنثروبولوجيا لحل لغز هذه الثورة المفاجئة ومواجهتها في نفس الوقت.

كانت أولى هذه الإجراءات هي انتهاء مهام الحاكم العام الأسبق روجي ليونار (Roger Leonard) الذي فشل في إدارة مرحلة ما بعد الفاتح من نوفمبر 1954، خاصة أنّ الأحداث قد تجاوزته ولم يرى فيه الرجل المناسب لإدارة مرحلة المرحلة الجديدة وفي نفس الوقت قرر (مانديس فرانس) (Mendes France) تعيين جاك سوستال حاكما عاما على الجزائر، هذا الأخير هو أنثروبولوجي من الطراز الأول، سبق وأن كانت له مهمات ميدانية في المكسيك خاصة وأنه حاصل على درجة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا².

1 بيار بورديو ومولود معمري، المرجع السابق، ص 72.

2 كوثر هاشمي، جاك سوستال والثورة الجزائرية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة 08 ماي 1945 قالمة، السنة الجامعية 2016-2017، ص 65.

كما كان يعمل كنائب مدير لمتحف في باريس المؤسسة الأنثروبولوجية الأولى في فرنسا¹، ونلمس عزمه على الاستفادة من تخصصه -الأنثروبولوجيا- في الميدان كحاكم عام للجزائر في فترة جد حرجة، إحاطته بمجموعة من علماء الأنثروبولوجيا في ديوانه، كان أبرز هذه الأسماء هي جيرمان تيون (Germaine tillon) فبمجرد اندلاع الثورة استدعاها وزير الداخلية في حكومة مانديس فرانس (mandes France) وكلفها بمهمة إعداد تقرير عن الوضع الاجتماعي العام في منطقة الأوراس، فقامت بجولة استقصائية في ثلث المنطقة خلال الفترة الممتدة من ديسمبر 1954 إلى فيفري 1955 وكللت بإعداد تقرير مفصل عن تعداد السكان، وأنماط معيشتهم ومقوماتهم الثقافية والحضارية²، وبعد عرضها لتقريرها المفصل عرض عليها الحاكم العام الجديد الانضمام إلى ديوانه الحاكم.

ووقوع الاختيار على جيرمان تيون لم يكن وليد الصدفة فهي التي سبق لها وأن أعدت أطروحة الدكتوراه في علم الأنثروبولوجيا على دوار "ناد جمونت" عند آل عبد الرحمان وهو الدوار الأكثر فقرا وبعدا عن عاصمة الأوراس وعن ممثلي السلطة الفرنسية وقد كان استقرار امرأة بمفردها بمنطقة بعيدة لفترة طويلة من الزمن أمرا استثنائيا وغير عادي آنذاك، غير أنه كان الطريقة المثلى للتعرف على عمق مجتمع الأوراس استنادا إلى مقولة جيرمان تيون "... لكن هل تعرفون طريق لفهم المجتمعات دون العيش فيها؟"³.

1 Alistair Hoorne, **histoire de la guerre d'Algérie**, traduit de l'anglais par Yves de guery en collaboration avec Philip Bourdrel, 4 éme édition, édition dahleb, Algérie, 2007, p109.

2 كوثر هاشمي، المرجع السابق، ص 75.

3 Germain tillon, **il était une fois l'ethnographie**, Edition seuil, paris, p 120.

فقد عاشت (جيرمان تيون) التي ولدت بمدينة (القر allégre) بغرب فرنسا سنة 1907، أهم الأحداث التاريخية وأصعب المراحل التي مرت بها الجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي، خاصة وأنها تواجدت بالجزائر أربع مرات متقطعة، صادفت أولها مناسبة احتفال فرنسا بقرن من استعمارها الجزائر، حيث كلفت بمهمة علمية هي وزميلتها الباحثة (تيريز ريفر) من طرف اللجنة العلمية للمعهد العالمي للدراسات اللغوية والحضارات الإفريقية بلندن، كان الهدف من ورائها كما ورد في الوثائق الإدارية "يتمثل في اداء دراسة ميدانية اجتماعية واثنوغرافية حول منطقة الأوراس وسكانها، من خلال رصد وجمع وتسجيل مختلف العادات والتقاليد والممارسات والسلوكات التي يختص بها الاوراسيون، والتقاط الصور التي تعبر عن الحياة الاجتماعية في تلك المنطقة"¹.

وقد تم اقتراح جيرمان تيون وتيريز ريفر للقيام بهذا البحث الميداني بالأوراس، من طرف مارسال موس حفيد المفكر الاجتماعي الفرنسي ايميل دوركايم، الذي كان في نفس الوقت أستاذ جيرمان تيون، التي تخرجت من معهد الاثنولوجيا بباريس سنة 1932، تلك الطالبة التي لم تكن متحمسة لأداء بحثها الميداني بالجزائر نظرا لقرب المسافة بين هذه المستعمرة وبين فرنسا، بل على حد قولها كانت تود أن تسافر إلى القارة الأمريكية أو الآسيوية بعيدا عن فرنسا ومستعمراتها².

3 Fanny colonna, Aures Algérie, pootographies de thèse rivuer, OPU, Alger, MSH paris, 1987, 129-130.

2 Germain tillon, frogements de vie, textes rassemblés et présent »s par tzvetan todirov, seuil, paris, 2009, pp53-54.

ودامت مهمة جيرمان تيون إلى غاية 31 أكتوبر 1935، وانطلقت مهمتها الثانية بعد عودتها من جديد إلى المنطقة في 22 جانفي 1936 واستمرت إلى غاية 16 فيفري 1937، بينما تمت المهمة الثالثة من 09 أوت 1939 إلى غاية 31 ديسمبر 1939 أما المهمة الأخيرة التي سبقت التحاقها بديوان الحاكم العام جاك سوستال كانت بين 01 جانفي 1940 و 30 ماي 1940¹.

وأثناء قيامها بمهمتها في الاوراس مع قبيلة "اث عبد الرحمان" كانت جيرمان تيون، تطبق ميدانيا ارشادات استاذها مارسال موس، الواردة في مؤلفه المشهور "موجز الاثنوغرافيا" حيث كانت تحاول مشاركة أهل الاوراس حياتهم اليومية، فتشاطرهم اعراسهم واحتفالاتهم وعداتهم وتقاليدهم، وتتجه معهم للقيام بالزيارات المختلفة، وتقصد اسواقهم وتحضر جنازتهم² وتجدر الاشارة إلى أنّ دخول النساء إلى عالم الاثنولوجيا ضرورة وحاجة ماسة تطلبها التخصص من جهة والمتخصصون الرجال من جهة أخرى، والمغزى الرئيسي لدورهن يتمثل في تغطية الجوانب التي يصعب على الرجال الوصول اليها في البحث الميداني، حيث كان ينم اعداد تلك الباحثات للمهمات التي كلفن بها، فقد صرحت - في هذا الإطار - إلى صحيفة صدى الجزائر l'écho d'Alger يوم 10 ديسمبر 1934 أي عشية وصولهما إلى الجزائر العاصمة "أن مدير متحف الإنسان الدكتور ريفي Rivet كان متأكد من قدرة وسهولة تقرب النساء من الأهالي المسلمين الجزائريين، بل ومن نسائهم مقارنة بالرجال الغرباء"³.

1Idem.

2. Marcel Mauss, Manuel d'ethnographie, payot , paris , p35 .

3 Marianne lemaire, la chambre a soi de l'ethnologue, une ecriture féminine en anthropologie dan l'entre deux guerre ,in l'homme N°200 , 2010, pp 83-84.

كما صرحت انها جابت معها في رحلتها نحو الاوراس كميات كبيرة من الحلويات والشكولاتة، والعطور للنساء الشاويات من أجل توطيد العلاقة معهن.

وهذا بالتحديد ما سهل مهمتها في ديوان الحاكم العام الجديد بعدما أسندت اليها مهمة إنشاء المراكز الاجتماعية (centres sociaux) وهي عبارة عن مراكز تقوم بتقديم خدمات تعليمية، تربوية وصحية للسكان في المناطق النائية، كقرى الأوراس النائية، بغية تلميع صورة فرنسا في أعين الجزائريين، وفي نفس الوقت فك الرابطة التي تجمع الثورة بالمجتمع بمعنى عزل الثورة¹. ومن بين أسماء الأنثروبولوجيين الفرنسيين التي برزت خلال الثورة التحريرية اسم جون سارفي (Jean Sevier) وهو متخصص في الفلسفة والأنثروبولوجيا، كما أنه من الفرنسيين المولودين بالجزائر² وقد ارتبط اسمه بإحدى أكثر العمليات العسكرية غموضا في منطقة القبائل، وهي عملية العصفور الأزرق (opération oiseau bleu)، حيث خطط إلى جانب الحاكم العام جاك سوستال لتجنيد عملاء من منطقة القبائل ودسهم في صفوف جيش التحرير الوطني مقابل مبالغ مالية كبيرة محاولة منهم اختراق الثورة من خلال العميل الفرنسي المسمى عيش الطاهر، وتعتبر هذه العملية تجسيدا للمخططات الانثروبولوجيا الاستعمارية على أرض الواقع من خلال التطبيق الميداني وقد أسندت مهمة التخطيط و الاشراف العام للانثولوجي (جون سارفي) بسبب تخصصه في منطقة القبائل ومعرفته المعقدة بعاداتها

1 Michel carnaton, Nely Forget et Francis marquis, **la guerre d'Algérie ethnologue de l'ombre et de la lumière**, Edition l'harmatton, paris, 2015, p104.

2 Camile Lacoste – Du jardin, **opération oiseau bleu des kabyles des ethnologues et la guerre d'Algérie**, Edition la découverte, paris, p57.

وتقاليدها وحتى ببعض ساكنيها¹.

لكن رغم الحنكة التي تميزت بها الخطة إلا أنّ العملية فشلت بسبب اختراقها من قبل جبهة التحرير الوطني وقائد المنطقة الثالثة المحنك السيد كريم بلقاسم².

لكن تبقى تجسيدا قويا للذهنية الأنثروبولوجية الاستعمارية على أرض الواقع في الجزائر كمستعمرة فرنسية.

خاتمة

يمكن أن نخلص إلى جملة من الاستنتاجات نوجزها في النقاط التالية.

أولاً: شكلت الانثروبولوجيا منظومة معرفية تخدم النزعة الكولونيالية وايدولوجيتها، ان ميلاد هذا العلم ارتبط ببداية حركة المد الاستعماري الأوروبي بداية القرن التاسع عشر.

ثانياً: الانثروبولوجيا قدمت خدمات علمية كبيرة للإدارة الاستعمارية إذ وضعت الشعوب الموضع احتلالها تحت منظار الإدارة الكولونيالية ترصد حركاتها وسكناتها، وتراقب أنماط حياتها وعاداتها السلوكية وقيّمها الاجتماعية ونظمها الاقتصادية.

ثالثاً: لم تكن الجزائر كمستعمرة فرنسية شكلت جوهره التاج الفرنسي إلى مخبر ميداني خصب لعلماء الانثروبولوجيا، في كل مراحل الاحتلال، فقد كان الشعب الجزائري يحيا تحت منظار التقارير الميدانية للأنثروبولوجيين الفرنسيين، الذين درسوا المجتمع الجزائري وأنماطه الحياتية ونظمه وتشريعاته بغية تقديم صورة واضحة المعالم عنه لتسهيل عملية انقياده

1 Idem.

2 كوثر هاشمي، المرجع السابق، ص 175.

وتطويعه، وبالتالي كبح جماح مقاومته، وأحيانا أخرى من أجل ضرب وحدته وهويته لتفكيك رابط الانتماء التي يستمد منها القوة لمعارضة محتل غريب على أرضه.

رابعا: اهم ما يمكن ملاحظته على طبيعة الدراسات الاثنولوجية في الجزائر والتي استمرت طيلة قرن كامل، هو انها كانت تستجيب لدوافع واهداف، اختلفت وتنوعت باختلاف الفترات الزمنية، والظروف الواقعية التي مر بها المجتمع الجزائري ما بين 1830 - 1960 والتي يمكن ان نقسمها إلى ثلاث مراحل متميزة:

المرحلة الأولى: وهي المرحلة الخاصة بالغزو العسكري للجزائر والتي برزت فيها مؤلفات الكتاب العسكريين الفرنسيين، الذين لم يكونوا مترددين في إظهار نواياهم السياسية من وراء هذه الدراسات، لكن رغم ذلك تبقى هذه المؤلفات ذات قيمة معتبرة نظرا لكونها وثائق تاريخية أولى من نوعها ونادرة الوجود.

المرحلة الثانية: وهي المرحلة المولوية للحكم العسكري، والتي برزت فيه كتابات الإداريين خاصة بعد سقوط الإمبراطورية الفرنسية الثانية، التي دشنت مرحلة الحكم المدني، حقيقة أن دوافع مؤلفي هذه الفترة لم تختلف عن دوافع سابقهم، لكن ما يميز دراساتهم هو تمتعهم بوسائل جديدة مكنتهم من تعميق وتوسيع أبحاثهم، فبعد أن كانت دراية العسكريين تقتصر على الوصف الدقيق لمجموعات بشرية منعزلة ومحددة، أصبحت دراسات المدنيين تتركز على تحليل تركيبات اجتماعية معقدة في المجتمع الجزائري مثل تلك المتعلقة بالزوايا والثقافات الشعبية الشفهية، باعتبارها وسيلة للكشف عن روح الشعب الجزائري.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الدراسات الجامعية الاكاديمية التي برزت خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، والتي تميزت بمحاولة التحلي بالموضوعية العلمية، رغم انها لم تتخلى تماما عن الاحكام المسبقة التي تتنافى تماما مع الصرامة العلمية.

خامسا: رغم أنّ الانتاج الانثروبولوجي عن الجزائر خلال كل الفترة الاستعمارية الفرنسية كان موجه بالدرجة الاولى لخدمة توجهات السيطرة والتوسع للسياسة الفرنسية، وهناك كثير منها حمل أفكار قبيلة مغالطة عن المجتمع الجزائري، لكن رغم ذلك تبقى معلومات ودراسات يمكن استعمالها مع مراعاة الخلفية التاريخية والسياسية التي كتبت فيه والاغراض التي كانت موجهة لها.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - ألفيرو أبادي، القاموس المحيط، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط 68 القاهرة، 2008.
- 2 - عبد المالك مرتاض، المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية 1954-1962، دار الكتاب العربي، الجزائر، د س ن.
- 3- يحيى محمد بنهان، معجم مصطلحات التاريخ، ط1، دار يافا للنشر، الأردن، 2008، ص 21.
- 4- حسين سيد سليمان، ظاهرة الاستعمار في افريقيا والعالم العربي مجلة بحوث الدراسات الافريقية، العدد "2" المركز الإسلامي الإفريقي، السودان 1986.
- 5- بياربونت، مشال ابراز، الإثنولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع مجد، 2008، ص 63.
- 6- جاك لومبار، مدخل إلى الاثنولوجيا، ترجمة حسن تيبسي ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت 1997.
- 7- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الانسان " الانثروبولوجيا" منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004.
- 8- حسين سيد سليمان، ظاهرة الاستعمار في افريقيا والعالم العربي مجلة بحوث الدراسات الافريقية، العدد "2" المركز الإسلامي الإفريقي، السودان 1986.
- 9- بياربونت، مشال ابراز، الإثنولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع مجد، 2008.
- 10- بوحسون العربي، الإستشراق، الانثروبولوجيا والاستعمار – دراسة تحليلية – مجلة الانسان والمجتمع، جامعة ابو بكر بلقايد تلمسان العدد 2، الجزء الثاني ديسمبر 2001.

- 11 - محمد سعدي، الانثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، دراسة في مظاهر الثقافة الشعبية في الجزائر، أطروحة دكتوراه في الانثروبولوجيا، جامعة ابوبكر بلقايد تلمسان 2006-2007.
- 12- فراحي اكلي، الإشكالية المعرفية للسياسيولوجيا الكولونيالية في الجزائر، دراسة عينة من الأبحاث الكولونيالية التي أنجزت حول منطقة القبائل، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2004.
- 12- بلقاسم بن زنين، الجزائر في الفكر الانثروبولوجي، رسالة ماجستير في الانثروبولوجيا، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، 200.
- 13- الصديق ثياقة، الانثروبولوجيا في العالم العربي – حالتا مصر والجزائر – مجلة التغيير الاجتماعي والعلاقات العامة العدد الثاني، جامعة بسكرة، الجزائر، فيفري 2017.
- 13- خواجه عبد العزيز، دواد عمر، مؤسسة الالباء البيض الفضاء الديني والاقتراب المجتمعي، ملامسة سوسيولوجية تاريخية بمنطقة غرداية، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية.
- 14- بياربوريو مولود معمري، أنثروبولوجية الجزائر، حوارات ومقالات، نصوص مختارة ومترجمة مقدمة من طرف كمال شاشوا وفلة بن جيلالي، هاشي كوثر، وثائق المركز الوطني البحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الانسان والتاريخ، سلسلة جديدة، العدد 09، الجزائر، 2014.
- 15- كوثر هاشي، جاك سوستال والثورة الجزائرية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة 08 ماي 1945 قالمة، السنة الجامعية 2016-2017.

قائمة المراجع باللغة الفرنسية

- 1-Alistair Hoorne, **histoire de la guerre d'Algérie**, traduit de l'anglais par Yves de guery en collaboration avec Philip Bourdrel, 4^{ème} édition, édition dahleb, Algérie, 2007.
- 2-Marcel Mauss, Manuel d'ethnographie, payot , paris, 1949 .
- 3-Marianne lemaire, la chambre a soi de l'ethnologue. une écriture féminine en anthropologie dans l'entre deux guerre ,in l'homme N°200 , 2010.
- 4-Michel carnaton, Nelly Forget et Francis marquis, **la guerre d'Algérie ethnologue de l'ombre et de la lumière**, Edition l'harmatton, paris, 2015.
- 5-Camile Lacoste – Du jardin, **opération oiseau bleu des kabyles des ethnologues et la guerre d'Algérie**, Edition la découverte, paris, 1997.
- 6-El Baki Hermasi, **état et société au Maghreb**, Edition anthropoïde, paris, 1975.
- 7-Germain tillion, il était une fois l'ethnographie édition seuil, paris, 2000.
- 8-Germain tillion , frogements de vie textes rassemblés et présenté par tzvetan todrov, edution seuil , paris , 2009.
- 9-Mohamed Meouak longue et société, histoire d'alger au 18^{ème} siecle d'après les données de venture de paradis 1739- 1799, Alger, son date.
- 10- Patrick chanpagne, la sociologie, édition milon, paris, 1998

مواقف أعيان منطقة الأغواط من سلطة الأمير عبد القادر

The positions of the notables of the Laghouat region regarding the authority of Emir

كهددة. فاطمة دجاج

جامعة الأغواط

fatimadjadj90@gmail.com

الملخص

تميزت الأوضاع السياسية بمنطقة الأغواط قبل أن يوسع الأمير عبد القادر نفوذه إليها، ب بروز شخصيات تنمي إلى عائلات هامة وعريقة ومعروفة، كانت تتقاسم النفوذ فيما بينهما، فكان "الحاج العربي" سليل المرباط سيدي "الحاج عيسى" زعيم أولاد سرغين، في المقابل كان "أحمد بن سالم" يترأس الأحلاف، وكانت العائلات تتبادلان السيطرة من وقت لآخر إلى غاية 1828م، حيث سيطر "أحمد بن سالم" على الحكم وأبعد منافسه، في هذه الفترة بدأ الأمير "عبد القادر" يوسع نفوذه نحو الجنوب، فاتصل به "الحاج العربي" فجعل منه خليفته على الأغواط، وخلال ذلك سعى جاهدا للتخلص من منافسيه، وهما "أحمد بن سالم" في الأغواط و"محمد التجاني" في عين ماضي، هذا الزعيم الأخير كان يحظى بسمعة ونفوذ واسعين في الصحراء وله الكثير من الأتباع، ونتيجة لجملة من العوامل دخل في صراع مع "عبد القادر" كان الطرف الخاسر فيه فانسحب إلى الأغواط، وهناك تحالف مع "ابن سالم"، الذي عمل على الحصول على السلطة مهما كلفه الأمر، ولنيل مبتغاه كان عليه القضاء على منافسه وحليف الأمير عبد القادر "الحاج العربي"، وحدثت معارك دموية بينهما من أجل السيطرة على السلطة نتج عنها موت الحاج العربي وسيادة ابن سالم على المنطقة. ولحماية سلطته ونفوذه بحث عن قوة توفر له ذلك فطلب مساعدة السلطات الفرنسية، وأبدى استعدادا لخدمة فرنسا في المنطقة، حيث قدم "ماري مونج" إلى الأغواط سنة 1844م وقام بتعيينه خليفة على الأغواط باسمهم.

الكلمات المفتاحية: الأغواط؛ الأمير عبد القادر؛ أحمد بن سالم؛ الحاج العربي؛ محمد الصغير التجاني.

Abstract

The political situation in the Laghouat region, before Emir Abdelkader expanded his influence in the Sahara, was characterized by the emergence of figures belonging to important, ancient and well-known families, who shared influence among them. "Hajj Al-Arabi" was a descendant of the Almoravid Sidi "Hajj Issa," the leader of the sons of Sarghine. On the other hand, "Ahmed" was Ben Salem heads the alliances, and the families exchanged control from time to time until 1828 AD, when "Ahmed Ben Salem" took control of power and banished his rival. During this period, Prince "Abdul Qadir" began to expand his influence towards the south, so "Hajj Al-Arabi" contacted him. He made him his successor in Laghouat, and during that he strove hard to get rid of his rivals, namely "Ahmed Ben Salem" in Laghouat and "Mohamed Tijani" in Ain Madi. This last leader had a wide reputation and influence in the desert and had many followers, and As a result of a number of factors, he entered into a conflict with Abdelkader, in which he was the losing party. He withdrew to Laghouat, and there he allied himself with Ibn Salem, who worked to gain power no matter what the cost, and to achieve his goal he had to eliminate his rival and ally of Emir Abdelkader. Hajj al-Arabi," and bloody battles took place between them for control of power, resulting in the death of Hajj al-Arabi and Ibn Salem's sovereignty over the region. To protect his power and influence, he searched for a force that would provide him with this, so he asked for the help of the French authorities, and expressed his willingness to serve France in the region, where he brought "Marie Monge" to Laghouat in 1844 AD and appointed him as Caliph of Laghouat in their name.

Keywords : Laghouat; Emir Abdelkader; Hajj al-Arabi ; Mohamed Tijani ; Ahmed Ben Salem.

مقدمة

كانت العائلات الكبيرة في منطقة الاغواط قبل احتلالها تتقاسم فيما بينها النفوذ، هذا النفوذ استمدته من مكانتها الاجتماعية المرموقة، أو من سلطتها السياسية أو من منزلتها الدينية والروحية، وهذا جعل المنطقة تقع تحت نفوذ تلك العائلات، وفي مقدمتها عائلة أحمد بن سالم، الذي ينحدر من أولاد زعنون الهلالين، وعائلتهم المشهورة توالى على الحكم في مدينة الاغواط منذ عهد الأتراك، والشخصية الأخرى مثلها الحاج العربي، وهو حفيد المرباط المشهور سيدي الحاج عيسى الذي استقر فيها منذ 1662 قادما

من تلمسان. وأما قصر عين ماضي فقد كان تحت نفوذ الشيخ محمد الصغير زعيم الطريقة التيجانية الذي ملك السلطة والنفوذ على كل سكان الصحراء. هذه الشخصيات السابقة الذكر كانت تنشط في المنطقة خلال محاولة الأمير عبد القادر بسط نفوذه عليها في إطار تحقيق مشروعه لتوحيد الجزائر وبناء الدولة الجزائرية الحديثة. وعليه جاءت هذه الدراسة لتهتم بتوضيح مواقف تلك الشخصيات من تحركات الأمير عبد القادر في المنطقة، والعوامل المتحكمة في مواقفها، وتأثير هذه المواقف على الأوضاع العامة في المنطقة. ومن خلال ما سبق نطرح التساؤلات التالية: بماذا تميز موقف أولئك الزعماء من التغيرات السياسية التي شهدتها المنطقة وفي مقدمتها تحركات الأمير عبد القادر في محاولاته توحيد البلاد، وكيف تعاملوا معه؟

أولاً: التعريف بأعيان منطقة الأغواط

1- التعريف بالحاج العربي

ينتسب الحاج العربي إلى عائلة عريقة، ذات شرف، فجده هو الولي الصالح سيدي الحاج عيسى¹، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لمدينة الأغواط²،

1- سيدي الحاج عيسى: قدم إلى المنطقة سنة 1698م قادما من تلمسان، جاء في البداية إلى قبيلة الأحرار، ثم وصل إلى قصر بن بوطا حيث استقر إلى الأبد، ونظرا لمعرفته وتقواه كان معروفا ومشهورا بين القصور المجاورة وحتى بين البدو الذين يرعون بقطعاتهم حتى وادي مزي، وكان موضع ترحيب البدو ولكنه اختار الإقامة في قصر بن بوطا، وفي هذه الفترة كانت التجمعات المحاذية لوادي الجدي من جراء زحف البدو الرحل عليها وتخريبهم ونهبهم لكل ما وصلت إليه أيديهم أن كانوا يعانون حالة مأساوية، وأمام هذا الوضع أشار عليهم الولي الصالح ببناء سور يحميهم من الغزاة، ودعاهم إلى ضرورة تكوين مركز واحد قابل للمقاومة ويمكن أن يضم العائلات وممتلكات يتحمل هجومات البدو وبالتالي يعتبر المؤسس الحقيقي لقصر الأغواط أنظر:

Trumelet, L'Algérie Légendaire, Librairie Adolphe Jourdan, Alger, 1892, p115, 117, 158.

2- مدينة الأغواط: بنيت الأغواط على الضفة اليمنى لوادي مزي، في موقع استراتيجي وجغرافي متميز، فهي تقع وسط واحة من النخيل، ويمتد النهر على طول الواحة، بحيث يقسمها إلى قسمين، وحتى

وجامع شمل سكانها، عندما قدم إليها من تلمسان عام 1662، وجد التنازع فاشيا فيها بين فئتين، أحدهما تدعى الأحلاف¹، والثانية بني سرغين²، فوحد بينهما في عام 1698، واستقر حال البلاد، وتوفي الحاج عيسى عام 1737م. ويحظى الحاج عيسى بمكانة روحية في المجتمع، وتذهب بعض الروايات أنه عاش حوالي قرن من الزمان، وتنبأ بالاحتلال لفساد أحوال الجزائريين³.

أما حفيده "الحاج العربي" فذاع صيته منذ ولاء الأمير عبد القادر منصب الخليفة على منطقة الأغواط، فعندما بدأ الأمير سياسته في الصحراء سنة 1837، اتصل به بأعيان المنطقة للدخول تحت طاعته، فوجدها تخضع سياسيا لتأثير عائلة "أحمد بن سالم"، وروحيا لعائلة "الحاج عيسى" والأمير

المدينة تقع على تلتين في منتصف سهل رملي، وهي محمية بسور حجري، تعتبر المدينة الرئيسية بالنسبة للقصور المحيطة بها، تحتوي واحتما على حدائق، تنمو بها أشجار النخيل، والأشجار المثمرة والخضروات، وتعتبر هذه الحدائق ثروة سكان الأغواط للمزيد أنظر:

général philebert, **Algérie et Sahara: Vie du général Margueritte El-Aghouath, le Spectateur Militaire 1826**, 4série, t14, a la Direction du Spectateur Militaire, paris, 1881, p362 .

1- الأحلاف: من المجموعات السكانية بالأغواط شكلت حي خاص يقع شرق مدينة الأغواط فيتكونون من: أولاد زكريروهم من فرجيوة، أولاد بوزيان الذين ينتمون إلى فرع الحجاج، أولاد عبد الله وأولاد سالم أتو من منطقة قورارة والمغاربة القادمون من إقليم فقيق بالمغرب الأقصى. أنظر:

Odete Petit, **Laghouat Essai D'Histoire Sociale**, Ed. Collège de France, Paris, 1976, p-66 .70

2- أولاد سرغين: من المجموعات السكانية بالأغواط شكلت حي خاص يقع غرب مدينة الأغواط تضم المجموعات التالية: جمادني والبدارة المنحدرين من الأغواط كسال أولاد سكحال المنحدرين من أولاد زيد في الزاب ببسكرة وفليجا الذين قدموا من الجنوب التونسي أنظر:

.70-66ibid,p

3- أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، ج1، ص 202.

ميال للأشراف والمرابطين على رجال السياسة والحكم، فربط العلاقة مع الحاج العربي، وعينه خليفة على الاغواط بقصورها وقبائلها، وقد أيد الشيخ محمد التجاني ذلك الاختيار في الظاهر على الأقل¹.

كما أن الخلاف كان شديدا بين أحمد بن سالم والحاج العربي خليفة أولاد سرغين، حول حيازة بعض الملكيات، وهذا أدى إلى تغلب ابن سالم، وطرده الحاج العربي خارج البلدة، فأتى تعيين الأمير له بمثابة رد الاعتبار لهذه الشخصية الروحية، التي تتمتع برصيدها التاريخي.

واستطاع الحاج العربي كسب ود سكان الاغواط، وحصل على ولاء التجاني، ودعم ونصرة الأحلاف، مما جعل موقف أحمد بن سالم محرجا، وفضل الانسحاب عند صهره ابن ناصر بن شهرة² قائد قبيلة الأرباع³، ولما أحس بالخطر، توجه إلى بني يزقن.

1-Mangin, "notes sur l'histoire de Laghouat", R.A, N38, p24.

2- ابن ناصر بن شهرة: ينتمي الناصر ابن ناصر بن شهرة إلى مدرسة الأمير عبد القادر الحربية، وتلقى تكوينه العسكري على رجالها، وكان من الفرسان الشجعان، يتقدم الصفوف الأولى أثناء المعارك، متميزا ببرنسه الأحمر، وله تأثير كبير على الثوار في جمع الكلمة، والانضباط، ونشر العاطفة الدينية والوطنية، ولم تغره العروض ولا المساومات ومنذ عام 1851م لم يتوقف هو وأتباعه من المعامرة والحجاج والحرالية عن الحرب ضد الاستعمار أو القبائل المتعاونة معه، وساهم بشكل كبير في الكثير من الثورات والانتفاضات، وجاب كل الصحراء من الشرق إلى الغرب قصد استنفار الهمم والحث على الجهاد فشكّل بذلك أول قيادة جماعية للمقاومة، وكان بحق الرابطة الحقيقية وهمزة الوصل بين كل الثورات التي اشتعل فتيلها ابتداء من خمسينيات القرن 19 وإلى غاية 2 جوان 1875م. أنظر: إبراهيم مياسي، روح الأمير عبد القادر عبر المقاومة الجزائرية، دار هومة، الجزائر، 2011، ص 144-147.

3الأرباع: جاء الأرباع إلى منطقة الأغواط خلال القرن 17م من الزاب بعد أن طردهم أولاد جلال من هناك ووصلوا أولا إلى جبل بوكحيل لتوفر المراعي به وكانوا عبارة عن تجمع يضم أربع قبائل هي المعامرة الحجاج أولاد صالح وأولاد زيد الأخيرين مكثوا بالزاب. وأصبح هذا الاتحاد أكثر قوة بعد انصهار هذه المجموعات مع بعضها، وقد حدث هذا الانصهار وتعزز في منطقة الأغواط مع دمج

ولكن الأداء السياسي للحاج العربي كان ضعيفا، وعجز على إقناع ابن سالم والتجاني في الدخول تحت طاعة الأمير، فكان مبررا لعزله سنة 1839. ثم أعاده الأمير مرة أخرى إلى السلطة، لأن الخلاف كان محتدا ضد الخليفة الجديد "قدور بن عبد الباقي"، ورغم ذلك لم يتمكن الحاج العربي من الوقوف في وجه ابن سالم، الذي تصدى له بقوة، كما أن قبيلة الأرباع تخلت عن مساندته، والتجاني تحالف ضده مع ابن سالم، فواجه مصيرا سيئا، عندما قبض عليه ابن سالم، وأعدمه سنة 1843، حتى يقضي على نفوذ الأمير في الاغواط¹.

2-التعريف بأحمد بن سالم

تعود الجذور الأولى لشخصية "أحمد بن سالم" إلى العهد العثماني، عندما عين باي وهران "محمد الكبير" سنة 1785، قائدين على القبيلتين البارزتين في مدينة الاغواط، فنصب أحمد بن لخضر قائدا على (أولاد سرغين) والسائح بن زعنون قائدا على (الأحلاف). ولكن الخلاف وقع بين البايك والشيخ أحمد التجاني، الذي وجد مناصرة من القبائل السالفة، مما

عناصر جديدة، مثل قبيلة الرحمان وأولاد سيدي عطاء الله والحرازية وجماعات أخرى. ومع ذلك فإنه يمكن الحديث عن اتحاد حقيقي قوي سنة 1875م من القبائل العشرة تحت قيادة موحدة وقوية منتشرة في كل مكان حيث كانت تمتد في أراضي واسعة حيث قام الجنرال دولوفيردو قائد قسمة المدينة بهذا الاجراء بمقتضى انشاء الأغاليك وقد طرح هذا الاجراء منذ سنة 1870م وهذا كان من أجل مصلحة فرنسا أنظر:

Augustin Bernard, *les Confins Algéro-Marocains*, Imprimeur Editeur, paris, 1911,p81.-

-MaRobert Capotrey *Transformations, Récents Dans une Tribu du sud Oranais*, *Annales de Géographie*, N324,V61, Anné1952, P138.

-E.Mengin, *Note sur l'histoire de laghouat*, *Revue Africaine*, v39, Année 1895, P139-140.

1- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الجزائر في تاريخ الجزائر ومفاخر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، المطبعة التجارية، مصر، 1903، ص196.

دفع الباي عثمان في وهران - الذي خلف أباه - إلى الاتجاه نحو الاغواط للانتقام منهم، وخاصة الأحلاف الذين فضلوا الفرار من الاغواط وأسسوا مع أولاد رحمان قصر الحيران¹، ثم تأججت الخصومات التي فقد بسببها "الأحلاف" زعيمهم السائح بن زعنون وأخوه معمر بن زعنون، والسائح لم ينجب ولداً، بينما خلف أخوه معمر طفلين صغيرين، أكبرهما هو "أحمد بن سالم" الذي استطاع أن يكسب محبة الجميع، ويحكم الاغواط بمفرده، وحتى يتمكن أكثر، تزوج ابنة قائد أولاد سرغين أحمد بن لخضر. وتولى أحمد بن سالم السلطة في الاغواط سنة 1828، وعرفت المنطقة يومها نوعاً من الاستقرار والهدوء، والازدهار في الحركة التجارية².

ولما عين الأمير، الحاج العربي خليفة له على الاغواط، لم يرض "أحمد بن سالم" بالأمر الواقع، وبقي متحفزاً، يتحين كل فرصة من أجل الاستيلاء على السلطة. وكان أحمد ابن سالم حاكم الاغواط ومقدم التيجانية فيها، ويأتمر بكل قرار يتخذه شيخه محمد الصغير التجاني³. ولهذا لما حاصر الأمير عين ماضي، كان أحمد بن سالم في صف التجاني، فاستعمل معه الأمير أسلوب الإغراء، وطلب منه أن يسحب قواته ويعيد إليه حكم الأغواط، وهذا التعيين المفاجئ، أوقع ابن سالم في حرج كبير، فبريق السلطة يأخذ بالألباب،

1- قصر الحيران: يقع على بعد 30 كلم شرق الأغواط، على الضفة اليمنى لوادي مزي، حداثتها كثيرة تسقى بمياه الآبار، تسكن به المجموعة المستقرة من قبيلة الرحمان، وهي النويرات والمطالعية وأولاد خليفة، القصر محاط بحزام من الأسوار المرتفعة أنظر:

Jean Pommerol, les Ksours du Sahara, le Monde Illustré, 43 année, N2184, 5 Février 1899, p84-85.

2- E. Mangin, op.cit, p79.

3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998، ج4، ص

والولاء للتيجاني، فيه وفاء لا يمكن التنازل عنه، وهذا جعل الأمير يعزله، لأن موقفه من الحصار كان مترددا، وسيرته لم تكن حسنة مع أهل الاغواط. وعين مكانه "قدور بن عبد الباقي البصري" الذي كلفه الأمير بالانتقام من أعيان الاغواط منهم أحمد بن سالم، وشرع في التنفيذ، ولكنه أخفق، لأن الثورة العارمة من سكان المدينة، واجهته بقوة، وكانت تتلقى الدعم السياسي والروحي من ابن سالم والتيجاني¹.

ويومها أرجع الأمير "الحاج العربي" إلى حكم الأغواط، ولكنه عجز عن التصدي لخصومه، وألقي عليه القبض وأعدم من قبل عدوه التقليدي "أحمد بن سالم" حتى يضع حدا لنفوذ الأمير في الاغواط ونواحيها.

وبمقتل الحاج العربي، خلا الجو لابن سالم، الذي صار متمتعا بالسلطة على الاغواط بدون منازع، ولكنه - وخوفا من انتقام الأمير - فكر في سلطة تحميه منه، فاتصل بالفرنسيين، وقدم لهم فروض الطاعة والولاء، في حدود عام 1844م، ومهد السبيل لبعثاتهم الاستكشافية، وقواتهم العسكرية، "وبنصيحة من شيخه محمد الصغير التيجاني"، طلب منهم، أن يثبتوه خليفة على الاغواط وقصورها الخمسة؛ ولما لمس القائد "ماري مونج" الولاء التام من أحمد بن سالم، عينه خليفة على المنطقة كما رغب، وأعطيت له جميع الصلاحيات، تحت المظلة الفرنسية، وتسانده قوة عسكرية فرنسية، لتنفيذ مشروع فرنسا في الجنوب²، ولكن ذلك الاحتضان، كان بشكل مؤقت، لأن الاستعمار يصادق - تلك الزعامات المأجورة - بحذر

1- E.Mangin, Notes sur..., op.cit, p25.

2 - E.Pellissier de Reynaud, Annales Algériennes, T3, L.M, Paris, 1854, p12 . Et Le Cte .H.D'ideville, le Maréchal Bugeaud 1784-1849, T2, Librairie Firmin Diot et Cie, Paris, 1882, p139.

بعيد المدى.

لقد وافقوا على تعيينه خليفة، لمكانته المرموقة، وقدرته على تحقيق استتباب الأمن في الاغواط، لأنه يعرف فيها كل صغيرة وكبيرة، ويكفي فرنسا مؤونة الحرب ضد خلفاء الأمير، ويجمع لهم الضرائب بيسر. ولكن الحال تبدل، والمواقف الفرنسية تغيرت نحوه، فاتهم "أحمد بن سالم" بالتقاعس، ونقص الكفاءة، فعزل في أفريل 1852، ونصب ابنه الأكبر "الناصر بن سالم، آغا على الاغواط وقصورها¹.

وكانت نهاية أحمد بن سالم أن يموت شريدا خارج مدينته التي كان زعيمها الأوحده، في نفس سنة عزله في بوغار، بعد معاناته من مرض عضال، ودفن بالأغواط، وحضر جنازته الشيخ التجاني، الذي نصح أبناءه، وسكان المدينة، بخدمة فرنسا أحسن مما خدمها الخليفة الراحل، غير أن نصيحته لم تلق الاستجابة، ولم يمنعهم ذلك من تعيين ابنه الثاني الشيخ علي آغا خليفة على الاغواط سنة 1853، وكانت له مواقف مشرفة للمدينة وأهلها عند الاحتلال.

3- التعريف بمحمد الصغير التجاني

كانت علاقة التيجانيين بالسلطة الحاكمة في الجزائر، علاقة سيئة، عندما وقع الخلاف بين العثمانيين والشيخ احمد التجاني، واقتحموا عين ماضي² عدة مرات، وآخرها حملة عثمان باي سنة 1798، وأفضى الصراع

1- E.Mangin, Note..., op.cit, p30.

2- عين ماضي: مدينة قديمة جدا، بنيت على سفح تلة تتدفق منها مجاري لا تنضب، والتي تسقي الحدائق، وهي مقر العائلة التيجانية، تبعد عن الأغواط بـ 60 كل م، محاطة بسور عالي، بها بابان واحد من الشرق والآخر من الشمال الغربي أنظر: دوك دي دوماس، الصحراء الجزائرية، تر: قندوز عباد فوزية، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 54.

إلى انسحاب الشيخ أحمد التجاني إلى فاس والإقامة بها نهائيا،¹ وفيها أنجب أبناءه، ومنهم محمد الكبير الذي رجع للجزائر، ودخل في صراع جديد مع نفس السلطة في بابل الغرب، وقاتل أهل معسكر، ومعه حشم غريس، ولكنهم تخلوا عنه وتركوه لمصيره، فقتل مع أصحابه من أعراب زكور من أهل أبي سمغون ونواحيها²، وكان القتل من قبل باي وهران وجيشه في 1242هـ/1826م³.

أما الابن الثاني للشيخ أحمد التجاني، وهو محمد الحبيب، والذي عرف بالصغير، ولد بفاس سنة 1217 هـ/1802م، وحفظ القرآن الكريم وأخذ مجموعة من العلوم والمعارف قبل وفاة والده سنة 1230 هـ/1815م، فكان عمره يومها حوالي ثلاث عشرة سنة، فرجع به الحاج علي التماسيني، مع أخيه محمد الكبير، ولكن هذا الأخير قتل ولم يعقب ولدا، فآلت الزعامة إلى محمد الصغير، والذي صار زعيما روحيا في الجنوب والغرب الجزائري. ولكنه كان ميالا إلى الهدوء عكس أخيه، وتحالف مع زعيم الاغواط أحمد بن سالم.

ولما بدأ الأمير عبد القادر المقاومة، واتصل بالتيجاني، قدم له الإعانات، مثلما ذكرت بعض الوثائق المنسوبة للتيجانية⁴، ولم يلبث الخلاف أن دب بين الطرفين بعد معاهدة تافنة 30 ماي 1937م، فرفض التجاني التعاون مع الأمير، وكان لخليفة الأمير الحاج العربي دور بسبب الحزازات القديمة،

1- عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه، الوليد للنشر، الوادي - الجزائر، ب ت، 99.

2- نفسه، ص 161-162.

3- مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، تحقيق: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص ص 159-160.

4- عبد الباقي مفتاح، المرجع السابق، ص 192.

واستغلها في نقل الأخبار إلى الأمير، فتعمق الخلاف، كذلك فعل الجاسوس ليون روش¹، وتوجه الأمير بجيشه يوم 12 جوان 1838، نحو عين ماضي، وحاصرها، واستمر الحصار ستة أشهر إلى يوم 17 نوفمبر 1838، لم يرفع الا بشروط وترك التجاني عين ماضي يوم 14 جانفي 1839، ودخلها الأمير وهدم أسوارها، واتجه التجاني نحو الاغواط، وأقام بها مؤقتا.

وبعد وفاة الحاج علي التماسيني سنة 1844، أصبح محمد الصغير شيخ الطريقة، ووارث البركة التجانية. وفي نفس السنة احتلت بسكرة (1844) فأشار الحاج علي التماسيني - حسب ما ذكرت المصادر الفرنسية - على المنطقة بعدم التعرض للفرنسيين لأن إرادة الله شاءت ذلك، وفي نفس السنة قدم الجنرال ماري مونج للأغواط، فخضع له أحمد بن سالم، حاكمها، ومقدم التيجانية فيها، بنصيحة من شيخه التجاني، فعينه "ماري مونج"² خليفة على الاغواط باسم فرنسا، ولما نزل ماري مونج في تاجموت، استقبله أحمد بن سالم والأعيان، ولم يخرج إليه محمد الصغير التجاني، واكتفى بإرسال رسالة ووفد، ولما سأل الضابط عنه، أخبر أنه لا يخرج للحكام والملوك، وأنه لم يقابل حتى الأمير عبد القادر بعد حصار عين ماضي، لأنه لا

1- تلمساني بن يوسف، تلمساني بن يوسف، "الأمير عبد القادر والتيجانية"، الرؤية، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، العدد الأول، جانفي-فيفري 1996، ص ص 73-74.

2- ماري مونج: قائد قسمة التيطري كلف بقيادة حملة عسكرية استكشافية اندلقت من شهر أفريل إلى شهر جوان 1844م اخترق خلالها مع قواته الصحراء الصغرى من جبل الصحاري إلى جبل زكار كان الهدف منها اخضاع القبائل البدوية والقصور في هذه المناطق وصل التي تاجموت في 21 أفريل وفي الغد أرسل الكولونيل سانت أرنو إلى عين ماضي لمقابلة التجاني واخضاعه لضربة وفي اليوم التالي دخل عين ماضي بقواته وحدد الضربة المفروضة على القصر. للمزيد أنظر:

Marey Monge, *Expédition de Laghouat dirigée aux Mois de Mai et Juin*, de l'imprimerie de A.bourget, Alger, 1846, p1-10.

يعترف بأي سلطة زمنية. ولكنه خالف ذلك واستقبل القائد "سانت آرنو" واحتفى بضيفة أتباعه، وأحسن استقبال "بيليسييه"¹ في ديسمبر 1852، وكان آخر استقبال له للقادة الفرنسيين، وذلك قبل وفاته بشهرين، توفي محمد الصغير في فيفري أو "مارس" 1853². وهكذا كانت التجانية محايدة بالنسبة لثورة الجنوب خلال الخمسينات من القرن التاسع عشر، وظهر ذلك في حصار الاغواط 1852³.

ثانيا: امتداد نفوذ الأمير عبد القادر لمنطقة الأغواط

بعد امضائه معاهدة التافنة مع الفرنسيين عمل "الأمير عبد القادر" على استتباب الأمن وإخضاع القبائل الصحراوية إلى نفوذه واستقطابها لتدعيم أركان دولته قبل وصول النفوذ الفرنسي إليها⁴، وقد أدرك أهمية الصحراء بالنسبة للكفاح باعتبارها نقطة ارتكاز للمقاومة فضلا عن كونها موردا هاما من الذخيرة والرجال، لهذا حرص على إدخالها تحت نفوذه⁵، وحتى هذه

1 بليسييه: هو جول هنري فرانسوا ادموند بليسييه ولد في تورنو في 1 جانفي 1798م دخل الخدمة في الفوج الرابع من حراس الشرف وفي 16 جويلية 1813م تخرج من هذا الفوج وحصل على رتبة ملازم ثاني في صيادي فوكليس. سنة 1821 حصل على رتبة ملازم وخدم على التوالي في سلاح الفرسان والمشاة والمدفعية قاد فرقة خلال احتلال الجزائر حصل على رتبة نقيب في 8 سبتمبر 1830م ترأس المكتب العربي في الجزائر وتولى ادارة الشؤون العربية وظل في هذا المنصب حتى 1839م. للمزيد أنظر: M.le. Lieutenant-Colonel Faidherbe, "Notice sur M. Pellissier", R.A.V2, Année 1857, A.J., L.E, Alger, 1857, pp419-422.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص ص 205 – 207.

3- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 384.

4- سليمان قريبي، تطور الاتجاه الثوري والوحدوي في الحركة الوطنية الجزائرية 1940-1954، رسالة دكتوراه كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة باتنة، 2010-2011، ص 34.

5- ابراهيم مياي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934، دار هومة، الجزائر، 2005، ص 94.

الفترة بقيت منطقة الأغواط خارجة عن سلطة الأمير عبد القادر في المنطقة الصحراوية¹.

عندما وصل التجاني إلى منطقة الأغواط وجد الأوضاع بها كما يلي: الخضوع لتأثير عائلتين: عائلة "أحمد بن سالم" سياسيا، وعائلة "الحاج العربي" روحيا، بينما تركزت عائلة التجاني في عين ماضي². أحمد بن سالم قائد الأحلاف كان زعيما سياسيا قويا، وكان ينتمي إلى عائلة حكمت الأغواط منذ وقت طويل واعتادت على القيادة.

التجاني كان مرابطا قويا وغنيا، وزعيم طريقة كبيرة جدا ومن عائلة أكثر شهرة من الأمير³ وهذا ما ذكره ليون روش: "من المرابطين أسياد القصور هناك واحد يلعب دورا مهما ويملك نفوذا واسعا وله الكثير من الأتباع في كل القبائل والمدن الجزائرية وهذا ما جعل عبد القادر يفكر بإنشاء واجهة قوية وسلطة دائمة في الصحراء"⁴. وكان تأثيرها يتساوى مع عائلة أولاد سيدي الشيخ⁵. كما كانت عين ماضي مكان قوي جدا في الصحراء، ولم يتمكن البايات من إخضاعها وبالنسبة للأغواط فهي مشهورة بثروتها وغناها بالعديد من المقاتلين وتحصيناتها القوية وروحها المتمردة، وقد فشل البايات الأتراك في إخضاعها، ولهذا كان على الأمير أن يقلل من أسباب المقاومة المحتملة

1 - أديب حرب، التاريخ العسكري والاداري للأمير عبد القادر الجزائري، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2005، ص25.

2 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المرجع السابق، ص202.

3-MaryMonge,Expédition de Laghouat dirigée aux mois de mai et juin de l'imprimerie de A.Bourget, Alger, 1846,p49.

4 -Léon Roches, Dix ans a Travers L'islam 1834-1844, librairie académique didier ,paris , 1884 ,p11

5-Achille Fillias, Géographie Physique et Politique de l'Algérie,Tissier libraire de Alger, Alger,1875,p47.

لسكان المنطقة، ولهذا الغرض انطلق في عمله هذا من الحزب الذي لا يخشاه من عائلة المرابط "الحاج عيسى"¹.

لقد صادف خروج "الحاج العربي" مطرودا من الأغواط بسبب الخلاف الذي وقع بينه وبين "أحمد بن سالم" كما سبق زيارة "الأمير عبد القادر" إلى النواحي الجنوبية لتنظيم دولته، فقدمت إليه حشود من الأغواط لإخباره بأحوال المنطقة وطلبوا منه أن يولى عليهم من يسوسهم ويضبط بلادهم. فسارع إلى اختيار الحاج العربي خليفة له في المنطقة خليفة على قبائل الأغواط الغرابة والشراقة ومن إليهم من القبائل الصحراوية في جميع الجهات الجنوبية، وكتب له مرسوم التنصيب وطلب من الرعية وجوب طاعته ولزوم اتباعه والإذعان لأوامره ونواهيته، وعين له فرقة عسكرية وأصبح رسميا خليفة الأمير عبد القادر في المنطقة².

ثالثا: تعامل الأعيان مع الأمير عبد القادر

1. الحاج العربي زعيم أولاد سرغين

عرف الأمير بميله إلى تقديم الأشراف والمرابطين على رجال السياسة والحكم لذلك ربط علاقات مع "الحاج العربي بن الحاج عيسى" حفيد المرابط القديم "الحاج عيسى" ثم ولاه على تلك النواحي، ودعمه بالسلاح والذخيرة وزوده بـ 70 جنديا³. وحسب دumas فإن "الحاج العربي" الناسك - كما وصفه - سيكون آلة قوية بين يدي الأمير الذي هو نفسه ناسكا، ويريد السيطرة عن طريق الحكم الديني وخاصة انه أعاد إليه حكم مدينته الذي فقده⁴، وفي

1-Mary Monge, op.cit, p49.

2- محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص 190.

3- ibid, p37.

4- دوك دي توماس، الصحراء الجزائرية، تر: قندوز عباد فوزية، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 43.

الواقع فإن هذا الأخير ينتمي للعائلات الأكثر أهمية في الأغواط،¹ وللإشارة فإن الشيخ "محمد الصغير التيجاني" أيد هذا الاختيار في الظاهر على الأقل، ولكن ذلك لم يرض "أحمد بن سالم" فبقي يتحين الفرصة لتحويل السلطة إليه² وبالنسبة للحاج العربي فقد وجد في هذا المنصب فرصة للانتقام من خصومه خاصة التيجانية التي تدعم قبائل الأغواط الغرابة وتقدم الدعم المعنوي لخصمه أحمد بن سالم وبالتالي فإن الحاج العربي من خلال ولائه للأمير عبد القادر كان يسعى لاستعادة نفوذه الذي فقده أكثر من رغبته في مقاومة الاحتلال تحت راية الأمير عبد القادر وبالتالي كان اعلانه الولاء يرجع إلى تعلقه بالسلطة³.

وقد استطاع الخليفة الجديد أن يجمع بقرية سيدي بوزيد قوم الأحرار وأولاد خليف وأولاد شايب والاغا جلول آغا جبال العمور. وكذلك وصله ولاء شيخ الزاوية التيجانية "محمد الصغير التيجاني" مرابط عين ماضي ثم تحرك إلى الأغواط وقدم له البيعة الكثير من السكان خاصة أولاد سرغين الذين أيدوه، أما الأحلاف فقد رفضوا الاعتراف به، ولذلك فإن موقف "أحمد بن سالم" أصبح حرجا، ولم يكن مستعدا للقتال فانسحب عند صهره ابن ناصر بن شهرة قائد الأرباع بعض الوقت، وحينما شعر بالخطريداهمه انتقل إلى بني يزقن في غرداية⁴.

1- محمد علاق، الأمير عبد القادر في كتابات العسكريين الفرنسيين، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2011-2012، ص 68.

2- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية...، ص 203.

3- Léon Roches, op.cit, p290.

4- إبراهيم مياشي، قضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 115.

رغم توليه منصب الخليفة باسم الأمير عبد القادر على المنطقة فإنه لم يتمكن من ترسيخ أو تدعيم نفوذه فيها بل لم يتمكن حتى من الحفاظ على منصبه هذا يرجع إلى ضعف شخصيته وفشله في الشؤون السياسية ورغم توليه لمنصب الخليفة مرتين وامتداده برصيد سياسي وعسكري من طرف الأمير عبد القادر لكنه لم يعرف كيف يستفيد من تلك الظروف إضافة إلى افتقاره للقدرة على الاقناع فكل الأطراف اما تخلت عنه أو عادته وحاربتة وهذا ما فعلته قبيلة الأرباع التي انفضت من حوله ومحمد التجاني الذي رفض دعمه وأحمد بن سالم الذي حاربه وأعدمه في النهاية ليقضي على نفوذ الأمير عبد القادر في المنطقة.

2. محمد الصغير التجاني زعيم التيجانية بقصر عين ماضي

لقد أدرك الأمير أهمية الصحراء، باعتبارها نقطة ارتكاز للمقاومة، وفيها موردا هاما من الذخيرة والرجال، فسعى إلى ضمها، فاصطدم بمقاومة أعيان الأغواط الغرابية وفي مقدمتهم "محمد الصغير التجاني"¹، ولقد لعب العامل الطرقي دورا كبيرا في هذا الخلاف، فكل طرف يرى في الآخر على أنه زعيم طريقة يريد نشرها وتوسيع نفوذها²، فمحمد الصغير التجاني لم يكن ينظر للأمير كزعيم وطني بقدر ما كان يرى فيه زعيما للطريقة القادرية، وهذه النظرة تكونت لدى "محمد الحبيب التجاني"، لأن أهل سهل غريس غدروا بالتيجانيين أثناء ثورتهم ضد العثمانيين في معسكر سنة 1827م. فمنذ ذلك الحين أصبح التيجانيون لا يثقون في أتباع القادرية ولا يحبذون التعاون معهم، باعتبار والد "الأمير عبد القادر" كان مقدما للطريقة القادرية، فان

1- نفسه، ص 115.

2- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر وتق: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 129.

دعوة هذا الأخير كانت محل شك لدى التيجانيين، إضافة إلى الاختلاف العقائدي بين الطريقتين التيجانية والقادرية ويتضح ذلك من خلال الرسالة التي بعث بها الأمير إلى محمد الحبيب التجاني يتهم فيها التيجانية بمخالفة المذهب المالكي¹.

وللإشارة فإن الأمير اتصل مرارا "بمحمد الصغير التجاني" محاولا ضم السلطة التيجانية إلى سلطته، إلا أنه رفض ذلك بل اتصل التجاني بمريده وتابعه، "أحمد بن سالم" في الاغواط، ويستثير الناس لمواجهة الأمير وحره، بل انه حذره من القدوم إلى عين ماضي حتى انه أرسل رسالة إلى بعض أهل الاغواط يذكر فيها انه خليفة الله في أرضه، وأخرى إلى حاكم الجزائر يقترح عليه أن يشغل الأمير من جهة البحر ويكفيه من جهة البر².

وقد سعى التجاني من رفضه الانضواء تحت سلطة الأمير الحفاظ على الوضع الموروث عن العهد العثماني المتمثل في الحفاظ على نفوذه واستقلاله في منطقة الجنوب والبقاء بعيدا عن السلطة المركزية³.

وبعد أن يئس الأمير من إمكانية ضم التجاني لصفه تحركت قوات الأمير عبد القادريوم 12 جوان 1838م متوجهة إلى عين ماضي، وكان جيشه يتكون من 2000 مشاة و300 فارس ومدفع واحد، حسب مارسيل ايميرت. أما سانت أرنو فيذكر 2000 فارس، ومدفعين، 110 قذيفة و100 مشاة⁴.

1- تلمساني بن يوسف، المرجع السابق، ص ص 72-73.

2- يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1827-1847، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 29.

3- بن يوسف التلمساني، الطريقة التيجانية وموقفها...، المرجع السابق، ص 168.

4 Saint Arnaud. Sièg d'Ain Madi, Par Elhadj Abdelkader Ben Mahi-eddine .R.A.F.N8.1864.P 368.

وبعد عشرة أيام من السير الشاق عبر الصحراء وصل جيش الأمير إلى حصن عين ماضي، فكان وصوله مفاجأة كبرى للتجاني فاندھش لضخامة هذه القوة. ولم يكن معه سوى 166 رجلا من أولاد سرغين تحت قيادة "يحيى بن سالم" و170 من أولاد صالح (الأرباع)، و17 من سكان الغيشة، و20 من تاجموت، و22 من الحويطة، و15 من الأجانب من مختلف الأصول كاليهود والنزوح، وقدرت قواته بحوالي 710 مقاتل.¹ وللتخلص من قوات "أحمد بن سالم" استعمل الأمير الحيلة وعرض عليه انه إذا سحب قواته فانه سيعيد إليه حكم الاغواط ففعل.²

وتذكر المصادر أن الحصار على عين ماضي دام حوالي ثمانية أشهر، والتزم الأمير بهذا الحصار لأنه أدرك أهمية المسألة وعواقبها بحيث إذا رفع الحصار واعترف بفشله فان جميع المناطق الصحراوية ستفقد من قبضته وتتمرد عن سلطته لتقع فريسة للتوسع الاستعماري، لذلك أعلن أنه يفضل الموت على الاستسلام، فاستغلت السلطات الفرنسية الفرصة لتعبر عن تعاونها معه وفق معاهدة التافنة، فأهداه الحاكم العام "فالي" ثلاث مدافع حصار مع ذخيرتها³، ولا شك أن هذه الهدية قد رجحت كفة الأمير وأجبرت التجاني على الاستسلام في 22 نوفمبر 1838م، وتم إمضاء معاهدة بين الطرفين تعهد فيها التجاني بالجلء عن عين ماضي حسب الشروط التالية:⁴

- أن يدفع التجاني مصاريف الحصار.
- أن يخرج من المدينة في غضون 40 يوما.

1- إبراهيم مياشي، قضايا...، ص 116.

2- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية...، ص 205.

3- إبراهيم مياشي، قضايا...، ص 116-117.

4 Charles-Andrée Julien. *Histoire de L' Algérie contemporaine. la conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871*, j.E.P. Algérie. 2005. p150.

- أن يأخذ كل أمواله المنقولة بلا استثناء.
 - لأهل المدينة حق مرافقة التجاني بأسلحتهم.
 - أن يرفع الأمير الحصار عنهم ويرجع 8 أميال عن المدينة حتى يتم الإخلاء.
 - أن يبقى ابن التجاني عند الأمير رهينة إلى إتمام المعاهدة.¹
- فقبل التجاني هذه الشروط المذكورة وأمضى عليها وأرسل ابنه معها فأمنه الأمير. ودخل الأمير إلى قصر عين ماضي دون مقاومة يوم 13 جانفي 1839م.²

ولابد من الإشارة إلى أن موقف التجاني المعادي لسلطة الأمير عبد القادر في المنطقة ترجع إلى الرصيد التاريخي السياسي للتيجانيين حيث سار هو على نهج والد وجده في رفضهم الخضوع للسلطة المركزية المتمثلة في سلطة العثمانيين في الجزائر إضافة إلى الاختلاف الطرقي بين الرجلين فالتيجانية نظرت إلى الأمير عبد القادر كخصم لها وبالتالي رفضت الاعتراف بزعامته ونفوذه على المنطقة على اعتبار أنها صاحبة الحق في ذلك خاصة أن التيجانيين يتهمون أهل معسكر بالغدر ويحملونهم ما وقع لمحمد الكبير التجاني.

3. قدور بن عبد الباقي خليفة الأمير على الأغواط

عين الأمير " قدور بن عبد الباقي البصري " خليفة على الاغواط سنة 1839، ولم يكن من سكانها، بل من أهل تآكدامت، فقد توسم فيه الأمير قوة الشخصية والطاعة،³ فتقدم هذا الخليفة، نحو الاغواط بقوة قدرت بسبعمئة (700) رجل، مدعين بقطعة مدفعية، ولكن لم يستقبل

1-Léon Roches.op.cit,p147.

2-Saint Arnau, op.cit,p417.

3- إبراهيم مياي، قضايا، ص 121.

بالترحاب، ولم يحض بالقبول¹، ومع ذلك تمكن من دخول المدينة وبسط نفوذه عليها². وحينئذ كلفه الأمير بجمع أعيان وشخصيات الأغواط، ويتولى إعدامهم أو على الأقل يبعث بهم إلى - عاصمة الأمير- تاقدت ليقبض منهم الأمير³، رغم نصائح مساعديه، آغة أولاد شايب الجديد بن يوسف، وآغا أولاد خليف الخروبي⁴، على عدم تنفيذ هذه الأوامر الخطيرة، فان " قدور" أصر على تنفيذ هذا الأمر فاستدعى أعيان الأغواط، دون أن يعلموا بنواياه، وقد كبلهم بالحديد الواحد تلوى الآخر حين وصولهم، ومنهم أحمد بن سالم، ويحيى بن معمر، وحوالي عشرة شخصيات أخرى من الأعيان. ولما علم سكان الأغواط بالأمر اشتد غضبهم وانفجرت مظاهرة عارمة، وتمكن المتظاهرون من قتل كل الجنود الذين اعترضوهم. وعندما رأى " قدور" هول الموقف أسرع إلى إطلاق سراح المساجين ليخفف من غضب الأهالي، ولولا براعة الأغا الجديد والخروبي اللذين استطاعا إنقاذه لهلك هو أيضا⁵. وهكذا تحرك حزب بن سالم والتجاني ضده وأشاعوا عنه انه جاء إلى الاغواط لجمع الضرائب، واسر الأعيان، وهدم المدينة، وكانت نتيجة الثورة اضطرابه إلى الخروج، ومغادرة المدينة⁶. وواصل جهاده مع الأمير حتى استشهد قدور في معركة عين الكرمة بالغرب الجزائري في ماي 1842⁷.

1- دوك دي دوماس، المصدر السابق، ص44.

2- أبو القاسم سعد الله، الحركة... المرجع السابق، ص 205.

3- نفسه، ص 205.

4- إبراهيم مياشي، قضايا... المرجع السابق، ص 121.

5- دوماس، المصدر السابق، ص44.

6- إبراهيم مياشي، قضايا... المرجع السابق، ص 121.

7- أبو القاسم سعد الله، الحركة... المرجع السابق، ص 205.

4- أحمد بن سالم زعيم الأحلاف

سبق وأن ذكرنا أن الأمير عبد القادر تحالف مع الحاج العربي شيخ بني سرغين فكانت النتيجة أن جعل منه خليفة له على المنطقة، وقد حصل في البداية على دعم أولاد سرغين والمرابط التجاني¹.

انتقل "الحاج العربي" بدعم من حزبه من تاجموت² إلى الأغواط لمهاجمة "أحمد بن سالم" بعد يومين من القتال هزم أولاد زنون، و اضطروا للانسحاب إلى بني يزقن -فرع من بني مزاب- ولكن قاموا بعمل نشيط جدا³ عندما حاصر الأمير عين ماضي حيث أرسل "أحمد بن سالم" أخيه "يحيى" مع 100 مقاتل لمساندة التجاني، هذه السياسة الماكرة جدا نجحت لأحمد بن سالم عندما وعده الأمير بأن يجعل منه قائد على الأغواط إذا تخلى شقيقه "يحيى" عن التجاني، ولم ينتظر الأحلاف طويلا إذ سرعان ما عاد "أحمد بن سالم" إلى المدينة وأصبح سيد الأغواط بعد أن سمح له الأمير بالعودة والدخول إلى الأغواط وخلال ذلك عمل كل ما في وسعه لعرقلة حكومة عدوه الخليفة الحاج العربي⁴، وهذا بالتعاون مع التجاني الذي لجأ إلى الأغواط بعد استسلامه⁵، وقد تحالفا معا للقضاء على نفوذه ولم يصمد "الحاج العربي" أمام دسائس أعدائه فغادر الأغواط إلى العسافية، وهنا

1- هاينريش فون مالستان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة: أبو العيد دودو، ج3، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980، ص234.

2- تقع على بعد 28 كلم شمال شرق عين ماضي، و40 كلم شمال الأغواط، حدائقها محاطة بسور، بها بابان يعلوهما سور ذو شرفات صغيرة، ويملك بها أولاد سيدي عطاء الله مخازن للحبوب. أنظر: دوك دي دوماس، المصدر السابق، ص49.

3. MaryMonge,op.cit, p35 -

4- C.Trumelet ,Trumelet .C,Histoire de Linsurrection dans le Sud de la Province DAger en1864,Tyographie Adolphe Jourda Imprimeur –libraire,Alger,1879, p67-68.

5- دوك دي دوماس، المصدر السابق، ص44.

استبدله الأمير بخليفة جديد و هو "قدور بن عبد الباقي" الذي ذكرنا سابقا أنه طرد من الأغواط.

في هذا الوقت كان الأمير مشغولا بالحرب ضد فرنسا وكان غير قادر على الثأر من هذه الإهانة، ولم يمنح الخلافة "لأحمد بن سالم" الذي كان عدوه بل أعاد تعيين "الحاج العربي" الذي كان له بعض التأثير على الجنوب يمكن أن يعوض تأثير بن سالم.¹

انسحب "الحاج العربي" المخلوع إلى سيدي بوزيد وبعد اعادة تنصيبه أرسل له الأمير 300 جندي نظامي وانطلق معه من القبائل المجاورة بعض المشاة من سيدي بوزيد وأنظم إليه حوالي 200 فارس من القبائل المجاورة للأغواط، ولم تكن هذه الوسائل كافية للقضاء على منافسه "أحمد بن سالم" في الأغواط²، بل قرر احتلال عين ماضي وازاحة عدوه "التجاني" لهذا فقد اتجه أولا إلى تاجموت لإعلان سلطته، وبعد أن تم الاعتراف به في تاجموت ذهب إلى عين ماضي³. ولكن "أحمد بن سالم" و "التجاني" جاءا إلى عين ماضي بقواتهما، ودخل الطرفان في معركة شرسة انتهت بانتصار قوات التجاني وبن سالم، وهرب "الحاج العربي" مع من بقي من قواته إلى تاجموت⁴، "أحمد بن سالم" تراجع إلى الأغواط ثم لما سمع أن الأمير دخل في الحرب مع الفرنسيين عمل على الاستفادة من هذا الوضع ليهاجم منافسه في تاجموت وطرده بعد أن قتل 50 من جنوده، لهذا انسحب "الحاج العربي" إلى العسافية وهناك هاجمه أنصار "أحمد بن سالم" وطردوه من حيمم الذي

1- E.Mangin, Notes sur..., op.cit, p25.

2- C. Trumelet, op.cit, p70.

3- E.Mangin, Note..., op.cit, p25.

4- Mary Monge, op.cit, p36.

دمر من جراء المعارك الكثيرة¹.

سرعان ما هاجم "أحمد بن سالم" "الحاج العربي" وأجبره على ترك العسافية ليبحث عن الملاذ الأخير في قصر الحيران حيث يتركز كل أنصاره في حي على حدى، هذه القرية الصغيرة ظلت منذ وقت طويل تتعرض لحرب داخلية شديدة التي قسمت كل القبائل المجاورة لها في كل مرة لصالح طرف معين².

وقد شاركت قبيلة الأرباع الكبرى في الخصام مرة مع "أحمد بن سالم" ومرة أخرى مع "الحاج العربي" الذي بدأ عملياته للحصول على قصر الحيران، فهزم في المعركة الأولى أين خسر عددا كبيرا وشاهد في اليوم الموالي الذين حالفوه بالأمس -الأرباع- يتركونه لينضموا إلى 400 رجل أرسلوا من الأغواط ضده³.

أخيرا في عام 1842م عندما كان "عبد القادر" في وضع حرج جدا من جميع الجهات عقد "أحمد بن سالم" العزم على الاستفادة من الوضع لصالحه والتخلص من منافسه⁴. وانطلق بكل حزبه إلى قصر الحيران حيث دارت بينه وبين "الحاج العربي" معركة شرسة لمدة ثلاث أيام، انتهت بهزيمة "الحاج العربي" واعدامه في الأخير من طرف خصمه، كما تم سجن أتباعه أو الحكم عليهم بالموت أو طردهم، ثم قام بمعاقبة كل من وقف ضد أولاد زعنون، وبهذا أصبح السيد الوحيد بلا منازع للأغواط⁵.

1-C. Trumelet, op.cit, p70.

2-Mary Monge, op.cit, p37.

3- دوك دي دوماس، المصدر السابق، ص 46.

4- E.Mangin, Note..., op.cit, p26.

5-Mary Monge, op.cit , p37.

يرجع موقف أحمد بن سالم إلى تمتعه برصيد قديم من الحكم استند عليه إضافة إلى قوة شخصيته وحبه الشديد للسلطة، وما غذى عداوته للأمير عبد القادر أن الأخير لم يمنحه منصب الخلافة، والدليل على ذلك أنه لم يتردد في قبول هذا المنصب عندما منحه له، ولما عزله زاد حقه عليه، إلى جانب كونه متأثرا بمحمد الصغير التيجاني الذي كان من أتباعه، ومن أجل بلوغه هدفه المتمثل في حكم المنطقة فإنه كان مستعدا للتحالف حتى مع الأعداء، لهذا لم يجد مشكلة في التحالف مع الفرنسيين، مقابل منحه لقب الخليفة باسمهم على قصور وقبائل الأغواط، وأصبح السيد الوحيد للأغواط بعد إزاحة كل خصومه وآخرهم الحاج العربي ممثل الأمير عبد القادر، الذي قضى عليه نهائيا بإعدامه، ويكون بذلك قد قضى على سلطة الأمير عبد القادر في المنطقة.

رابعاً: عوامل فشل الأمير عبد القادر في بسط سلطته على الأغواط
وما يمكن قوله هو أن هناك عدة عوامل ساعدت على عدم استقرار سلطة الأمير في المنطقة:

أولها استئناف الأمير مقاومته للفرنسيين من جديد سنة 1839م، مما شجع خصومه الانفصاليون أمثال ابن سالم والتيجاني للتحرك ضده، حتى أن هذا الأخير أرسل إلى المارشال فاليه يقترح عليه التعاون معه، ويتعهد بطاعته والدخول تحت نظره، ويدفع إليه الزكاة والعشور وإبعاد الأمير من الصحراء. وعليه فإن سلطته في الصحراء الوسطى كانت غير مؤكدة، فقد كان أحمد بن سالم متمردا عنه في الأغواط ونواحيها، وكان نفوذ التيجاني ما يزال قويا رغم محاولة الأمير لإخضاع عين ماضي¹.

1- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية.... المرجع السابق، ص ص 205 -206.

ان انشغال الأمير بالحرب مع الفرنسيين منعه من نصرته خليفته "عبد الباقي" بل نجده أسند الخلافة مرة أخرى إلى "الحاج العربي" الذي واصل صراعه مع خصومه خاصة أحمد بن سالم¹. وقد تلقى الدعم - في البداية - من قبائل الأرباع محاولا السيطرة على قصر الحيران، لكنه هزم وتخلت عنه قبائل الأرباع التي انضمت إلى قوات بن سالم القادمة من الاغواط.²

- ثانيها أن خلفاء الأمير على منطقة الاغواط لا يتمتعون بصيت ونفوذ قوين، مما جعل سلطته لا تنفذ ولا تحترم، وذلك لأنهم لا يتمتعون بسلطة شخصية أو إدارية أو دينية تجلب إليهم طاعة الناس. وهذا ما ينطبق على خليفته الحاج العربي وحسب دumas فان هذا الخليفة الذي تم تعيينه من طرف أجنبي عن المنطقة، ويعني بذلك "عبد القادر" قد وجد نفسه وجها لوجه مع الكراهية القوية للحزب الوطني بالأغواط، القوي بالداخل بوجود بن سالم والتيجاني وقوي بالخارج بتعاطف الجماهير³. وبالتالي لم يتمكن "الحاج العربي" من توطيد سلطة الأمير على الاغواط وما جاورها من الصحراء، وعجز عن جلب "أحمد بن سالم" في الاغواط و"أحمد التيجاني" في عين ماضي إلى كنف الأمير الذي عزله وأعطى السلطة إلى ابن سالم، الأخير وقف أثناء حصار عين ماضي بجانب التيجاني، وتردد في موقفه، ومعاملته لأهل الاغواط، قد جعلت الأمير يعزله هو الآخر⁴. والخليفة الآخر قدور بن عبد الباقي الذي كان غريبا عن المنطقة ويجهل أوضاعها وطبائع سكانها، كما أنه اتخذ سياسة تتسم بالعنف والاجبار واتباع سياسة العقاب مع اعيان ووجهاء المنطقة ذوي

1- دوك دوماس، المصدر السابق، ص 46.

2- إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي...، المرجع السابق، 100.

3- دوك دي دوماس، المرجع السابق، ص 44.

4- أبو القاسم سعد الله، الحركة...، المرجع السابق، ص 205.

النفوذ والمكانة المرموقة في أوساط مجتمعهم، وهو ما جعل رد فعلهم معادي له ولرجاله، ووضعهم في موضع الدفاع عن النفس بسبب سلوكاته السابقة الذكر.¹

- وثالثها قرب الاغواط من منطقة نفوذ العدو خاصة بعد احتلال المدينة سنة 1840م، وبالتالي أصبحت قريبة من قواته، كما لم تكن تخفى على قادتها الاضطرابات التي كانت تمر بها، وكانت تتحين الفرصة لبسط نفوذها عليها، وجاءتها الفرصة المنتظرة على طبق من ذهب عند اتصال أحمد بن سالم بالقادة الفرنسيين هناك، ليحكم الأغواط باسمهم لحماية سلطته ونفوذه.²

- رابعها قوة المعارضة التي تزعمها " أحمد بن سالم " بمؤازرة الطريقة التجانية، وشيخها محمد الصغير التجاني. ويبدو أن "الشيخ التجاني" لم يدخل تحت طاعة الأمير إلا مرغما، إذ انتقل "التجاني" إلى الأغواط وتحالف مع "بن سالم" ضد خليفة الأمير "الحاج العرب" الذي اضطر أمام المكائد إلى الانسحاب من الاغواط³، فعزله الأمير وأعطى السلطة لابن سالم، الذي وقف أثناء حصار عين ماضي، بجانب التجاني، وتردد في موقفه، ومعاملته لأهل الاغواط، قد جعلت الأمير يعزله هو الآخر.⁴ وقد استغل الأخير فرصة انشغال الأمير عبد القادر بالحرب مع فرنسا ليستأنف حربه ضد خليفته "الحاج العربي"، الذي هزم فيها وألقى القبض عليه ثم قام بإعدامه حتى يقضي على نفوذ الأمير بالمنطقة نهائيا.⁵

1- إبراهيم مياسي، روح الأمير عبد القادر عبر المقاومة الجزائرية، دار هومة، الجزائر، 2011، ص 122.

2- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 279 - 280.

3- إبراهيم مياسي، قضايا... المرجع السابق، ص 121.

4- أبو القاسم سعد الله، الحركة...، المرجع السابق، ص 205.

5- أبو القاسم سعد الله، الحركة...، المرجع السابق، ص ص 198 - 280.

وعليه فإن استئناف الأمير الحرب مع الفرنسيين جعل سلطته تعاني الضعف هناك، وساعد خصومه على التحرك ضده، ولم يتمكن من نصرته خلفاءه أو دعمهم فكان يعزل خليفة ويعين آخر كلما بدا عليه الضعف أو شك في نواياه تجاهه، وهو ما غذى العداوة والصراع فيما بينهم، مما أحدث اضطرابات كبيرة في المنطقة كانت لها عواقب وخيمة، وكلفتها الكثير من الخسائر، جعلتها فريسة سهلة في يد الاحتلال الفرنسي.

خامساً: نتائج الصراع بين الأعيان والأمير عبد القادر على منطقة الأغواط وهكذا مثلت سنوات 1839-1844 صراعاً بين المقاومة ومعارضها في نواحي تاجموت وعين ماضي والأغواط، وكان ذلك الصراع قد مهد الطريق أمام دخول الجنرال ماري مونج إلى الأغواط واحتلالها.

1- تحالف محمد الصغير التيجاني مع الفرنسيين:

سعى التيجانيون لبناء منطقة نفوذ في الجنوب دون اللجوء إلى تحالف مع أي كان ولكن بعد حصار عين ماضي من طرف الأمير عبد القادر ثم تخريبها تأكد التيجانيون أنه بحاجة إلى طرف قوي يتحالفون معه لتحقيق حلمهم هذا وبعد حصول الأمير على الامدادات من الحاكم العام فالي حاول التيجانيون الاستفادة من سلطة الاحتلال وهذا ما تجلّى في الاتصالات التي تمت بين محمد الصغير التيجاني في الفترة الممتدة 1827-1853 والحاكم العام فالي بعد سقوط عين ماضي في يد الأمير ابان شهر جانفي 1839م¹. لهذا لم يتردد التيجانيون في عرض تحالفهم مع الفرنسيين والانتقام من الأمير عبد القادر مقابل أن يكون التيجاني كبير أهل البادية ووعد بتعويد سكان المنطقة على الحكم الفرنسي وابعاد المناوئين لفرنسا من المنطقة وتمكين

1- بن يوسف التلمساني، المرجع السابق، ص 200.

فرنسا من فرض سلطتها على العرب وشؤونهم¹.

إضافة إلى محاصرته للأمير من الجهة الجنوبية قام بدور هام لمساعدة بيجو الحاكم العام للحصول على فتوى يدفعون من وراءها الجزائريون لمهادنة أهل الكتاب لإبطال الجهاد وقد ساعد محمد الصغير التيجاني ليون روش وسهل من مهمة تنقله في تونس ومصر ومكة للحصول على هذه الفتوى.² وتجدر الإشارة إلى أن هذا التحالف استمر إلى ما بعد السيطرة النهائية على الأغواط.

1- استجداد أحمد بن سالم بالفرنسين

كان "أحمد بن سالم" يتمتع بالسلطة في الأغواط دون منازع بعد وفاة "الحاج العربي" ولقد فهم أنه لكي يتجنب ثورات جديدة محتملة يجب عليه أن يدعم نفسه بقوة تستطيع أن تحميه من "عبد القادر"³، ولهذا فإنه أرسل سنة 1844م إلى الحاكم العام في الجزائر الهدايا والخيول طالبا منه تعيينه خليفة على الأغواط، لكن الحاكم العام طلب منه القدوم شخصيا إلى الجزائر لهذا ونظرا لمرضه أرسل أخيه "يحيى" إلى الجنرال "ماري مونج" الذي كان عند أولاد نايل والأخير أرسل المبعوث إلى الجزائر، وفي 12 أفريل عين "أحمد بن سالم" خليفة على الأغواط وكان التعيين مشروطا ولن يكون نهائيا إلا عندما يذهب رتل فرنسي إلى البلدة ويفرض الضرائب⁴، وقد تلقى رتل المدية الأوامر للذهاب إلى الأغواط، وفي 1 ماي 1844م غادر الرتل المدية متوجها إلى الأغواط تحت قيادة "ماري مونج" وقد وصل إلى تاجموت بعد عبور جبل

1- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج1، ص206.

2- Léon Roches. op.cit,p444-443

3- دوك دي دوماس، المصدر السابق، ص 47.

4- Le Cte .H.D'ideville, **le Maréchal Bugeaud 1784-1849**,T2, Librairie Firmin Diot et Cie, Paris,1882,p139

لعمور، ومنها أرسل مبعوثا إلى التجاني وهذا الأخير أرسل له مبلغا من المال إلا أنه أعاده له كهدية ودية، ثم واصل الطابور طريقه إلى الأغواط حيث استقبل من طرف "ابن سالم" وأعلن رسميا خليفة على الأغواط ثم زار "ماري مونج" قصر الحيران والعسافية¹.

2- ظهور محمد بن عبد الله في الأغواط:

ظهر سنة 1852م ثائر بالصحراء وهو "الشريف محمد بن عبد الله"²، فعند عودته من البقاع المقدسة شرع مباشرة في الاستعداد لكفاح المحتل الفرنسي³، وكانت غايته الاستيلاء على الأغواط وتقرت، وفي هذه الفترة انضم إليه ابن ناصر بن شهرة وعزز موقفه، وأرسل إلى الشريف بن الأحرش في الجلفة طالبا منه الوقوف إلى جانبه كما انضم إليه أولاد يعقوب بجبل لعمور، ومع مطلع سنة 1852م هاجم الأغواط إلا أنه لم يتمكن من السيطرة عليها⁴. ويمكن توضيح الوضع في الصحراء الجزائرية بالقول التالي: "وفي هذه السنة بالذات كان الشمال الإفريقي قد دخل مرحلة الثورة ضد الاحتلال

1-E.Pellissier de Reynaud, *Annales Algériennes*, T3, L.M, Paris, 1854, p12

2- محمد بن عبد الله: ولد في تلمسان سنة 1805 مينحدر من عائلة أولاد سيدي الشيخ المشهورة في الجنوب وفي الخامسة والعشرين من عمره ذهب إلى زاوية لبيض سيدي الشيخ ومنذ 1837م كان يقاتل في جيش الأمير عبد القادر وكانت تحركاته تثير مخاوف السلطات الاستعمارية واعتبروه عنصر تشويش يهدد مصالحهم وهو ما جعله يتجه سنة 1847 إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وسنة 1848م مر بليبيا حيث تكون على يد الشيخ السنوسي محمد بن علي وعاد إلى ورقلة حيث تولى ادارتها وكون جيشا لمقاومة الاحتلال واتصل بابن ناصر بن شهرة في الأغواط في 2 ديسمبر 1852م أنظر:

Le Commandant. M et V. Colomieu, *Voyage dans le Sahara Algerin de Geryville a Ouargla* 1862, p165.

3- العربي المنور، تاريخ المقاومة الجزائرية، دار المعرفة، لجزائر، 2006، ص200.

4- عميرواي أحميدة وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص44.

الفرنسي وكانت الحملات الفرنسية متواصلة للقضاء على أي تمرد يمكن أن يقوده السكان ضد الاحتلال وبعد حملة طويلة وشاقة عملنا على استعادة السلام على حدودنا عدو واحد بقي يهددنا بعناده وشجاعته وهدوء هيمنته السوداء وهو شريف ورقلة محمد بن عبد الله وبعد عدة محاولات له في التل ذهب إلى الجنوب قرب الأغواط وضم عدة قبائل صارت تعمل ضدنا¹. وهذا يعني أن السلطات الفرنسية كانت تراقب بحذر ما يحدث في الصحراء خوفا من امتداد الثورات إليها لهذا عملت على عزلها على كل ما يمكن أن يشكل تهديدا لوجودها وكانت ترى في شخصية "محمد بن عبد الله" خطرا حقيقيا لا بد من وضع حد له قبل وصوله إلى مناطق تعتبرها بعيدة عن التمرد كالأغواط.

ولهذا قررت السلطات الفرنسية ابعاد خطره عن الأغواط، التي كانت بعيدة حتى الآن عن الثورة في نظرها، فسارع الجنرال يوسف إلى الأغواط لكن "محمد بن عبد الله" خرج من الأغواط التي دخلها الجنرال "يوسف" وقرر اطفاء الفتنة وإعادة تنظيم البلاد²، بعد مغادرته الأغواط "الشريف محمد بن عبد الله" تحول إلى جبل لعمور واستقبلته القبائل لكنه لم يبق هناك نظرا لعداء قائد جبل لعمور له وكذا أخبار تقدم القوات الفرنسية³، لهذا تمكن من الهرب ثم دخل إلى الأغواط حيث استقبله المقاوم الناصرين شهرة حيث رحب به السكان وبدأ بتحريضهم ضد المحتل وأقسموا على الدفاع عن مدينتهم إلى آخر نفس⁴.

1-J.J.E.Roytours,Histoire de l'Algérie,Alfred Mame et Fils, Paris,p298.

2- Un Ancien Capitaine de Zouaves, **les Grottes du Dahra**, L. M, Paris,1864, p14.

3- J.J.E. Roytours, op. cit .p298.

4- Un Ancien Capitaine de Zouaves,op.cit, p14.

لقد شهدت منطقة الأغواط العديد من الأحداث السياسية قبل الاحتلال الفرنسي وقد كانت هذه الأحداث سببا في تسريع السلطات الاستعمارية للسيطرة النهائية على هذه المنطقة في 4 ديسمبر 1852م.

الخاتمة

لقد اختلفت مواقف أعيان الاغواط من سلطة الأمير عبد القادر، وتحركاته في المنطقة، حيث انقسمت بين التأييد والمعارضة ففي الوقت الذي أيده فيه الحاج العربي، فإن أحمد بن سالم، والشيخ التيجاني، وقفوا ضده وحارباه بل اتجها إلى القوات الفرنسية وتعاونوا معها.

كان الإرث العائلي، للشخصيات المحلية، عاملا قويا، دفعها إلى طلب المسؤولية السياسية، والتشبث بها، مواصلة لرئاسة القبيلة، أو العائلة؛ فالحاج العربي، هو سليل الحاج عيسى، جامع شمل سكان المنطقة، وصاحب فضلها، وهذا الإحساس، متأصل في نفسية حفيده، الذي قبل خلافة الاغواط ممثلا للأمير. بينما تبوأ أحمد بن سالم مكانته بين السكان، بارتباطه القوي مع القبائل الفاعلة، فهو من عائلة أولاد زعنون، وربط الصلة ومنتها مع أولاد سرغين بالمصاهرة، فدانت له المنطقة بأكملها. أما الشيخ محمد الصغير التيجاني، فهو الزعيم الروحي - بدون منازع - بإشرافه على الطريقة التجانية التي ورثها عن والده، ذائع الصيت، وأخيه الأكبر.

كانت الخلافة الدينية، والانتماء للطرق الصوفية، إحدى الدوافع النفسية الموجهة للمواقف، فالحاج العربي سار في موكب الأمير وقيادته، لأن القادرية هي الجامع لهما في هذا السبيل، بينما اختار أحمد بن سالم، حاكم الأغواط، الطريقة التيجانية، ولقي الدعم الكامل من شيخها محمد الصغير، الذي منحه رتبة "مقدم" للطريقة في مدينة الاغواط. بينما يرى الشيخ محمد

الصغير، نفسه الزعيم الروحي المتميز، ولا ينتمي لأي سلطة أخرى، ومن هنا بنيت المواقف المختلفة.

كل الزعامات تبحث عن السلطة وبريقها، لتحقيق مصالحها، فالحاج العربي ورغم انتمائه لسلطة الأمير، له رغبة في ضمان حقوقه المسلوبة، والرد الانتقامي من أحمد ابن سالم، بينما فضل هذا الأخير تولي قيادة الاغواط، لإيمانه بأنه الأحق بها دون غيره، والأولى بتولي تلك المسؤولية، وقبل من أجلها كل عرض، ولو كان من خصمه الأمير عبد القادر. وقبل الزعامة بدعم من السلطة الفرنسية، وبتوجيه من أبيه الروحي، الشيخ التجاني، كل ذلك تحت المظلة الفرنسية، وكانت الضريبة، هي تمكين الاستعمار في البلدة، وحتى يقف ضد المقاومة الوطنية، وكان الغطاء الديني مبرراً في مهادنة المستعمر ومسالمة، واستمر ذلك بعد احتلال المدينة.

الحياة اليومية للمهجرين الجزائريين في المستعمرات العقابية الفرنسية (1870-1900)

د. خيري الرزقي

جامعة باتنة 01

rezki.khairi@univ-batna.dz

مقدمة

اتبعت إدارة الاحتلال الفرنسي كل الطرق التعسفية وسنت مختلف القوانين الزجرية بغية إخماد صوت المقاومة الجزائرية التي واجهتها منذ البدايات الأولى لعملية الغزو والاحتلال، فقد استعملت كل السياسات التي من شأنها إخضاع الجزائريين لسلطانها بما في ذلك التقتيل الجماعي وإرهاب السكان وحرق الأراضي ومصادرتها وتغريبهم عن الدين واللغة والهوية وغيرها من الأفعال المشينة التي تتنافى مع المبادئ الحضارية والإنسانية.

ولما تبين لها أن الجزائريين مصرين على مواصلة المقاومة داخل التراب الجزائري وفي كل المناطق الجغرافية هنا فكرت إدارة الاحتلال الفرنسي في النفي والتهجير القسري داخل الوطن أو خارجه بغية التخلص النهائي منهم ، ولعلّ قانون النفي والإبعاد خارج الوطن هو الذي ترك الأثر البالغ في نفسية الجزائريين إذ فصلوا عن الوطن والأهل والأبناء وهم على قيد الحياة وزادت معاناتهم وخاصة النفسية مع هذا النفي الجبري وأبعدوا إلى أقصى المناطق التي كانت تمثل مستعمرات فرنسية على غرار كاليدونيا الجديدة أو غويانا وهي الأماكن التي يتطلّب الوصول إليها بالبواخر مدة أشهر طويلة وكان الخط نحو كاليدونيا تسميه فرنسا التعسفية برحلة الستة أشهر ، وهذه المعاناة هي

ما تناولتها بعض الكتابات التاريخية الجزائرية المعاصرة، حيث حاول أصحابها تسليط الضوء عليها بغية كشف سياسة الاحتلال في المجال الاجتماعي، وهذا ما يهدف إليه المقال وهو الكشف عن الحياة اليومية للجزائريين المنفيين من خلال تلك الكتابات، ومعرفة معاناتهم خارج الوطن الأم بفعل سياسة الاحتلال الفرنسي، وتعتمد المداخلة على المنهج التحليلي النقدي نظرا لطبيعة الموضوع .

ومن هذا المنطلق يمكن أن نطرح الإشكالية البحثية التالية: كيف صوّرت الكتابات التاريخية الجزائرية مأساة المنفيون الجزائريون إلى الخارج؟ وتندرج تحتها إشكاليات فرعية منها: كيف كانت نظرة مختلف القوانين الدولية لعملية النفي والتهجير؟ ما هي الأسباب الحقيقية التي تقف من وراء هذه التعسف؟ وما هي الإضافة التي قدمتها هذه الكتابات التاريخية لموضوع المنفيون الجزائريون خارج الوطن.

1 النفي والتهجير من منظور قانوني

إنّ القانون الدولي في جانبه الإنساني وفي جميع دول العالم يمنع منعا باتا على أي دولة قامت باحتلال دولة أخرى أن تقوم بتهجيرهم وإبعادهم قسريا عن مواطنهم الأصلية ومها كان السبب في ذلك، كما يطبق هذا القانون على جميع الأشخاص المحميين مهما كان موقفهم أو ردّة فعلهم سواء كانوا تحت طائلة العقوبة في السجن أو كانوا معتقلين ومحكوم عليهم بأحكام متفاوتة من حيث المدة الزمنية للعقوبة أو حتّى ليسوا في الحجز وكل هذا حسب ما جاء في اتفاقية جنيف الرابعة في مادتها رقم 49 والتي نصّت على ما يلي : "يحظر النقل الجبري الجماعي أو الفردي للأشخاص المحميين أو نفيهم من الأراضي المحتلة إلى أراضي دولة الاحتلال وإلى أراضي أيّة دولة أخرى ، محتلة أو غير محتلة أيا كانت الدواعي".

ومنه هنا يبدو لنا أن سلطات إدارة الاحتلال الفرنسي قد ضربت عرض الحائط بمبادئ القانون الدولية وظهرت وكأَنَّها غير مبالية ولا مهتمة به لتضرب بذلك القيم الإنسانية التي أرادها القانون في سياسات عشوائية ولت تظهر منها مواقف تبرز إرادتها في احترام وتطبيق هذا القانون، ولو كان لها النية في ذلك لما أقدمت على تهجير ونفي سكان المستعمرات إلى أبعد الحدود وتحت ظروف شاقة وقهرية.¹

وانطلاقاً من نص معاهدة جنيف فان إدارة الاحتلال الفرنسي تكون هنا قد ارتكبت مخالفات قانونية دولية وكان من المفروض محاسبتها على هذا الإجرام المرتكب في حق الجزائريين ظلماً وعدواناً وفرضت عليهم العيش والتعايش مع مواطن بعيدة تماماً عن موطنهم الأصلي ولا تربطهم أية علاقة معه ولا مع سكانه وتقاليدهم وربما يكون هذا هو المقصود من هذه الأعمال الوحشية والإجرامية الفرنسية من سياسة الإبعاد وه تغريب الجزائريين وإنهاء مواقفهم الراضية لها والمطالبة في الوقت ذاته بالانعتاق والتحرر.²

وفي الوقت ذاته نجده تدعوا في الأمم المتحدة إلى حماية وصيانة حقوق الإنسان في بلدان أخرى، وكان من بين بعض الدول الأخرى التي أخذت على عاتقها التزاماً بحماية هذه الحقوق وتطبيق مواده رقم 1 ، 2 ، 3 والتي نصت على وجوب احترام كرامة وحرية الأفراد والجماعات ، وهي الدولة أيضاً التي وقعت على وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ذات الجذور التي ترجع إلى عهد ما بعد الثورة الفرنسية حيث جاء في المادة الأولى والثانية منه "على أن جميع الناس يولدون أحراراً متساوين في الكرامة ، والحقوق " هذا

1 مزيان سعيدي: السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل ومواقف السكان منها 1871-

1914، الجزائر، دار سنجاك الدين للكتاب، 2010.

2 سعد الله عمر: القانون الدولي الإنساني والاحتلال الفرنسي للجزائر، دار هومة، 2014.

بالإضافة إلى توقيعها على كل الاتفاقيات الدولية والقانون الدولي ، ورغم كل هذا إلا أنّ الاحتلال الفرنسي لم يلتزم بما جاء في هذه الإنفاقات والمعاهدات وعدم تطبيقها في الجزائر بل عملت على إحداث العكس، وبالتالي يمكن القول أنها ارتكبت فعلا جرائم ضد الجزائريين ولعلّ من بينها جرائم النفي والتهجير التعسفي¹.

2 أسباب وأهداف النفي خارج الوطن

طبّقت فرنسا الاستعمارية أقصى العقوبات على الجزائريين ولعلّ أقسى عقوبة هي النفي والإبعاد القسري خارج الديار وعلى الخصوص إلى كاليدونيا الجديدة في جزر المحيط الهادي وذلك لعدة أسباب وبغية تحقيق عدة أغراض من وراء النفي يمكن أن نوجزها فيما يلي:

فمن حيث الأسباب فنجد أن ثورة المقراني والشيخ الحداد² كانا منطلقين كافيان لاتخاذهما ذريعة من طرف الاحتلال منذ سنة 1871 أين وصف بعض الكتاب الفرنسيين قادة هذه الثورة بصفة "التطرف" ومعاداة السامية، ولكن ما يمكن التركيز عليه كأسباب هنا هو نتائج ثورة المقراني في حد ذاتها والتي كانت في تفاعلاتها وآثارها على المستعمر وخيمة وعليه اتخذت فرنسا جملة من الإجراءات الصارمة والقاسية في حق هؤلاء منها مصادرة الأراضي وممارسة التعذيب والسجن والنفي وكان على رأسهم قادة الثورة بومرزاق شقيق أحمد المقراني³.

إنّ الإصرار الفرنسي على تطبيق عقوبة النفي دليل قطعي على ذلك الحقد الدفين تجاه الجزائريين الذين أبعدوا إلى مسافات تفوق 22 ألف كلم

1 المرجع نفسه.

2 يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرن 19 و20، الجزائر، منشورات متحف المجاهد، 1996.

3 صديق تاوتي: المبعدون إلى كاليدونيا الجديدة، مأساة هوية منفية، نتائج وأبعاد ثورة المقراني

منطلقين من الموانئ الفرنسية باتجاه كاليدونيا الجديدة كعقاب جسدي ومعنوي من خلال الفصل عن المجتمع الأصلي وعن الأهل، وهذا بعد مصادرة أراضيهم في الجزائر¹ بتهمة المشاركة في الانتفاضة وعلى هذا الأساس طلب أحد ضباط الجيش الفرنسي بضرورة تطبيق أشد العقوبات عليهم بنزع أسلحتهم ومصادرة أرضهم ونفي زعمائهم إلى خارج الوطن وهو الشيء الذي حدث تقريبا مع باقي الزعماء الآخرين وكل هذا بهدف توفير المزيد من الأراضي الخصبة للمهاجرين الأوروبيين نحو الجزائر والعمل على استيطانهم² سواء أحكام غيابية أو حضوريا فقد حكم على ابنه سي أمحمد و سي عزيز بالنفي إلى كاليدونيا، وكان الحكم الأكثر قسوة ضد بومزراق المقراني الذي حكم عليه بالإعدام بتاريخ 27 مارس 1873 رفقة حوالي 15 فردا من العائلة لكن الحكم لم يطبق وتم تعويضه بحكم النفي أيضا إلى كاليدونيا الجديدة بتاريخ 19 أوت 1873³.

وبعد صدور قرارات المحاكمة جاء الدور على ترحيلهم خارج الوطن بنقلهم أولا إلى السجون الفرنسية ومنها إلى كاليدونيا الجديدة وكانت أول رحلة على ظهر السفينة "لالوار" بتاريخ 5 جوان 1874 من فرنسا لتصل إلى كاليدونيا بتاريخ 16 أكتوبر 1874 وبها 39 جزائريا منفيًا توفي منهم 5 أفراد لتتوالى بعدها الرحلات البحرية في ظروف جد قاسية والتي تسببت في وفاة الكثير من الجزائريين على مدار 150 يوما من السفر عبر البحار والمحيطات⁴.

1 ناصر الدين سعيدوني: دراسات في الملكية العقارية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1984.

2 يحيى بوعزيز: توصيات الشيخ الحدّاد ومذكرات ابنه سي عزيز، الجزائر، 1989.

3 Louis vignon : la France en Algérie, paris, 1893p343.

4 صديق تاوتي: المبعدون إلى كاليدونيا الجديدة، مأساة هوية منفية، نتائج وأبعاد ثورة المقراني والحدّاد، الجزائر، دار الأمانة للطباعة والنشر والتوزيع، 2007. ص 125.

ومن بين الأسباب الأخرى للنفي بعد ثورة المقراني كانت سياسة القمع والترهيب التي مورست على السكان فقد كان القمع رهيبا وتجاوز حد الإجرام وكان يشبه الانتقام والدعوة إلى إبادة الأهالي إبادة جماعية¹ وعليه فقد اعتبر الفرنسيون أن ثورة المقراني كانت خطرا عليهم وهددت مستقبلهم في الجزائر لذلك كانت كل الأحكام تقضي بنفي الثوار وقتلهم وهذه تمثل وصمة عار في جبين فرنسا الحضارة².

أما من حيث أهداف النفي فيمكن أن نحصرها في النقاط التالية:
- تحطيم المقاومة الشعبية خوفا على كيان فرنسا الاستعمارية، وتحطيم التعاون والتكتاف الشعبي مع الثوار.
- تفكيك القبائل والوحدة الاجتماعية خوفا من تكرار الانتفاضة.
- العمل على الانتقام من القبائل التي ساندت المقراني عن طريق تهجيرها ونفيها.

- التخلص من قادة الثورة نتيجة التخوف من تكرار ثورات أخرى تحت قيادتهم.

تهيئة الظروف المناسبة لاستقبال المزيد من المهاجرين الأوروبيين والعمل على توطئتهم بكل أمان.

3- نماذج مختارة من الكتابات التاريخية الجزائرية حول موضوع المهجّرون الجزائريون

تكاد تكون الدراسات شحيحة في هذا الموضوع مقارنة مع ما كتبه الأجانب فيه، وهذا ما شكل أحد الصعوبات التي تعترض الباحثين في موضوع

1 أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982. ص102

2 صديق تاوتي، المرجع السابق.

الجزائريون المنفيون إلى الخارج، ورغم ذلك فقد وجدت دراسات جادة منها ما يلي:

*دراسة الأستاذ محمد القورصو التي تحمل عنوان:

Elmanfiyun el djazairun déracinement et traumatisme (XIXe – XXIe siècles) colonialisme et résistance des algériens

وفيه يطرح الأستاذ عدة إشكاليات حول موضوع المنفيون ويعتبر أن الجزائر كاليدونيا دولتان مرتبطتان تاريخيا بعضهما ببعض وكونتا تاريخا مشتركا صنعته فرنسا الاستعمارية، ففي الجزائر بداية من سنة 1830 وفي كاليدونيا منذ بداية سنة 1853، ويقر الأستاذ بأنّ المقاومون الجزائريون المحكوم عليهم بالإعدام بعد عدم رضوخهم للإدارة الفرنسية في النصف الثاني من القرن 19م بأنهم منفيون مميزون جدا تمت عملية تهجيرهم من وطنهم الأصلي الجزائر إلى مستعمرات فرنسية عقابا لهم مثل جزيرة كاليدونيا الجديدة.

ويصر الأستاذ القورصو على مواصلة التعامل بمصطلح المنفيون وهم الذين أطلقت عليهم فرنسا تسميات مختلفة منها: المجرمين ، القتلة ، قطاع الطرق لذلك تم استعمال كلمة المنفي بدلا عن كلمة: déportés وهو المصطلح الذي يعطينا أكثر عمقا للمعنى ، كما يحاول صاحب هذه الدراسة أن يحدد الفرق بين مصطلح " المنفيون " ومصطلح " المهجّرون " بحيث يقول أن المهجّرون هم الذين أبعادوا من قبل السلطات الفرنسية لكن إلى أرض إسلامية ، بالمقابل مصطلح النفي فيكون إلى أرض غير إسلامية وبالتالي فحجم العقاب لا يكون متساوي بين العمليتين بحيث يشعر المنفي بالغرابة أكثر من المهجّر.

ويذهب الأستاذ القورصو إلى أنّ الهدف من وراء إخراج الجزائريين من وطنهم هو تهديم تلك الروابط التي تربطهم مع قبيلتهم وبعدها هدف القضاء على هويتهم وثقافتهم عن طريق الزج بهم في مجتمعات تختلف عن مجتمعاتهم الأصلية اختلافا كلياً وعليه الوصول إلى الهدف الأسمى وهو القضاء على جزائرية هؤلاء المنفيون نهائياً.¹

ونلمس إعجاب صاحب الدراسة بالجزائريين المنفيين من خلال إبراز قدرتهم على التكيف بعد النفي ومحاولة بناء نسيج اجتماعي جديد في مناطق النفي يشبه تماماً ذلك الموجود في مجتمعاتهم الأصلية نسيج اجتماعي وثقافي وديني يساعدهم على الحفاظ على هويتهم ومواصلة انتمائهم الجنسي والعرقى والديني، ويعتبر أن هذه المواقف من الجزائريين المنفيين ما هي إلا مواصلة للمقاومة والكفاح ضد الاحتلال الفرنسي ومواصلة هويتهم ونقلها إلى الأبناء وهذا ما يمكن القول عنه أنّ المنفيين استطاعوا أن ينتجوا هوية جيدة في ظروف غير عادية وصعبة.

يستشهد الأستاذ القورصو محمد بوقف فرنسا سنة 2001 بأن وضعت العبودية وسوء معاملة السود في خانة الجرائم المرتكبة في حق الإنسانية جمعاء وتناست أنها فعلت ذلك بدم بارد في الجزائر، ويستنكر القورصو استثناء الجزائريين المنفيين من قانون العفو الصادر سنة 1881م، وكجواب عن قلة الدراسات في موضوع المنفيين يقول الأستاذ القورصو بأن قضية المنفيين هي تاريخ منسي وأصبح من الماضي لأن الكتابات الفرنسية الاستعمارية وعلى رأسها كتابات لويس رين ما هم إلا ممثلون لسلطة هي التي

1 Mohammed ould sikaddour El korsou: El menfiyun el djaziiroun déracinement et traumatisme (XIXe – XX le siècles) colonialisme et résistance des algériens du colloque, 2011.

نفث الجزائريين المقاومين وبالتالي فحتماً سيروجون لفكرة بلدهم ومحاولة توجيه باقي الكتابات الأخرى في هذا الشأن نحو التوجه الفرنسي ومنه طمس حقيقة الموضوع، هذا مع عدم نفيه لوجود بعض الكتابات منها كتابات بعلام بسايح، يحيى بوعزيز، جيلالي صاري، أبو القاسم سعد الله وغيرهم ورغم قلة هذه الكتابات إلا أنها حاولت إعطائنا ولو نظرة محدودة جزائرية عن الموضوع ويرجع صاحب الدراسة أسباب ذلك إلى سياسة وتوجه الجامعات التي لم تعط اهتماماً كبيراً لهذا الموضوع.

تساءل القورصو عن سبب هذا الركود في الدراسات الأكاديمية لموضوع المنفيين بين الأوساط الجامعية ويرجع البدايات الأولى حول الموضوع إلى جريدة المجاهد سنة 1983 حيث زار صحفها الطيب بلقيش كاليدونيا الجديدة ثم تلتها زيارة الصديق تاوتي سنة 1984 ووضعها في شكل كتاب طبع سنة 1997، كما تحدّث القورصو عن زيارة بعض المنفيين إلى الجزائر سنة 1986 وتوالت الزيارات بعدها إلى غاية آخر زيارة سنة 2011، يقول محمد القورصو: "أن إبراهيم بن محمد هو أوّل منفي إلى كاليدونيا بتاريخ 9 ماي 1864 وتلته تهجيرات أخرى في رحلة دامت 150 يوم إلى أن وصل العدد في سنة 1885 إلى 1822 منفي"¹.

وفي حقيقة الأمر أن هذا الرقم هو أكثر بكثير من واقع النفي آنذاك لأنه فيه أسماء جزائريين لم تدون أصلاً في سجلات الرحلات وفيه الكثير منهم من توفي في الطريق ورمي كطعم للأسماك، وأنّ رقم 1822 منفي منهم 1702 جزائري أي أنّ نسبة المنفيين الجزائريين تمثل ما يقارب 93.40 % ومعدّل العمر عندهم من 30 إلى 50 سنة أي أنها تمثل نسبة كبيرة جداً من سواعد الأمة الجزائرية وهي القادرة على حمل السلاح.

ويتساءل القورصو عن سبب وجود أطفال في سن 16 من العمر وهم فئة القصر التي لا تقوى على حمل السلاح مادام سبب النفي هو إخماد المقاومة، لكن أكبر قضية يتطرق إليها القورصو وهي محاولة اجتثاث الجزائريين المنفيين من هويتهم الأصلية ومحاولة إذابتهم في مجتمعات تختلف عن مجتمعاتهم، كما تساءل القورصو عن نقطة مهمة جدا وهي سياسة اجتثاث هؤلاء المنفيين من هويتهم عن طريق الإبعاد القسري حيث ذكر أنه بتاريخ 4 ماي 1848 صدر قانونا عن الجمهورية الفرنسية الثانية يقضي بأن الموت يكون في الجرائم السياسية وتم استبدال هذا القانون بإجراء النفي بتاريخ 25 جوان 1848 حيث تقرر نفي كل شخص يحمل السلاح ضد الحكومة الفرنسية الاستعمارية.

اختارت الإدارة الفرنسية آنذاك الجزائر كموطن للنفي نظرا لعدة أسباب منها توفر الثروات وقلة تكاليف النقل حيث كان سجن "لومبار" بباتنة ابتداء من تاريخ 31 جانفي 1850 سجنا عقابيا وتم إضافة سجون أخرى مماثلة له منه سجن الحراش وقسنطينة والجلفة والدويرة وغيرها فقد استقبلت هذه السجون في بدايتها المعارضين للسلطة الفرنسية هناك في فرنسا حيث كانوا يرسلون إلى الصحراء الجزائرية.

أما المقاومون الجزائريون فتم نفيهم إلى كاليدونيا الجديدة مباشرة بعد فشل ثورة المقراني فهؤلاء الجزائريون متعودون يقول القورصو على الظلم وسلب أراضيهم، ومتعودون على السجون الكبرى في الجزائر ولهم معارف وأقارب في منفيين في جزيرة كورسيكا وفي جزيرة كالفي لكن بالنسبة للنفي إلى جزيرة كاليدونيا وجزيرة قويا كانت شيئا جديدا بالنسبة لهم ولم تكن لهم أبسط المعطيات عن هذه الوجهة الجديدة للنفي لذلك كانت لهم مواقف رافضة لسياسة التهجير تجاه هذه المناطق وهناك من فضل الموت

جوعا على أن ينفى هناك وترحيله إلى كاليدونيا.

ونظرا لعامل البعد والوحدة والغربة عن الأهل والوطن بعث بومزراق برسالة بتاريخ 22 أكتوبر 1873 إلى السلطات الفرنسية متوسلا لهم بإكمال فترة عقوبته في سجن الحرّاش وهو الطلب نفسه س الذي قدّمه سي عزيز أيضا حيث رسالة خلال شهر ماي 1874 بأن يكمل العقوبة في سجن ميدي بفرنسا وبعد الرفض طالب بإحضار عائلته لكن بعد مراجعة الحسابات وصعوبة الوصول إليه تراجع عن طلبه وراسل السلطات الفرنسية بعدم إحضارها.

كان أكبر هاجس يؤرق المنفيون الجزائريون هو الموت في أرض مسيحية والخوف من الدفن بطريقة غير إسلامية وهو ما يوضح ويدل على ارتباط هؤلاء بالعقيدة الإسلامية رغم النفي القسري إلى أرض مسيحية خاصة وأن معظم طلباتهم قوبلت بالرفض حيث وقعوا سنة 1884 عريضة جماعية أرسلت إلى غرفة النواب بفرنسا مطالبين فيها بتطبيق قانون العفو الصادر بتاريخ 11 جويلية 1880 على الجزائريين المهجرين عنوة.

كما تحدث صاحب الدراسة أيضا عن قضية اجتثاث الجزائريين من خلال عملية الزواج لأن معظمهم نفي من دون أهله وأطفاله ونسائه وانه تم إقصائهم من قوانين تجيز لعائلاتهم الالتحاق بهم منها قانون 1872 وقانون 1873 مع التكفل بكل مصاريف النقل وعليه فقد تمّ تحديد معبد عناك يعرف باسم "معبد الأخوات سان جوزيف كيليني" كمعبد مكلف بتزويج الجزائريين المنفيين، وهنا تساءل الأستاذ القورصو عن مدى سلبات هذا الزواج مع الفرنسيات وتأثيره السلبي على المنفيين فيما بعد خاصة وأن هاته الزيجات هنّ من منفيات باريس إلى كاليدونيا¹.

وفي حقيقة الأمر فانه من الواضح أنّ هذا الزواج كان زواجا مغرضا فقط وخاصا بزيادة التغريب للجزائريين ولم يكن غرضه تكوين أسرة لذلك كانت هناك حالات طلاق كثيرة نظرا لعدم التوافق في المستوى الثقافي والفكري، وهنا نجد أنّ الأستاذ القورصوي طرح في آخر دراسته عدة تساؤلات منها: هل حافظ الرجل الجزائري على مكانته داخل الأسرة باعتباره الشخص الأكثر مكانة في الجزائر؟ كم من امرأة تبعت زوجها إلى الجزائر بعد صدور قانون العفو عليهم؟ وهل تزوج الجزائريون من أندونيسيات وأجناس أخرى مقارنة بالفرنسيات؟ وفعلا كلها تساؤلات لما نبحث عن الإجابة عنها من الممكن جدا أن نجد أمورا خطيرة حدثت للجزائريين المنفيين من ناحية الحياة الاجتماعية¹.

وقد أثار الأستاذ القورصو إشكالية أخرى في موضوع النفي القهري للجزائريين وهي اغتراب الهوية واجتثاثها عن طريق التعميد والتمسيح على أساس اعتبار أن المرأة عنصرا أساسيا في نقل الثقافة فإنها لا تنقل "إلاّ ما تريد نقله وخاصة وأنّ المحيط الاجتماعي يعمل على إبعاد هؤلاء المنفيين كل يوم عن أصولهم، ويجعلهم ينسون لغتهم ودينهم وتقاليدهم بمعنى قيمهم"².

وقد زاد اغتراب الهوية للمنفيين الجزائريين عندما فرض عليهم إعطاء أسماء مسيحية لأبنائهم وتعميدهم عند دخول المدرسة وحتىّ وان أعطوهم

1 Mohammed ould sikaddour El korsou : El menfiyun el djaziiroun déracinement et traumatisme (XIXe – XX le siècles) colonialisme et résistance des algériens du colloque, 2011.

2 نعيمة قنّاز: المنفيون الجزائريون إلى كاليدونيا الجديدة وقويانا بعد ثورة 1871، رسالة دكتوراه علوم، تخصص علم الاجتماع، جامعة الجزائر 2 - أو القاسم سعد الله، 2015، ص58.

أسماء عربية داخل العائلة فلا فائدة من ذلك لأن المجتمع المحيط بهم غالب في مظاهر تأثيره أكثر من الأسرة ، ومنه فقد عملت السلطات الفرنسية على تربية أبناء المنفيين تربية مسيحية بغية الوصول بهم إلى التنصير وبالمقابل منعت تأسيس مدارس عربية للقرآن رغم وجود الكثير من العناصر الرحمانية في منفى كاليدونيا ولم يتمكن هؤلاء من الحفاظ على بعض أمرهم المتعلقة بالهوية سوى جانب من بعض العادات والتقاليد كالتوزيعة والفتنازيا والمقبرة الإسلامية، بالرغم من كل سياسات المسخ التي تعرض لها المنفيون الجزائريون إلا أنهم استطاعوا أن يكونوا كيانا خاصا بهم يعيشون في وسطه وموجود في كاليدونيا إلى اليوم¹.

*دراسة الأستاذ مهدي لعلاوي التي تحمل عنوان:

Algériens du pacifique, les déportés de la nouvelle Calédonie, éd Ziryab ,2001.

قدّم مهدي لعلاوي دراسة قيّمة حول المنفيون الجزائريون إلى كاليدونيا الجديدة حيث شرح بنوع من التفصيل المسار الذي سلكه هؤلاء المنفيون من البداية إلى النهاية فقد ربط أسباب هذا التهجير القسري بثورة المقراني والحداد منذ بداية تاريخ 8 أفريل 1871 م أين نادى الرحمانيون بالثورة ضد الطغيان والتعسف الفرنسي، كما تركّز الدراسة على النهاية المأساوية التي انتهت إليها الانتفاضة وما ترتب عنها من نتائج وخيمة كانت سببا مباشرا لبداية محاكمات انتهت بحكم النفي والإبعاد إلى خارج الوطن.

1 Mohammed ould sikaddour El korso : El menfiyun el djaziiroun déracinement et traumatisme (XIXe – XX le siècles) colonialisme et résistance des algériens du colloque, 2011.

وتشير الدراسة أن عملية الترحيل انطلقت من الموانئ الفرنسية مثل طولون عبر السفن الكبيرة لتشق البحار والمحيطات وصلا إلى كاليدونيا الجديدة كاشفا بذلك الظروف المأساوية التي رحل فيها الجزائريون وما صاحبها من أمراض وموت وسوء التغذية ويستشهد لعلاوي بتصريح الطبيب الذي رافق هؤلاء المنفيين والذي صرّح بوجود 1405 شخص في السفينة التي كان على متنها ولرحلة واحدة فقط من بينهم 320 محكوم عليهم بالنفي وتوفي منهم 5 أشخاص قبل وصول الرحلة مرجعا سبب ذلك إلى سوء الغذاء الذي يتنافى وعقيدة الجزائريين وفضلوا الموت على العيش بالطعام المحرم شرعا حيث قال : "لقد تركوا أنفسهم يموتون بإرادتهم"¹.

تصف الدراسة الحالة النفسية ومشاعر المنفيين وهم في حالة مغادرة الوطن الأم وهم مدركون تماما بان هذه الرحلة هي آخر محطة لهم في الحياة الكريمة وأنهم مقبلون على حياة جديدة بعد مسافة سوف تقطع في أكثر من 150 يوما تقريبا ليجدوا أنفسهم في كاليدونيا إلى جانب المنفيين من باريس وهذا ما سوف يفرض عليهم إعادة تنظيم أنفسهم من جديد، كما تطرقت دراسة لعلاوي إلى الدور الذي لعبه منفيو باريس بعد صدور العفو العام في حقهم وطالبوا بتطبيق نفس العفو على الجزائريين المنفيين رغم أن هذا المسعى قوبل بالرفض ومن هنا يتبين لنا أن سلطات الاحتلال الفرنسي تميز وتفرق بين المنفيين من جنسية فرنسية ومن جنسية جزائرية لكن يبدو أن هذا الأمر طبيعي وعادي لأنها تهدف إلى التخلص من الجزائريين نهائيا في الجزائر، وتشير الدراسة إلى أن سي عزيز بن الحداد استطاع الفرار إلى مدينة سيدني ومنها اتجه إلى مدينة جدّة السعودية ومنها إلى باريس أين توفي هناك

1 Mahdi lallaoui : Algériens du pacifique, les déportes de la nouvelle Calédonie, 2001, éd Ziryab.p135.

بتاريخ 22 أوت 1895م، أما بومزراق المقراني فقد عاد إلى الجزائر في حدود سنة 1904م وتوفي بها سنة 1905¹.

*دراسة مليكة ونوغي والتي تحمل عنوان:

Algériens et maghrébins en nouvelle Calédonie de 1864 a nos jours

هذه الدراسة هي دراسة أكاديمية جامعية في شكل أطروحة دكتوراه في الأنثروبولوجيا الاجتماعية قدمتها صاحبها ونوغي عن المنفيين الجزائريين في كاليدونيا الجديدة، وقد جاءت هذه الدراسة كإضافة جديدة حول الموضوع رغم قلة الدراسات الأكاديمية في هذا الشأن.

ارتكزت دراسة ونوغي على التعريف بكاليدونيا الجديدة من ناحية الثقافة والجغرافيا والتاريخ وكأنها أرادت بنا معرفة الجو العام الذي ينتظر الجزائريون المنفيون هناك ومحاولة تصور وضعهم بعد الإبعاد، وواصلت حديثها عن وصول الفرنسيين إلى كاليدونيا واحتلالها واستغلالها كمستعمرة عقابية لاستقبال المنفيين وخاصة منهم الجزائريين، كما تطرقت إلى ظروف الجزائريين سنة 1870م و1871م وهي الظروف التي دفعت بالجزائريين إلى الانتفاضة ضد الفرنسيين الذين أنهوا هذه المقومة بمحاكمات جماعية تعسفية شكلية صدر عنها قوانين النفي والإبعاد الجبري ومنه ترحيلهم إلى السجون الفرنسية ومنها إلى كاليدونيا الجديدة وجزيرة كايان².

لقد أعطتنا هذه الدراسة نظرة شاملة عن السجون العقابية في كاليدونيا، وعملية انتقال المسجونين من سجن إلى آخر في أرجاء الجزيرة، وكذلك الحديث عن المزارع العقابية التي مثلت نظاما جديدا لنظام السخرية

1 Mahdi lallaouip 150

2 Malika Ouennoughi : Algériens et maghrébins en Nouvelle Calédonie de 1864 a nos jours, 2008, éd Casbah.p78.

وفيهما تحصل المنفيون على بعض الحرية الجزئية للعمل في الأرض مقابل تسديد ذلك من المحصول الزراعي والذي يدفع للإدارة الفرنسية هناك، كما نقلت لنا أجواء عمل الجزائريين في الفلاحة وكيفية حصولهم على الأرض أو شرائها وعملية التعاون بينهم في إطار نظام التوزيع سواء عند الحرث أو عند الحصاد وكأنهم نقلوا موروثهم الفلاحي هناك¹.

تشير الدراسة أيضا إلى أنّ عملية النفي التي مست الجزائريين كانت تتم من دون نساءهم وأطفالهم وعدم استفادتهم من قوانين 1872م و1873م والقاضية بمنح زوجات المنفيين حق الالتحاق بأزواجهم في المنفى وسمح بذلك للمنفيين الفرنسيين فقط، وهذا ربما تشجيعا وإرغاما للجزائريين على الزواج من الفرنسيات سواء من منفيات باريس أو من اليتامى الموجودات بالكنائس والأديرة².

كما تحدّث ونوغي عن تأسيس "مجتمع جزائري مصغّر في بوراي سمي بإفريقيا الصغرى حاول فيه المنفيون الجزائريون الحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم وذكرت أمثلة كثيرة مثل تربية الأحصنة والفتنازيا والصلاة..."³. وتطرقت الدراسة إلى العلاقات بين المنفيين الجزائريين ومنفيي باريس والتي كانت علاقات جيدة وتولّد عنها علاقات مصاهرة مع بعضهم ودليل ذلك أن منفيي بلدية باريس ممن تحصلوا على العفو قد دافعوا ورافعوا عن الجزائريين المنفيين في كاليدونيا أمام سلطات بلدهم في العاصمة باريس وفي جزء آخر من الدراسة تتحدث ونوغي عن أهمية الشيوخ ودورهم في

1 سامية محمد الجابر: الجريمة والقانون والمجتمع، الإسكندرية، 2007، ص58.

2 P72. Malika Ouennoughi.

3 نعيمة قنزاز: المنفيون الجزائريون إلى كاليدونيا الجديدة وقويانا بعد ثورة 1871، أطروحة دكتوراه علوم، تخصص علم الاجتماع، جامعة الجزائر2 - أو القاسم سعد الله، 2015، ص59.

الحفاظ على عادات وتقاليد المنفيين مقدمة في ذلك بعض العادات التي نقلوها معهم مثل التوزيعة والولي الصالح وقدمت لنا أمثلة كثيرة عن بعض الشخصيات التي كانت متميزة ورحلت إلى كاليدونيا الجديدة ، هذا إلى جانب حديثها عن زراعة النخيل هناك والتي نقلها الجزائريون وتحدثت أيضا عن نظام الجماعة في مدينة بوراي وبناء المقابر والزاوية وتحفيظ القرآن والزردة والزيارة وغيرها من العادات والتقاليد التي أحيوها هناك .

تركز دراسة ونوغي كثيرا على عملية زراعة النخيل بكاليدونيا وتربطها دائما بالمنفيين الجزائريين بعد مقاومة واحة العمري ببسكرة وهي المقاومة التي تحدثت عنها الكاتبة بشكل كبير واعتبرتها سببا في نقل النخيل إلى هناك والذي اعتبرته شاهدا تاريخيا على وجود الجزائريين في جزيرة كاليدونيا "كما أعطتنا ونوغي نماذج حيّة عن محافظة أبناء وأحفاد المنفيين على تقاليدهم من خلال ممارساتهم اليومية وذلك بحضورها حفل زفاف في بوراي وهذا طبعاً دون أن تغفل الجوانب التي أثّرت سلباً على استمرار بعض التقاليد وبداية تراجعها من الجيل الثالث وذلك لأسباب كثيرة يعود أهمها كون الثقافة المنقولة شفوية، وهي ضعيفة المقاومة أمام الزمن خاصّة مع محاولات الإدارة الاستعمارية تنصير الجزائريين وأبنائهم"¹.

*دراسة رشيد سلال إلي تحمل عنوان:

La dramatique histoire des déportés algériennes de la nouvelle Calédonie

حقيقة هذه الدراسة هي مقال منشور في جريدة الوطن تحدّث فيه صاحبه عن مقاومة سنة 1871 م والنهاية المأساوية التي انتهت إليها وأدت إلى عقد المحاكمات الجائرة التي أصدرت أحكاما بالنفي في حق الجزائريين

المشاركين في المقاومة وعلى رأسهم قادتها بتوجيههم إلى كاليدونيا الجديدة كأبعد مستعمرة فرنسية عقابية.

يتحدث صاحب المقال عن الظروف المعيشية للمنفين هناك وعلاقاتهم بالمنفيين الفرنسيين القادمين مكن بلدية باريس، وهو الذين تكفلوا بالدفاع عنهم أمام محاكم بلدهم الأصلي بعد صدور حق العفو العام عنهم وعودتهم إلى فرنسا، كما وصفت هذه الدراسة القهر والظلم وظروف الحياة الصعبة التي عاشها المنفيون هناك مع التطرق إلى موت الكثير منهم تحت ظروف سوء المعيشة وعدم توافقها مع طبيعتهم كمسلمين.

في نفس السياق تحدث سلال عن مقاومة المقراني وكيف قادها محمد المقراني وخلفه من أخيه بومزراق في القيادة بعد موته، كما عرّج كذلك عن الدور الذي لعبه سي عزيز بن الشيخ الحدّاد في هذه المقاومة وتزعمه لمريدي الزاوية الرحمانية ومنه صنفته السلطات الفرنسية كأحد الأشخاص الخطرين وقامت بنفيه هو الآخر، كما تركز دراسة رشيد سلال كذلك على عيش الجزائريين وممارستهم للفلاحة في سهول مدينة "نيساديو" أين طوروا نشاطهم الفلاحي وكونوا عائلات وحتى دخولهم في ثورة ضد الكناك من أجل البقاء¹.

*دراسة الصديق تاوتي والتي تحمل عنوان: المبعدون إلى كاليدونيا الجديدة، مأساة هوية منفية، نتائج وأبعاد ثورة المقراني والحدّاد وهي الدراسة التي طبعت في شكل كتاب صدرت الطبعة الأولى منه بالفرنسية سنة 1997 م والطبعة الثانية المترجمة إلى العربية صدرت سنة 2007م ونشرت هذه الدراسة من قبل وزارة المجاهدين بمناسبة الذكرى 45 لعيد الاستقلال

1 Rachid Sellal: la dramatique histoire des déportés algériens de la nouvelle Calédonie, 2004, elwatan.

والشباب عن دار الأمانة للطباعة والنشر، ووصلت عدد صفحات الكتاب إلى 271 صفحة، فكان القسم الأول من الكتاب يظم الجزء الأول وبه ستة فصول من الصفحة 29 إلى الصفحة 127، وجاء الجزء الثاني منه في سبعة فصول من الصفحة 131 إلى الصفحة 249 وقد دار محتواها حول محاور أساسية وهي :

المحور الأول وكان يدور حول ثورة 1871 من حيث أسبابها والنتائج المترتبة عنها وتناول فيه النقاط التالية:

- السياسة الكولونيالية في الجزائر.

- تعرض عائلة المقراني إلى تقليص السلطة والأملاك.

- دور محي الدين ابن الأمير عبد القادر في قيام الثورة.

- المحاكمة وإصدار الحكم بالنفي.

المحور الثاني تطرق فيه صاحب الدراسة إلى حياة المنفيين الجزائريين في كاليدونيا الجديدة وتناول فيه ما يلي:

- الحياة اليومية للمنفيين الجزائريين تحت الإقامة الجبرية مع الأشغال الشاقة والمعاملة السيئة في السجون.

- علاقة المنفيين الجزائريين بنفي رئيس بلدية باريس.

- تمسك المنفيين بمقومات هويتهم ورفضهم للاندماج ومحاولة السلطات الفرنسية مسح هويتهم.

المحور الثالث وكان حول المنحدرين عن المنفيين الجزائريين وأهم احتياجاتهم وأهم ما جاء فيه ما يلي:

- محاولة المنحدرين عن المنفيين الجزائريين المقاومة والصمود في وجه الإدماج.

- مشاكل واحتياجات المنحدرين عن المنفيين الجزائريين في كاليدونيا.

- علاقة المنحدرين عن المنفيين الجزائريين بالجزائر.

- اندماج المنحدرين في المجتمع الكاليدوني والعوامل المساعدة على ذلك.
- ومن خلال هذا المحتوى يمكننا القول إنها دراسة خاضت في التعريف بظاهرة التهجير الذي تعرض لها الجزائريين بعد ثورة المقراني سنة 1871م مع البحث في خصائص تلك الفئة التي استهدفتها إدارة الاحتلال الفرنسي بالنفي مع تتبع المسار الذي اتخذته هؤلاء المنفيون هناك في كاليدونيا الجديدة والحياة اليومية التي عاشوها مع صراهم الطويل والمير مع ثنائية الإدماج ومسح الهوية وثنائية الحفاظ على الهوية الجزائرية، كما تناولت الدراسة أيضا بنوع من التحليل قضية المنحدرين عن المنفيين الجزائريين¹.
- ومن خلال تطرقنا لموضوع توصيف المنفيون الجزائريون في الكتابات التاريخية الجزائرية المعاصرة يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية في شكل محطات أو نقاط وهي على التوالي:
- قلة الدراسات بصفة عامة حول موضوع الجزائريون المنفيون إلى الخارج وإلى جزيرة كاليدونيا الجديدة بالضبط.
- التعتيم المتعمد على موضوع المنفيون من قبل جهات معينة وهذا ما ساهم في قلة الدراسات أو سطحيته أحيانا خوفا من انكشاف فضائح فرنسا غير الإنسانية أمام الرأي العام.
- زيادة التهجير والنفي بصفة خاصة بعد ثورة المقراني والشيخ الحداد أين جرت أحكام قضائية تعسفية ضد المنتمين إلى المقاومة.
- تعرض المنفيون إلى سياسة مسح وسلخ ممنهج عن الهوية الأصلية لهم عن طريق التزويج بالمسيحيات أو التنصير والتعميد.
- كانت سياسة النفي والتهجير التي مارستها فرنسا الاستعمارية ضد كل

1 محمد الحسيني الشيرازي: التهجير جنابة العصر، بيروت، مؤسسة المجتبي للتحقيق والنشر،

المبادئ الإنسانية وضاربة بذلك كل القيم عرض الحائط بما فيها مبادئ الثورة الفرنسية.

- لسياسة التهجير والنفي القسري استراتيجيات وأهداف محددة.
- بالرغم من سياسة التعسف والاضطهاد التي مورست على الجزائريين المنفيين إلا أنهم استطاعوا الحفاظ على هويتهم وكيانهم وشكلوا نمطا اجتماعيا جديدا هناك في كاليدونيا الجديدة.
- تحدثت معظم الدراسات الموجودة عن المنفيين الجزائريين إلى كاليدونيا بشكل موسع مقارنة مع المنفيين منهم إلى أماكن أخرى كجزيرة قويا و غيرها.
- إلى جانب قلة الدراسات عن هذا الموضوع فهناك أيضا قلة تامة في المصادر التي تناولت الموضوع.
- أطلق اصطلاحا على مسار طريق النفي من الجزائر إلى فرنسا ومنها إلى كاليدونيا اسم "رحلة الستة أشهر" لأنها كانت تدوم أكثر من 150 يوما في البحار والمحيطات وتحت ظروف معيشية مزرية وعادة ما كانت ترمى جثث المتوفين في البحر في هذه الرحلة كطعم للأسماك.
- تؤكد دراسة الأستاذ محمد القورصو حول موضوع المنفيون على وجود تهميش متعمد ومنع الدراسات الأكاديمية حول هذا الموضوع، وتطرقت هذه الدراسة أيضا إلى مسألة الهوية أين أعطاهما اهتماما كبيرا
- ما وجد من دراسات حول موضوع المنفيون كانت في معظمها دراسات تاريخية ثمّ تليها بعض الدراسات الأنثروبولوجية وبعض الكتابات الصحفية والأدبية مع شبه انعدام للدراسات السوسيولوجية في هذا الموضوع.
- كل الدراسات الجزائرية حول موضوع المنفيون كانت مركزة حول منفي كاليدونيا رغم أنه تمّ نفي العدد الكبير من الجزائريين في نفس الفترة إلى مناطق عقابية أخرى منها جزيرة قويا في البرازيل وجزيرة كالفي في إيطاليا.

- قلة الدراسات حول موضوع المنفيون إلى كاليدونيا وانعدامها تماما نحو المنطق الأخرى.

- لا نجد دراسات غربية عن هذا الموضوع في أماكن أخرى منها المنفيون إلى جزيرة كالفي وجزيرة القديسة مارغريت.

- فيه دراسات أخرى ولكنها محتشمة حول موضوع المنفيون قام بها أجنب من غير الجزائريين منها دراسات عربية وأخرى غربية كدراسة "فاني كولونا" التي تطرقت فيها ظاهرة تمسك الجزائريين المنفيين بهويتهم الدينية والثقافية والاجتماعية في جزيرة كاليدونيا ودراسة "ميشال رونالد" حول المنفيون الجزائريون إلى جزيرة القديسة مارغريت ودراسة "جرمان" حول المنفيون الجزائريون والفرنسيون معا إلى جزيرة كاليدونيا، وكدراسات عربية مثل دراسة "ط أمين معلوف" أيضا تحدث فيها عن صراع التمسك بالهوية والهويات القاتلة التي عانى منها المنفيون .

وتقريبا نجد أن كل النتائج المتوصل إليها تخص ثلاثة نقاط أساسية وهي: ظاهرة النفي والمنفيون الجزائريون، مسار رحلة النفي وصولا إلى الحرمان من قوانين العفو، معاملة الجزائريون المنفيون ومحاولة دمجهم وتنصيرهم، وقضية الأبناء أو الجيل المنحدر من العائلات الجزائرية المنفية ثم أخيرا قضية الكتابات التاريخية حول موضوع المنفيون.

فنجد أن قلة الدراسات وخاصة الأكاديمية منها حول هذا الموضوع هي فعلا دراسات محتشمة أو نادرة وما وجد منها كان متعلقا بالمنفيين إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة فقط مع إهمال شبه متعمد لباقي المناطق الأخرى التي شهدت استقبال المهجرين الجزائريين على غرار قوينا الفرنسية في البرازيل ، أو في الجزر الإيطالية أو باقي جزر المحيط الهادي، وربما يرجع هذا التغيب لهذه الدراسات إلى أيدي خفية تسعى في هذا الاتجاه من أجل طمس

الإجرام الفرنسي المرتكب في حق شعوب المستعمرات وما نفي الجزائريين إلا نموذجاً واحداً فقط من بين عشرات النماذج.

أمّا تاريخ بداية النفي منذ تاريخ نهاية وفشل ثورة المقراني فهذا تاريخ يعتدّ به فقط في إعلان النفي علنيا وإقامة له محاكمات شكلية الهدف منه متعدد ، فمن جهة التخلص من العائلات الكبرى والعريقة والمالكة للمساحات الزراعية الشاسعة وتسليمها للمهاجرين الأوروبيين القادمين نحو الجزائر في إطار عملية الاحتلال الاستيطاني ، ومنه جهة ثانية التخلص من قادة الثورات وذوي الوزن الاجتماعي الثقيل وامتلاكهم قوة التأثير في التحريض على التواجد الفرنسي بالجزائر لذلك وجدت السلطات الفرنسية الحل في نفهم وإبعادهم للتخلص من هذا التأثير وبالتالي خلو المجال لها لبسط سيطرتها ونفوذها أكثر على الجزائر شعباً وأرضاً .

وهناك في مواطن النفي البعيدة عن الجزائر لاحقت فرنسا المنفيون بقوانينها الزجرية إذا أرادت تطبيق سياسة الإدماج عليهم لإذابتهم في وسط مجتمع غريب عنهم عن طريق طرق شيطانية وحيل منها نفي الجزائريين وحرمانهم من نسائهم وأبنائهم قصد تزويجهم بفرنسيات مئة منفيات بلدية باريس أو من اليتيمات المتواجدات في الكنائس والأديرة وذلك لتسهيل انتزاع هويتهم منهم وإكسابهم هوية جديدة ذات طابع مسيحي غربي.¹

إنّ سياسة النفي القسري لا يختلف فيها اثنان كونها سياسة تمييز وسياسة عنصرية تخلو من الجانب الإنساني ولا تتفق تماماً مع حقوق الإنسان ومع المواثيق الدولية الصادرة في هذا الشأن بما في ذلك نتائج الثورة الفرنسية من خلال وثيقة حقوق الإنسان أو أصبحت هذه الوثيقة وكأنها

1 شارل روبير أجرون: المسلمون الجزائريون وفرنسا 1871-1919، الجزائر، دار الرائد للكتاب، 2007، ص 69.

تعنى بالتطبيق داخل فرنسا فقط بينما ما هو خارجها فمصييره النفي والاضطهاد.

وبالرغم من الطريقة الممنهجة في عملية النفي، وتسطير أهدافا لها إلا أن الجزائريين المنفيين استطاعوا الحفاظ على الهوية بكل مكوناتها وتميرها حتى إلى الجيل الرابع تقريبا من أبناء المنفيين، وهذا يعد أكبر تحدي لإدارة الاحتلال الفرنسي وأكبر فشل ذريع لسياسته المغرضة وهذا راجع إلى روح التماسك والتشبع بالروح الوطنية والدينية لدى المنفيين، وأكثر من ذلك فقد أنشئوا كيانا خاصا بهم وأوجدوا نظاما زراعيا لكسب العيش الكريم وحتى القيام بالثورة على أذنان فرنسا هناك في المنفى¹.

إنّ الدراسات التي وجدت في موضوع المنفيون كانت مركزة على المنفيين في جزيرة كاليدونيا وهذا ممكن راجع إلى أن معظم الجزائريين قد وجهوا لهذه الجزيرة لما تحتويه من مواصفات صعبة تليق بعملية العقاب منها على الخصوص اختلاف نوعية المجتمع المستقبل للمنفيين وبعد المسافة بينها وبين الجزائر، أي أنها تحقق الاطمئنان الفرنسي من عدم عودة هؤلاء وبالتالي منعهم حتى من قوانين العفو التي مست منفيي بلدية باريس في نفس الجزيرة، وأصبحت هذه الرحلة الطويلة مضربا للمثل في العقاب والتهكم على من يفكر في الخروج عن الطاعة لفرنسا وكأنها أصبحت رحلة تخويف وتهديد للجزائريين.

خاتمة

إن موضوع الجزائريين المنفيين جبرا إلى الخارج في الجزر العقابية التي كانت تمثل مستعمرات فرنسية قد مثل وصمة عار في جبين فرنسا

1 الطاهر أوصديق: الحركة الثورية في 1871 دور عائلي المقراني والشيخ الحداد، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، 1984، ص83.

الحضارة منذ بداية تنفيذ أحكام النفي بعد نهاية ثورة المقراني والحداد إلى اليوم ومازالت آثارها بارزة إلى اليوم وهي قتل الإنسانية جمعاء وهم أحياء وهذا ما لم تنادي به وثيقة حقوق الإنسان التي صدرت بعد نهاية الثورة الفرنسية ولم تنادي بها ولو منظمة أو هيئة واحدة.

إن معظم الكتابات التاريخية التي كتبت في هذا الموضوع ركزت كلها تقريبا على الجانب المزري الذي كان يعيشه المنفيون في المستعمرات الفرنسية العقابية والجزر الواقعة تحت حمايتها ، كما تناولت هذه الدراسات تلك القوانين الجزرية التي عانى منها المنفيون والتي أدت بهم إلى التنقل بين السجون العقابية مع الأعمال الشاقة وتحديث عن العلاقات القائمة بين السجناء فيما بينهم وعن قوانين العفة التي صدرت في شأن الإعفاء من العقوبة والتي مست المنفيون الجزائريون من دون الفرنسيين ، كما تطرقت هذه الدراسات إلى انجازات المنفيين في المنفى من نشاط فلاحى وخرفي وبناءات وطرق وغيرها وهذا ما يعده البعض من ايجابيات النفي لكن لصالح فرنسا الاستعمارية.

ومنه يمكن القول أنّ كلّ من هذه الدراسات قد ساهم في التعريف بموضوع المنفيون من زاوية معيّنة وهذا ربما ما سيساعد مستقبلا الباحثين من إضافة معارف جديدة قد تكوّن لنا رصيذا علميا في بناء معرفة تاريخية بتصور جديد خارج تماما عن تصوّر كُتّاب ومؤرخي الحركة الاستعمارية الذين غالبا ما يبتعدون عن جوهر الحقيقة في موضوع النفي حفاظا على سمعة بلدهم وتجنباً لتجريمه بسبب أفعال لا تتوافق مع المبادئ الإنسانية. إنّ قوانين النفي التي أصدرتها فرنسا ضد الجزائريين تهدف بالأساس إلى تحطيم بنية المجتمع الجزائري والقضاء على هويته عن طريق النفي الذي يليه التنصير والتمسيح وبالتالي تكوين جيل جديد من الجزائريين من نوع

خاص غريب عن أهله ووطنه ولحسن الحظ أنّ هذه السياسيات لم تجد نفعا أمام موقف الجزائريين منها حيث أبدوا صلابة في التعامل مع الموضوع واستطاعوا الحفاظ على كياناتهم وموروثهم الثقافي ونقله إلى الأجيال القادمة هناك في المنفى.

كما يمكننا القول إن الفئة المهجرة إلى كاليدونيا والتي ضمت قادة ثورة المقراني هم من ذوي المكانة العالية في المجتمع الجزائري وبالتالي هدفت فرنسا إلى تحطيم هذه المكانة خوفا من الزعامة والقيادة وبالتالي حاولوا اجتثاثها من الأرض والوطن معا وفي نفس الوقت مرورا إلى الاجتثاث من الهوية الاجتماعية وأن الهدف الرئيسي المتخذ بالنفي هو الاستحواذ على المزيد من الأراضي ذات الخصوبة والمساحات الشاسعة التي كان يملكها هؤلاء المنفيون على أساس اعتبارهم من كبار الملاك قبل اندلاع ثورة المقراني. وفي الأخير نقول أن موضوع المنفيون الجزائريون سواء إلى كاليدونيا أو غيرها يحتاج إلى المزيد من الدراسات ذات الطابع الأكاديمي ويمكن أن تكون فيه آفاقا مستقبلية كدراسات متخصصة وتتناول كل دراسة جانب من الجوانب الخاصة بالمنفيين على غرار: مسألة الهوية عند المنفيين، الحياة اليومية للمنفيين الجزائريين في المنفى أو في المستعمرات الفرنسية العقابية، الحياة الاجتماعية للمنفيين، دور المنفيون الجزائريون في الخارج وإسهاماتهم هناك وغيرها من العناوين التي تستحق الدراسة وبالتالي نكون قد ساهمنا في إزالة الغموض عن هذا الموضوع ولو بالجزء اليسير.

المصادر والمراجع:

1/ أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.

10/ نعيمة قنزا: المنفيون الجزائريون إلى كاليدونيا الجديدة وقويانا بعد ثورة 1871، رسالة دكتوراه علوم، تخصص علم الاجتماع، جامعة الجزائر 2 - أو القاسم سعد الله، 2015.

- 11/ يحيى بوعزيز: توصيات الشيخ الحدّاد ومذكرات ابنه سي عزيز، الجزائر، 1989.
- 12/ يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرن 19 و20، الجزائر، منشورات متحف المجاهد، 1996.
- 2/ سامية محمد الجابر: الجريمة والقانون والمجتمع، الإسكندرية، 2007.
- 3/ سعد الله عمر: القانون الدولي الإنساني والاحتلال الفرنسي للجزائر، دار هومة، 2014.
- 4/ شارل روبير أجرون: المسلمون الجزائريون وفرنسا 1871-1919، الجزائر، دار الرائد للكتاب، 2007.
- 5/ صديق تاوتي: المبعدون إلى كاليدونيا الجديدة، مأساة هوية منفية، نتائج وأبعاد ثورة المقراني والحدّاد، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2007.
- 6/ الطاهر أوصديق: الحركة الثورية في 1871 دور عائلي المقراني والشيخ الحداد، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، 1984.
- 7/ محمد الحسيبي الشيرازي: التهجير جنائية العصر، بيروت، مؤسسة المجتبي للتحقيق والنشر، 2012.
- 8/ مزيان سعيدي: السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل ومواقف السكان منها 1871-1914، الجزائر، دار سنجاقي الدين للكتاب، 2010.
- 9/ ناصر الدين سعيدي: دراسات في الملكية العقارية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1984.
- 14/ Mahdi lallaoui : Algériens du pacifique, les déportés de la nouvelle Calédonie, 2001, éd Ziryab.
- 15/ Malika Ouennoughi : Algériens et maghrébins en Nouvelle Calédonie de 1864 a nos jours, 2008, éd Casbah.
- 16/ Mohammed ould sikaddour El korso : El menfiyun el djaziiroun déracinement et traumatisme (XIXe – XX le siècles) colonialisme et résistance des algériens du colloque, 2011.
- 17/ Rachid Sellal : la dramatique histoire des déportés algériens de la nouvelle Calédonie, 2004, elwatan .
- Louis vignon : la France en Algérie, paris, 1893

دور الصحافة في نشر الفكرة الإصلاحية بمنطقة الزيبان

أ.د. عبد القادر قوبع

جامعة الجلفة

أ.د. محمد السعيد قاصري

جامعة المسيلة

توطئة

قال الله تعالى ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَهِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾. سورة الأحزاب الآية 23، صدق الله العظيم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولنا العظيم محمد صلى الله عليه وسلم (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... وذكر وعلم ينتفع به). أردنا بهذه الافتتاحية العطرة أن نُصنف الأستاذ العيد مسعود ضمن هؤلاء الرجال، كيف لا؟ وهو الذي كافح بقلمه وبماله وبوقته وبصحته في سبيل نهضة الجزائر العلمية؛ في وقت كان يبحث فيه البعض عن السفر إلى أوروبا للعيش في بحبوحة من الرخاء المادي والمعنوي؛ في وقت كان يبحث فيه البعض عن المناصب العليا... الخ. فالأستاذ العيد مسعود لم يكن لا من هؤلاء ولا من هؤلاء، كان يفكر في نهضة الجزائر العلمية والأدبية من خلال العلم؛ من خلال المحافظة على ثوابتها وقيمها التي الاستعمار الفرنسي طيلة 132 سنة القضاء عليها؛ فاتخذ من الجامعة وسيلة لتحقيق أهدافه النبيلة والمشروعة؛ فواجهته صعاب كثيرة وعوائق عديدة؛ لكنه ظل صامدا وشامخا أمامها إلى أن سلم المشعل إلى من هو جدير بحمل هذه الرسالة من طلبته؛ ألا وهي رسالة النهوض بالجزائر من خلال الجامعة؛ التي تعد قاطرة المجتمع.

إن المبادرة التي أقدم لها الإخوة الزملاء في مخبر الدراسات والبحث في الحركة الوطنية والثورة التحريرية بجامعة محمد بوضياف بالمسيلة؛ لإحياء سيرة هذا الرجل العطرة تحتاج إلى مزيد من التثمين والاثراء؛ وعليه جاءت مساهمتنا هاته التي تصب في هذا السياق.

مساهمة اخترناها أن تكون تدور حول مسقط رأس الأستاذ العيد مسعود؛ وكصدقة جارية له ولنا؛ تحت عنوان: (دور الصحافة في نشر الفكرة الإصلاحية بمنطقة الزيبان). منطقة ببسكرة التي أنجبت ثلة من خيرة أبناء المجتمع؛ الذين قادوا ولا يزالون قاطرة النهضة في الجزائر، بشتى الطرق والوسائل والأساليب؛ ولعله من أبرزها وسيلة الصحف والجرائد التي كانت تقدم للمجتمع مادة دسمة من الفكر والقيم والأخلاق؛ فنى الوعي السياسي والاجتماعي والثقافي للمجتمع فبات معطاء للوقوف في وجه الاستعمار الفرنسي في الجزائر في تلك الفترة.

مقدمة

من المعروف أن الجزائر قد شهدت خلال عشرينات وثلاثينيات القرن العشرين الميلادي إصدار عدد معتبر من الجرائد (الصحف) على اختلاف أغراضها وأهدافها وتوجهاتها، فمنها السياسية والاقتصادية والفكاهية والإصلاحية، وتركزت بصفة خاصة في الشمال حيث المراكز الكبرى (الجزائر، قسنطينة، وهران، البليدة...)، وقد صدرت بإحدى اللغتين الفرنسية والعربية مع تفوق واضح للجرائد المكتوبة باللغة الفرنسية.

في هذه الدراسة نتطرق إلى دور الصحافة في نشر الأفكار الإصلاحية والدفاع عنها، وذلك في منطقة الزيبان (بسكرة وضواحيها) خلال عشرينات وثلاثينيات القرن العشرين الميلادي، من خلال مجموعة من الصحف التي أصدرها أبناء المنطقة في قسنطينة وبسكرة.

1. أهمية الصحافة في الوعي الإصلاحي الزيباني

رغم أن الصحافة لم تكن في اعتقاد وإستراتيجية إصلاحي منطقة الزيبان تحتل الرتبة الأولى في الأهمية حالها في ذلك حال التعليم إلا أن الأحداث والتطورات أثبتت تركيزهم الكبير عليها لبقائها لفترة أطول وملائمتها أكثر لعرض الحجج والأفكار والاستشهادات والاقتباسات، حتى بلغ الأمر بالإصلاحيين إلى الانغلاق والتقوقع داخل هذه الصحف بين الفعل ورد الفعل حتى أنه يصح القول إذا قلنا بأن الإصلاحيين قد فرضوا عزلة على أنفسهم إذا علمنا بأن من يقرأ ويقتني هذه الصحف هم أنصار الإصلاح أكثر من غيرهم من العامة التي تتخبط في الفقر والأمية والعزلة في الأرياف بعيدا عن مدينة بسكرة. كما أن خصومهم قد أوصوا أتباعهم ومريديهم باجتناّب قراءة هذه الصحف بينما نجد أن الوعظ استمر أكثر فعالية وإقناعا للعامة.

ويمكن القول بأن الشيخ الطيب العقبي (1887-1960) قد استطاع فرض نظريته للصحافة على الحركة الإصلاحية الناشئة وهو الذي أدرك وعائش أهميتها خلال الثورة العربية الكبرى عندما شارك في تحرير جريدة "القبلة"⁽¹⁾.

وباعتبار الشيخ الطيب العقبي أهم وجه إصلاحي في الزيبان، وباعتبار مكانته الرائدة في القيادة الإصلاحية على المستوى الوطني خلال العشرينات وبداية الثلاثينات، فمن المهم التعرف على نظريته للصحافة وأهميتها، أفق العقبي بأن الحكم الشرعي في الجرائد أنها من الضروريات ولذلك يدعو الناس إليها ويرغبهم في قراءتها، ويرجو أن يكسب بذلك الثواب والأجر، لأنها-في

(1) عبد القادر قوبع، الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب 1920-1954، دار طليطلة،

اعتقاده:- "مبدأ الرقي ودليل الحياة". وهذا الموقف نشره العقبي رداً على العلماء المحافظين الذين انتقدوا عمله الصحفي⁽¹⁾.

وفي مقال آخر له يُبين العقبي الشروط الواجب توافرها في الصحفي الإصلاحي، وهي فهم السياسة والتاريخ والفكر الثاقب والنظر السديد والشجاعة والجدة الأدبية والتضحية والإخلاص وصحة الهدف (الواقعية)⁽²⁾. وعلى صعيد آخر نلاحظ بأن الصحافة في الزيبان شكلت قضية مبدأ لا وسيلة تجارة وربح، وهو ما يفسر حالة البشري والسرور التي كانت تعمُ الإصلاحيين كلما تم الإعلان عن إصدار جريدة إصلاحية ما والتضامن معها في حال توقفها أو منعها، وهو ما يمكن إدراكه من خلال التشجيعات والتهاني المتبادلة ورسائل التضامن الكثيرة المنشورة عبر الصحف الإصلاحية سواء من رموز الإصلاح أو من أنصاره من العامة، كل هذه الدلائل تعكس الأهمية التي كان الجمهور ينظر بها إلى الصحف. دون أن نغفل التهافت الكبير لإصلاحيي الزيبان على الكتابة في جرائد الصديق والمنتقد والسنة النبوية والشريعة المطهرة والشهاب والبصائر⁽³⁾.

2. دور الصحف في نشر الأفكار الإصلاحية

1.2. الإصلاح الديني

عرفت منطقة الزيبان حالة أشبه ما تكون بالثورة الدينية التي اتجهت إلى تصحيح العقائد من الانحرافات التي عرفتها ومحاربة البدع الملتصقة

(1) العقبي، ماذا ينتقدون علي، الإصلاح، ع7.

(2) العقبي، الصحافة ومن هم رجالها، البرق، ع2.

(3) محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، المطبعة التونسية، تونس، ط1، 1926، ص135.

-العقبي، جريدة المنتقد في نظر الكتاب، المنتقد، ع5، 30/07/1925.

بالعبادات، وقد كتبت جريدة "الإصلاح" في أول عدد منها حول تصحيح العقائد: "وأهم كل مهم وأوله بالتقديم عندنا مسألة العقائد والكلام على تصحيحها، ولا إصلاح إلا بتصحيحها، فقد أفسد الناس من أمرها ما أضر بالعامّة"⁽¹⁾. وتأكيدا على الهدف الذي ظهرت من أجله الجريدة المذكورة فقد جعلت شعارها "لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"⁽²⁾.

وفي مناسبة أخرى يُذكر الشيخ الطيب العقبي إدارة جريدة "صدى الصحراء" بالهدف النبيل الذي يجب عليها أن تناضل من أجله وهو محاربة البدع والضلالات والانحرافات قبل اقتراح الحلول والدعوة للإصلاح والتطور، فكتب: "أدركي المفسدة قبل المصلحة، كما هو شعارك الوحيد وقاومي البدع والضلالات وكل ما سنّه أهل الخرافات"⁽³⁾.

والمأمل لجريدة الإصلاح يلاحظ الإلحاح الشديد على فكرة الإصلاح الديني بمحاربة البدع وتصحيح العقائد، وكذلك من خلال كثرة الأبواب والأركان المخصصة لذلك، نذكر منها: سيل البدع الجارف، أصحح ما قيل، كلمات مأثورة، سوانح الحكمة. وكذلك من خلال المواضيع النثرية والشعرية والمواضيع الفكرية العقدية الطويلة.

وفي جريدة "صدى الصحراء" نجد ركنين مخصصين للموضوع ذاته وهما: أقوال الحكمة، حيّ على الإصلاح. وقد عرفت هذه الجريدة الإصلاح الديني بأنه "مقاومة البدع والضلالات التي أدخلت على الدين باسم الدين"⁽⁴⁾.

(1) الإصلاح، 1، 8/09/1927.

(2) نفسه.

(3) العقبي، سيل البدع الجارف والإصلاح، ع2، 05/09/1929.

(4) صدى الصحراء، نهضتنا اليوم وكيف يجب أن تؤسس؟، ع5.

وهو ما يفسر مثلاً نشرها أجزاء من كتاب "حاشية بدر الدين النفساني على الدر النضيد" الذي يناقش ويبطل البدع المنتشرة بأسلوب ديني هادئ⁽¹⁾. ونشرها كذلك سلسلة مقالات للشيخ أبي يعلى الزواوي من ستة أجزاء حول ضرورة الإصلاح وتاريخ التصوف والطريقة⁽²⁾.

كما لجأت هذه الجرائد أيضاً إلى فرض رقابة (دينية) وحملة تشهيرية بالممارسات والعادات والعبادات والتنديد بكل مخالفة، ونستعرض هنا حادثتين وكيف تناولتهما جريدتا الإصلاح وصدى الصحراء:

أ. زردة ضريح سيدي زرزور ببسكرة

فقد نددت جريدة "صدى الصحراء" بما وقع في هذه الزردة (الوعدة)، حيث قام المُقَدِّم المكلف بتحضير الزردة بالطواف بالبقرة المُعدة للذبح في أرجاء المدينة ووراء الحشود بالأعلام والدفوف والمزامير، ووقع اختلاط النساء بالرجال بطريقة منهي عنها شرعاً. وبعد أن استعرضت هذه الجريدة وجوه المخالفة الشرعية ومظاهر التخلف الحضاري دعت النواب والسلطات الإدارية للتدخل ومنع تكرار هذه المظاهر، وذلك بـ "إيقاف هذا التيار والضرب على يد هؤلاء المبتدعين الضالين المضلين"⁽³⁾.

ب. صلاة الأربعاء الكحلة

وهي صلاة كانت تقام يوم الأربعاء من آخر أحد الشهور الهجرية في بسكرة العليا، ويؤمها إمام راتب وتتلوها قراءة أدعية خاصة وأذكار منتحلة عن كتاب الشيخ الديرنى، المعروف لدى المشعوذين والدجالين الذين يستعينون به في كتابة التماائم (الحجب/ الحروز) لضرب خط الرمل ونيل الفأل والطالع

(1) مصلح، إلى العلماء، صدى الصحراء، ع 5، ع 6، ع 7، ع 8، ع 9.

(2) أنظر الأعداد 5. 6. 9. 10.

(3) صدى الصحراء، حديث اليوم البدع الممقوتة، ع 10، 01 فيفري 1926.

وقطع التابعة...، وسُميت بالأربعاء الكحلة أو السوداء. فنددت بذلك جريدة الإصلاح وكتب الشيخ العقبي عن ذلك: "... وبينما نحن نقاوم البدع والضلالات ونتمنى رجوع الأمة إلى ما كان عليه السلف الصالح إذا بفريق الابتداع أو معامل الاختراع تبرز لنا كل يوم ضلالة جديدة وتأتينا بمحدث من الأمر يذهب بالسنة والفرس ويحل محلها" (1).

2.2. الإصلاح الاجتماعي

تأتي القضايا والموضوعات الاجتماعية في المرتبة الثانية بعد القضايا الدينية في الجرائد الإصلاحية الزيبانية، ولم تتخلف أية جريدة عن طرق القضايا الاجتماعية. فقد ركزت صدى الصحراء على استنكار الواقع المزري للمجتمع الزيباني والجزائري بصفة عامة وعددت مظاهر ونقاط الخلل، كما دعت إلى الاهتمام بتربية الأطفال تربية صحيحة تجمع بين الأصالة والمعاصرة، كما يلاحظ تركيزها على المقارنة بين المجتمع الأوروبي والمجتمع الأهلي (2).

وساعدت الجرائد المذكورة الإصلاحيين كثيرا في نشر شكاويهم للسلطات البلدية وإحراجها أمام العامة بإذاعة هذه الشكاوى عبر الصحف، نذكر من هذه الشكاوى تلك المتعلقة بتفاقم الآفات الاجتماعية كالقمار وتعاطي الخمر وخطر الترخيص للحنانات بالنشاط في الأحياء الأهلية، فقد نقلت جريدة الإصلاح شكاوى الأهالي من تماطل السلطات البلدية ببسكرة في منع دخول الأهالي للملهى الأوروبي ببسكرة المخصص أساسا للأوربيين، لكن صاحب الملهى يسمح لهم بالدخول سعيا منه لجني المال مخالفا بذلك قرار الولاية

(1) العقبي، سيل البدع الجارف، الإصلاح، ع2.

(2) صدى الصحراء، رجال الغد، ع15، 25/09/1934.

العامة⁽¹⁾.

كما استنكرت انتشار ظاهرة الدعارة في وسط مدينة بسكرة، ودعت إلى ترحيل ساكني هذه البيوت بعيدا عن المارة، باعتبار هذه الظاهرة مزيلة للشرف ومذهبة للمال والأخلاق والمروءة⁽²⁾.

واتحدت الجرائد الإصلاحية في استنكار ظاهرة سفور المرأة وخروجها سواء لحضور الزردات (الوعدات) في بعض القباب والمقابر أو التسوق أو دخول الحمامات لما في ذلك من اختلاط وفساد. وقد تناولت جريدة "البرق" الموضوع في عدة مناسبات، فكتب على صفحاتها الهادي السنوسي: "النساء المومسات يشقن الأسواق شقا وَمَا من فج إلا وهنّ به سافرات غير متعجرات فيه"⁽³⁾، كما نشرت قصيدة ساخرة للشيخ الطيب العقبي ندد فيها بتبرج النساء وسفورهن⁽⁴⁾.

وتطرقت جريدة "الإصلاح" لموضوع المرأة في عدة مناسبات، حيث كتب العمودي (1891-1957) بأن إجحاف المرأة في حقوقها الأدبية والمادية له انعكاساته الخطيرة على الأولاد والأسرة والمجتمع بعد ذلك⁽⁵⁾. كما اقترح الكاتب نفسه في عدد آخر من الجريدة ذاتها مقارنة اجتماعية للنهوض بالمرأة تجاوزت وصف أوضاعها إلى اقتراح حلول واقعية، تتمثل في مرحلة أولى في تربيتها وتعليمها وفق برنامج منظم ومدرّس وتنشئتها أخلاقيا ثم يتقرر على ضوء ذلك مسألة توسيع حريتها من عدمه وصولا إلى المرحلة الأخيرة وهي:

(1) العقبي، القمار ومظاهره، الإصلاح، ع24/10/1929.

(2) العقبي، الإصلاح، ع3، 19/09/1929.

(3) الهادي السنوسي، بسكرة، البرق، ع15، 04/05/1927.

(4) العقبي، البرق، ع1، 07/03/1927.

(5) العمودي، المرأة المسلمة، الإصلاح، ع08، 14/11/1929.

"بقاؤها في خدرها ربة منزل ورئيسة عائلة، أم خروجها سافرة ومشاركة للرجل في غوغاء الشوارع وازدحام الأسواق" ⁽¹⁾.

أما جريدة "صدى الصحراء" ففضّلت إشاعة نزعة تفاؤلية للنهوض بالمرأة داخل المنظومة القيمية الجزائرية (الإصلاحية)، ولجأت إلى نشر مقتطفات حول المرأة الجزائرية من "كتاب الجزائر" لأحمد توفيق المدني وكذلك من أحد البحوث التي نشرتها كاتبة مصرية حول المرأة الجزائرية ⁽²⁾.

وقد ساهمت الجرائد الإصلاحية أيضا في التحذير من خطر ظاهرة الخصومات والشجارات المتجددة حول الأراضي الرعوية والفلاحية ومياه الآبار والعيون، وأرجعت أسباب ذلك إلى الأنانية وضعف الوازع الديني لدى المتقاتلين دون إغفال تحميل المسؤولية للسلطات الفرنسية التي لم تقم بحفر الآبار الكافية، وقد أفرد العمودي في جريدته "الدفاع" مقالا للموضوع بعنوان "سيدي عقبة بلد العطش" ⁽³⁾.

وتطرقت "الإصلاح" للموضوع ذاته مرجعة الأسباب إلى الظروف الاقتصادية القاسية وضعف الوازع الديني، فكتب العقبي فيها: "لو فهموا معنى هذا (ومن يقتل مؤمنا) في دينهم الذي ينتسبون إليه لما حصل التساهل في قتل الأنفس البريئة بغير حق واستحلال ما حرم الله لمجرد الطمع في استيلا ب قليل من المال" ⁽⁴⁾.

(1) العمودي، كلمة عن السفور، الإصلاح، 11، 23/01/1930.

(2) صدى الصحراء، المرأة المسلمة، ع17، 01/10/1934.

صدى الصحراء، عيشة الحريم في الجزائر، ع18، 05/10/1934.

(3) La Defence, Sidi Okba pays de soif, N 163,

(4) الإصلاح، جرائم القتل، ع3. السعيد بن رويحة، حادثة قتل بأولاد جلال، البرق، ع5، 4 أفريل

3.2. الاقتصاد

ويُحسب للجرائد الإصلاحية الزيبانية أنها لم تغفل الجانب الاقتصادي في عملها الصحفي، تشجيعاً للأهالي لاقتحام عالم المال لما له من أهمية وسبب في تطور المجتمع ورفاهه، فلم تقتصر على الجوانب العقديّة والفكرية بل عالجت القضايا والأفكار الاقتصادية، وتميّزت جريدة "البرق" باهتمام خاص بالمواضيع الاقتصادية، حيث نشرت سلسلة مواضيع للشيخ المولود الحافظي بعنوان "فوائد الاقتصاد". الذي لفت انتباهه ونال إعجابه اهتمام هذه الجريدة بالمواضيع الاقتصادية وإعلانها ذلك في افتتاحيتها، وذلك مقارنة بغيرها من الجرائد الإصلاحية الأخرى، فكتب: "... ونحن إذا راجعنا برنامج هذه الصحف الخمسة نجدها متقاربة في أغراضها التي يجمعها أمر الإصلاح الداخلي السياسي والوطني والديني غير أن الأخيرة (أي البرق) امتازت عنها بإدخال المباحث الاقتصادية في برنامجها كما جاء في المقالة الافتتاحية ⁽¹⁾ ...وهو ما اعتبره خطوة وتطوراً فنياً كبيراً في الصحافة الجزائرية وذلك: "... في تقديم الأهم على المهم".

3. الرد على الإشاعات والخصوم

وركزت الصحافة كذلك على الدفاع والرد على الخصوم ضد كل اتهامات أو تشويه، فاستغلت "صدى الصحراء" مناسبة زيارة الشيخ ابن باديس والشيخ العقبي ومرافقهم إلى زاويتي طولقة وبرج بن عزوز في 11 فيفري 1926 وقامت بنشر ما دار في هذه الزيارة ونقل مختلف المداخلات، فكتبت بأن العقبي ذكّر الحاضرين بهدفه السامي وهو إحياء السنة وقتل

(1) المولود الحافظي، فوائد الاقتصاد، ج2، البرق، ع8. وانظر العدد7، ع10، ع11.

البدعة ونشر الفضيلة مبرئا نفسه من إشاعة خصومه عنه بأنه ينكر الولاية والكرامة والزيارة⁽¹⁾.

كما تصدت الجرائد الإصلاحية لخصوم الإصلاح سواء كانوا أفرادا أم هيئات وجماعات وصحفا. ولعل من أشهر الجرائد التي تصدت للإصلاحين في منطقة الزيبان جريدة "النجاح" التي ينتهي مؤسسها إلى المنطقة ونقصد به عبد الحفيظ الهاشي الذي أيد الإصلاح في أول عهد الجريدة ثم مال إلى الطرقية، حتى غدت جريدته رأس الحربة في مواجهة الإصلاحيين على المستوى الوطني أو على مستوى منطقة الزيبان، ودخل الطرفان بفعل ذلك حربا إعلامية شرسة، وقد سمّت جريدة "صدى الصحراء" غريمتها النجاح بـ"نجاح الطرق" ووصفت القائمين عليها بالانتهازية والتحالف مع شيوخ الطرق، فكتبت "صدى الصحراء": "...انتصبوا للدفاع عن حضرة الطرقيين والذود عن حياض أولئك الذين دأبهم التجوال لطلب الارتزاق على حساب الأمة، الأمة التعيسة..."⁽²⁾. وفي مناسبة أخرى كتبت عنها: "...خصوصا جماعة نجاح الطرق الذين أوقفوا أقلامهم على تحبيذ منكرات الزوايا وضلالات مشايخ الطرق ونفاق المتصوفين"، بل جعلها صاحب المقال طرفا من أطراف المعركة ضد الإصلاح: "...وجريدة النجاح من ثالثة تحبذ ما يصنعون وكُتّابها من رابعة يشنون الغارة على المصلحين"⁽³⁾.

كما تصدت "صدى الصحراء" لما كتبه المستشرق "آشيل" وردّت عليه بكتابات مستشرقين أمثاله⁽⁴⁾. أما جريدة "البرق" فردّت على جريدة لاديباش

(1) صدى الصحراء، الوفد العلمي القسنطيني، ع11، 01 مارس 1926.

(2) محمد العزوزي حوحو، الانتقاد الحر، ج2، صدى الصحراء، ع10.

(3) مصطفى بن شعبان، يخربون بيوتهم بأيديهم، صدى الصحراء، ع11، 01 مارس 1926.

(4) صدى الصحراء، مهمة الإسلام إفلاس الحضارة الغربية، ع10، 08/02/1926.

دالجي (La Dépêche d'Alger) التي كتبت حول السعادة والحرية التي عاشتها إحدى النساء التونسيات بعد تمردّها على القوانين الإسلامية والأعراف الشرقية، فكذّبت "البرق" الخبر وحذّرت المسلمات الجزائريات من تصديق هذه الأخبار المغرية⁽¹⁾.

4. أهم الصحف الإصلاحية ذات العلاقة بمنطقة الزيبان

من المعروف بأن جريدتي الشهاب ثم البصائر قد بلغتا بفضل طول فترة صدورهما وقوة توزيعهما وتشعب مواضيعهما المستوى الوطني، ولذلك لم ندرجهما في أهم الصحف المتداولة في منطقة الزيبان، لأن دورهما معروف وإسهام الإصلاح الزيباني في أعدادهما وإدارتهما كثير وكبير ومستمر.

1.4. صدی الصحراء

تعتبر "صدی الصحراء" أول جريدة إصلاحية في منطقة الزيبان، أسسها أحمد بن العابد العقبي⁽²⁾ وساعده في تحريرها الأمين العمودي والطيب العقبي ومحمد العيد آل خليفة، حيث كان يتم تحريرها في بسكرة لتنقل إلى قسنطينة لطباعتها ونسخها. ويتطابق خطها مع الخط الإصلاحي لمجلة الشهاب⁽³⁾.

استطاعت هذه الجريدة بعث نهضة إصلاحية مبكرة على المستويات الدينية والأدبية والفكرية على امتداد ثلاثة عشر عددا وإلى غاية توقفها في

(1) البرق، التفرّج الآثم، ع4، 28/03/1926.

(2) أحمد بن العابد العقبي: خريج الزاوية العثمانية بطولقة، اشتهر بولعه بالشعر والأدب، توفي مبكرا عام 1926. انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص257.

(3) أحمد بن الدراجي، صدی الصحراء، ع6، 11 جانفي 1926.

-محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية 1847-1939، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص63، ص65.

29 فيفري 1926، وتميزت بتركيزها على الإصلاح الديني والاجتماعي بتأثير واضح من الشيخ الطيب العقبي ونزعتيه الوهابية والقومية.

2.4. الإصلاح

ظهرت جريدة "الإصلاح" بشراكة بين الشيخ العقبي ومحمد العيد آل خليفة، لكن ابتداء من العدد الثاني انفرد العقبي بالإشراف عليها بعد انتقال محمد العيد آل خليفة للتدريس بالجزائر (العاصمة) في أكتوبر 1929. ورغم ما أحدثته هذه الجريدة من ردود أفعال كثيرة إلا أنه لم يصدر منها سوى 14 عددا طيلة ثلاثة أعوام، والسبب المباشر لذلك هو منع السلطات طبعها في تونس وبدائية المطبعة التي اشتراها العقبي وركبها في بسكرة والسفر الدائم للمصنف نحو بلده تونس وفقدان العمال... يقول العقبي عن ذلك: "... أما السنة الثالثة فلم يصدر فيها غير اثني عشر عدد، أما النصف الأخير منها فقد توقفنا فيه عن العمل بالمرة، وذلك لحادث انكسار وقع للآلة الطابعة ولم يتيسر إصلاحها إلا بعد أشهر، ثم عقب ذلك سفر المصنف ورجوعه إلى بلده تونس وتبع ذلك فقدان بعض العملة..."⁽¹⁾.

والملاحظ أن "الإصلاح" قد استطاعت أن تفتك صفة الناطق الرسمي باسم الإصلاح الزيباني، فمالكها هو الشيخ الطيب العقبي، وقد كتب بأن ظهورها كان أساسا: "للعمل على تحطيم الخرافات وهدم الأوهام كواجب أول لتنوير الأفكار وتهذيب الرأي العام". كما كتب في افتتاحية العدد الأول ما نصه: "وستخصص الفصول الطويلة والاستجابات الكثيرة لمحاربة البدع التي ألصقت بالدين... وإن اعتقادنا الجازم بأن لا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها يحملنا على ذلك ويوجب علينا أن نتحمل من أجله كل أذى".

(1) العقبي، الإصلاح، ع14، 25 سبتمبر 1929.

ومما زاد جريدة الإصلاح قوة وجودة وحيوية هويتها أهم كتاب الفكر الإصلاحي الجزائري على الكتابة فيها بشكل دوري مثل الأمين العمودي في الأعداد: 4 و5 و8 و10 و11 و14. ومحمد السعيد الزاهري (ت 1956) في العدد 9، دون أن ننسى كتابات العقبي الذي كان يلجأ إلى إغفال اسمه في الافتتاحية أو الكتابة بأسماء مختلفة لعل أشهرها "فتى الإصلاح" مثلما هو الحال في العدد 3 و7. وهذه الأهمية انتبه لها العمودي بقوله عن جريدة الإصلاح: "همزة وصل بين كافة المصلحين الذين ظهروا زمنئذ في عالم الوجود وميدانا لجميع فرسان النهضة الجزائرية الفتية ورابطة تعذر على الخصوم فصمها بين حملة الأفكار والأقلام العاملين لخير العباد والبلاد"⁽¹⁾.

كما قامت بتوزيع أعدادها على نطاق واسع، ويذكر المؤرخ المعاصر لها الشيخ أحمد توفيق المدني بأنها كانت تصدر 3000 نسخة من العدد الواحد أسبوعيا، وهو عدد يفوق توزيع جرائد الشهاب والمغرب والبلاغ⁽²⁾. ولجأت أيضا إلى منح الاشتراك فيها مجانا كهدية لضمان التواصل معها، وإلى إرسال أعدادها مجانا إلى الشخصيات الدينية والاجتماعية والسياسية خاصة رجال الزوايا والطرق، وأعلنت ذلك للراغبين⁽³⁾.

3.4. البرق

تحتل جريدة "البرق" الرتبة الثانية في الزيان بعد جريدة "الإصلاح" من حيث تاريخ الظهور، حيث ظهرت في قسنطينة بتاريخ 7 مارس 1927، ومديرها المشرف عليها هو الإصلاحي والكاتب الشهير محمد السعيد الزاهري رغم أنها أعلنت بأن مديرها وصاحب امتيازها محمد عبد المجيد رحموني،

(1) العمودي، بماذا اقتبل المصلحون الصادقون جريدتهم الإصلاح، الإصلاح، ع 21، 5 أفريل 1940

(2) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 372.

(3) الإصلاح، ع 2.

وقد أشار إلى ذلك أبو اليقظان (1888-1973) في جريدته "الأمة" والمؤرخ أحمد توفيق المدني في "كتاب الجزائر"، إضافة إلى مجموعة من الأحداث والحيثيات ومن خلال قراءة الجريدة نفسها استنتاج أنّ الزاهري هو من كان يقف وراءها⁽¹⁾.

وقد حددت "البرق" خطها الإصلاحي بالجملة التالية: "صحيفة اجتماعية أدبية انتقادية سياسية اقتصادية فكاوية"، بينما جعلت شعارها خدمة الوطن والمصلحة العامة واستثمار المال. ومن الملاحظ تشابه خطها وروحها الصحفية مع جريدة "المنتقد" للشيخ عبد الحميد بن باديس، كما يلاحظ تركيزها على انتقاد الطريقة خاصة العلوية ولكن بأسلوب قاس يتجاوز حدود الحوار واللياقة في عدد من المرات كنشر ما يُشاع من فضائح دون تثبيت ولا مراعاة لمبدأ الستر والتحفظ...

واستطاعت "البرق" استقطاب عدد لا يستهان به من الكتاب الإصلاحيين المتخصصين والعارفين بأوضاع منطقة الزيبان والمتمهاتين على الكتابة في موضوع الإصلاح كلما سنحت لهم الفرصة، نذكر منهم السعيد الزاهري الذي كان يكتب باسم مستعار هو (تأبط شرا)، والأمين العمودي الذي كان يكتب باسم (سمهري)، ومبارك الملي الذي كان يكتب باسم (بيضاوي)، والطيب العقبي الذي كان يكتب باسم (سلفي)...، وقد تنوعت هذه الكتابة بين الشعر والنثر. كما احتلت "البرق" أهمية خاصة من حيث كثرة واستمرار أعدادها بمجموع سبعة وعشرين (27) عددا. رغم ما عرفتته من صعوبات على رأسها مشكل الطبع في قسنطينة ثم مرحلة التوزيع ببسكرة، وقد استمرت على هذه الحال إلى غاية عددها السابع عشر حيث زاد الأمر سوءا إذ صار طبعها يتم

(1) الأمة، ع15، 25/12/1934 محمد ناصر، مرجع سابق، ص84.

في تونس لتصل على متن القطار نحو قسنطينة ومنها إلى بسكرة، ومما زاد الأمر تعقيدا أسلوبها الساخر ونقدها اللاذع لخصومها خاصة ركنها " ركن قوارص" الذي جرّ عليها نفور العامة وحتى بعض المصلحين والدعاوى القضائية التي كان آخرها دعوى الدكتور ابن التهامي والمستوطن "مورينو" اللذين استطاعا انتزاع حكم قضائي بمنعها بمبرر أنها: " تثير النزاعات بين الأفراد وتثير الأحقاد وهو أمر يضر بالنظام والأمن العام"⁽¹⁾.

ولا يخفى أن شخصية الزاهري ومزاجه الحاد والمتقلب قد أثر في خط هذه الجريدة، ولعل الأحداث والتقلبات والمعارك والمناظرات والمهاترات التي عرفتھا حياة هذه الشخصية فيما بعد وإلى غاية وفاته تجعلنا ندرك -إلى حد ما- ما أحدثته هذه الجريدة من ردود أفعال.

4.4.الدفاع: (La Défense)

من المهم الإشارة إلى أن إصدار جريدة "الدفاع/La Défense" يعكس تطورا كبيرا في إستراتيجية الإصلاح بصفة عامة والإصلاح المحلي الزيباني بصفة خاصة، وذلك تعبيراً عن إدراك جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأهمية صدور جريدة باللغة الفرنسية لإيصال الرسالة الكاملة والواضحة لمبادئ ومشروع التيار الإصلاحى الجزائري، وللدرد على الإشاعات والأحكام المستعجلة الخاطئة التي تلصقها الإدارة الاستعمارية وحلفاؤها من الجزائريين والفرنسيين بالتيار الإصلاحى، وكذلك السعي لفك العزلة الفكرية المفروضة عليه⁽²⁾.

(1) العقبي، إلى الأمام إلى الأمام، البرق، ع7، 18/04/1927.

-الزاهري، هل حوكم البرق، الشهاب، ع122، 17/11/1927.

(2) محمد القورصو، حول إشكالية انتشار الصحافة الشرقية والمغربية في المستعمرة الجزائرية ما بين 1920-1954 وأثارها في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين، مخبر التاريخ والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، ع3، نوفمبر 1992، ص61.

ومن حسن حظ الإصلاح الزيباني أن محمد الأمين العمودي كان محسوباً على منطقة ومجموعة الزيبان أكثر مما هو محسوب على الإصلاح المركزي في العاصمة أو منطقة واد سوف التي ولد بها، لكنه - وكما هو معروف - استقر وعاش في بسكرة وارتبط بالمجموعة الإصلاحية الفاعلة فيها. استطاعت جريدة "الدفاع" أن تلفت الانتباه إلى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية القاسية في الزيبان والصراع الدائر بين التيارين الإصلاحي والطرقى وحتى المحافظ (بمعنى الجامد) وحلفائه الإداريين الفرنسيين والجزائريين، ونقلت تنديد واستنكار الإصلاحيين لمختلف البدع والمخالفات والتجاوزات الإدارية، كما عالجت عدة قضايا دينية وفكرية بأسلوب علمي إقناعي استهدف النخبة الجزائرية وحتى الأوروبية، واستفادت من التكوين الديني الإسلامي للعمودي وإتقانه اللغة الفرنسية وقوة أسلوبه، حيث ساهم بكثير من المقالات والمواضيع الفكرية والدينية. وقد ذكر الشيخ حمزة بوكوشة الذي رافق العمودي لمدة طويلة -بحكم انتمائهما لمنطقة وادي سوف وتلازمهما الدائم في مدينة الجزائر- بأن مدير الشؤون الأهلية "ميرانت" اشترط إبعاد العمودي عن الكتابة في جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حتى تسمح لها الإدارة الفرنسية بالصدور مرة أخرى⁽¹⁾.

ونلاحظ بأن الحركة الإصلاحية قد استفادت من جريدة "الدفاع" في تبليغ شكاويها للسلطات الفرنسية في الجزائر وباريس ضد تعسف شيخ بلدية بسكرة وشيخ العرب بن قانة، كما تولّت طمأننة الإدارة الفرنسية بأن البعد الحضاري للمشروع الإصلاحي لا يختلف عن البعد الحضاري الفرنسي على عكس ما تتمسك به بعض الزوايا والطرق من تخلف وخرافة.

(1) حمزة بوكوشة، شخصيات منسية الأمين العمودي، الثقافة، الجزائر، ع 6، جانفي 1972، ص 56

5.4. أبو العجائب

تأسست جريدة "أبو العجائب" على يد أحد أبناء الزيبان الإصلاحيين وهو محمد بن العابد الجلاي (1890-1967)، وتولى رئاسة تحريرها محمد بن العابد العقبي أما إدارتها فكانت بيد أحمد بوشمال، وقد ظهر عددها الأول في 24 ماي 1934⁽¹⁾ ولعل ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بدور هذه الجريدة في نشر الفكر الإصلاحي في منطقة الزيبان رغم صدورها وتداولها في قسنطينة هو انتماء محمد بن العابد الجلاي وأحمد بن العابد العقبي لمنطقة الزيبان وزياراتهما المتكررة لها. كما أن جريدة "البرق" بدورها كانت تطبع بقسنطينة لكنها كانت توزع ببسكرة بصفة أوسع. أما عن أثر جريدة "أبو العجائب" فلا يمكن تقديره ولا تقدير ما أثاره من ردود أفعال، ولكن ما يُحسب لها هو أنها أسلوب جديد وابتكار طريف، حيث اعتبرت وسيلة إصلاحية فكاكية انتقادية موجهة للعامة، وقد صرّحت منذ صدور عددها الأول بأنها ضد الطرقية، فكتب صاحبها: "... وقد انتقى له من الأسماء أبو العجائب رجاء أن يأتي في مستقبل حياته بالغرائب... لم يطوّق عنقه بحرر ولا تميمة لأن ذلك بدعة ذميمة نفر منها الذوق وكسد بها السوق".

ولعل الدليل الوحيد على ضعف تأثيرها هو قصر فترة إصدارها، إذ توقفت بعد شهرين من صدور أول عدد منها، وذلك بفعل الصعوبات المالية وتضييق الإدارة الاستعمارية عليها⁽²⁾.

6.4. المرصاد

تعتبر "المرصاد" من بين الجرائد التي استفاد الإصلاحيون الزيبانيون منها،

(1) عبد القادر قوبع، مرجع سابق، ص 154.

(2) عبد المالك مرتاض، حول تاريخ الصحافة العربية بالجزائر، الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة،

الجزائر، ع 44، أفريل-ماي 1978، ص 30.

خاصة أن مديرها ورئيس تحريرها محمد عباسية الأخضرى هو من أبناء منطقة الزيبان وصاحب علاقات واسعة مع إصلاحها، وكذلك لإقبال الكتاب الإصلاحيين من الزيبان على الكتابة فيها أكثر من الجرائد الأخرى باستثناء "الشهاب" و"البصائر" طبعا.

واستفادت "المرصاد" من مكانة صاحب امتيازها الفرنسي المسلم محمد الشريف جوكلاري (1904-1957) الذي منحها دعما ماديا كافيا وحماية قانونية كبيرة.

صدرت الجريدة في 1931/12/27 وبشّرت بظهورها جريدة "الإصلاح"، التي وصفها بأنها "جريدة اقتصادية أدبية دفاعية مهما دعت الحاجة إلى الدفاع سلمية وحربية في آن واحد". واعتبرتها نصيرا للإصلاح والأدب ووبالا على الطريقين: "...فبقدر ما نهى المصلحين بها بما ستتحفهم به من الأدب الغض والفكاهة الراقية نحذر المجرمين الأفاكين وال دراويش المعتوهين مما ستصبه عليهم من الويلات البرقية والحملات الجهنمية"⁽¹⁾.

وبالنسبة لخط هذه الجريدة فهو قريب من الخط الإصلاحي لكن بروح نقدية ساخرة وحادة. وقد ذكرنا من قبل بأن ما يرجح ارتباط هذه الجريدة بالزيبان هو كثرة مساهمات الكتاب الإصلاحيين من المنطقة في أعدادها المختلفة وهو ما نستعرضه من ذكر بعض المساهمات، فقد كتب فيها الأمين العمودي باسمه المستعار المعروف (سمهري) حول العليوية وجمعية علماء السنة الذين أعلنت الجريدة صراحة معاداتها لهم⁽²⁾ أما محمد العيد آل خليفة فكتب باسمه وباسم مستعار هو (الحارث بن همام)، وذلك في الأعداد التالية: (عدد 2، قصيدة كثر التساؤل عنك يا مرصاد). (عدد 7، تحية

(1) الإصلاح، ع11، 23/01/1930.

(2) سمهري، ها هو قلعي، المرصاد، ع27، 09/09/1932 وانظر العدد 38، 36.

ووصية). (عدد 3، قصيدة بلا عنوان). (عدد 33، إلى صاحب الاقتراح المشؤوم). (عدد 36 تدشين نادي النهضة بالبيدة). ونجد للكاتب عمر البسكري في العدد 14 مساهمة بعنوان: "الشباب الناهض"⁽¹⁾.

أصدرت جريدة المرصاد أربعة وستين (64) عددا، لكنها توقفت عن الصدور بفعل تعطيلها في 1933/11/08، ولعل الدافع وراء ذلك هو لهجتها الحادة ضد الطرقيين والنواب الجزائريين الذين كانوا موضوعها المفضل⁽²⁾.

7.4. الثبات

لم يستسلم محمد عباسية الأخضرى لقرار تعطيل جريدته "المرصاد"، بل سارع إلى إصدار جريدة أخرى مبينا من خلال اسمها (الثبات) أنه ثابت على مبدأ جريدة "المرصاد" نفسه، فصدرت في جانفي 1934 إلا أنها عرفت تقطعا كثيرا، ولم تكن في مستوى جريدته الأولى سواء من حيث التأثير والنشاط أو من حيث التحمس للإصلاحيين ومعاداة الطرقيين والنواب، بل عُرف عنها تأييدها لابن جلول رغم قربها وولائها للإصلاحيين⁽³⁾.

8.4. لو كودي بومبو Le Coup du bambou (ضربة الخيزران)

كانت جريدة "ضربة الخيزران" توالي وتؤيد النائب والطبيب سعدان، وبحكم تحالف سعدان مع الإصلاحيين فقد أيدتهم ونشرت أفكارهم وحاربت الجزائريين المتحالفين مع الإدارة الاستعمارية سواء كانوا نوابا أو موظفين أو قيادا... بل حتى بعض شيوخ الطرق والزوايا. ومن الوجوه الإصلاحية التي كتبت فيها نذكر الأمين العمودي الذي واجه على صفحاتها الوكيل الشرعي "أحمد الأحمر" المعروف بتحالفه وموالاته للإدارة الاستعمارية وبعض شيوخ

(1) ناصر، مرجع سابق، ص ص120، 124.

(2) عبد القادر قوبع، مرجع سابق، ص155.

(3) محمد ناصر، مرجع سابق، ص ص182، 186.

الطرق. ويذكر الشيخ محمد الصالح رمضان بأنه يتذكر أحد كاريكاتورات هذه الجريدة وهو عبارة عن رسم لبرميل من الخمر مكتوب أسفله اسم "أحمد الحمار" في تشبيه مهين لأحمد الأحمر، وفوق البرميل المرسوم قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ لَكَبِيرٌ

مِّنْ نَّفَعِهِمَا﴾⁽¹⁾، وإلى اليمين من البرميل رُسمت نخلة مكتوب تحتها اسم

"الشريف سعدان" وفوقها قول الله تعالى: ﴿تُؤْتِي أكلًا كُلَّ حِينٍ﴾.

فنلاحظ من خلال هذه الشهادة كيف أن الجريدة استخدمت العاطفة الدينية والسيرة الشخصية لأحمد الأحمر بهدف تفضيل الشريف سعدان وحلفائه، وربما يكون الهدف انتخابيا لا أكثر ولا أقل⁽²⁾.

ولابد من الإشارة إلى أن إصلاحي الزيبان لم يكتفوا بالجرائد المذكورة سابقا، بل ساهموا مساهمة هامة ودائمة في جرائد أخرى كانت تصدر في مدينة قسنطينة والجزائر ووهران... والكثير منها كان يصل إلى المنطقة ويثير ردود أفعال مؤيدة أو رافضة. ولكن عموما يمكن القول إن ظاهرة تكرار المواضيع والمواقف وحالة التعميم جعلتنا نكتفي بالجرائد المتداولة في المنطقة والمحسوبة عليها.

نستخلص من خلال تطرقنا لدور الصحافة في نشر الأفكار الإصلاحية في منطقة الزيبان خلال عشرينات وثلاثينات القرن العشرين الميلادي عدة نقاط أهمها:

(1) البقرة، الآية 219.

(2) شهادة الشيخ محمد الصالح رمضان للباحث عبد القادر قوبع في 16 فيفري 2006 في منزل الشيخ يحي بن عمر بالقبة (الجزائر).

- شكّلت الصحف الفضاء الأكثر فعالية للإصلاحيين لنشر مبادئهم وعرض أفكارهم دون مقاطعة ولا تشويش ولا تأويل.
- ساهمت الصحف في الدفاع عن الأفكار الإصلاحية ضد مختلف الإشاعات المغرضة التي كان خصوم التيار الإصلاحي يثبتونها ويروجونها للعامة.
- رغم الرقابة الإدارية المفروضة على الصحف إلا أن تعددها وكثرة كتابها ساهما في رفع الحصار المضروب على الإصلاحيين في المساجد والمحافل العامة.
- شكّلت الصحف ميدانا لأنصار الإصلاح لإبراز تأييدهم وتبنيهم لهذه الأفكار والتعبير عن تضامنهم معها ضد كل رقابة أو منع.
- بفعل تشابك الأحداث والمواقف واحتدام الخلاف ازدادت الحاجة للصحف وهو ما يفسر صدورها أسبوعيا وتنوع عناوينها وكثرة كتابها.
- الدور الكبير للمجموعة الإصلاحية الزيبانية في بعث الحركة الصحفية، والتي على رأسها الشيخ الطيب العقبي.
- أهمية الصحف كمصدر مباشر وثابت يؤرخ للأفكار والأحداث والمواقف ومختلف ردود الأفعال التي صدرت وتمّ توثيقها في مختلف أعداد تلك الصحف.

قراءة في النشاط السياسي لمصالي الحاج كزعيم لنجم شمال إفريقيا من خلال مذكراته 1925-1936

كدة. يمينه بن رحال

جامعة المسيلة

benrahal2009@yahoo.fr

مقدمة

تعد المذكرات الشخصية من أهم مصادر كتابة التاريخ تأتي بعد الوثائق الأرشيفية وهي تتصل بالسيرة الذاتية من حيث أنها تروي أحداث عاشها روادها وتسجل منجزاتهم وعن طريقها يخلد أصحابها بأفلامهم مآثرهم وتجارب حياتهم وما يحيط بها من أحداث وبالتالي فهي تعتبر مدونة المعلومات الشخصية للفاعلين سواء أكانوا سياسيين أو زعماء وقادة عسكريين، وهم الذين ساهموا في صنع الأحداث التاريخية لتكون بذلك أداة هامة في مسار العملية البحثية والدراسة التاريخية، وقد اتخذنا من مذكرات مصالي الحاج أنموذجا للمذكرات التي تمد المؤرخ بالمادة الضرورية في عملية التوثيق التاريخي وقمنا بدراسة إسهامات هذه الشخصية في الحركة الوطنية لاسيما أثناء زعامته لنجم شمال إفريقيا من خلال مذكراته الشخصية. والسؤال المطروح: من تكون هذه الشخصية؟ ما هو تعريف المذكرات الشخصية وما مدى أهميتها في الكتابة التاريخية؟ كيف كان النشاط السياسي لمصالي ضمن حزب نجم شمال إفريقيا من خلال مذكراته؟ وهل يعول عليها في كتابة التاريخ؟

1. تعريف المذكرات الشخصية وأهميتها في الكتابة التاريخية

تعرف المذكرات بالكتابات الشخصية أو اليوميات، وهي من المصادر الهامة التي تعتبر كأداة أساسية لكتابة التاريخ فهي تدخل ضمن الوثائق

الرسمية المنشورة وهي مادة تاريخية أصلية تتمتع بأهمية خاصة لما ترسمه من صورة حية لأحداث عاشها أصحابها ودونوها وهم قاصدين إيصال أفكارهم وآراءهم ومعلوماتهم لقراءها، يتحدثون فيها عن الأحداث التي شاركوا فيها فعلا أو شاهدوها مباشرة أو التي حملت إليهم من طرف رواة ثقة معاصرين لهم.

كما أنها نوع من النصوص الذاتية التي يبوح كاتبها من خلالها بأسراره وأفكاره وتأملاته الخاصة علما بأنه لا توجد قاعدة أو خطوات معينة لكتابة المذكرات لأنها ببساطة هي عبارة عن نشاط إنساني عفوي تحتوي على معلومات قل ما نجدها في كتب أخرى وبالتالي لا يمكن الاستغناء عنها في أي حال من الأحوال فلها أهمية بالغة خاصة في عملية التوثيق يمكن ذكرها في النقاط الآتية:

1- تعتبر المذكرات الشخصية كمرجعيات أساسية لكتابة التاريخ لكونها ثروة معرفية كبيرة ومخزون هام للأحداث التاريخية والأفكار عبر مختلف المراحل فالمؤرخ لا يخترع الأحداث التي يقصها من ذهنه وخياله بل يستقيها من ينابيعها الأصلية¹.

2- توفر المذكرات الشخصية معلومات تاريخية ثرية للمؤرخ حيث تساعده في فهم مجموعة من الوقائع والمواقف ربما كان من الصعب حل رموزها في غياب هذه الشهادات.

3- لها أهمية بالغة في إعادة بناء الحدث التاريخي ودراسته وتسجيله ذلك لقرب أصحابها من الأحداث ومعايشتهم لها في الزمان والمكان فهم يعدون من المساهمين في التاريخ، وبالتالي فإن إنتاجهم الفكري والأدبي هو صورة صادقة

1- عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر، في منهج البحث التاريخي، ط2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993، ص161.

للفترة التي عاشوها، رغم التباين في بعض وجهات نظرهم في بعض القضايا¹.
4- تكشف لنا المذكرات عن الكثير من الحقائق والأحداث والخبايا التي نجعلها
وتبين لنا وجهات النظر لقادة سياسيين أو عسكريين. وبالتالي فهي تصور لنا
بدقة مجريات الأحداث وتفصيلات الحقبة التي عاصرها أصحابها من جوانبها
المختلفة وهو الأمر الذي يساعد المؤرخ في فهم مجريات الحادثة التاريخية²
بالتحليل والمقارنة والتركيب.

5- المذكرات الشخصية تفيدنا في تحليل ودراسة أبعاد شخصية كاتبها حيث
تلقي الضوء على جوانب دقيقة لم تتعرض لها الوثائق التاريخية كما تعطينا
الخلفيات والأبعاد والظروف التي يتم فيها الحدث وهي أمور تغفل عنها
الوثائق الرسمية.

6- المذكرات الشخصية هي اعترافات وتبريرات واتهامات وتأملات شخصية
وذاوية قد تعكس بصمات المؤلف والزمن الذي عاش فيه فهي بذلك تثرى
الكتابة التاريخية وترد على بعض المغالطات التاريخية³.

2. التعريف بالمؤلف صاحب المذكرات "مصالي الحاج"

ولد الحاج مصالي في 16 ماي 1898 بدارقاري بالدرب الفوقي نهج
باب الجياد بمدينة تلمسان العريقة⁴، ينتمي إلى عائلة بسيطة فقيرة⁵ والده
اسمه الحاج أحمد مصالي وأمه فطيمة صاري علي حاج الدين القاضي

1- عمار هلال، الملتقى المغاربي الأول، المصادر والمراجع العربية لتاريخ الجزائر (1830-1962)، ديوان
المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص100.

2- ليلى الصباغ، دراسة في منهجية البحث التاريخي، مطبعة خالد الدين الوليد، دمشق، 1979، ص135.

3- محمد بوضياف، التحضير لأول نوفمبر، تقديم عيسى بوضياف، دار النعمان للطباعة والنشر،
الجزائر، 2011، ص8.

4- محمد قنانش ومحفوظ قداش، نجم شمال إفريقيا، ديوان المطبوعات، 1984، ص24.

5- أحمد سليمان، مصالي الحاج، جريدة المساء، 21 فيفري 1994، ص20.

الشرعي في تلمسان¹، وكان والده عاملاً بسيطاً في الفلاحة بقرية الصفصاف على مسافة بعض الكيلومترات من تلمسان وما لبث أنصار مقدماً في ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني 1919 وبقي في خدمته مدة عشرون سنة حتى فبيل وفاته خلال شهر مارس 1938².

نشأ مصالي الحاج في بيئة محافظة ومتواضعة تضم ستة أولاد طفلان وأربع بنات ترعرع معهم في منزل ملك لجده حيث عاش فيه إلى أن بلغ سن العشرون بمعنى إلى غاية 1918³.

دخل مصالي الحاج الكتاب لتعلم مبادئ الكتابة والقراءة حيث حفظ ما تيسر له من القرآن الكريم في الزاوية الدرقاوية وفيها تلقى مبادئ التربية الدينية التي صقلت شخصيته فتميزت بأخلاق عالية تلقاها على أيدي والده ومعلميه في الزاوية وكان ذلك قبل أن يلتحق بالمدرسة الأهلية الفرنسية في تلمسان عند بلوغ سن الدراسة⁴ حيث نال شهادة التعليم الابتدائي⁵ ثم شارك في لحرب العالمية الأولى حيث جند في صفوف الجيش الفرنسي سنة 1918، فنقل إلى وهران، ثم بوردو الفرنسية التي استطاع أن يقضي مدة من الخدمة العسكرية فيها وخلالها تمكن من الاطلاع على مجموعة من الأحداث الدولية كالثورة البلشفية بروسيا وحركة كمال أتاتورك بتركيا من خلال الصحف التي كان يقرأها مثل جريدة اليوماني التي كان يطلع عليها ثلاث أو

1- مصالي الحاج، مذكرات مصالي (1898-1938)، منشورات ANEP، 2007، ص 09.

2- نفسه، ص 10.

3- نفسه، ص 09.

4- محمد عباس، مصالي الحاج ... الوطني الثائر، دار هومة، الجزائر، 2011، ص 20.

5- رياض أمين، مصالي الحاج في أطروحة دكتوراه بالسربون، من الزاوية الدرقاوية إلى الأمة، جريدة الحرية، العدد 94، أكتوبر 1996، ص 17.

أربع مرات في الأسبوع¹.

وبعد الحرب العالمية الأولى عاد مصالي الحاج إلى الجزائر عام 1921 لكنه فشل في إيجاد عمل في بلاده، مما اضطر إلى الهجرة نحو فرنسا وأمله أن يجد ظروفًا مواتية للعمل تكون أفضل من ظروف الجزائر التي استعمرت واحتكرها المعمرون الأوروبيون فغادر البلاد وهاجر إلى فرنسا كغيره من الجزائريين الذين هاجروا بلادهم بحثًا عن العمل من أجل كسب قوتهم فعاد إلى فرنسا مرة ثانية.

في سنة 1923 شغل مصالي الحاج عدة مهن لمساعدة عائلته الفقيرة فاشتغل حلاقًا ثم بقالًا ثم كعامل بضاعة النسيج إلى عامل يدوي إلى بائع متجول². كما استطاع مصالي الحاج أن يكون نفسه ثقافيًا وذلك بحضور محاضرات بالسربون ومعهد الدراسات الشرقية وتابع دروسه بجامعة بور دو الفرنسية وسجل نفسه كمستمع حر في المدرسة الوطنية للغات الشرقية فأعطيت له بطاقة وكان يقترض الكتب ويعمل في قاعة المطالعة³.

لقد وجد مصالي الحاج مدينة باريس المكان الأنسب لتحسين مستواه فكان كثير الاطلاع على كتب التاريخ والسياسة والاقتصاد والفكر وكان يعمل على تدوين كل ملاحظة أو معلومة جديدة يقرأها أو استنتاج توصل إليه من خلال مطالعته المتنوعة⁴.

كما تأثر مصالي الحاج بأفكار الأمير خالد إثر محاضرة له بقاعة المهندسين المدنيين برئاسة أحمد بهلول فإنساق وراء الأفكار الديمقراطية التي

1- مصالي الحاج، المصدر السابق، ص 94.

2- محمد قنانش ومحفوظ قداش، المصدر السابق، ص 70.

3- مصالي الحاج، المصدر السابق، ص 145.

4- نفسه.

كانت تروج لها الأحزاب اليسارية المتطرفة¹ كما جذبته الأوساط الثورية فانظم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي وتزوج من شيوعية بارزة تدعى إيميلي بوسكان Emilie Busquant التي كانت خير عوله² كما شاركته وآزرتة في حياته السياسية³ وشجعتة في أيامه الأولى ووقفت إلى جانبه في ظروفه الصعبة، وقد استفاد من انضمامه إلى الحزب الشيوعي وخلاياه فاستطاع أن يكتسب خبرة في المجال السياسي والتنظيمي⁴ ويظهر لنا ذلك جليا من خلال مشاركته ونشاطه البارز في النجم وبفضله استطاع نجم شمال إفريقيا أن يعرف ميلاد جيل من المناضلين عرفوا بنشاطهم الدؤوب في الحركة الوطنية الجزائرية خاصة من خلال مطالهم الاستقلالية.

كما كانت لمصالي الحاج اتصالات عديدة مع شخصيات عربية منها الأمير شكيب أرسلان الذي التقى به في جنيف مرتين الأولى عام 1935 والثانية عام 1936. وقد تأثر مصالي الحاج بأفكاره النيرة وشخصيته القوية الأمر الذي أدى إلى تغيير وجهة نظره من الشيوعية الفرنسية إلى الوجهة العربية الإسلامية⁵.

ونظرا للدور الفعال الذي كان يقوم به مصالي الحاج في نجم شمال

1- عبد الحميد زوزو، دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919-1939)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص58.

2- ينظر:

Mamchaoui Mohamed, Revue le cri du peuple Algériennes, 16 Mai 1995, p02.

3- ينظر:

Ben jamin Stora, dictionnaire biographique des militants nationalistes Algériennes, édition l'harmattan, paris, 1985, p60.

4- إبراهيم العسكري، لمحات من مسيرة الثورة التحريرية الجزائرية ودور القاعدة الشرقية، مطبعة دار البعث، الجزائر، 1992، ص52.

5- رياض أمين، المرجع السابق، ص17.

إفريقيا فإنه قد تعرض لعدة مضايقات من طرف السلطات الفرنسية، التي قامت باعتقاله عدة مرات وبعد حل النجم عام 1937 واصل نضاله السياسي في سبيل القضية الوطنية في إطار ما يعرف بحزب الشعب وحركة انتصار الحريات الديمقراطية.

توفي مصالي الحاج يوم 03 جوان 1974 بمدينة باريس ونقل جثمانه إلى سقط رأسه تلمسان حيث دفن بها¹.

3. شكل المذكرات وأسلوبها

جاءت المذكرات بعنوان "مذكرات مصالي الحاج (1898-1938) قام بترجمتها محمد المعراجي، أما التصدير فكان لرئيس الجمهورية الجزائرية السابق عبد العزيز بوتفليقة، هذا الأخير الذي أشاد بمجهودات مصالي الحاج رفقة ثلة من رفاقه وإسهاماتهم في الكفاح من أجل تحرير الشعب الجزائري حيث ذكر باختصار المسار الرائع للزعيم مصالي الحاج خاصة في بلاد المهجر (فرنسا)، طبعت المذكرات بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ونشرتها AN E P في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية عام 2007 وهي من الحجم المتوسط، تحتوي على 244 صفحة، بالإضافة إلى جزئية صغيرة في آخر المذكرة تضمنت صوراً للزعيم مصالي الحاج منذ أن كان طفلاً صغيراً ثم شاباً يافعاً ثم مناضلاً شهماً إضافة إلى صورة لتشيع جنازته يوم 07 جوان 1974 وصورة لقبره والزعيم أحمد بن بلة يترحم عليه، وهي عبارة عن أدلة تاريخية ووثائق مهمة في الكتابة التاريخية وفي عملية التوثيق لدى المؤرخين والباحثين لا يمكن الاستغناء عنها في أي حال من الأحوال.

كتبت المذكرات باللغة العربية بعد ترجمتها من الفرنسية جاءت بأسلوب سلس وسليم واضح لا غموض فيه ذلك أن مصالي الحاج كان يهدف

1- أحمد سليمان، المرجع السابق، ص20.

من خلالها تبين كل الأحداث التي شارك في صنعها بنفسه أو أمر بها أو تمت تحت مرآه، كما نلتبس من خلال مذكراته الإحساس بالحماس والتفاعل الشديد مع حيثيات الأحداث التي يرويها خاصة في الفترة الممتدة من 1925-1936 وهي الفترة التي كان فيها على رأس نجم شمال إفريقيا والتي نحن بصدد دراستها.

4. مضمون المذكرات: إن القارئ أو المتصفح للمذكرات يلاحظ بأن صاحبها قد قسمها إلى أربعة فصول وهي كالآتي:

- الفصل الأول: جاء بعنوان طفل من تلمسان (1898-1918) وفيه تحدث المؤلف عن حياته خاصة أيام الطفولة والشباب إضافة إلى نشأته والبيئة الاجتماعية التي عاش فيها وساهمت في تكوين شخصيته.

- الفصل الثاني: اختار له عنوان اكتشاف فرنسا (1918-1925) حيث أسهب في الحديث عن ظروف وأسباب ذهابه إلى فرنسا ثم تأثره بمجموعة من الأحداث سواء أكانت سياسية أم اجتماعية ساهمت في صقل شخصيته.

- الفصل الثالث: ورد بعنوان "على رأس نجم شمال إفريقيا (1925-1936) تحدث فيه عن بداية نشاطه السياسي حيث لعب دورا بارزا على رأس النجم والصعوبات التي أعاقته نشاطه.

- الفصل الرابع: جاء بعنوان من المنفى إلى السجن (1936-1938) وفيه تحدث عن حياته بين المنفى والسجون حيث كانت السلطات الفرنسية تهدف إلى إبعاده عن الحياة السياسية وعن المجتمع الجزائري.

5. النشاط السياسي لمصالي الحاج على رأس نجم شمال إفريقيا من خلال مذكراته

تضمن هذا الفصل من المذكرات الكثير من الأحداث ذات قيمة تاريخية عظيمة حيث قدّمت لصاحبها حقائق وصورة حية لحياته ومسيرة

كفاحه الطويل حيث كان على رأس نجم شمال إفريقيا كقائد وزعيم وقد كان المؤلف يهدف من خلال مذكراته إلى تبليان كل الأحداث التي شارك في صنعها بنفسه حيث حرص على عرضها خاصة وأنه كان شاهدا عليها أو طرفا فاعلا في مجرياتها.

يذكر المؤلف في مذكراته بأنه انعقد اجتماع جمع كل من الحاج علي¹ وعيسى جيلاني ومصالي الحاج وآخرون بتاريخ مارس 1926 انبثق عنه إنشاء جمعية نجم شمال إفريقيا التي جاءت كثمرة لمشاورات دامت سنوات وعين مصالي الحاج رئيسا لها²، الذي قام رفقة مناضلين بعقد اجتماعات في المقاهي الصغيرة في باريس من أجل التعريف بالجمعية الجديدة للجزائريين والمغاربة وشرح أهدافها علما بأن كل المناضلين وأعضاء النجم ينتمون إلى شرائح اجتماعية متواضعة³ ويمتهنون مهن بسيطة فمصالي الحاج مثلا كان جرسون في مغارة في دار الخياطة.

يذكر المؤلف في مذكراته بأنهم واجهوا صعوبة التفاهم بين الأعضاء وخاصة في بداية الأمر لأنهم لم يكونوا معروفون ما عدا الحاج علي المعروف لدى الأوساط المغربية.

ووضح مصالي الحاج الصعوبات التي كانت تعاني منها الجمعية كغياب مقر قرار الأمر الذي أجبرهم إلى التوجه نحو المقاهي والمطاعم الشيوعية

1- هو عبد القادر حاج علي (1883-1957) سياسي جزائري مناضل في الحزب الشيوعي الفرنسي وبعد من مؤسسي نجم شمال إفريقيا ولد في دوار السعادة قرب غليزان هاجر إلى باريس وتحصل على الجنسية الفرنسية كان عضوا في لجنة إدارة النجم ورئيسا لإحدى خلاياها تقلد رئاسة النجم في البداية لكبر سنه وخبرته السياسية وسرعان ما تنازل عن رئاسته لمصالي بسبب الخلاف الإيديولوجي بينه وبين أعضاء النجم الآخرين كونه كانت له ميولات شيوعية عكس الوطنيين.

2- مصالي الحاج، المصدر السابق، ص 135.

3- نفسه، ص 161.

كمكان للتجمع وقد اعترف بحسن معاملتهم لهم، كما ذكر بأن المقر المركزي للحزب الشيوعي المتواجد في نهج لافيات رقم 120 قد فتح أبوابه لاستقباله مع رفقائه وتعاملوا معهم بلطف وقدموا لهم خدمات جليلة¹.

يذكر مصالي الحاج بأنه كان كثير الاطلاع على الصحافة بغية فهم تطورات الأحداث وكان يحضر باستمرار التجمعات العمومية التي كانت تعالج المشاكل الموروثة بعد الحرب العالمية الأولى وأشار أيضا إلى صديقه الصغيرة التي كانت تساعد باستمرار وهي من مواليد فرنسا كانت ثورية ووطنية والتي أصبحت زوجته، ولقد ولدت وكبرت في جو مشحون بالإضرابات والمظاهرات وغيرها من الظروف الحزينة التي كان يعيشها العمال وهو الأمر الذي جعلها خير معين له لذلك وعدته بالنضال رغم أنها لا تنتمي إلى أي حزب².

كما أشار في مذكراته إلى اجتماعاته مع مسيري النجم من أجل تحليل وضعيته وتنظيم الجمعية وإعداد برنامج صغير ووضع مخطط من أجل شرح نشاط النجم وكان من شأنه أن يوظفه في محادثاته الفردية مع الناس ومع المناضلين، وقد تضمن المخطط شرحا مفصلا عن عظمة الحضارة الإسلامية وإشعاعها في العالم، وذكر خصالها في إسبانيا، كما شرح المبادئ الإسلامية وبين يقظة العالم العربي والإسلامي، كما بين ظروف احتلال الجزائر ونضال المقاومة الجزائرية وبطولاتها وشجاعة قادتها وغيرها من النقاط الهامة التي تخص القضية الجزائرية³.

يذكر مصالي الحاج في مذكراته بأنه قرر رفقة مناضلي النجم تنظيم تجمع شعبي كبير يتم فيه التعريف بالجمعية وإعطائها طابعا رسميا والذي

1- مصالي الحاج، المصدر السابق، ص136.

2- نفسه، 136

3- نفسه، ص137.

انعقد في 26 يونيو 1926 في دار النقابات بشارع بلفيل، حضره آلاف الجزائريين، والرفاق الفرنسيين وبعض الصحفيين، ترأس التجمع مصالي الحاج، حيث ألقى فيه خطابا هاما، وحضرت هذه التظاهرات المغاربية الكبيرة صحيفة اليومانيتي التي لم تسلم من انتقادات بعض الجرائد الأخرى. ويذكر مصالي الحاج بأن النجم جاء من أجل استئناف كفاح الأمير عبد القادر والأمير عبد الكريم¹.

وأشار مصالي الحاج بأنه كان شيوعيا مغاربيا يحضر باستمرار اللقاءات في محل اللجنة الاستعمارية في نهج باتريارش، حيث كان يقرأ جريدة لوباريا وهي جريدة شهرية تعد منبرا لسكان المستعمرات حيث تعالج مشاكل البلدان الإفريقية والأسبوية². كما تحدث عن لقاءاته مع مناضلين من البلدان الأسبوية والإفريقية ونشاطه في التعريف بنجم شمال إفريقيا وكان يعرض دائما نتائج نشاطه والصعوبات التي تعترضه أثناء جولاته³.

كان لمصالي الحاج نشاط مع بداية عام 1927 حيث أصبح رئيسا وأميناً عاماً للحزب وكان ينتظر من خلفه في إحدى المسؤوليتين وقد نصحه الحاج علي بأن يحتفظ بالأمانة العامة وأن يتخلى عن رئاسة النجم لأحد أصدقائه وفي هذه الأثناء استقبل السيد الشاذلي خير الله عضو في الحزب الدستوري التونسي برئاسة الشيخ الثعالبي⁴.

1- مصالي الحاج، المصدر السابق.

2- نفسه.

3- نفسه، ص 138.

4- هو عبد العزيز بن ابراهيم بن عبد الرحمان الثعالبي، سياسي ومفكر تونسي من أصل جزائري ولد بتونس عام 1874 تعلم بها وانضم إلى الخلدونية، أسس الحزب الدستوري الحر عام 1920 ثم نفته السلطات الاستعمارية من تونس عام 1923 وبقي يناضل خارج وطنه إلى أن عاد إليه عام 1937،

في فيفري 1927 شارك مصالي الحاج في مؤتمر بروكسل الذي أخبره عنه الحاج علي وكان بمثابة أكبر حدث سياسي على الصعيد العالمي. اجتمع فيه الضعفاء لينددوا بالأقوياء حيث كان يهدف إلى الكفاح ضد الإمبريالية من أجل استقلال الشعوب المضطهدة، وقد أعلن مصالي الحاج في المؤتمر عن مطالب النجم في مقدمتها مطلب الاستقلال وبعث الدولة الجزائرية وتحقيق الجلاء للقوات الفرنسية على البلاد، وفتح أبواب المدارس أمام كل الجزائريين إلى جانب ترسيم اللغة العربية¹.

أشار مصالي الحاج في مذكراته إلى أجواء انعقاد هذا المؤتمر الهام وذكر بأن خطابه دام ربع ساعة تم الاستماع إليه باهتمام كبير وصفق عليه الحاضرون خاصة بعد شرح البرنامج السياسي للنجم والذي تم الإعلان عنه بكيفية عالمية في بروكسل وهذا النجاح الباهر أثلج كل من مصالي الحاج وعلي الحاج والشاذلي خير الله².

كما ذكر مصالي الحاج في مذكراته بأنه كان يستقبل زيارة الطلبة وحتى بعض الشخصيات من المغرب العربي في محل نهج السيف الخبثي، يذهبون لرؤيته بعد الاتصال المباشر أو غير مباشر مع الحزب الشيوعي الفرنسي ولما نظم الشيوعيين ندوة بغية الإعلان عن نجم شمال إفريقيا في أبريل 1927 تمكن مصالي الحاج من إلقاء خطابا عرض فيه المعطيات التاريخية وندد بجور الاستعمار الفرنسي³.

شرح مصالي الحاج الصعوبات التي كانت تواجه النجم خاصة منها

شارك مع الليبيين ضد إيطاليا ثم انتقل إلى مصر، كما شارك في المؤتمر الإسلامي بالقدس عام 1931 من مؤلفاته تونس الشهيدة- سبيل الرشاد توفي عام 1944.

1- مصالي الحاج، المصدر السابق، ص140.

2- نفسه، ص141.

3- نفسه، ص142.

المالية إذ لم يعد في استطاعة أصدقائهم الشيوعيين مواصلة مساعدتهم لذلك وجب عليه البحث عن عمل ليعيش منه مع الاحتفاظ على منصبه كمسؤول أول عن النجم وتعهد بمساعدة اللجنة المديرية وأن يبقى شيوعيا ويواصل حضوره في اجتماعات خليفته¹ فاشتغل في التجارة كبائع متجول حيث ينتقل بين باريس وضواحيها.

لقد مر نجم شمال إفريقيا بظروف صعبة لاسيما تفاقم الأزمة المالية لذلك تم حل الجمعية في 24 أبريل 1929، في هذه الأثناء تخلى الشيوعيين الجزائريين عن الحزب، أما الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان على علم بوضعهم فلم يقدم يد العون نهائيا الأمر الذي أدى إلى اقتراح فكرة حل الحزب فكان يوما حزينا لذلك قدم مصالي الحاج مخطط عمل ونشاط يمكن تلخيصه فيما يلي:

- 1- ضرورة تحرك كل يوم سبت ثلاثة مناضلين في المقاهي المغاربية من أجل شرح البرنامج السياسي للنجم على أن تتم العملية بلطف ويكون محضر لها.
- 2- يجب عقد اجتماعات شهرية في نهج بريطانيا.
- 3- يوصي المناضلون الشيوعيون وغير شيوعيين بالمحافظة على علاقاتهم مع الحزب الشيوعي الفرنسي².

وفي جانفي 1930 قام مصالي الحاج بتدوين مذكرة رفقة مناضلي الحزب لإرسالها لعصبة الأمم تندد بقرن من الاضطهاد والاستغلال وتسعى لتحقيق الاستقلال وكان مصالي الحاج يسعى جاهدا إلى إبقاء العلاقات جيدة مع الحزب الشيوعي الفرنسي. ذكر مصالي الحاج في مذكراته بأنه عانى منذ أربعة سنوات من بداية نشاطه السياسي من غياب مقر اجتماعي وغياب

1- مصالي الحاج، المصدر السابق، 144.

2- نفسه، ص 147.

وسائل التعبير حيث كان ينقصهم الإطارات والمنخرطين والدعم المادي وكانوا يخشون من الصراعات الداخلية والانقسامات رغم الكفاح المتواصل من أجل تحقيق مطلب الاستقلال وقد تحمل هذه المسؤولية العمال والفلاحين والطبقات الصغرى التي تنتمي للمجتمع الجزائري¹.

كما أدرك مصالي الحاج أهمية إنشاء الصحف بهدف تدعيم نشاطه السياسي وتغطية النقص في الدعاية لذلك أصدر جريدة دورية عرفت باسم الأمة يعني الشعب، غير أنه اصطدم بمشكل الدعم المالي ونقص محرريها ففكر جلياً في إيجاد حلول للمشكلتين دون علم أحد².

فتقرب مصالي الحاج من الحزب الشيوعي الفرنسي من أجل تسهيل بعض المساعي الإدارية رغم علاقاته السيئة به. فلقد تحصل على مساعدة من طرف جزائري شيوعي يدعى علي، كانت قيمته عالية في الجهاز الشيوعي³. وفي أكتوبر 1931 بدأ نجم شمال إفريقيا يرجع للحياة شيئاً فشيئاً وحافظ على علاقات الصداقة مع الحزب الشيوعي الفرنسي وكانت تعقد جمعية عامة مرة في السنة للنظر في نشاطات أعضاء النجم ويعيد انتخاب قاداته. كما تم عقد اجتماع من أجل تعديل القانون التأسيسي وغلق باب التدخلات في الأمور الداخلية للنجم ومنع ازدواجية الانتماء⁴.

كما قام مصالي الحاج في سنة 1932 بحملة جديدة من الدعاية في المقاطعات الداخلية من أجل الحصول على مقر مركزي خاص بالحزب مستقل تماماً وقد كان صعب جداً إيجاد مقر اجتماعي في الدائرة الخامسة

1- مصالي الحاج، المصدر السابق، ص150.

2- نفسه، ص151.

3- نفسه، ص152.

4- نفسه، ص154.

أو السادسة بسبب الأزمة المالية، غير أن أحد المناضلين المدعو بانون أكلي¹ الذي اقترح عليهم محلا في الرقم 19 من نهج داغير. والذي صار مقرهم الاجتماعي ومقر لسان حال جريدة الأمة الأمر الذي سهل على مصالي متابعة دروسه وقراءة الصحافة الدولية والحضور إلى بعض المحاضرات والاقتراب من جمعية طلبة مسلمين شمال إفريقيا.

ذكر مصالي في مذكراته بأن أحمد بلغول تمكن من فتح مقهى ومطعما في نهج موسيو لوبرانس "الهقار" وصار محله ملتقى للمغاربي وقد تعرف على فرحات عباس وكون علاقات مع بعض الشخصيات التي تنتهي إلى الحزب الاشتراكي².

تحدث مصالي الحاج في مذكراته أيضا بإسهاب عن التجمعات التي كانت من مظاهر النجم وهي تعد إحدى أهم وسائل لنشر الدعاية بالأوساط العمالية فقد تم تنظيمها منذ عام 1933 وتزايدت في منطقة باريس واتسع نطاقها عام 1935 وكان مصالي الحاج يشرف بمفرده أو بالتعاون مع التشكيلات الحزبية الأخرى ففي 28 ماي 1933 عقدت جمعية عامة في نهج بروتاني الدائرة الثالثة تهدف إلى عرض البرنامج الذي كتب في بروكسل وقد صادق عليه كل الحاضرين والذي اعتبر ميثاق وطني يربط مجموع السكان المسلمين الجزائريين³ وقد تم عرض البرنامج وشرحه والتعليق عليه في جريدة الأمة التي كانت ترسل إلى الجزائر منذ عام 1932 وقد ذكر بأن نقابيين

1- ولد يوم 27 جوان 1889 بقرية جبله دوار مزالة سيدي عيش ولاية بجاية، من عائلة متوسطة هاجر إلى فرنسا عام 1916 امتهن عدة مهن في مصانع الذخيرة، خضار متجول، شارك في تأسيس نجم شمال إفريقيا عام 1926 حيث كان عضوا في لجنته المركزية تولى فيها أمانة صندوق المال عام 1932 شارك في تمثيل النجم في مؤتمر جينيف اعتقل عدة مرات بفرنسا، وكان متزوج بفرنسية.

2- مصالي الحاج، المصدر السابق، ص158.

3- نفسه.

اشتراكيين أو شيوعيين كانوا يتعاطفون معه ويساعدونهم كثيرا للتغلب على المشاكل التقنية.

كما أشار إلى المنصبين الدائمين المحدثه والتي قررها المكتب السياسي فعين فيهما كل من عمار عماش¹ ومصالي الحاج. يقول مصالي الحاج بأنه كان يتكلم اللغتين العربية والفرنسية حيث أن بطاقات الانخراط وعناوين رسائلهم وجريدة الأمة ومناشيرها كلها كانت تحمل كتابة بالعربية وفي بعض الأحيان آية قرآنية تدعوا المسلمين إلى الاتحاد والعمل² وفي 5 أوت 1934 عقدت جمعية عامة وظهر فيها العلم الجزائري أخضر وأبيض تتوسطه هلال ونجمة بالأحمر وكان مصالي قد ألقى كلمة الافتتاح أمام العلم المرفوع عاليا والمحفوظ بحرس شرفي والجزائريين يرددون تحيا الجزائر يحيا الاستقلال يحيا نجم شمال إفريقيا وقد ذاع الخبر في فرنسا وشمال إفريقيا³ نتيجة للنشاط السياسي الذي كان يقوم به مصالي الحاج فإن السلطات الاستعمارية قامت بتوقيفه وسجنه في لاسانتي واتهم كل من عمار عماش وراجف بلقاسم اللذان بقي أحرارا. وقد حكم على مصالي الحاج بستة أشهر سجنا وألفين فرنك غرامة لأنه قام بإعادة تركيب منظمة منحلة والمساس بالوحدة الترابية بفرنسا⁴ وحكم على عمار عماش وراجف بلقاسم بنفس العقوبة.

1- عمار عماش: مناضل سياسي من دوار بني عيسى أربعاء بني إيراثن سافر إلى فرنسا وفيها عمل في المعطرة، أنظم إلى النجم عام 1931 وشغل فيه منصب كاتب عام 1933 تولى رئاسة تحرير جريدة الأمة، كان صحفيا قديرا وخطيبا عاد إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية توفي في مسقط رأسه قبل الثورة.

2- مصالي الحاج، المصدر نفسه، ص160.

3- نفسه، ص161.

4- نفسه، ص170.

كما كان لمصالي الحاج نشاط في السجن حيث تم إحداث جمعية في ديسمبر 1934 وأعطاه اسم جمعية شمال إفريقيا وكان مقرها الاجتماعي 19 نهج داغير بباريس وما لبث أن اتهم بتهمة الدعاية ضد التجنيد العسكري من أجل هدف فوضوي يرى مصالي الحاج بأن هذا الاتهام يهدف إلى إثقال وضعيتهم وتخويف كل المناضلين¹.

وسرعان ما خرج مصالي من السجن في 01 ماي 1935 واحتفل به نجم شمال إفريقيا والعديد من الحركات السياسية حتى أبناء مدينة تلمسان العريقة حيث وصلته عدة رسائل وبرقيات تهناه بذلك من فرنسا وبلجيكا وتلمسان.

وبعد محاكمته في جويلية 1935 تم إلغاء كل المتابعات واعترفت المحكمة رسميا بالوجود الشرعي لنجم شمال إفريقيا، فهذا القرار كان انتصارا عظيما وذاع خبره بين كل العمال الجزائريين المقيمين في فرنسا². بعد انعقاد المؤتمر الإسلامي بجنيف تحمس مصالي رفقة زملائه لمحتواه وتم تعيين وفد يكون حاضرا في جنيف يوم 12 سبتمبر أي يوم الافتتاح وقد دعي مصالي الحاج لحضور اجتماع الجبهة الشعبية لحل مشكلة أثيوبيا التي أدرجت ضمن جدول أعمال عصبة الأمم، حيث سافر مصالي الحاج لأول مرة إلى سويسرا وفيها تناول كلمة شرح فيها مآزرته لاستقلال أثيوبيا³.

شارك أيضا مصالي الحاج في المؤتمر الإسلامي الأوروبي حيث التقى مع الأمير شكيب أرسلان الذي كان يعيش في المنفى بجنيف ووقع لقاء بين

1- مصالي الحاج، المصدر السابق، ص171.

2- نفسه، ص173.

3- نفسه، ص178.

الطرفين في 07 سبتمبر 1935 في نزل فكتوريا وقد أعجب مصالي الحاج بشخصية شكيب أرسلان وبثقافته الواسعة وتم استدعاؤه للاجتماع الذي انعقد في قاعات فندق فيكتوريا بمعية عمار عماش¹.

ذكر مصالي في مذكراته بأنه أمر صديقيه عمار عماش وراجف بلقاسم بمتابعة أنشطتهما في فرنسا أما مصالي الحاج فطلب اللجوء السياسي للحكومة الهلفيتية².

احتياطات التعامل مع المذكرات الشخصية

رغم أهمية المذكرات الشخصية في الكتابة التاريخية باعتبارها مصدرا هاما للمرحلة التي عاشها مؤلفها، فهي شهادة حية عن أحداث عصره التي صنعها بنفسه، لذلك لا يمكن الاستغناء عنها في أي حال من الأحوال فرغم القيمة التاريخية لها إلا أن توظيفها والاستفادة منها بما يخدم التاريخ ضروري جدا أن نتخذ الحيطة والحذر في طريقة التعامل معها، فدور الباحث يكمن في غربلة الأحداث والتدقيق فيها كما يجب قراءة المذكرات قراءة متأنية وإخضاعها للتحليل الدقيق وللنقد التاريخي الذي يخدم الكتابة التاريخية، فدور المؤرخ يكمن في التمعن وغربلة الأحداث بالتحليل والمقارنة مع شواهد أخرى³.

كما يجب التحرر من النزعة الذاتية والابتعاد عن الأهواء والعواطف والمواقف التي تبعد الباحث عن الموضوعية لأن هذا النوع من الكتابة تتحكم فيه مجموعة من المعطيات كالتوجه السياسي والخصوصية الفكرية

1- مصالي الحاج، المصدر السابق، ص180.

2- نفسه، ص182.

3- راجع لونيبي، منهج التعامل مع الشهادات والمذكرات عند كتابة تاريخ الثورة - شهادة بن يوسف بن خدة نموذجاً-، مجلة عصور، ع6 و7، وهران، 2005، ص27.

والعقائدية والذاتية خاصة وأن الإنسان بطبيعته عندما يكتب أو يتحدث عن نفسه فإنه كثيرا ما يلجأ إلى تلميع صورته وتمجيد نفسه وإبراز دوره المحوري وتدوين ما يرفع من شأنه ويعزز دوره في الأحداث التي أسهم في صنعها أو كان شاهدا عليها وبالتالي الخوف من الغرق في النرجسية وتضخيم الذات على حساب الحقيقة والتواضع المطلوبين في أية شهادة تاريخية¹.

خاتمة:

في الأخير نقول بأن مصالي الحاج كان رائدا من رواد الحركة الوطنية الجزائرية، وهي شخصية وطنية تغذت من النضال النقابي في بلاد المهجر، واستطاعت أن تحطم حاجز الخوف الذي كان يلف الفكر السياسي في الجزائر وأن تطرح برنامجا وطنيا ثوريا واضح المعالم من خلال المطالبة بالاستقلال التام خارج دائرة الاندماج والتبعية، وبذلك طبع نشاطه السياسي بالطابع الاستقلالي الثوري منذ عشرينات القرن الماضي، وقد تمكنت مذكراته من الكشف عن مسيرته النضالية التي كانت متميزة ومفعمة بالنشاط السياسي الدؤوب، حيث كانت واعية بظروف الاستعمار وآليات مواجهته، أين كرس جهوده من أجل تجسيد برنامج حزبه التحرري على أرض الواقع رغم تعرضه للمضايقات والمتابعة من طرف السلطات الاستعمارية.

1- الشاذلي بن جديد، مذكرات الشاذلي بن جديد (1979-1929)، ج1، دار القصة، ص11.

بلعيد عبد السلام و8 ماي 1945م بعين الكبيرة في مراسلة سرية للشرطة الفرنسية

د.أ.د. بشير فايد

جامعة سطيف 02

مقدمة

يحتوي أرشيف ما وراء البحار، في أكس أون بروفانس بالجنوب الفرنسي، على الكثير من الوثائق الأرشيفية السرية الهامة، الخاصة بأحداث ومجازر 8 ماي 1945م، ومنها وثيقة الحال (المراسلة السرية للشرطة القضائية لقسنطينة) التي دونت ونهت الجهات العليا إلى سلوك و نشاط الطالب الثانوي، والمناضل السياسي الشاب، في صفوف حزب الشعب الجزائري، بلعيد عبد السلام (1928م-2020م)، في تلك المحطة المفصلية، من تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية بصورة خاصة، وفي علاقة الجزائريين بالاحتلال الفرنسي بصورة عامة، والتي توثق لعدم تساهل استخبارات الاحتلال، وعيونها اليقظة باستمرار، في تتبع ومراقبة شريحة التلاميذ والطلبة الجزائريين، الذين انخرطوا مبكرا وبحماس كبير في النشاط الوطني، بمختلف تياراته ومشاربه الإيديولوجية واتجاهاته السياسية، بالرغم من حداثة أعمارهم، والتضحية الأكيدة بمسارهم الدراسي والتعليمي؛ فليس كل أقرانهم، يحظون بفرصة الدخول إلى تلك المؤسسات التعليمية العصرية والمرموقة، المنشأة خصيصا لأبناء المجتمع الأوروبي، المتمتع بكل فرص ومزايا الحياة الرغيدة والهنئية، وحتى بالتضحية بالوضع الاجتماعي المريح نوعا ما للبعض منهم، مثلما هو الحال بالنسبة لبلعيد عبد السلام، إذ وصفت

الوثيقة السرية والده أحمد بالثري صاحب الأملاك، بحكم ممارسته للنشاط التجاري في دكانه أو متنقلا في الأسواق، والنشاط الزراعي في ملكيته الخاصة. أولا- نبذة عن حياة المناضل والسياسي بلعيد عبد السلام

ولد المناضل بلعيد عبد السلام، في 20 جويلية 1928م، ببلدة عين الكبيرة(بيريقوفيل)¹، مقر البلدية المختلطة تاقيطونت² دائرة سطيف، أطلق عليه اسم بلعيد، لأنه ولد أياما قليلا بعد عيد الأضحى، والده أحمد بن علي، تعود أصوله عائلته إلى بوعدنان، وهو تجمع سكاني ملحق بقرية إيغيل نسادة، قبيلة وبلدية إيبودران(بني بودرار)³ المقاطعة القضائية ودائرة الأربعاء نايت إرائن، قسمة دلس⁴، انتقل جده علي من إيغيل نسادة، واستقر في قرية إيغيل بوماس المجاورة، أما والدته فمن عائلة مخوخ من القرية الأولى، انتقل الوالد أحمد والعم الأكبر بلقاسم المدعوقاسي، إلى ناحية سوق أهراس، ثم قالمة، ومنها إلى عموشة⁵، فبني عزيز(شوفراي)⁶، فبني فودة

1 Périgotville.

2 Commune mixte de Takitount.

3 بني بودرار(بني بودرارن): جاء في معجم قبائل و دواوير الجزائر الذي أعده ف.أكاردو أن: مساحتها حوالي 1200 3 هكتار، قبيلة غير خاضعة لتطبيق المرسوم التشريعي، تابعة للبلدية العربية الأربعاء نايت إرائن، المقاطعة القضائية ودائرة الأربعاء نايت إرائن، قسمة دلس، على مسافة 16 كلم جنوب شرق الأربعاء نايت إرائن وعلى المنحدر الشمالي لجبل جرجرة، عدد الأهالي 4887 نسمة. تتألف قبيلة بودرار من البطون التالية: إغيل بوعماس، تالا نتازرت، بوعدنان، درنا، آيت أوعبان، آيت علي أوحزرون، وهي تشكل مع قبيلتي بني عطا ف وبني بوعكاش قسما من البلدية العربية الأربعاء نايت إرائن. ف. أكاردو: معجم قبائل ودواوير الجزائر مرفق بخارطة قبائل ودواوير الجزائر، ج1، إشراف لومير دي فيلر، ترجمة حمزة الأمين يحيوي ومالك بن خيرة، طبعة خاصة، 2013م، ص 51.

4 ف. أكاردو، المصدر نفسه، ص 80.

5 Les Amouchas.

6 Ex-Chevreuil.

(سילاق)¹، وأخيرا عين الكبيرة (بيريقو فيل) في سنة 1904م، وبها فتح دكانا لبيع المواد الغذائية وغيرها، ثم وسع تجارته فأصبح يبيع الكتان، كما اشتغل تاجرا متنقلا في أسواق المنطقة، منها أسواق عموشة (يوم الأحد) و بابلور (يوم الجمعة) وبني مجالد (يوم الأربعاء) وسطيف (يوم الثلاثاء)، اشترى العديد من الأراضي من المستوطنين بين 1912م-1925م بعقود موثقة، وتحول إلى النشاط الزراعي².

زاول الشاب بلعيد تعليمه الثانوي، بمدينة سطيف، بثانوية أوجين ألبرتيني³ (افتتحت سنة 1873م) الشهيد محمد قيرواني⁴ حاليا، التي احتلتها

1 Ex-Sillégue.

2 Bélaïd Abdesselam: Chroniques et réflexions Inédites sur des thèmes sur un passé pas très lointain, les éditions Dar Khettab, Boudouaou, Alger, p 7-19.

3 Lycée Colonial Eugène Albertini.

4 محمد قيرواني: ولد في 21 جوان 1933م، ابن أحمد وعائشة قيرواني، من عائلة ميسورة الحال، والده كان مترجما. قضائيا، تحصل على الشهادة الابتدائية، التحق بثانوية ألبرتيني لكنه طرد وشطب منها مع رفاقه بسبب نشاطهم السياسي، ثم قرر المجلس التأديبي توجيهه لمواصلة الدراسة بقسنطينة، وهناك تحصل على شهادة البكالوريا الجزء الأول، ثم سافر إلى فرنسا والتحق بثانوية لويس الكبير الشهيرة، فحاز بها على شهادة البكالوريا الجزء الثاني شعبة الأدب والفلسفة في أواخر سنة 1955م، عادها بعدها إلى الجزائر وعين موظفا بدار الضرائب بصفة مترجم قضائي في عين الكبيرة بسطيف، وفي المقابل كان يقوم بنشاط سري لصالح الثورة التحريرية يتمثل في جمع الأسلحة والذخيرة وآلات الكتابة، كما قام بإلقاء قنبلة على مخمرة في وسط مدينة سطيف، فلما اكتشف أمره اضطر للالتحاق بصفوف الثوار بالجنال، فتدرج في المسؤوليات والرتب، استدعته قيادة الولاية الأولى الأوراس لترجمة وتحليل المراسلات التي تصلها عن طريق الأجهزة اللاسلكية من القيادة العامة بالخارج، تقلد منصب ملازم أول مكلفا بالاستعلامات في الولاية ذاتها، استشهد في 16 أكتوبر 1961م عند سفح جبل بوراوي مشته أمزودور بلدية تاكسلانت بنقاوس الولاية الأولى، حيث أنه وعقب انتهاء اجتماعي دوري، اكتشف العدو مكانهم بوشاية من أحد الخونة، فحاصرتهم قواته المدججة بالمدركات والطيران الحربي، وبعد قتال عنيف وشجاعة كبيرة أظهرها المجاهدون، استشهد منهم تسعة وهم: ساعد بن ازديرة قاض، عيسى غلال ممون، الجمعي برحايل عسكري، مصطفى حمادي

القوات البريطانية من 28 نوفمبر 1942م وإلى غاية 02 أوت 1944م، وجعلت منها مقرا لقيادة القوات العسكرية، بموجب الأمرية رقم 1266/2 سلسلة أ المؤرخة في 26 نوفمبر 1942م، أما التلاميذ فنقلوا إلى مدرسة الذكور المعروفة الآن بمتوسطة علام منصور، ولأنها تعمل فقط بنظام الدوام الخارجي، فقد حرم أبناء العائلات الفقيرة، والمناطق التابعة إداريا لسطيف، من مواصلة دراستهم¹.

شارك تلاميذ ثانوية ألبيرتيني بقوة، في مظاهرات 8 ماي 1945م بسطيف، مما جعل السلطات تنزل بهم أشد العقوبات ومنها الحرمان من المنحة، ثم ذهب إلى أبعد من ذلك بطردهم نهائيا من مقاعد الدراسة، فقد أمر عميد أكاديمية الجزائر بسحب المنحة للتلاميذ الآتية أسماؤهم: الصغير مصطفى، ومحمود بن محمود، ومحمد الطاهر معيزة، وعبد الحميد بن زين، ومحمد طرش، وياسين كاتب، ثم تم فصلهم عن مقاعد الدراسة بموجب القرار رقم 3819 و3821، وتوسعت القائمة لتشمل كل من: العمري عبد الرحمان، وخالد خوجة بوعلام، وبخوش كداد، والعمري بن نصر الدين، وعبد الرزاق جمام، وعمر فراني، ومحمد شرفاوي، وبلعيد عبد السلام، والطيب تاكليت، وبوعلام يانت².

كاتب، محمد قيرواني ضابط استعلامات، سليمان عروة كاتب، الصادق شبوب ضابط من الولاية السادسة، بوزيد دردار ممون، عياش نقاز عسكري، ونجا ثلاثة منهم بالرغم من إصابتهم وهم: محمد الشريف جار الله مسؤول، مسعود بن عبيد سياسي، عمر جدي عضو تموين. خير ذويبي: نبذة عن حياة الشهيد البطل محمد قيرواني، أعمال الملتقى الوطني الأول مآثر الثورة التحريرية في منطقة سطيف، جمعية النبراس الثقافي لبلدية سطيف، 2022م، ص 106-120.

1 شهادة محمد بوقصة، تحيا الجزائر، عدد خاص، صدر عن ولاية سطيف، بمناسبة الذكرى 69 لمجازر 8 ماي 1945م، ماي 2014م، ص 74-77.

شهادة محمد بوقصة، ص 74-77.

انخرط بلعيد عبد السلام، في صفوف حزب الشعب الجزائري سنة 1944م، تحت إشراف عمار بوجريدة¹ الصديق القديم لمصالي الحاج (1898م- 1974م)، فانتفى إلى الخلية السرية للحزب بعين الكبيرة (بيريقوفيل) مسقط رأسه، و الخلية الثانية الخاصة بتلاميذ الثانوية المذكورة آنفا، و يرأسها المناضل عبد الحميد بن زين (1926م-2003م)، و بخصوصها يقول بلعيد في مذكراته: أنه ارتكب خطأ يخالف لوائح الحزب، لما أرسل تقريراً بالبريد بخصوص إنشاء الخلية، إلى مسؤوله بعين الكبيرة عبد القادر بولحية، يخبره بحيثيات الاجتماع التأسيسي، فوقعت الرسالة في أيدي عناصر الأمن، القادمين من سطيف، إذ عثروا عليها بمقهى كافى مور²، اعتقل على إثرها في 18 ماي 1945م، رفقة مناضلين آخرين و منهم عبد الحميد بن زين³، الذي

1 عمار بوجريدة: حسب شهادة المسعى عمر قردوح المولود سنة 1939م والساكن ببلدية عين الكبيرة، والتي زدنا بها الدكتور لخضر بوطبة فإن المسعى عمار بوجريدة، مناضل أبعدته السلطات الاستعمارية من قالمة، بسبب نشاطه السياسي، يعمل اسكافيا، ساهم في نشر الوعي السياسي في بلدة عين الكبيرة (بيريقوفيل)، شارك في أحداث 8 ماي 1945م، وشاهد عمليات القمع والتقتيل والانتقام الفظيع من السكان العزل.

2 Café Maure.

3 من مواليد 27 أبريل 1926م، ببني ورثيلان بسطيف، تلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة قرقور، عبد الحميد بن زين ثم انتقل إلى بجاية لإكمال تعليمه، أما تعليمه الثانوي فزاوله بثانوية ألبرتيني بسطيف، انخرط مبكراً في النشاط السياسي إلى جانب التيار الاستقلالي، فأسس فرع حزب الشعب الجزائري بسطيف، اعتقل عقب 8 ماي 1945م في حجرة الدرس من قبل عناصر الشرطة، و بعد إطلاق سراحه فصل نهائياً من التعليم الثانوي، اعتقل سنة 1948م بليبيا بمعينة آخرين في طريقهم إلى فلسطين للجهاد، انضم إلى المنظمة الخاصة وتعرف على العديد من القادة والمناضلين، هاجر إلى فرنسا في جويلية 1950م بوثائق مزورة، و بها التقى وتواصل مع مناضلين زملاء له، و نشط ضمن الحركة العمالية في المهجر، أصبح عضواً في هيئة تحرير جريدة الجزائر الجمهورية، تحت إشراف المناضل الشيوعي هنري علاق، سجن في سبتمبر 1956م بسبب نشاطه ضمن الشبكات الشيوعية المسلحة في وهران و تلمسان، وحكمت عليه المحكمة العسكرية بوهران في أوت 1957م، بعشرين

وجدوا في حوزته قائمة بأسماء مسؤولي الحزب بسطيف، فتم استجواب بلعيد عما إذا كان هو صاحب الرسالة، وأمام نفيه تم تعذيبه، وتهديده بإحضار والده المسن وتعذيبه أيضا، ففعلوا ذلك أمامه، فلم يجد بدا من الاعتراف، خاصة وأنهم ذهبوا إلى ثانوية ألبيرتيني وتأكدوا من خطه، ومن مقر الثكنة العسكرية بسطيف، نقلوه إلى محكمة الجنايات العسكرية بقسنطينة، وحكم عليه بأربع سنوات سجن نافذة، ووضع في زنزانة مصفحة بنيت على حد قوله في عهد الشيخ محمد أمزيان الحداد¹، الذي سجن في السجن ذاته- عقب نهاية ثورة 1871م- أطلق سراح الجميع، بموجب قانون العفو 16 مارس 1946م، أما عبد القادر بولحية² فاعتقل سنة 1947م،

سجنا نافذة مع الأعمال الشاقة، بعد استرجاع السيادة الوطنية نشط سياسيا وإعلاميا(جريدة الجزائر الجمهورية) تحت مظلة التيار الشيوعي، له عدة مؤلفات باللغة الفرنسية منها: المحتشد الصادر سنة 1962م، يوميات مسيرة 1987م، لومبار 1989م، الجبل والسهل 1991م، توفي في 08 مارس 2003م، في السابعة والسبعين من عمره، بعد مرض عضال ألزمه الفراش.

1 محمد أمزيان الحداد: شيخ الطريقة الرحمانية، ومركزها بقرية صدوق ببجاية، لبي رفقة ابنه عزيز ومحمد دعوة الشيخ محمد المقراني بانضمام إلى الثورة، التي أعلنها في مجانة وبرج بوعريرج سنة 1871م، بعد فشل الثورة سلم نفسه لسلطات الاحتلال بمعية ابنه، توفي في السجن العسكري بقسنطينة خمسة أيام بعد صدور الحكم عليه بالسجن الفردي لخمس سنوات، ودفن بقسنطينة، أما عزيز ومحمد فتم نفيهما إلى كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادي، رفقة المئات من الثوار.

1 عبد القادر بولحية: المدعو قدور، ولد في 21 جانفي 1925م بحي الكومينال ببلدة عين الكبيرة، ابن إبراهيم وخديجة رحماني، كان وحيد إخوته من الذكور، له أختان هما فاطمة والزهرة، تعلم في مدرسة عين الكبيرة، وحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ بيوض، عمل مبكرا مساعدا لوالده المريض في المقهى المملوك له في وسط البلدة، شارك في أحداث 8 ماي 1945م بعين الكبيرة مع عدد من رفاقه، وعقب الأحداث فر مع عائلته إلى مدينة الجزائر، لأنه أصبح مستهدفا من قبل السلطات الاستعمارية، مكث فيها لمدة سنتين، وفي سنة 1947م عاد إلى عين الكبيرة، واستقر في ضواحيها، أصيب خلالها بمرض خطير فتمكنت السلطات من إلقاء القبض عليه، وسجنته لأسبوعين في سجن بني عزيز ثم أطلقت سراحه، مستفيدا من قرار العفو الشامل، فاستأنف عمله في المقهى ونشاطه السياسي، انخرط في النشاط السياسي قبل 8 ماي 1945م، ودأب على قراءة جريدة حزب الشعب

بسبب الرسالة أيضا، وقد استشهد أثناء الثورة التحريرية¹. وبخصوص أحداث 8 ماي 1945م، ذكر بلعيد: أنه في صبيحة ذلك اليوم، سمح للتلاميذ بالخروج، فعاد إلى مسقط رأسه رفقة والده، الذي جاء كعادته لرؤيته، بحكم أن يوم الثلاثاء هو موعد انعقاد السوق الأسبوعي بالمدينة، وبمجرد وصوله أخذ بندقية الصيد المملوكة لوالده، بغرض الدفاع عن النفس، وقام بجولة في جبال المنطقة، ولم يتحدث شيئا عما حدث خلال ذلك اليوم، أصبح عضوا في اللجنة المركزية لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، خلال المؤتمر الثاني للحزب، المنعقد خلال شهر مارس 1953م². كما كان عضوا في اتحاد الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا³، وتولى رئاسته بين 1951م-1953م، وعضوا مؤسسا للاتحاد العام للطلبة المسلمين

الجزائري، عرف بجرأته الكبيرة في مخاطبة المسؤولين المحليين للاحتلال، التحق بصفوف الثورة التحريرية الولاية الثانية المنطقة الثانية القسم الثاني، وخوفا من الانتقام كلف من ينقل أسرته إلى أصهاره بمشتة الحرايق بسطيف، بفضل خبرته النضالية و السياسية استطاع تجنيد العديد من شباب المنطقة في الثورة التحريرية منهم: علاوة مرزوقي، دحمان عطروط، الشريف زكريا... وغيرهم، مما أهله ليكون محافظا سياسيا، اعتقل في شهر نوفمبر 1960م في مغارة ببني فودة، عذب تعذبا رهيبا ولما يتسوا من بوحه بأسرار الثورة وزملانه، نقلوه إلى موضع يقال له سيدي بن سعادة على الطريق المؤدي إلى عموشة، وقاموا بإعدامه رميا بالرصاص بكل برودة دم. وقد أسعد ذلك كثيرا المستوطنين الذين بث في قلوبهم الرعب، حيث دفع أحدهم الرشوة من أجل الإسراع في تصفيته جسديا، بينما طلب آخروهم روجي فيرلان من المسؤول منحه قطعة لحم من جسد الشهيد، لكن هذا الأخير رفض طلبه. معلومات أفادنا بها الدكتور لخضر بوطبة، في 18 أبريل 2023م.

1 Belaid Abdesselam, op-cit, p 7-24.

2 Ibid, p 7-24.

2. اتحاد الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا: جمعية طلابية تأسست في باريس في ديسمبر 1927م، ضمت عددا معتبرا من الطلبة الجزائريين في فرنسا، خاصة من جامعة باريس وضواحيها، شارك في تأسيسها عدد من الزعماء العرب، هدفها توحيد طلبة شمال إفريقيا والدفاع عنهم ماديا ومعنويا، وقد توسعت اهتماماتها إلى القضايا السياسية والفكرية والثقافية والاجتماعية بما فيها المرأة، عقدت

الجزائريين¹، في عام 1953م خلال الأزمة التي اندلعت داخل الحزب، اصطف إلى جانب الجناح المركزي المعارض لمصالي الحاج وأنصاره، التحق بالثورة التحريرية في سنة 1955م، وأسندت له مهمة التكوين في مدرسة إطارات جبهة التحرير الوطني، وبعد تأسيس الحكومة المؤقتة سنة 1958م كلف بالثقافة،

مؤتمرها الأول بتونس بين 20-22 أفريل 1931م بالمدرسة الخلدونية، والمؤتمر الثاني بالجزائر من 20-28 أوت 1932م، أما المؤتمر الثالث فعقد بباريس سنة 1933م بعد أن رفضت الإدارة الفرنسية في المغرب استقبال الهيئة الطلابية المشرفة على تحضير المؤتمر، والمؤتمر الرابع بتونس في أكتوبر 1934م بالمدرسة الخلدونية، والمؤتمر الخامس بتلمسان ما بين 6-10 سبتمبر 1935م، والمؤتمر السادس في 1936م بتطوان بالمغرب الأقصى، ومن أبرز الطلبة الذين نشطوا في إطار هذا التنظيم: قدور ساطور ورشيد مصطفى من الجزائر، والمنجي سليم وأحمد بن ميلاد من تونس وغيرهم، مارست السلطات الاستعمارية الفرنسية الخناق على نشاط الجمعية وأعضائها لخشيتهما من التجمعات الطلابية. للمزيد ينظر: أحمد مريوش: محاضرات في تاريخ الجزائر 1900م-1954م، ج 2، ط 1، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص 293-299.

3 الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين: قرر الطلبة الجزائريون في جامعة الجزائر، الانفصال عن الاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين، فأسسوا الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في جويلية 1955م، بغرض الدفاع عن المصالح المادية والمعنوية لجميع الطلبة الجزائريين في كل مكان، والعمل على وحدتهم وربط مصيرهم كمثقفين بمصير الشعب الجزائري الذي كان يكافح ضد الاحتلال، فتحمل الطلبة والتلاميذ الجزائريون متاعب جمة ومضايقات كبيرة عقب هذه الخطوة، لكنهم استماتوا في نشاطهم النقابي والدعائي لصالح الثورة التحريرية، وكان من المحطات الهامة في مسيرته إضراب 19 ماي 1956م عن الدراسة، والالتحاق بجيش التحرير الوطني في الجبال، وخلايا جبهة التحرير الوطني وفي المدن والقرى، للعمل كممرضين وجنود ومفوضين سياسيين ومدرسين متنقلين وسعاة بريد واتصال وغيرها. ومن بعض الرواد المؤسسين للاتحاد وفروعه: محمد بن يحيى، مسعود آيت شعلال، عبد السلام بلعيد، أحمد طالب الإبراهيمي، عبد الرحمان مهري، عبد الرحمان شريط، عيسى مسعودي، محمد مسعودي، خليفة الجنيدي، قاسم مولود، عبد القادر شلالي، يحيى بوعزيز... وغيرهم. قدم الاتحاد الكثير من الشهداء منهم: يحيى المكى، عمارة لونييس محمد، طالب عبد الرحمان، قاسم زدور إبراهيم، قاسم رزيق... وغيرهم. للمزيد ينظر: يحيى بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م، ص 350-375.

ثم بديوان وزير الشؤون الاجتماعية عبد الحميد مهري¹، فديوان رئيس الحكومة المؤقتة بن يوسف بن خدة² في 1961م³.

وبعد استرجاع السيادة الوطنية، تولى عدة مناصب إدارية وتنفيذية منها: مديرا عاما لشركة سوناطراك بين 1964م-1966م، وزيرا للصناعة والطاقة، ووزيرا للصناعة الخفيفة، ورئيسا للحكومة من جويلية 1992م وإلى غاية أوت 1993م، توفي في 27 جوان 2020م، له عدة كتب باللغة الفرنسية، ترجم أغلبها إلى اللغة العربية، منها:
-كتاب: الغاز الجزائري استراتيجيات ورهانات⁴، الصادر سنة 1989م عن مطبوعات بوشان؛

1 عبد الحميد مهري: ولد في عام 1926م بالخروب بقسنطينة، مناضل في الحركة الوطنية، عضو في المجلس الوطني للثورة الجزائرية منذ 1956م، وفي لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية، عين في 1958م وزيرا للشؤون الاجتماعية في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وفي 1960م وزيرا للشؤون الاجتماعية والثقافية، وخلال عهد الرئيس هواري بومدين تولى منصب الأمين لوزارة التعليم الثانوي، ثم وزيرا للإعلام والثقافة في مارس 1979م، كما عين سفيرا في كل من فرنسا والمغرب، وفي عهد الرئيس الشاذلي بن جديد أصبح أمينا عاما لحزب جبهة التحرير الوطني. عبد المجيد رمضان: شخصيات صنعت تاريخ الوطن، ط 1، دارنزهة الألباب، غرداية، الجزائر، 2005م، ص 72.

2 بن يوسف بن خدة: ولد عام 1922م بالبليدة، أنظم إلى صفوف حزب الشعب الجزائري أثناء الحرب العالمية الثانية، وبعد مؤتمر أفريل 1953م أصبح سكرتيرا للحزب، شكل مع حسين لحول أبرز الشخصيات في اللجنة المركزية، التحق بجبهة التحرير الوطني في 1955م، ليصبح عضوا في المجلس الوطنية للثورة الجزائرية (1956م-1962م)، وعضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ (1956م-1957م)، ثم وزيرا للشؤون الاجتماعية في سبتمبر 1958م، وفي الأخير رئيسا للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وبعد استرجاع السيادة الوطنية أقصي من الحياة السياسية ولم يعد إليها إلا في 1976م (محمد حربى: الثورة الجزائرية سنوات المخاض، ترجمة نجيب عياد و صالح المثلوثي، د ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 1994م، ص 183).

3 محمد الشريف ولد الحسين: عناصر للذاكرة حتى لا ينسى أحد-من المنظمة الخاصة إلى استقلال الجزائر في 05 جويلية 1962م، د ط، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009م، ص 62..

4 العنوان الأصلي للكتاب هو:

- كتاب: الصدف والتاريخ¹، بالاشتراك مع محفوظ بنون وعلي الكنز؛
- كتاب: الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين²، الصادر سنة 2011م، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار بالجزائر؛
- كتاب: البترول والغاز الطبيعي في الجزائر، الصادر سنة 2012م³؛
- كتاب: من أجل استعادة بعض الحقائق حول ثلاثة عشر شهرا على رأس الحكومة (جويلية 1992م-أوت 1993م)⁴، المنشور على الإنترنت؛
- كتاب: هل الوحدة الاقتصادية المغاربية ممكنة؟ - في أصول الوحدة المغاربية⁵، الصادر سنة 2014م، عن دار الكتاب بالجزائر، ترجمه إلى اللغة العربية عبد السلام عزيزي؛
- كتابه الأخير: وقائع وتأملات غير منشورة لمواضيع حول ماض ليس ببعيد جدا، الصادر سنة 2017م، عن دار خطاب بالجزائر، وهو شبه مذكرات.

Le gaz Algérien-stratégie et enjeux, éditions Bouchène, 1989.

العنوان الأصلي للكتاب هو:1

Le hasard et L'histoire (2 tomes) en collaboration avec Mahfoud Bennoune et Ali El Kenz, éditions ENAG, Alger, 1990.

العنوان الأصلي للكتاب هو:2

L'union générale des étudiants musulmans Algériens(UGEMA), Alger, éditions ANEP, 2001.

العنوان الأصلي للكتاب هو:3

Le pétrole et le gaz naturel Algérien, éditions ANEP, Alger, 2012.

العنوان الأصلي للكتاب هو:4

Pour rétablir certaines vérité sur treize mois à la tête du gouvernement (Juillet 1992-Aout 1993) diffusé sur internet: www.belaidabdesselam.com

العنوان الأصلي للكتاب هو:5

L'unité économique du Maghreb est-elle possible? Aux origines de l'unité maghrébine.

ثانيا- عين الكبيرة أثناء 8 ماي 1945م

عاشت بلدة عين الكبيرة (بيريغو فيل)، مركز بلدية تاقيطونت المختلطة، الواقعة على بعد 27 كلم من سطيف أحداث ومجازر 8 ماي 1945م، على غرار البلدات والقرى المجاورة : أولاد عدوان، عموشة و تيزي نبشار، الوادي البارد، و خراطة، والأوريسية، وبابور، والدهامشة، و بني عزيز (شوفراي)، وعين السبت، ومعاوية، وسرج الغول، وبني فودة (سيلاق)، فقد اندلعت بها الأحداث في اليوم نفسه، بعد أن وصلت أخبار القمع الدموي للجزائريين في مدينة سطيف، عن طريق مناضل حزب الشعب الجزائريين، ضيافات مبروك المدعو العدواني¹ (من قرية الضيافات بعموشة)، فكانت ردود الفعل قوية على ما جرى، تضامنا مع الضحايا الجزائريين، وكان القمع الاستعماري عنيفا ورهيبا، قتل وإبادة وإعدامات و حرق ونهب وقصف وتدمير، واعتقالات وسجن وتعذيب، ومطاردات في كل مكان للفارين، مورست على نطاق واسع، من قبل عناصر الجيش الفرنسي، واللفيف الأجنبي، والدرك، والشرطة، والاستخبارات، والمليشيات المسلحة، وغلاة المستوطنين.

1 مبروك ضيافات: المدعو العدواني، ابن محمد ومسعودة بوعرعور، ولد في 15 مارس 1906م بثنية الطين، استدعي إلى الخدمة العسكرية الإجبارية، وبعد أدائها اشتغل بالفلاحة، استدعي من جديد للجيش الفرنسي بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، انخرط في صفوف الحركة الوطنية الجزائرية، شهد مظاهرات ومجزرة 8 ماي 1945م بسطيف وهو من نقل أخبارها إلى القرى والمناطق الشمالية، أُلقي عليه القبض مع جزائريين آخرين بتهمة التحريض على العنف وزج بهم في السجن، وأطلق سراحه بفضل ضابط فرنسي التقاه في السجن سبق وأن كان سائقا له، انخرط في صفوف حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية سنة 1947م، التحق بالثورة التحريرية سنة 1956م بالقسم الثالث الناحية الأولى المنطقة الأولى الولاية الثانية، عين مسؤولا مكلفا بالتموين إلى غاية اكتشاف أمره ففر رفقة عائلته إلى بابور، استشهد سنة 1950م بلعقبات بابور إثر عملية تطويق قام بها الجيش الفرنسي. مديرية المجاهدين لولاية سطيف، قاموس شهداء عموشة.

في البدء، قتل المتصرف الإداري الرئيسي، لبلدية تاقيطونت المختلطة المسمى روني روسو¹، رفقة نائبه ايف بانسال²، في مقرمان (بين قريتي أولاد فايد والضيافات على الطريق الرابط بين سطيف وبجاية) بالقرب من عموشة، أثناء عودتهما من بلدة خراطة، ولم يعثر على جثتهما إلا بعد ثلاثة أيام، أما قاض الصالح الكمال محمد روجي³ والسائق عمر بوقدورة، فأخلي سبيلهما، وعادا إلى عين الكبيرة، التي هاجم فيها المنتفضون المسلحون، ببنادق الصيد والفؤوس والسيوف منازل الأوروبيين، ومنهم ريشو صوبان⁴ الذي قتل مع ابنه⁵، والطبيب مازوكا⁶ الذي لم يعثروا عليه- وقتلوا موزع البريد و ابنه، ومالك الأراضي فابريهني⁷، وكل من: لابي نافارو⁸، بيري إدموند⁹، إيميني الابن¹⁰، فتيار الابن¹¹، فلاندران جوزيف¹²، كارييه شارل¹³، مورال ألكسيس¹⁴، علاوة على مهاجمة برج البلدية المختلطة، ونهب محتوياته من

1 Rousseau René, Administrateur.

2 Bancel Yve, Administrateur Adjoint.

3 El Kamel Mohamed Roger.

4 Richaud- Saubin père.

5 Richaud fils.

6 Docteur Mazzuca médecin des colonies.

7 Henri Fabrer.

8 L'abbé Navarro.

9 Perret Edmond.

10 Eymenier fils.

11 Vétillard fils.

12 Flandrin Joseph.

13 Carrier Charles.

14 Morel Alexis.

الأسلحة والذخائر الموجودة فيه¹، قدرتها برقية سرية للدرك مؤرخة في 10 ماي 1945م بـ: 45 بندقية و 10000 آلاف خرطوشة²، وقد بلغ عدد القتلى الأوروبيين 11 قتيلا، وفي رواية أخرى 19 قتيلا³.

وكان من بين المهاجمين: الحواس بلمهوب، الخير شقرون، مسعود أعراب، البشير بوطوقة، عبد القادر بولحية، محمد قرفي، السعدي قرقور، المولود سمارة، لخضر سمارة، بوجمعة أولمان المدعو المولود... وغيرهم، كما استهدف المهاجمون أيضا، خطوط الهاتف لمنع الأوروبيين من الاتصال بمقر القيادة بسطيف وطلب المساعدة، التي جاءت في حدود الساعة الثالثة بعد الظهر، بوصول مدرعة مع سيارة للجنود السنغاليين، وفي صبيحة الغد قدمت نجدات إضافية ضمت جنودا من اللفييف الأجنبي، فوجدت أن أغلب السكان قد غادروا البلدة، فجمعت من بقي منهم ونقلتهم إلى سطيف، حيث تعرضوا لشتى أنواع التعذيب الفظيع، كما فتحت نيرانها على الجميع من دون استثناء، الأطفال والنساء والشيخوخ، وجر البعض بواسطة الشاحنة حتى الموت، وحتى المكفوفين تمت تصفيتهم، وتولت الطائرات مهمة قصف وحرق المداشر والقرى مثل: أولاد عدوان والسيائرة وحي الكومينال ولقدايم ولقراقرة وبورقازن والقطار والحومر وأولاد خالد وأولاد سي قاسم، فضلا عن حرق المحاصيل وإفراغ المطامر وإضرام النار فيها، وسرقة قطعان الأبقار والأغنام، وقامت بإعدام حتى أولئك الذين سلموا أنفسهم، أما الحصيلة فكانت 68

1 رضوان عيناد ثابت: 8 أيار/ 45 والإبادة الجماعية في الجزائر، ترجمة سعيد محمد اللحام، ط 2، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، ص 70.

2 جون لوي بلانش: سطيف 1945م بوادر المجزرة، ترجمة عبد السلام عزيزي وآخرون، د ط، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007م، ص 212.

3 رضوان عيناد ثابت، المرجع نفسه، ص 70، ص 215.

شهيدا، وإصدار 11 حكما بالإعدام، و111 حكما بالسجن في مدد تتراوح بين السنة ومدى الحياة¹.

ومن بين عمليات الانتقام البشعة المسجلة، تلك التي حدثت للمسعى العمري سمارة، المتهم بقتل المستوطن هنري فابريير، مالك الأراضي الشاسعة في منطقة مرج ميدون بعين الكبيرة، حيث قام بتسليم نفسه بعد أن سئم من الفرار والاختباء، فتم تسليمه لزوجته المستوطن المشار إليه آنفا، فقامت بتعذيبه تعذيبا قاسيا، حتى سقط وخارت قواه، ثم قتلتها بفأس وقطعت جثته إربا وإربا بواسطة الساطور، ورمته إلى كلابها الذين رفضوا أكله بالرغم من تجويعها، فأمرت العمال الجزائريين لديها بدفنه بعيدا عن ملكيتها الخاصة، ولا يزال مكانه دفنه مجهولا لغاية الآن².

وتلك التي حدثت أيضا، مع اليامنة عصماني، التي كانت تسكن في حي الكومينال بعين الكبيرة، حيث أنها ذهبت لجلب الماء من منبع قريب، فالتقت خلال عودتها إلى مسكنها بجنود الاحتلال فأطلقوا عليها النار، فأصيبت إصابة بليغة ونقلت إلى مسكنها حية، ولم يستطيعوا تقديم العلاج لها، بسبب تلك الظروف، ليعود جنود الاحتلال ويقومون بربطها إلى شاحنة وسحبها إلى غاية أسفل البلدة، فلفظت أنفسها ودفنت مع مجموعة أخرى من القتلى، بالقرب من المستشفى القديم³.

ثالثا- المراسلة السرية ومحتواها

هي مراسلة سرية تحمل رقم 3314، وجهها المحافظ الرئيسي للشرطة

1 للمزيد ينظر: لخضر بوطبة: "انتفاضة 8 ماي في منطقة العين الكبيرة من خلال بعض الشهادات الحية"، المجلة التاريخية الجزائرية، مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية، جامعة محمد بوضياف المسيلة، الجزائر، المجلد السادس، العدد 01، 2022م، ص 1031-1052.

2 لخضر بوطبة، المرجع السابق، ص 1040.

3 المرجع نفسه، ص 1038، 1039.

القضائية، رئيس الفرق المتنقلة لعمالة قسنطينة المسعى: أ. رايبوا¹، إلى مدير الأمن العام بالجزائر، بتاريخ 05 جويلية 1945م، وأرسلت نسخ منها إلى كل من: الوالي العام للجزائر، و عامل عمالة قسنطينة، ورئيس دائرة سطيف، كتبت على الآلة الراقنة بالحبر الأسود، تتكون من صفحتين، في حالة جيدة، على الصفحة الأولى ختمان باللون الأزرق، الأول يتعلق بختم البريد الواصل الخاص بعمالة قسنطينة بتاريخ 09 جويلية 1945م، والثاني ختم العمالة للبريد الصادر و يحمل تاريخ 13 جويلية 1945م، أما صفة واسم المرسل فكتبت باللون الأحمر، والتوقيع باللون الأسود في آخر الصفحة الثانية، تضمنت المراسلة ثلاثة نقاط هي: حوادث 8 ماي 1945م ببريقوفيل (عين الكبيرة)، رفض تقديم المساعدة و حمل أسلحة وذخيرة حربية بطريقة غير شرعية، التواطؤ في عمليات القتل.

بدأت المراسلة بالإشارة، إلى أنه في اللحظات الأولى للأحداث، قتل كل من الشاب مارسال صوبان² البالغ من العمر 10 سنوات، ووالده قابض بريد بيريوفيل (عين الكبيرة)، وشقيقه بيير³ البالغ من العمر 11 سنة، وأن السيدة سكاربيتا⁴ البالغة من العمر 29 سنة وأم لثلاثة شبان، وبعد أن أخبرها زوجها المجند بنهب مكتب البريد ومسكنهما من طرف العرب، ومقتل شقيقها وهو لا يعلم أن والدها قتل أيضا، اندفعت مرعوبة إلى منزل جارة لها، خوفا وقلقا على حياتها وحيات أبنائها، متسلقة الجدار معهم ومع الشاب صوبان، واستطاعوا الوصول إلى سقيفة المبنى الملاصق للملوك للغني

1 A. Raybaud Commissaire principal de la police judiciaire chef des brigades mobiles du département de Constantine.

2 Marcel Saubin fils du receveur des postes de Périgotville.

3 Pierre Saubin fils du receveur des postes de Périgotville.

4 Mme Scarpita.

وصاحب الأملاك، المسى عبد السلام أحمد بن علي، لكن ابن هذا الأهلي المسى عبد السلام بلعيد بن علي، البالغ من العمر 17 سنة، طالب بالمدرسة الثانوية الكولونيالية (ثانوية أوجين ألبرتيني/ الشهيد محمد قيرواني) بسطيف، شاهدتهم فأمرهم بالمغادرة، وصرخ فيهم قائلاً: لماذا جئتم لإزعاجنا هنا، عودوا من حيث أتيتم.

وتضيف المراسلة، أنه بعد ذلك، سلم الشاب بلعيد للمسى قرشوش عبد الله¹ ابن العربي بن الطاهر، العامل لدى والده، الذي شارك في أحداث بيريغوفيل (عين الكبيرة)، مسدسا معبئا بخمس خرطوشات، وعلبة ذخيرة لهذا السلاح، وقد شوهد هو بذاته (عبد الله قرشوش) من بين مجموعات من الأهالي، يحمل بندقية صيد ويتحزم بخزان للخراطيش.

وجاء في المراسلة أيضا، أن بلعيد عبد السلام، كان عضوا في خلية سرية لحزب الشعب الجزائري، مشكلة في المدرسة الثانوية الكولونيالية بسطيف، من طرف التلاميذ الفرنسيين المسلمين، قد أنكر أنه شارك في الأحداث قائلاً: أنه كان فقط مسلحا، من أجل مرافقة عائلته المؤلفة من زوجتي أبيه وأختيه وأربعة إخوة ذكور، إلى دوار الدهامشة² عند المسى خرفة

1 عبد الله قرشوش: ابن العربي بن الطاهر، وزوينة فودي، كان من أبرز المقتحمين لمقر المتصرف الإداري الرئيسي (الحاكم) لبلدية تاقيطونت المختلطة تاقيطونت، المسى روني روسو، وقيل أنه قتل فيما بعد انتقاما، على يد الطبيب مازوكا الذي حقنه بحقنة مجهولة، لما نقل إليه للعلاج بعد مدة من الفرار.

2 الدهامشة: جاء في معجم قبائل ودواوير الجزائر الذي أعده ف.أكاردو أن: مساحتها 11191 كلم، قبيلة غير خاضعة لتطبيق المرسوم التشريعي، تابعة للبلدية العربية تاقيطونت، المقاطعة القضائية وملحقة تاقيطونت، الدائرة وقسمة سطيف، على مسافة 18 كلم جنوب شرق تاقيطونت وعلى الطريق الاستراتيجي بين جيجل وسطيف، عدد الأهالي 2498 نسمة، تتألف هذه القبيلة من البطون التالية: معاوية، تاكنانت، أولاد مبارك، وأولاد طلحة. ف.أكاردو، المصدر السابق، ص 95.

أحمد، واعترف بتسليمه لمسدس للمسمى قرشوش العربي، الذي ما زال في حالة في فرار، لكنه زعم أن الأمر حصل بعد الأحداث التي جرت في البلدة (عين الكبيرة).

اختتمت المراسلة بالإشارة، إلى أنه بعد التوصل بهذه المعلومات، تم وضع المسمى بلعيد عبد السلام، تحت تصرف المحكمة العسكرية، وإيداعه في الحبس الاحتياطي.

الملاحظات والاستنتاجات

- في البدء، نسجل اهتمام الأجهزة و السلطات الأمنية للاحتلال و أدواته، بمراقبة و تتبع النشاط السياسي و السلوك الاجتماعي، لفئة التلاميذ و الطلبة الجزائريين، قبل و أثناء أحداث 8 ماي 1945م، في منطقة سطيف التي كانت في تلك الفترة، عاصمة للحركة الوطنية الجزائرية، مما قد يفسر تركيز الأحداث فيها، وحجم المجازر و الجرائم الرهيبة المقترفة، والدمار الشامل الذي لحقها، وفي هذا الإطار، من الواضح، أن الشاب بلعيد عبد السلام، كان محل مراقبة شديدة منذ مدة، من قبل تلك الجهات، مع زملائه التلاميذ في ثانوية أوجين ألبرتيني وغيرها، الذين انخرطوا مبكرا في صفوف التيار الاستقلالي، ممثلا في حزب الشعب الجزائري، بإنشاء خلية طلابية سرية في مدرستهم الثانوية.

- جاء في المراسلة، أن سبب اعتقال الطالب الثانوي بلعيد عبد السلام، هو دوره الجلي في الأحداث، من خلال رفضه تقديم المساعدة، لأشخاص فرنسيين جيران له في حالة خطر استنجدوا بأسرته، وتسليمه لمسدس لعامل لدى والده يسمى عبد الله قرشوش، بينما بلعيد نفسه فسر مؤخرا فقط أمر الاعتقال، بعثور الشرطة القادمة من سطيف، على الرسالة المرسلة من قبله بالبريد، إلى مسؤوله في الحزب بعين الكبيرة المسمى عبد القادر بولحية، ولم

يذكر مطلقا قصة المسدس، واعترف فقط بحمله لبندقية أبيه يوم الأحداث، بداعي الدفاع عن النفس، والتي يبدو أنها كانت مرخصة، فهل كانت تهمة تسليم المسدس حقيقية أم ملفقة؟ ثم لماذا لم يتطرق إليها بلعيد سواء بالنفي أو بالتأكيد؟ وهل سئل فعلا عن المسدس المفترض أن سلمه أثناء استجوابه ومحاكمته؟ وإذا كان التهمة صحيحة فهل تنسجم مع إطلاق سراحه بموجب قانون العفو الشامل، خاصة وأن عبد الله قرشوش المعني باستلام المسدس، قد قام بدور فعال في الأحداث، ولا شك أنه استخدم البندقية التي كان يحملها والمسدس المفترض في قتل الأوروبيين وتم الانتقام منه فيما بعد بقتله من قبل طبيب المستعمرات الدكتور مازوكا عن طريق الحقنة السامة كما تداولته الرواية الشعبية؟

هل يمكن فهم تصرف الطالب بلعيد عبد السلام، أثناء الأحداث بعين الكبيرة، بكونه رد فعل طبيعي تلقائي، من شاب جزائري متعلم، أدرك أن الفرصة مواتية للانتقام، من أعوان ورموز الاحتلال في بلدته الصغيرة، وتضامنا مع ضحايا القمع الاستعماري في مدينة سطيف وضواحيها، أم أنه تصرف بناء على توجيهات من حزب الشعب الجزائري، من خلال مسؤوله بعين الكبيرة أو قيادته بسطيف، وإذا كان الأمر كذلك وكانت قصة المسدس حقيقية، فهل كان المسدس شخصا أم سلم له من جهة ما؟ وهل كان والده على علم بأمر المسدس؟ ولماذا لم يستعمله هو بنفسه؟

- وهل يؤثر كل ذلك، على صحة فرضية وقوف القيادة الوطنية لحزب الشعب الجزائري، وراء تدبير الأحداث؟ أم أن قيادة الحزب المحلية في سطيف هي المسؤولة عن ذلك؟ وهل نسقت في ذلك مع شخصيتين المؤثرتين في المنطقة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (1965م-1989م) وفرحات عباس (1899م-1985م)؟

-لم تشر الوثيقة، عما إذا كان الوالد أحمد عبد السلام، على علم بما كان يقوم به نجله الشاب بلعيد، من نشاط وطني سياسي طلابي سري، بالمدرسة الثانوية أوجين ألبرتيني، وبلدة عين الكبيرة، من خلال فرع حزب الشعب بها، بقيادة عبد القادر بولحية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لم تشر أيضا إلى الأمر ذاته، بخصوص سلوكه ودوره الراديكالي، أثناء الأحداث في مسقط رأسه، وحتى بلعيد نفسه، لم يتطرق إليها في حديثه عن والده، وهي برأينا معلومة هامة، على اعتبار الوضع الاجتماعي المريح نوعا ما للوالد، ودور مفترض له في الأحداث، ولو بغض الطرف عما كان يقوم به نجله المثقف.

-إنه كان من المفيد جدا، أن يتوسع بلعيد عبد السلام، في الحديث على الأقل، عن مجريات أحداث ومجازر 8 ماي 1945م بمسقط رأسه، حيث أن الإشارات البسيطة التي وردت في كتابه الأخير، غير كافية لتسليط المزيد من الضوء عليها، باعتباره شاهدا عليها وفاعلا فيها، خاصة وأنها كانت محطة هامة، في مسيرته النضالية الطويلة، حيث ركز في مؤلفاته وكتباته بشكل خاص، على مساره السياسي، بعد استرجاع السيادة الوطنية، وإلى غاية تقاعده ووفاته.

-سيظل يوم 8 ماي 1945م و ما تلاه من أيام، تاريخا في حد ذاته للجزائر المعاصرة، يمكن فك بعض خباياه وأسراره ودفائنه، بالاعتماد على الرصيد الأرشيفي الاستعماري المتاح حاليا، الذي لا يجيب بطبيعة الحال على جميع الأسئلة، التي يطرحها المؤرخون والدارسون والمهتمون، على حد سواء، وإنما قد يساعدهم على طرح المزيد منها، حتى تكتمل الصورة التي مزقتها الاحتلال عن سبق إصرار وترصد، ولا شك في ذلك، ولكنه نسي التخلص من أجزائها الممزقة، و تلك هي البداية والغاية والنهاية، ولنا في تاريخ 8 ماي 1945م بسطيف وغيرها، جولات تاريخية أخرى، مع وثائق وشهادات جديدة، بإذن

الله تعالى.

J'ajoute, sans pouvoir donner pour le moment, d'autres précisions que cet agent, a commis les pires exactions, après qu'il fut relâché de Sétif. Deux secours de 4.000 francs chacun, lui ont été accordés en mai dernier sur les fonds du budget communal, sans qu'il soit possible d'en connaître les motifs réels. Au surplus, M. KERAR Mohamed ne me paraît avoir subi aucun dommage pour être considéré comme une victime, étant donné, qu'il est également de notoriété publique que sa situation de fortune, postérieure aux événements est bien plus consistante que celle dont il jouissait auparavant. /.



L'ADMINISTRATEUR,

[Signature]

دور معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس وشيوخه في الثورة التحريرية

أ.د عبد الله مقلاتي

مدير مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية

جامعة المسيلة

abdalah.meguelati@univ-msila.dz

مقدمة

تعد مدارس الجمعية ومعهدا بقسنطينة نموذجا صادقا في التأكيد على انخراط الجمعية في دعم الثورة منذ اندلاعها، حيث تجند شيوخها وطلابها في إسناد ودعم الثورة، وهو ما نستشفه من خلال استعراضنا لمساهمة خلية معهد ابن باديس الثورية ودور أساتذته في دعم الثورة التحريرية، إذ ربط الشيخ العربي التبسي الاتصال بالثورة وأنشأ خلية لدعمها ترأسها إبراهيم مزهودي ومصطفى بوغابة من بعده، وأسهمت بأدوار فعالة في دعم الثورة التحريرية، وهو ما نحاول إبرازه في هذا البحث، اعتمادا على وثائق وشهادات تثري الموضوع وتساهم في توضيح كثير من الحقائق التاريخية.

أولا. العربي التبسي مدير المعهد وربط الاتصال بالثورة

كان الشيخ العربي التبسي يدير المعهد عندما اندلعت شرارة ثورة الفاتح نوفمبر 1954، وقد عرف عن الشيخ وطنيته الصادقة وأفكاره الثورية، تلك الأفكار التي نشرها على نطاق واسع في بلدته تبسة وعبر الوطن، ومما يؤثر عنه أنه عندما كان يلقي دروسه الوعظية اليومية في تبسة سأل أحد المستمعين عن قصة أهل الكهف السبعة الواردة في القرآن الكريم هل هي حقيقة؟، فما كان من الشيخ سوى أن أجابه جوابا سياسيا رمزيا بالقول،

"ما نعرف غير سبع ملايين رقاد في الجزائر أنت واحد منهم، ورسالة التبسي المشفرة واضحة، وهي إشعار الجزائريين بواقعهم الاستعماري المريع وبضرورة تفتطهم لتغييره أكثر من اهتمامهم بالقصاص التي تتحول في مخيلتهم إلى أساطير⁽¹⁾، كما تدل وقائع أخرى كثيرة أوردها مقربون منه عن ثورية التبسي الجامعة، ومنها أنه وخلال الحرب العالمية الثانية ألقى الألمان بالمضلات أسلحة في جبال النمامشة بقصد استعمالها ضد فرنسا، لكن الإدارة الفرنسية طالبت السكان بتسليمها لها، فتوجه السكان لسؤال التبسي في الأمر، فقال لهم: أرجعوا قليلا منها واحتفظوا بأكثرها، سوف يأتي يوم استعمالها، ولما بلغ ما قاله الشيخ للإدارة الفرنسية لفقت له تهمة التعاون مع الألمان وسجنته بسجن "لامبيز" ثم أطلقت سراحه لعدم ثبوت التهمة، وقد نقل عنه المقربون منه أنه عندما زار مصر في جولته المشرقية والتقى عبد الناصر في سبتمبر 1954 طالب منه صراحة أن يساعد الجزائريين بالسلاح، وهو ما ترك انطبعا جيدا لدى عبد الناصر الذي كان الداعم الأساسي للثورة وهي في مهدها⁽²⁾.

وفي اليوم الثاني لاندلاع ثورة 1954 خرج التبسي من منزله بتبسة فلقى شخصين مناضلين يعرفهما، فدعا أحدهما وسلمه مبلغ خمسمائة ألف فرنك طالبا منه إيصالها للجماعة بعد أن أبلغه أنها من حر ماله وليست من مال الجمعية⁽³⁾. وقد كشفت شهادة مساعده إبراهيم مزهودي اليتيمة حقائق أخرى عن مساهمة التبسي وجمعية العلماء في الثورة، حيث يذكر مزهودي أن تشجيع الشيخ التبسي كان يقف وراء التحاقه بصفوف الثورة، ويورد

1 محمد الميلي: ذكريات زمن البراءة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2012، ص ص 267، 268.

2 المصدر نفسه، ص ص 268، 271.

3 محمد الميلي: المصدر السابق، ص 269.

حادثة وقعت في بداية الثورة، إذ اتصل بعض قادة الثورة ومنهم شبحاني بشير بالشيخ العربي في تبسة، وطلبوا منه مساعدة الجمعية في توفير الألبسة والأغطية لمواجهة برد الشتاء القارس، وأعربوا عن رغبتهم في لقاء الشيخ العربي خارج المدينة وفي مكان قريب من الجبل الأبيض، فاتصل الشيخ العربي بمزهودي وأعلمه باتصال الجماعة، وبعد التشاور تبين أن خروج الشيخ يثير الشبهات ويمكن اكتشافه من قبل الإدارة الفرنسية وعيونها، وتقرر أن يقوم بالمهمة مساعده مزهودي، وتم إرساء اتصال وثيق بين الجمعية وقيادة الأوراس النمامشة انطلاقاً من جبل تازيننت⁽¹⁾، وامتد الاتصال بعدها إلى قيادة الشمال القسنطيني وعبان بالعاصمة، حيث طلب عبان من الشيخ التبسي تجند الجمعية لربط الاتصال بين قيادات الثورة وتقديم الدعم للثورة، وهي مهمة كلف بها التبسي مساعده مزهودي، وذلك بحكم وظيفة هذا الأخير مفتشاً للتعليم وعلاقاته بمعلمي المدارس الحرة في كامل الشرق الجزائري، وهكذا نهض التبسي ومزهودي بمهام جسورة في بداية الثورة، وجعلا من خلية الدعم الأساسية تتخذ من معهد ابن باديس مقراً⁽²⁾. وقد كان التبسي يتعهد نشاط هذه الخلية ويؤدي بعض المهمات والرسائل التي يكلفه بها عبان، وقد بدأ يظهر للعيان حماس التبسي في دعم الثورة، وعندما نفذت خلايا الثورة حكم الإعدام على محافظ الشرطة المركزية بالمدينة المسمى "سان مارسيلي" في مارس 1956 فقد اتجهت الأنظار أولاً إلى قادة الجمعية وشيوخ المعهد، ووضع غلاة المستوطنين قائمة من خمسين شخصاً يطالهم الإعدام انتقاماً من مقتل المحافظ، كان التبسي على رأس القائمة، وقد جاءه محمد الميلي طالبا منه الخروج من الوطن، ولكنه رفض

1 شهادة مزهودي، محمد عباس: رواد الوطنية، دار هومة، الجزائر، 2004، ص ص 396.397.

2 المصدر نفسه، ص 397.

ذلك مفضلا الاستشهاد في أرض الوطن⁽¹⁾، وهو ما تحقق له فعلا بعد سنة من هذه الحادثة، حيث كتب له أن يعيش معركة الجزائر بمأساتها الكبيرة، وأن يعتقل لمرات عدة، إلى أن أختطف من بيته وقتل غدرا من قبل عصابة اليد الحمراء الفرنسية في أفريل 1957.

ثانيا . معهد ابن باديس وخلايا دعم الثورة السرية

لقد تسلم مزهودي مهمته منذ أفريل 1955، حيث بدأ عبان ينشط بالعاصمة، وظل يؤدي مهمته السرية في ربط الاتصالات بين قادة الثورة نحو عام كامل، وفي فيفري 1956 اكتشف أمره، حيث علم عبان عن طريق عيونه في الإدارة العامة الفرنسية أن رأس مزهودي مطلوب في قسنطينة، وبعد مشاورات بين عبان والتبسي ومزهودي تقرر التحاق هذا الأخير بقيادة زيغود يوسف في أوائل مارس 1956⁽²⁾، وقد كانت الخلية الأم تضم في عضويتها كل من بوغابة مصطفى ومحمد الميلي، وقد أنشأت فروعاً تابعة لها في مدن الشرق الجزائري، وكانت تنسق عملها مع خلايا الفداء المشكلة بمدينة قسنطينة ومنها الخلايا التي يتولاها كل من : مصطفى عواطي⁽³⁾، وصالح

1 محمد الميلي: المصدر السابق، ص 270.

2 المصدر نفسه، ص 397.

3 ولد الشهيد في بداية الثلاثينات من عائلة متوسطة الحال، زاول تعليمه بمسقط رأسه إلى أن تحصل على الشهادة الابتدائية، غادر أرض الوطن متوجها إلى فرنسا حيث مكث بها عامين ونصفا، عاد إلى أرض الوطن لمواصلة نضاله في إطار حزب حركة الانتصار ح. د. والتحق بالثورة التحريرية بعد أربع أشهر من اندلاعها، وكان له فضل إرساء نظام الفداء بمدينة قسنطينة، وقد أسندت له مسؤوليات الإشراف على النظام المدني بقسنطينة، واستطاع في مدة قصيرة أن يلعب دورا مهما في تعبئة الجماهير الشعبية وبخاصة الشباب لخدمة الثورة، ظل يقوم بدوره الفعال إلى أن اكتشفت خليته النضالية وألقي عليه القبض، عذب لمدة خمسة عشر يوما ثم سجن بالكدية، قدم هو ورفاقه للمحاكمة يوم 24 فيفري 1957، وقضت المحكمة العسكرية بإعدامه رفقة أربعة من أفراد مجموعته الفدائية.

بوذراع⁽¹⁾، ومسعود بوجريو⁽²⁾، ولما التحق مزهودي بالجبل استخلف بوغابة في تولي مسؤولية خلية المعهد، وفي بداية نوفمبر 1956 اضطر بوغابة للالتحاق بالجبل إثر محاولة اعتقاله، وترك المسؤولية للطاهر سعدي حراث الأستاذ بالمعهد، وذلك إلى غاية جوان 1957، حيث انتقل متخفياً إلى تونس واستخلف الشيخ الصادق مخلوف في قيادة الخلية، فواصل مهمته إلى غاية اعتقاله إثر أسر مساعده أحمد حماني متلبساً في أواسط أوت 1957، وفي الوقت ذاته أسر مساعده حمادي الهاشي وتمكن محمد كحلوش من الفرار للجبل⁽³⁾.

1 أحد أبطال الثورة التحريرية الذين بذلوا جهوداً كبرى في خدمة الثورة التحريرية. ولد بمدينة قسنطينة سنة 1920، درس على يد ابن باديس، وانخرط في النشاط السياسي منذ الصغر وناضل في صفوف حزب الشعب، وعمل مدرسا بناحية برج منايل، وعندما اندلعت ثورة التحرير كان في طليعة من أزروها، وأشرف على تنظيم خلايا الفداء بمدينة قسنطينة مع رفيقه عبد المالك قيطوني، ولما اكتشف التنظيم في خريف 1955 التحق بالجبل وتجنّد بمنطقة الشمال القسنطيني، كلف مع الشهيد بوجريو بمسؤولية الفداء بمدينة قسنطينة، واصل نشاطه بإخلاص إلى أن سقط شهيدا في معركة قرب الميلية في 10 جانفي 1961.

2 بطل الفداء بمدينة قسنطينة، وأحد قادة الولاية الثانية المشهود لهم بالكفاءة والإخلاص. ولد عام 1930 ببلدية عين الكرمة بقسنطينة، تلقى تعليماً مزدوجاً في المدارس العربية الحرة والمدرسة الفرنسية، وأشرف على الأفواج الكشفية بمدينة قسنطينة، انخرط في حركة الانتصارح، د، وأصبح في سنة 1948 مسؤولاً عن خلية سيدي مبروك، التحق مبكراً بصفوف الثورة وكلف بمهمة حساسة وشاقة هي إرساء النظام المدني للجهة بمدينة قسنطينة، أدى مهمته بكل تفان وأنشأ عدداً كبيراً من الخلايا الفدائية، وأشرف بنفسه في يوم 30 أفريل 1955 على تنفيذ عملية فدائية جريئة، عين بعد مؤتمر الصومام مسؤولاً على خلايا مدينة قسنطينة الفدائية، وفي أواخر عام 1958 رقي بوجريو ليصبح نقيباً مسؤولاً على المنطقة الخامسة (مدينة قسنطينة)، فاستمر في تنظيم شبكة الفداء التي أربكت السياسة الفرنسية، اعتقل البطل في بداية عام 1960، وتمكن من الفرار بأعجوبة، واستشهد رحمه الله في كمين للقوات الفرنسية بمدينة قسنطينة نهاية عام 1960.

3 شهادة مصطفى بوغابة، مخطوطة بخط يده قدمت للباحث، وأحمد حماني: شهداء علماء معهد بن باديس، قصر الكتاب، الجزائر، 2004، ص 51.

وخلال السنة التي نشط فيها مزهودي الخلية، قدمت للثورة خدمات جليلة لم ينفذ عنها الغبار، ولم يكن معروفاً منها سوى أن مرسولي عبان، عمارة رشيد⁽¹⁾ وسعد دحلب⁽²⁾ اتصلا بقيادة الشمال القسنطيني عن طريق خلية المعهد التي يديرها مزهودي، ولكن نشاط الخلية كان واسعاً وثرياً، وإن كان أهمه ربط الاتصال بين قيادة الثورة في العاصمة والمناطق الأولى والثانية والثالثة.

لم يتذكر دحلب من شبكة الاتصالات التي نقلته إلى قسنطينة ثم سكيكدة أحداً، وذلك لطبيعة المهمة السرية، ولكنه يذكر أن مزهودي وصل إلى مقر قيادة زيغود في الوقت ذاته والتمس منه إبقائه في الجبل لأن العودة إلى مدينة قسنطينة أصبحت محفوفة بالمخاطر⁽³⁾، لقد كانت مهمة نقل دحلب للقاء زيغود على عاتق شبكة مزهودي بقسنطينة، فهي التي استقبلته ونقلته إلى سكيكدة بواسطة المناضل السعيد حمروش الذي كان يعرف

1 ولد بجرجرة سنة 1934، وانتقل مع عائلته للعيش بوادي الزناتي، درس المرحلة الابتدائية بعزازقة وبرج منايل، وأكمل دراسته الثانوية بالعاصمة ودخل جامعة الجزائر، عرف بنشاطه السياسي والطلابي المبكر، حيث ساهم في إنشاء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، سخر نفسه وماله لخدمة الثورة، فكانت قيادة الثورة تعقد اجتماعاتها في بيته، وتكلفه بمهام التنسيق والتموين، وقد عمل طبيباً بالمنطقة الرابعة إلى أن سقط شهيداً في 13 جويلية 1956.

2 مناضل وطني ودبلوماسي محنك قام بدور فعال في المفاوضات التي أفضت إلى استقلال الجزائر وهو على رأس وزارة الخارجية. ولد عام 1919 بقصر الشلالة، وانخرط في حزب الشعب أثناء الحرب العالمية الثانية، التحق بصفوف الثورة التحريرية رفقه قدامى حركة الانتصار المرکزيين، وعمل مساعداً لعبان رمضان في مدينة الجزائر، وقد أرسله هذا الأخير في مهمة للتنسيق مع قيادة منطقة الشمال القسنطيني، عين عضواً في لجنة التنسيق والتنفيذ، ووزيراً للشؤون الخارجية عام 1961، توفي في ديسمبر 2000.

3 DAHLAB Saad; Pour l'Indépendance de l'Algérie; mission accomplie ed, Dahlab, Alger, 1990, p50.

زيغود⁽¹⁾، وهو أمر تكشف عنه شهادة خليفة مزهودي على رأس الخلية المجاهد مصطفى بوغابة، والذي يورد تفاصيل الظروف الصعبة لايصال دحلب إلى زيغود، حيث يذكر أن نقطة الاتصال الأولى حددت في جبال سيدي مزغيش ولكن خروج القوات الفرنسية في ذلك اليوم حالت دون إجراء الاتصال، فتمت العودة إلى قسنطينة وترتيب اتصال ثان عبر مزرعة السمندو، حيث نقل المجاهد حمروش دحلب إلى مقر زيغود مشيا على الأقدام⁽²⁾.

إن خلية الدعم التي أنشأها مزهودي من معلمي المدارس الحرة⁽³⁾ لعبت الدور الأساسي في ربط الاتصالات بين قيادة الثورة، وكان هدفها الأولي تقديم

1 قائد الولاية الثانية التاريخية، ولد سنة 1921 ببلدة السمندو ولاية سكيكدة، ناضل في صفوف الكشفافة وحزب الشعب، وكلف بالإشراف على المنظمة الخاصة بسكيكدة، اعتقل إثر اكتشاف التنظيم، حوكم وسجن بعنابة، وتمكن من الفرار، عاش متخفيا في الأوراس، حضر اجتماع الاثنين والعشرين وكلف بالاستعداد للثورة بمنطقة السمندو، وفي فاتح نوفمبر 1954 شن عمليات جريئة على جندرمة السمندو، وأخذ بعدها بيد ديدوش في زرع خلايا الثورة وتكوين المجموعات المسلحة، وقد خلفه على قيادة الشمال القسنطيني، هندس هجمات العشرين أوت 1955 التي ضربت المستعمر في العمق، كما اجتهد في التنسيق مع المناطق الأخرى ومع الوفد الخارجي معتمدا على رجال جمعية العلماء، وكان من الداعين إلى عقد مؤتمر الصومام، واثرا انفضاضه سقط شهيدا في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر 1956.

2 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

3 بصفته مفتشا لإدارة التعليم الحر بالشرق الجزائري كون شبكة متماسكة وفاعلة، تمتد من برج بوغريج إلى عنابة وتبسة، ومركزها الرئيسي مدينة قسنطينة، وفروعها هي: خلية مدرة برج بوغريج ومسؤولها العربي سعدوني، خلية مدرسة سطيف ومن مسؤوليها بوعلام عبد الباقي، والحفناوي زاغر ومحمد الصالح بن الطامة، خلية مدرسة شلغوم العيد، ومن مسؤوليها الاستاذ سليمان بشلول، خلية مدرسة عنابة ومسؤولها مديرها الحملاوي بوالزرد، وبن الذيب سلطان وحمودة عاشوري، خلية مدرسة سكيكدة، ومسؤولها محمد الصغير قارة ومحمود بورزامة. شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

الدعم والمساندة للثورة، اتخذت من معهد ابن باديس مقرا رئيسيا، وبه مكتب مسؤول الخلية مزهودي وأساتذة وطلاب المعهد، وأنشأت فروعاً لها في مدن الشرق الجزائري الكبرى اعتماداً على سواعد معلمي المدارس الحرة وأعضاء جمعية العلماء ومحبيها، وبواسطة شبكة فروعها مكنت الخلية أساتذة المعهد وطلابه من لعب دور طلائعي هام في دعم الثورة، كما أنها قامت بأدوار هامة في دعم ومساندة الثورة في وقت مبكر من اندلاعها، ومن تلك لأدوار نذكر:

. مهمة الاتصالات

قامت الخلية بمهمة تجديد وإحياء قنوات الاتصال المنقطعة بين مسؤولي الجبهة في العاصمة وقادة الثورة في المناطق بالداخل وفي الخارج عبر تونس، وذلك في ظروف صعبة تميزت بازدياد حجم الضغط العسكري الفرنسي واستشهاد أو اعتقال بعض قادة المناطق، فكان على عban أن يتواصل مع القيادة التي خلفت ابن بوالعيد في الأوراس وديدوش في الشمال القسنطيني وأن يربط الاتصال بتونس، واهتدى إلى شبكة الدعم بمعهد ابن باديس، حيث تكفل الشيخ التبسي وابراهيم مزهودي بأداء المهمة، وتجنّد أساتذة المعهد وطلابه لإنجاحها، وبذلك أعادت الخلية ربط الاتصالات المقطوعة ومد قنوات جديدة، وأسهمت في ربط الاتصالات وبعث الحيوية المطلوبة لتواصل قيادات الثورة، فبخصوص منطقة الأوراس كلفت الخلية الشيخ الطاهر حراث الأستاذ بالمعهد محاولة ربط الاتصال في منطقة تبسة بواسطة الأستاذين العيد مطروح ومحمد الشبوكي، وكلفت الخلية تلميذي المعهد عالية بلقاسم والهاشمي حمادي إيجاد اتصال مع قيادة الأوراس عن طريق خنشلة، ثم كلفت أستاذي المعهد أحمد السرحاني وابراهيم مازوزي، والشيخ محمود الواعي الذي كان يتردد على قسنطينة، ومدير مدرسة عين

التوتة محمد درنوني بالسعي لربط الاتصال بقيادة الثورة في باتنة، وبواسطة هذه القنوات استطاع قادة الثورة في العاصمة من الاطلاع على أوضاع منطقة الأوراس التي كانت متردية عقب استشهاد ابن بوالعيد، وتصدوا لمعالجة مشاكلها وأزمتهما الحادة⁽¹⁾.

وفي منطقة الشمال القسنطيني كانت مهمة الاتصال بخليفة ديدوش سهلة نوعا ما، وقد طلب عبان ربط اتصالات سريعة مع زيغود ومساعديه ابن طوبال وابن عودة، وقد كلفت الخلية الأخ صالح كحلوش الذي كان يعمل مراقبا بالمعهد الاتصال بزيغود، وبواسطة مخلوف علي وابنه محمد تم مد قناة اتصال أولى، كما كلف الشيخ الحملاوي بوالزرد المدرس بعنابة والمتروك على موطنه قرب القرام الاتصال بابن طوبال وابن عودة، وعندما اعتقل واصل المهمة محمود بالنمر وسلطان ابن الديب وحمودة عاشوري، كما عززت الاتصالات بمركز قيادة كل من بني صبيح وقالملة، ويذكر مصطفى بوغابة أن هذه الشبكة كانت فاعلة وحيوية ونجحت في أداء مهامها، ومنها تسهيل مهمة لقاء عمارة رشيد ثم دحلب بزيغود، "وقد أثمرت هذه الاتصالات مع الولاية الثانية (الشمال القسنطيني) تنظيم زيارة أولى قام بها الأخ الشهيد أعمارة رشيد، اتصل فيها بقائد الولاية الشهيد زيغود يوسف ومساعديه، ثم بتنظيم زيارة ثانية قام بها الأخ سعد دحلب حفظه الله عن طريق مدرسة سكيكدة وصولا إلى جبال سيدي مزغيش"⁽²⁾، هذا وقد أصبحت خلية المعهد مع مرور الوقت عين الولاية الثانية وأداتها في توفير الدعم والمساندة في مدينة قسنطينة.

1 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

2 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

وبخصوص ربط الاتصال بقيادة الخارج عبر تونس فقد كانت المهمة دقيقة وحيوية، وخاصة في ظل عسر الاتصالات وأهمية تونس كقاعدة دعم استراتيجية، وكانت المهمة الأساسية حسب توجهات عبان تتمثل في تبليغ أو تلقي بعض الرسائل المكتوبة أو الشفهية بواسطة المسافرين خصوصا، وتؤكد شهادة مصطفى بوغابة أن جوهر المهمة كان ينحصر في أمرين: طلب تزويد الثورة بما تحتاجه من سلاح وعتاد، وإبلاغ قيادة الخارج دعوة المشاركة في مؤتمر الصومام، وقد أخذ الأمر الثاني المشار إليه طابع السرية التامة، حيث يذكر بوغابة أن "آخر مبعوث لنا في هذه المهمة إلى تونس في ربيع سنة 1956 . أثناء التحضير لمؤتمر الصومام . الأخ الشاب عبد الحميد الإبراهيمي حفظه الله..."⁽¹⁾، وسجل هذا الأخير فعلا في شهادة حديثة أنه كلف بمهمة إلى تونس في هذا الوقت من قبل مصطفى بوغابة، حيث قال: "كنت مسؤولا عن الطلبة الداخلين في المدرسة الفرنسية للمسلمين بقسنطينة، وفي عام 1955 التحقت عن عمر يناهز 19 عاما، بجهة التحرير الوطني في ظل قيادة الأخ مصطفى بوغابة، الذي لا يزال حيا. وفي عام 1956، انضمت إلى الولاية الثانية لجيش التحرير الوطني"⁽²⁾.

تقديم الدعم لقيادة الشمال القسنطيني

لقد تعززت علاقة زيفود بخلية المعهد من خلال روابط الثقة التي مدها مسؤول الخلية مزهودي، والذي تحول من مساعد للتبسي وعبان إلى مساعد لزيفود، وخاصة بعد النجاح في ربط الاتصالين الأولين مع مرسولي عبان، حيث أصبحت خلية المعهد وأساتذة وطلبة المعهد مسخرون في خدمة الثورة،

1 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

2 رد عبد الحميد الإبراهيمي على خالد نزال، على موقع بلا جدود، الرابط:

يقدمون مختلف المساعدات للولاية الثانية، ويمثلون خلية الإسناد الخلفية للولاية بعاصمة العمالة قسنطينة.

كما تحملت خلية المعهد مسؤولية الدعاية وطبع وتوزيع المنشائر الثورية، ومنها المنشور الداعي إلى إضراب فاتح نوفمبر 1955، والذي استلمته الخلية عبر شبكتها لتبلغه لقيادة الشمال القسنطيني، ولكن ضيق الوقت دفعها لتبادر إلى طبعه وتوزيعه في قسنطينة قبل فوات الأوان، حيث طبع المنشور بالساحبة اليدوية الموجودة بالمعهد ووزع سرا على التجار والموظفين وعامة الشعب في المدن والأرياف، وهو ما سمح بتنفيذ الإضراب وإنجاحه في موعده⁽¹⁾، كما كان للمطبعة العربية التي يتولاها الشهيد أحمد بوشمال شرف طباعة بطاقات جيش التحرير الوطني ووثائقه الخاصة.

وأقدمت الخلية بالتنسيق مع خلايا الفداء الأخرى بمدينة قسنطينة على مبادرة شن إضراب عام، وذلك احتجاجا على اعتقال الدكتور التيجاني هدام⁽²⁾ بشبهة التعامل مع الثوار، تم طبع المنشور على أوراق الستانسيل وسحب بالمعهد، ووزع على نطاق واسع، حيث تولت خلية مصطفى عواطي، وخلية طلبة المعهد برئاسة الهاشمي هجرس توزيعه في أحياء المدينة، وأدى نجاح

1 شهادة مصطفى بوعابة، سبق ذكرها.

2 شخصية سياسية وتاريخية مرموقة، ولد في جانفي 1921 بتلمسان، واصل دراسته العليا في الطب وشارك في النضال الطلابي، التحق بصفوف الثورة التحريرية بداية سنة 1955، وقدم في عيادته بقسنطينة عدة مساعدات للثوار، أثار شبكات الإدارة الفرنسية واضطر للفرار إلى الخارج، كان مقربا من ابن بلة وعمل مساعدا له في الوفد الخارجي بالقاهرة، وبعد اعتقال ابن بلة شارك في تأدية عدة مهام سياسية وعسكرية، بعد الاستقلال تولى عدة مسؤوليات عليا: منها وزيرا للشؤون الدينية سنة 1964، ثم وزيرا للصحة سنة 1965، وعميدا لمسجد باريس، عاد إلى أرض الوطن واشتغل أستاذا للطب بجامعة الجزائر، عين في جانفي سنة 1992 عضوا في المجلس الأعلى للدولة، انظر مقالاتي عبدالله: قاموس أعلام شهداء وأبطال الثورة الجزائرية، منشورات بلوتو، الجزائر، 2009، ص194.

الإضراب إلى إطلاق سراح التيجاني وتسفيره إلى الخارج للعمل مع الوفد الخارجي⁽¹⁾.

ومن المهام الأساسية التي نهضت بها خلية المعهد جعل المعهد ودار الطلبة محطتين لإيواء وعبور المجاهدين والمناضلين، حيث تكتسي مدينة قسنطينة موقعا استراتيجيا بالنسبة للثورة، ومنها يجند الطلاب الملتحقين بالثورة وغيرهم، ومنهم علاوة ابن بعطوش والطاهر ابن امهيدي، وقد ذكر عبدالرزاق بوحارة ومصطفى بوغابة أن شبكة التجنيد بالمدينة جندت عشرات الطلبة بعد الإضراب الطلابي في ماي 1956⁽²⁾، وصرح العديد من الطلاب الذين أصبح لهم شأن في الثورة أنهم جندوا على يد مسؤول خلية معهد قسنطينة مصطفى بوغابة⁽³⁾، كما كانت خلية المعهد تأوي المناضلين القادمين للمدينة في مهمات مختلفة، والفدائيين الذين يلجئون للتخفي، والمعطوبين الذين يتطلب علاجهم بالمدينة⁽⁴⁾.

وواجهت خلية المعهد كذلك الفتنة التي أثّرت بالمدينة، حيث صدرت الدعوة إلى مقاطعة الإخوان الميزابيين باسم الثورة، وحركها بعض المغرضين من اليهود والتجار بغرض إثارة الفتنة بين صفوف الإخوة الجزائريين، وتدخل مسؤولو الخلية سريعا لمواجهة الموقف، معتمدين على أساتذة المعهد وأعيان المدينة لنزع فتيل الفتنة، ومسترشدين بمواقف قادة الثورة في الولايات وتوجيهات عبان رمضان⁽⁵⁾.

1 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

2 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها، وعبد الرزاق بوحارة: منبع التحرير، تر صالح عبد النوري، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص 69 وما بعدها.

3 شهادة عبد الحميد الإبراهيمي، مصدر سابق.

4 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

5 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

وتأكيدا على العلاقة الوثيقة بين خلية المعهد وقيادة الشمال القسنطيني نشير إلى أن زيغود يوسف ونائبه ابن طوبال وابن عودة استجابا لطلب الخلية بإقراضها مبلغ ثمان ملايين فرنك لإتمام بناء وترميم مدرسة التربية والتعليم التي تديرها جمعية العلماء لاستقبال التلاميذ في أحسن الظروف للموسم 1956. 1957.

ونشير أخيرا أن الخلية واصلت مهمة ربط الاتصال بين قيادة الولاية وقيادة الجبهة في العاصمة ومختلف مناطق الوطن، حيث كان أعضاء الخلية الأم وفروعها في الشرق الجزائري ينهضون بمهمة نقل البريد وتبليغ الرسائل الشفهية، ومنهم الشيخ أحمد حماني الذي قبض عليه يوم 11 أوت 1957 وهو يحمل رسالة من قيادة الولاية الثانية، مما أدى إلى تعرضه للتعذيب والاعتقال، وتعرض الخلية للاكتشاف واعتقال مسؤوليها الصادق مخلوف وحمادي الهاشمي، في حين فر صالح كحلوش والتحق بجبال الشمال القسنطيني مجاهدا (1).

. دعم الثورة في مختلف الجهات والانخراط فيها

لقد نهضت خلية المعهد بدور هام في استغلال كل فرص الدعم لمساندة الثورة، ومنها تجنيد عناصر شبكة الاتصالات بالعاصمة في تمويل الثورة بما تحتاجه في العاصمة من خرائط عسكرية، ومناظير، وآلات الكتابة والسحب....، ومن أولئك النشطين بمركز الجمعية بالعاصمة نذكر: عبد اللطيف سلطاني أمين مال الجمعية، وصالح نور وعبد السلام برجان، كما كان متجر عباس التركي بنهج "شارتر" مركز لاتصال ودعم الثورة (2)، وقد ذكر

1 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

2 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

دحلب أن مهمته إلى الشمال القسنطيني تمت تحت غطاء شركة تجارية لعباس التركي⁽¹⁾.

لقد أدى معهد ابن باديس واجبه الوطني على أكمل وجه، وتجدد أساتذته وطلابه في خدمة الثورة، وفي هذا الشأن يقول بوغابة: "ولقد واصل المعهد بأساتذته وطلابه المتواجدين بالمعهد ودار الطلبة . أثناء الدراسة . والموزعين على مدنهم ومدائهم وقراهم. أثناء مواسم الراحة الصيفية والأعياد الدينية والعطل الأسبوعية. لقد واصل هؤلاء جميعا مهمتهم في خدمة الثورة بكل الإمكانيات والوسائل، عبر مختلف أماكن تواجدهم، إلى أن ألقى القبض على مدير المعهد بالنيابة وعضو الخلية الأم الشيخ أحمد حماني بتاريخ 11 أوت 1957"⁽²⁾.

وإثر إغلاق المعهد بسبب الحادثة السابقة وما تبعه من مضايقة نشاط المدارس الحرة في مختلف الجهات كان مصير المعلمين والطلاب الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني أو التجند في خدمة الثورة مدنيا.

ثالثا. التعريف ببعض شيوخ المعهد المساهمين في الثورة

لقد انخرط أساتذة وإطارات المعهد في خدمة ثورة التحرير الكبرى، وذلك منذ الأشهر الأولى لاندلاعها، حيث أسهموا بكل إخلاص وتفان في توفير ما تحتاجه الثورة من دعم وإسناد، وانخرطوا في خلية المعهد التي أنشأت عام 1955 بأمر من الشيخ التبسي، والتحقوا بصفوف جيش التحرير الوطني، وفيما يلي نحاول التعريف ببعضهم، بدء بقائمة للشهداء تليها قائمة للمجاهدين.

1 DAHLAB Saad; Pour l'Indépendance de l'Algérie; mission accomplie ed, Dahlab, Alger, 1990, p50.

2 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

1. الأساتذة الشهداء

- التبسي العربي

العالم المجاهد شهيد الثورة الجزائرية هو مدير المعهد ونائب رئيس جمعية العلماء المسلمين، التحق مبكرا بصفوف الثورة التحريرية.

ولد الشهيد المصلح سنة 1892 ببلدة السطح قرب الشريعة ضواحي تبسة، حفظ القرآن الكريم بمسقط رأسه وانتقل إلى نفطة لتلقي العلوم الشرعية واللغوية وواصل دراسته بجامع الزيتونة ثم بالأزهر، عاد إلى الوطن سنة 1925 واشتغل في التعليم، ساهم في الحركة الإصلاحية وقد أسس في سنة 1934 مسجدا ومدرسة حرة بتبسة، اتصل بابن باديس وعلماء الجزائر وشارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين، انتخب في سنة 1935 كاتبا عاما للجمعية، وأصبح في سنة 1940 نائبا للرئيس، تولى تدريس طلبة ابن باديس خلال الحرب العالمية الثانية بعد أن نقلهم إلى مدرسته بتبسة، وتولى مسؤولية الجمعية بعد رحيل الإبراهيمي إلى المشرق إلى جانب الشيخ خير الدين، حيث عين مديرا لمعهد الشيخ عبد الحميد ابن باديس بقسنطينة منذ إنشائه عام 1947، سخر جهده وعلمه لخدمة أهداف جمعية العلماء، وعرف بين رفاقه بثورته وحماسه الجهادي، هلل لاندلاع الثورة التحريرية ودعا مواطنيه للالتحاق بصفوفها، عمل على تقديم الدعم والسند لجهة التحرير الوطني، وطالب رفاقه بحل الجمعية والانضمام إلى الثورة منذ عام 1955، تقرب منه عبان رمضان وكلفه بتأدية عدة مهام ثورية، منها: دعوة شيوخ الجمعية للالتحاق بالثورة، والسفر في مهمة إلى المغرب، وإنشاء خلايا الدعم والإنسان بالشرق الجزائري، ومنها خلية المعهد التي أشرف على توجيهها بواسطة مساعده إبراهيم مزهودي.

كان الشيخ التبسي يتردد كثيرا ما بين العاصمة وقسنطينة، وهو يتولى قيادة الجمعية بعد سفر خير الدين ويدير معهد ابن باديس تجند لخدمة الثورة، وقد بدأت الإدارة الفرنسية تشك في أعماله وتنقلاته، فكانت ترصد حركاته ومع ذلك كان ذكيا في مخادعتها وهو يقوم بنشاط سري كبير لم يكشف الستار عنه إلى الآن، وعندما وقع اغتيال محافظ شرطة قسنطينة " سانمار سيللي" طالب غلاة المستوطنين بجعله على رأس قائمة الاغتيال العقابي للمسلمين، وذلك لمكانته ودوره في العمل الثوري، ونصحه بعض شيوخ معهد ابن باديس بالسفر إلى الخارج ولكنه أبى ذلك وفضل الاستشهاد داخل الوطن، واثرا استشهاد أحمد رضا حوحو واصل التبسي بتفاني تسخير المعهد وشيوخه في خدمة الثورة، وأسهم التبسي في خدمة الثورة انطلاقا من العاصمة التي تعرف معركة غير متكافئة بداية عام 1957، حيث تعاون مع عبان في مسائل التنسيق وجمع المال وتجنيد إمكانيات الجمعية في خدمة الثورة، وقد واصل التبسي تهجمه على الاستعمار في خطبه وكتابات، وتعرض للاعتقال مرات عدة، وفي 4 أبريل 1957 قررت الإدارة الفرنسية التخلّص منه فاخطفته عصابة اليد الحمراء من منزله واغتاله، وأنكرت الإدارة الفرنسية علمها بالحادث، ولا يعرف إلى اليوم له قبر، وقبل اعتقاله الأخير واغتياله زار مدينة قسنطينة وتفقد المعهد وسير الدراسة، واجتمع بالشيوخ والطلبة وأوصاهم خيرا بالدين والوطن، وقد أثار خبر مقتله صدمة داخل الوطن وخارجه⁽¹⁾.

1 انظر أحمد حماني: شهداء علماء معهد بن باديس، مصدر سابق، ص 30.20، وحمزة بوكوشة: اعتقال العربي التبسي، مجلة الثقافة، عدد3، مارس 1971، ومقالاتي عبد الله: المرجع السابق، ص

- حوحو أحمد رضا

الأديب والمفكر والمصلح وأمين عام معهد ابن باديس وأول شهداء أساتذة المعهد، اغتيل غدرا ليلة الواحد والثلاثين مارس 1956.

ولد الشهيد بسيدي عقبة قرب بسكرة عام 1907، نشأ نشأة عربية إسلامية، تلقى فيها علوم اللغة والدين، كما درس بالثانوية الفرنسية بسكيكدة، هاجر مع عائلته إلى الحجاز، وهناك بدأ عمله في التدريس والكتابة الصحفية، عاد إلى الوطن بعد الحرب العالمية الثانية للمساهمة في العمل الوطني الإصلاحي، أصدر العديد من الصحف وعينته جمعية العلماء مديرا لمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، ثم عين أمينا عاما لمعهد ابن باديس منذ إنشائه، خاض مشوارا نضاليا حافلا وشارك بحماس في العمل الفدائي بقسنطينة، وبسبب ذلك اغتالته منظمة اليد الحمراء ليلة 31 مارس 1956. وإلى جانب نشاطه الإداري والفدائي ظل يمارس الكتابة الصحفية والأدبية بهدف نشر الوعي الوطني والاجتماعي، اختص بأدب السخرية وكان كثير التهكم بالاستعمار وأذياله.

ولما اندلعت الثورة التحريرية هب لمناصرتها ودعمها بكل السبل، فكان يحتضن خلية المعهد الثورية برئاسة مزهودي وبوغابة، ويشجع الطلاب للالتحاق بالثورة وينسق عمل الفداء، وقد بدأ يحس بضغط الإدارة الفرنسية التي كانت تراقب تحركاته، وتهده أحيانا، فقد اعتقلته مرة وعنفته محملة إياه أي حدث ثوري يقع بالمدينة، وكان بدوره يحتاط في تحركاته ودعم الثورة، ويقدم النصيحة لأساتذة المعهد بضرورة أخذ الحيطة والتكتم الشديد.

وإثر وقوع عملية فدائية طالت محافظ شرطة مدينة قسنطينة "سانمار سيلبي" يوم 30 مارس 1956 اعتقلته السلطات الفرنسية رفقة ستة من

زملائه وقدمته للمحاكمة، ولما لم تجد ما تدينه به أطلقت سراحه، وسلمت أمره لمنظمة اليد الحمراء، التي اختطفته وعذبتة، ثم تخلصت منه ورفاقه، ورمت جثتهم في مكان مجهول بالهريّة قرب الخروب، وقد كان جماعة الكورسيكيون طالبوا بالثأر من مقتل محافظ الشرطة الكورسكي الأصل، وطلبوا من عامل العمالة مقابله خمسين شخصا على رأسهم الشيخ التبسي وحوحو، وشاء القدر أن يكون حوحو ونحو اثني عشر نفر من أعيان المدينة أولى الأهداف السريعة لهذه الجماعة المتعصبة، وكان لاستشهاد هذا المثقف ورفاقه بهذه الطريقة البشعة أثره في أوساط المثقفين والعامّة داخل الوطن وخارجه⁽¹⁾.

- جعفر محمد "العدوي"

الشيخ محمد بن العيد جعفر الشهير بالعدوي نسبة إلى بلدة أولاد عدي بالمسيلة من أساتذة المعهد الذين لقوا الشهادة وضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة والوطنية.

ولد عام 1904 بالمسيلة، ونشأ في عائلة محافظة، حفظ القرآن الكريم وتلقن مبادئ العلوم الشرعية بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى تونس طلبا للعلم في أوائل الثلاثينات، وقضى نحو عشرين سنة هناك، حصل خلالها على الأهلية وشهادة التحصيل وتابع دراسته بالقسم الشرعي، اكتسب معارف وافرة وعاد إلى أرض الوطن، وقد استقر في قسنطينة وانتسب إلى معهد ابن باديس مدرسا، حيث نال إعجاب الطلاب بعلمه وأخلاقه ووطنيته، كما كان يلقي دروسا وخطبا في المساجد تلقى استحسان الناس، يقول عنه أحد طلابه أنه كان يلقب بابن باديس الثاني، "إذ كانت دروسه في الوعظ والإرشاد في

1 احمد حماني: المصدر السابق، ص 9. 19، ومقالاتي عبد الله: المرجع السابق، ص 239. 240، وعبد الله الركيبي: في ذكرى الشهيد رضا حوحو، جريدة الشعب، عدد يوم 29 مارس 1966.

كل من جامع قموش و الجامع الأخضر امتدادا لدروس بن باديس التي كان يلقيها في المسجدين المذكورين"، كما كان شديد اللهجة ضد المستعمر رغم التحذيرات التي وجهت له، وخاصة بعد اندلاع الثورة التحريرية، كان صريحا في فضحه لخبث وجرائم المستعمر ودعوته الناس لتغيير الواقع ومساندة الثورة، كما كان يشجع الطلاب على الالتحاق بالثورة، وكانت الشرطة تراقب نشاطه وعندما تأكدت من دعمه للثورة قررت التخلص منه، واتخذت هذا القرار في أواخر أوت 1957، حيث اعتقلته بمركز التعذيب بالحامة بوزيان، وعرضته للتعذيب الوحشي الذي أدى إلى وفاته، وتسترت الإدارة الفرنسية عن مقتله ولا يعرف له إلى اليوم قبر⁽¹⁾.

- بوشمال أحمد

من رجال جمعية العلماء الذين أخلصوا في خدمة القضايا الوطنية، وأحد معاوني ابن باديس، عرف بثوريته الجامعة التي دفعت به إلى خدمة النضال الفدائي للثورة بقسنطينة.

ولد بوشمال بقسنطينة سنة 1899 من أسرة انحدرت من بني عمران قرب جيجل، وبها نشأ وتعلم في جامع سيدي ياسين والابتدائية الفرنسية، تعاطى التجارة في دكانه الخاص، ولم يمنعه ذلك من الاستزادة في العلم، فدرس على يد الشيخ ابن باديس، وتبنى أفكاره الإصلاحية، وساهم في إنشاء المطبعة الإسلامية بدكانه، وتولى إدارة تسيير صحف ابن باديس، وبعد وفاة ابن باديس تولى إدارة شؤون جمعية العلماء بقسنطينة، ونال ثقة رجال الجمعية فانتخبوه عضوا بالمجلس الإداري للجمعية سنة 1946، وكلف بإدارة الشؤون المالية فضلا عن توليه مسؤوليات أخرى كإدارة المطبعة الإسلامية، والإشراف على دار الطلبة ومعهد ابن باديس، ومثلما سخر المطبعة

1 أحمد حماني: المصدر السابق، ص ص 41.31، وشهادة مصطفى بوعابة: سبق ذكرها.

الإسلامية لخدمة الحركة الوطنية وضعتها في خدمة الثورة التحريرية، فقد كان لها شرف طباعة المنشورات ووثائق جبهة التحرير الوطني. انظم بوشمال إلى صفوف جبهة التحرير الوطني بقسنطينة، ونهض بعدة مهام سرية رفقة صالح بوزراع ومسعود بوجريو، وقد انتهت السلطات الفرنسية إلى تحركاته فاجتهدت في التضييق عليه، وأثارت له كثير من المشاكل في مدرسة التربية والتعليم التي كان يديرها بقسنطينة، ثم اعتقلته يوم 17 أوت 1957 وأطلقت سراحه لعدم ثبوت التهم، واعتقلته ثانية في ربيع سنة 1958، وفي 13 سبتمبر 1958 اعتقلته للمرة الثالثة وعرضته لمختلف أشكال التعذيب بمركز حي "أمزيان" السيئ الذكر، وأخيرا قامت باغتياله في سبتمبر 1958 ودفنته في مكان سري، وإلى اليوم لا يعرف له قبر⁽¹⁾.

- محمد الزاهي

من أساتذة معهد ابن باديس الذين التحقوا بصفوف جيش التحرير الوطني وسقطوا فداء للوطن.

ولد عام 1904 بقرية أزيار من دوار تمنجر بالعنصر ولاية جيجل حاليا، نشأ في عائلة فقيرة محافظة، تلقى مبادئ التعليم العربي في مسقط رأسه، ثم انتقل إلى ميلة لمواصلة الدراسة، وسافر عام 1927 إلى تونس للدراسة بجامع الزيتونة، ولما تحصل على شهادة التحصيل عاد إلى أرض الوطن، وانخرط بكل عزم في العمل التربوي والإصلاحي، وقد كان أديبا بارعا في الكتابة، عين مدرسا بمسقط رأسه، ثم نقل إلى حجوط بالمتيجة، وأرسل في عام 1936 إلى فرنسا لتوعية الجالية الجزائرية، واستدعي بعدها للتدريس بمعهد ابن باديس فاستوطن قسنطينة.

1 شهادة مصطفى بوعابة، سبق ذكرها، واحمد حماني: المصدر السابق، ص 42، 61، ومقلاتي عبد الله: المرجع السابق، ص 157، 158.

وقد استبشر خيرا باندلاع الثورة، وارتبط بخلية المناضلين في رحبة الصوف وبخلية المعهد، وكان يقدم خدمات لوجستكية متنوعة للولاية الثانية، وفي أوت 1957 اكتشف أمره وكادت القوات الفرنسية تقبض عليه لولا فطنته، فقد فر عبر شبكته الخاصة إلى الحامة ومنها إلى ميلة ليلتحق بجيش التحرير بالجناب.

كلفته قيادة الولاية الثانية بالتوعية والتوجيه، ثم بالقضاء والفتوى، وكانت تنتدبه باستمرار إلى مقرها، وقد كان بمقر الولاية في حادثة استشهاد في معركة طاحنة، خاضها إلى جانب رفاقه المجاهدين بمنطقة زغاية بأولاد يحي من حوز الميلية، وذلك يومي 27 . 28 فيفري 1960، وسقط فيها شهيد شاهرا سلاحه⁽¹⁾.

- بوشاشية بلقاسم

الشهيد من إطارات المعهد لقي الشهادة في إحدى المعارك بالولاية الثالثة. ينتسب إلى منطقة القبائل، وكان رحمه الله مراقبا عاما بالمعهد ودار الطلبة، انخرط في خلية المعهد اللوجستكية، والتحق بصفوف جيش التحرير بالولاية الثالثة عام 1957، حيث واصل جهاده إلى أن سقط شهيدا في إحدى المعارك الكبرى يوم 18 مارس 1962⁽²⁾.

- محمد الطاهر مزيان

واحدا من إطارات المعهد، وهو مراقب عام للمعهد ودار الطلبة، انخرط في خلية دعم الثورة بالمعهد، أُلقي عليه القبض وتم تعذيبه واستنطاقه، قتل تحت التعذيب بنواحي سطيف، ولا يعرف له قبر إلى اليوم⁽³⁾.

1 أحمد حماني: المصدر السابق، ص 89.62، وفضلاء: من أعلام الإصلاح، ج3، ص 215.

2 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

3 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

- إبراهيم مازوزي

من أساتذة المعهد الشهداء، وأحد رجال الأوراس المصلحين. ولد بمنطقة بابوس بباتنة، ونشأ في عائلة محافظة، تمكن من مزاولة تعليمه وعمل أستاذا بالمعهد في بداية الثورة، وكان مواضبا على زيارة أهله بناحية باتنة كل أسبوع، وقد كلف من خلية المعهد بالسعي لربط الاتصال بين الخلية وقيادة الأوراس، وخاصة عاجل عجل خريج المعهد، ويبدو أن اتصالاته لم توفق، ولكنه كان ينقل أسبوعيا أخبار الثورة إلى المعهد، ثم التحق بصفوف جيش التحرير الوطني بالولاية الأولى، وتحمل عدة مسؤوليات، ورقى إلى رتبة ضابط أول، وقع أسيرا في إحدى المعارك التي جرح فيها جرحا بليغا، وبعد شفائه حاول ضباط الشؤون الأهلية الفرنسيون استعماله لصالحهم، ففر من بين أيديهم والتحق بصفوف جيش التحرير الوطني، وتقرر إرساله إلى تونس للعلاج والراحة، وقد تدهورت صحته على الرغم من إجراءاته جراحية في صيف 1961، وتوفي أثرها ودفن في تونس، ولا ندري ما إذا كان جثمانه قد نقل إلى الجزائر أم لا، وتحمل اليوم إحدى ثانويات خنشلة اسمه⁽¹⁾.

2. الأساتذة المجاهدون والمناضلون

- مزهودي ابراهيم

من رجال جمعية العلماء ومسؤول خلية دعم الثورة بالمعهد، ورائد في جيش التحرير الوطني.

ولد بالحمامات قرب تبسة عام 1922، تلقى تعليما دينيا بمسقط رأسه وعلى يد العربي التبسي بتبسة، وواصل تعليمه بجامعة الزيتونة إلى أن تخرج منه عام 1946 بشهادة التحصيل،

1 شهادة مصطفى بوغابة، سبق ذكرها.

عاد إلى أرض الوطن وانخرط في نشاط جمعية العلماء، وتولى عدة مسؤوليات في الإشراف على التعليم الحر، منها مفتش مدارس التعليم بالشرق الجزائري، انظم إلى جبهة التحرير الوطني منذ ميلادها بتوجيه من العربي التبسي، حيث ربط الاتصال بين قيادات الثورة وعبان، وتولى عدة مسؤوليات في مدينة قسنطينة حيث أنشأ خلية لدعم وإسناد الثورة بمعهد ابن باديس، وأنجز بنجاح عدة مهام متعلقة بالتنسيق والاتصال والتموين والتجنيد، وذلك إلى غاية اكتشاف أمره في 10 مارس 1956 والتحاقه بالشمال القسنطيني، عمل مساعدا لزيغود يوسف، وكان له دور هام في كسب بعض شيوخ الجمعية وطلبة معهد ابن باديس لصالح الثورة، حضر مؤتمر الصومام وعين رائدا، اقترح لقيادة الولاية الأولى لكنه أبى، فكلّف بمهمة رآب الصدع بين قيادات النمامشة وكذا إعادة النظام إلى قاعدة تونس المضطربة، فواجه صعوبات جمة في أداء مهامه، خاصة مواجهة المعارضين لقرارات الصومام من جماعة علي محساس والنمامشة، كان شاهدا على مرحلة الصراع بين لغرور والقادة النمامشة، وتدخل لدى كريم مقترحا عليه تعيين محمود الشريف لقيادة الولاية الأولى، وقد استقره في تونس مساعدا للرائد قاسي في تمثيل الجبهة هناك، ثم انتقل إلى القاهرة وعمل في ديوان الحكومة المؤقتة.

بعد الاستقلال عين نائبا في المجلس التأسيسي، ثم سفيرا في القاهرة إلى أن تقاعد، وقد ساهم في إعادة إحياء جمعية العلماء المسلمين سنة 1991، وتوفي في صمت عام 2010⁽¹⁾.

1 أنظر شهادة مصطفى بوعابة، سبق ذكرها، وحواره مع محمد عباس، محمد عباس: رواد الوطنية، مصدر سابق، ص 394.400.

- بوغابة مصطفى

من معلمي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأساتذة المعهد، ومسؤول خلية المعهد ومناضل في جبهة التحرير الوطني بقاعدة تونس. ولد في قسنطينة عام 1924، وبها نشأ وتعلم على يد ابن باديس، أكمل دراسته في الزيتونة، وعاد عام 1951 ليشغل معلما في مدارس جمعية العلماء بسطيف وقسنطينة، وعين عام 1953 أستاذا بمعهد ابن باديس بقسنطينة، وقد عرف بين زملائه بوطنيته الثورية وإخلاصه لمبادئه، انخرط مبكرا في خلية المعهد لدعم وإسناد الثورة، ثم تولى مسؤولية الخلية إثر التحاق مزهودي بالجبل في 10 مارس 1956، حيث تكفل بعدة مسؤوليات، منها ربط الاتصال بين قيادات الثورة انطلاقا من معهد ابن باديس، وجمع الاشتراكات، وتجنيد الشبان وتحضير طلبة المعهد وتعبئتهم للالتحاق بالثورة، وفي 6 نوفمبر سنة 1956 اكتشف أمره وجاءت الشرطة لاعتقاله، ففر بأعجوبة من يد الشرطة والتحق بصفوف جيش التحرير بالولاية الثانية، كلفته قيادة الثورة بالعمل ضمن الوفد الخارجي للثورة، واستقر بقاعدة تونس مساعدا للطبيب الثعالبي مسؤول فدرالية الجبهة بتونس، وقد تولى في سنة 1957 مصلحة الحسابات للجنة التبرعات، وواصل تأدية مهامه المالية والسياسية والاجتماعية إلى غاية الاستقلال .

وبعد الاستقلال عاد لممارسة التعليم بقسنطينة فتخرجت على يديه كثير من الإطارات، وهو يحظى اليوم بمكانة في أوساط المعلمين والمثقفين القسنطينيين، الذين يحفظون صنيعه بعد الاستقلال ولكنهم يجهلون دوره الجهادي إبان ثورة التحرير⁽¹⁾.

1 مقابلة شخصية، قسنطينة، 4 جويلية 2013، وحواراته مع جريدة النصر، عدد يوم 9 مارس 2013.

- أحمد حماني

الشيخ المجاهد أحمد حماني أحد رجال جمعية العلماء البارزين الذين سخرُوا جهودهم لخدمة العلم والوطن، ولد بالعنصر قرب جيجل سنة 1915، نشأ في أحضان أسرة محافظة والتحق بقسنطينة حيث أخذ العلم عن ابن باديس، أرسل إلى تونس لمواصلة الدراسة ونال شهادة العالمية من الزيتونة. عاد إلى أرض الوطن وعمل في ميدان التعليم الحر، وبرز عضوا نشطا في جمعية العلماء، عين عام 1947 مدرسا بمعهد ابن باديس، وقد أشرف على أولى التسجيلات به وظل مشرفا على لجنته العلمية إلى غاية أوت 1957، وقد عين قبل اندلاع الثورة التحريرية مشرفا على لجنة التعليم العليا للجمعية.

وفي عام 1955 انخرط في خلية المعهد لدعم الثورة، وكلف بتأدية عدة مهام نضالية، منها توعية الطلاب وتجنيدهم وحث رجال جمعية العلماء على الالتحاق بالثورة، وإيواء المجاهدين وقادة الثورة في دار الطلبة بمعهد بن باديس... الخ، وأختير في عام 1957 نائبا لرئيس خلية المعهد الثورية.

وقد ربط في بداية 1956 الاتصال بين قيادة منطقة الشمال القسنطيني وعبان رمضان، وأمام تزايد نشاط الثورة والتحاق كثير من الطلبة والمعلمين في قسنطينة بالثورة حامت حوله شكوك الإدارة الفرنسية، وفي 11 أوت سنة 1957 اعتقلته الشرطة الفرنسية عند نزوله بالعاصمة، وعثر لديه على رسائل ووثائق الثورة، تعرض للتعذيب والاستنطاق بالعاصمة وقسنطينة، وحكم عليه بخمسة عشر سنة سجنا، وفي سجن الكدية ثم تازولت واصل مهماته النضالية إلى غاية إطلاق سراحه يوم 4 أفريل 1962.

وبعد الاستقلال تولى الإشراف على شؤون التعليم في قسنطينة، وانتدب للتدريس في كلية الأدب بجامعة الجزائر 1963-1973، ثم عين عضوا في

المجلس الإسلامي الأعلى ورئيسا له، كما تولى مسؤوليات الإفتاء والإرشاد⁽¹⁾.
الخاتمة

في ختام هذا البحث الذي تطرق لدور شيوخ وطلبة معهد ابن باديس في الثورة التحريرية نخلص لتسجيل ما يلي:
لقد كان المعهد بفضل مبادرة شيوخه مدرسة لاحتضان الثورة ودعمها بكل المساعدات والخدمات.
أن دور المشرفين على المعهد كان موجها لمواقف الدعم والمساندة، فلقد وضع العربي التبسي المعهد في خدمة الثورة.
لقد تجلت مساهمات شيوخ المعهد واضحة في مساندة الثورة، وخاصة في ميدان التجنيد والاتصال وتقديم المساعدات المادية.
أن التحاق شيوخ وطلبة المعهد بالثورة كان مبكرا، وقدم المعهد قوافل من الشهداء والمجاهدين، وللأسف الشديد لم يتم التعريف بمساهمات الكثير منهم إلا في الفترة المتأخرة.

1 أحمد حماني: المصدر السابق، ص 53 وما بعدها، وأحمد حماني: الصراع بين السنة والبدعة، ج2، دار البعث، قسنطينة، 1984، ص ص 285، 307. ومقالاتي عبد الله: المرجع السابق، ص 229، 230.

دعم المملكة الليبية لجهة التحرير الوطني الجزائرية 1954. 1962م

د.د. سمية سالم الشعالي

جامعة سرت - ليبيا

مقدمة

شكلت ليبيا همزة وصل بين المغرب والمشرق العربي على مر العصور، ولعبت أدواراً مهمة في مساندة حركات التحرر العربي، وهذا ما تجلّى زمن الثورة الجزائرية، إذ قدمت ليبيا تسهيلات عدة لتمير وتسليم السلاح عبر أراضيها وحدودها للثوار الجزائريين، وسيعالجها البحث المتواضع دعم المملكة الليبية لجهة التحرير الوطني الجزائرية، وخصوصاً لهيئاتها الناشطة بالأراضي الليبية لاسيما لمكتبها في طرابلس على المستويين سياسياً وإعلامياً، وكما نحاول الوقوف على مظاهر دعم الشعب الليبي للقضية الجزائرية.

تكمن أهمية دراسة دعم المملكة الليبية لجهة التحرير الوطني الجزائرية في إبراز مدى إسهام ليبيا في دعم القضية، وكشف جانب مهم من تاريخ العلاقات بين البلدين، وتتمحور الإشكالية في جملة من التساؤلات على النحو الآتي: ما هي ظروف تأسيس جبهة التحرير الوطني الجزائرية؟ وما الأهداف التي رسمتها؟ كيف أسهمت ليبيا في دعم الجبهة؟ وهل كان الدعم الليبي للجبهة الوطنية ولجانها موازياً لمراحل الثورة الجزائرية؟ كيف كانت ردة فعل الشعب الليبي اتجاه الثورة وجبهة التحرير الوطني؟

أولاً- تأسيس جبهة التحرير الوطني الجزائرية 1954م

ظهرت تسمية جبهة التحرير الوطني الجزائرية بتاريخ 23 أكتوبر 1954م وقد مثلت الجناح السياسي لثورة الفاتح نوفمبر 1954م، وارتبط تأسيسها

بمخرجات اجتماع مجموعة 22، الذي كان لعدة أسباب منها، أزمة الحركة الوطنية وتصعد حزب الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، فقد حاولت مجموعة من مناضلي المنظمة الخاصة المؤمنين بضرورة اللجوء للحل العسكري، تجاوز الأزمة وما ترتب عليها من تردد، وبذلك نشأ تنظيم جديد⁽¹⁾. ومنذ أن ظهرت مجموعة 22 بتاريخ 23 مارس 1954م، وضعت لنفسها هدفاً أساسياً وهو إصلاح الهوية بين الأطراف المتنازعة في مختلف الاتجاهات، والإعداد للثورة وعدم ترك المناضلين ينحازون خلف هذه الخلافات، وعدم تأييد أي طرف من الأطراف المتصارعة والوقوف على الحياد بشكل إيجابي، فقد عمل محمد بوضياف، ومصطفى بن بولعيد، وبشير دخلي، ورمضان بشبويه، على إنشاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل، والتوجه إلى فكرة العمل المسلح⁽²⁾، كما عقدت اللجنة الثورية الموحدة اجتماعها بتاريخ 25 يونيو 1954م بمنزل المناضل إلياس دريش في حي المدينة، وضم الاجتماع أعضاء اللجنة وهم:

جدول رقم (1): يوضح قائمة أعضاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل:

الصفة	اللجنة الثورية للوحدة والعمل
رئيس الاجتماع	مصطفى بن بولعيد
عضو	باجي مختار
//	عثمان بلوزداد
//	رمضان بن عبد الملك
//	مصطفى بن عودة
//	العربي بن مهيدي
//	لخضر بن طويال

1. اسماعيل دبش، السياسة العربية والمواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية 1954. 1962م، دار هوية، الجزائر، 2007م، ص 40.

2. محرز عفرون، مذكرات من وراء القبور، ت: مسعود الحاج مسعود، دار هومة، الجزائر، 2010م، ص 103.

//	راجح بيطاط
//	زبير بوعجاج
//	سليمان بو علي
//	بلحاج بوشعيب
إعداد التقارير المتعلقة بالاجتماع	محمد بوضياف
عضو	عبد الحفيظ بوصوف
جمع المتطلبات المالية للثورة	ديدوش مراد
عضو	عبد السلام حبشي
//	عبد القادر لعمودي
//	محمد شاطي
//	سليمان ملاح
//	محمد مرزوق
//	بوجمعة سويداني
//	زيغود يوسف

اجتمع أعضاء اللجنة الثورية الموحدة وعرض رئيس الاجتماع مصطفى بن بولعيد مختصر لبعض الأسباب التي أدت لفشل آليه عمل اللجنة الثورية للوحدة والعمل، و تم عرض شامل من قبل المجتمعين عن كافة الإمكانيات المادية والمعنوية، والعمل على حصر السلاح المتوفر من خارج الجزائر، وحصر عدد المناضلين، كما اتفق المجتمعون بالأغلبية على إعلان قيام الثورة، وأكدوا على العمل من أجل الحصول على السلاح بالهجوم على ثكنات المستعمر الفرنسي، والعمل على تجنيد المناضلين، وعند نهاية الاجتماع تم تعيين لجنة تنفيذية ضمت خمسة أعضاء، منهم مصطفى بن بولعيد، ومحمد بوضياف ، وديدوش مراد، والعربي بن مهيدي، راجح بيطاط، ثم انضم إليهم كريم بلقاسم⁽¹⁾، كلفت اللجنة التنفيذية بعدة مهام ومنها:

- تعيين منسق للثورة والابتعاد عن الزعامة الفردية.

1. بوعزة بوضرساية، "لمحات تاريخية على مقدمات ثورة نوفمبر 1954م"، مجلة الدراسات التاريخية، ع 6، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1992م، ص 180.

- تحديد تاريخ اندلاع الثورة، بعد مضي ثلاثة أشهر من اجتماع مجموعة 22، عقدت اللجنة التنفيذية اجتماع سري بتاريخ 23 أكتوبر 1954م ببلدة الرايس حميدو، اتفق الأعضاء على عدد من القرارات ومنها:

- تسمية الحركة بجناحها السياسي باسم جبهة التحرير الوطني.

- تسمية التنظيم العسكري باسم جيش التحرير الوطني.

- العمل بموجب التنظيمين جماعياً⁽¹⁾.

عملت جبهة التحرير الوطني الجزائرية على إصدار بيان خاص بها من أجل

تحقيق أهدافها، بتاريخ 1 نوفمبر 1954م، وشمل العديد من النقاط منها:

- تدويل القضية الجزائرية.

- تحقيق وحدة شمال إفريقيا داخل الإطار العربي والإسلامي.

- العمل وفق إطار ميثاق الأمم المتحدة من خلال تأكيد تعاطفنا وتضامننا

الفعلي إزاء كل الأمم التي تؤيد كفاحنا التحريري⁽²⁾.

يتضح لنا من خلال البيان الأول لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، بأن

هدفهم هو العمل على نصرة القضية الجزائرية داخل وخارج الجزائر، وإنَّ

هذه الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بوجود قوة حرة تقف بجانب الجبهة

الوطنية، ولذلك أصر أعضاء الجبهة على ضرورة إدراج القضية الجزائرية في

جداول أعمال المؤتمرات الدولية، وسنعرج على هذه المهام من خلال عرض

النشاط السياسي للجبهة الوطنية، وللتأكيد على عمل جبهة التحرير الوطني

الجزائرية، تم تقسيم الفئات الشعبية المتطوعة للعمل الثوري إلى لجان

1. محمد لحسن ازغيدي، التحضيرات العملية للثورة الجزائرية 1954م، دار الهدي، الجزائر،

2012م، ص 67.66.

2. عطا الله فشار، دور الدبلوماسية في انتصار الثورة الجزائرية، قسم التاريخ، كلية العلوم

الانسانية، جامعة الجزائر، 2002م، ص 16. (رسالة ماجستير غير منشورة).

شعبية، وكلفت لها لجان تدريب وتجنيد هذه الفئات، منها لجان تجنيد المعلمين، ولجان تجنيد الجماهير في صفوف جيش التحرير الجزائري، وذلك بالتنسيق مع مسؤولي القرى والمدن، وقد كان الهدف الأساسي من وراء هذه اللجان توفير كوادر ومعلمين أكفاء للالتحاق بصفوف الجيش الوطني، إضافة إلى اعتماد الجبهة على العامل الديني في توعية الشعب، وقد برز ذلك في إقبال الجماهير من الشعب الجزائري من مختلف الفئات، من أجل التوضيحية والفداء ضد الاستعمار الفرنسي⁽¹⁾، كما تميزت جبهة التحرير الوطني بنشاط سياسي ودبلوماسي، من خلال تحركاتها وجهودها الكبيرة قبيل اندلاع الثورة الجزائرية، حيث بدأت الجبهة بنشاطها من أجل التعريف بالقضية الجزائرية من خلال المشاركة بالمؤتمرات الدولية كما قامت الجبهة الوطنية منذ اندلاع الثورة الجزائرية بتاريخ 1 نوفمبر 1954م، بمنح أهمية كبيرة للعمل الدبلوماسي من خلال تحديد أهدافها الخارجية، التي برزت في الميثاق الذي تمثل في بيان الجبهة ومؤتمر الصومام.

كما استمرت جهود ومساعي جبهة التحرير الوطني لحل القضية الجزائرية بين أروقت هيئة الأمم المتحدة، حتى تتمكن من تضيق الخناق على فرنسا، ومن أجل كسب التأييد الدولي والدعم العربي والإفريقي للقضية، كما سعت الجبهة وقادة الثورة إلى الطريق للتفاوض مع الحكومة الفرنسية لحل المسألة الوطنية والسعي لتحقيق الاستقلال، نلاحظ هنا بأن جبهة التحرير الوطني لعبت دور سياسي ودبلوماسي بارز من أجل تعريف بالقضية الجزائرية، من خلال ممثلها ومكاتها بالخارج، وبفضل هذه الجهود تمكنوا

1. اشراق براك، استراتيجية جبهة التحرير الوطني في تعبئة وتنظيم وتأطير الجماهير الشعبية 1954. 1962م، قسم العلوم السياسية، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة العربي بن مهيدي. أم البواقي، الجزائر، 2021م، صص 1211 (رسالة ماجستير غير منشورة).

من نصرة القضية دولياً، مما جعلها تدرج بجدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1955م، من أجل نصرة القضية لجزائرية اعتمدت جبهة التحرير الوطني على تأسيس مكاتب لها في بعض الدول العربية ودول الأفروآسيوية، وعرفت هذه المكاتب بنشاط الجبهة الدبلوماسية والإعلامي ويرجع كثير ممن رجح أحداث الثورة الجزائرية 1954م هي جبهة التحرير على عدة عوامل منها:

أ. جذور جبهة التحرير بين الشعب الجزائري.

ب. اعتمادها على سياسة الانفتاح على الصعيد الدولي.

ج. القيام بنشر الشعارات والمقالات والخطب بهدف عزل السلطات الفرنسية لدى الهيئات العالمية.

د. جلب المساعدات للاجئين واليتامى والحصول على المساعدات والمنح للطلبة الجزائريين.

هـ. القيام بنشاطات قنصلية ودبلوماسية مختلفة من أجل الحصول على رخص الدخول والخروج من جوازات السفر والتأشيرات، وتقديم طلبات الاعتراف بالحكومة الجزائرية بعد تأسيسها عام 1958م، إضافة للمشاركة في الندوات والمؤتمرات الدولية التي تعقد في بعض الدول⁽¹⁾، ولقد اعتمدت الثورة الجزائرية على عدة وسائل متعددة من أجل التعريف بالقضية على المستوى الخارجي، فكانت جبهة التحرير الوطني في الخارج إحدى تلك الوسائل، التي كان لها نشاط على المستوى السياسي والإعلامي عن طريق التواصل بالصحف المحلية والدولية، والتواصل بمختلف السفارات من أجل

1. عبد القادر فكايير، "مكاتب جبهة التحرير الوطني في الخارج ودورها في التعريف بالقضية الجزائرية 1954. 1962م"، مجلة مصداقية، مجلد 3، ع 3، مؤسسة المدرسة العليا العسكرية للأعلام والاتصال، الجزائر، 2021م، ص 40.

الدعاية للثورة و التعريف بالقضية الجزائرية، تم فتح عدد من المكاتب في مختلف البلدان ومنها:

- دول المغرب العربي شملت تونس، والمغرب، وليبيا.
- دول المشرق العربي ضمت مصر، والعراق، وسوريا، والأردن، ولسعودية.
- مكاتب الحكومة المؤقتة في إفريقيا حيث كانت لها حضور بارز في عدد من المؤتمرات الأفروآسيوية التي عقدت منها في إفريقيا وآسيا.
- مكاتب جبهة التحرير في أوروبا ومنها في إسبانيا، وسويسرا، والاسكندنافية، وأوروبا الشرقية.
- مكاتب جبهة التحرير الوطني في أمريكا، وأمريكا اللاتينية⁽¹⁾.

تمكنت هذه المكاتب من طرح القضية الجزائرية إلى مختلف دول الوطن العربي والعالم الإسلامي، ولدى الشعوب الطامحة لنيل الاستقلال والحرية، وقد استطاعت القضية أن تكسب دعم الشعوب والهيئات بفضل جهود هذه المكاتب سياسياً.

ثانيا- دعم المملكة الليبية لجبهة التحرير الوطني الجزائرية بطرابلس 1956م
1962م

نظراً لطبيعة الجوار والعلاقات التاريخية بين البلدين، فقد كانت ليبيا داعمه للقضية الجزائرية، حيث توجه وفد ممثل لجبهة التحرير الوطني، إلى مدينة طبرق حيث مقر إقامة الملك إدريس السنوسي يوم 13 يونيو 1956م، وقد أعلن الملك تأييد المملكة الليبية للوفد وللقضية الجزائرية، فتم تعيين

1. عمر بوضرية، "موقع النشاط الاعلامي في عمل مكاتب جبهة التحرير الوطني 1955. 1962م مكاتب جبهة التحرير الوطني في البلدان العربية نموذجاً"، المجلة التاريخية الجزائرية، ع 4 سبتمبر 2017م، ص 27.

السيد عمر دردور ممثلاً للجهة الوطنية في ليبيا⁽¹⁾. ومنذ اندلاع الثورة الجزائرية شرع بعض أعيان الأهالي في طرابلس الغرب بالتواصل مع أحمد بن بلة ممثل الثورة الجزائرية في المملكة الليبية، من أجل مد يد العون من مساعدات مادية وأسلحة للثورة، فأنطلق الأعيان باتصالاتهم الأولية، فيما بينهم لجمع الأموال والتبرعات في سرية تامة لتقدم إلى أحمد بن بلة⁽²⁾، وقد استمر الدعم الليبي للقضية الجزائرية سياسياً وعسكرياً وإعلامياً، ومن أجل نصرة القضية دعم الشعب الليبي غداة انطلاق الثورة الشعب الجزائري، من خلال إقامة اللجان والتجمعات والمهرجانات الشعبية، لجمع التبرعات والمساعدات المختلفة، وقد قسمنا المبحث لمطلبين تمثل في :

1. لجنة جمع التبرعات في ولاية طرابلس الغرب

أُسِّسَت اللجنة بدعوة كل من أحمد خليفة المخزومي، وخليفة مسعود بغني، ومحمد عطية، للمشاركة بالعمل من أجل تحرير واستقلال الجزائر⁽³⁾، وقد اجتمعت هذه اللجنة من جديد يوم 18 مايو 1956م بمنزل السيد الهادي المشيرقي وضم الاجتماع عدد من المتحمسين للثورة الجزائرية من الليبيين، واستمرت الاجتماعات واسفرت عن تشكيل لجنة لإعانة جيش التحرير الوطني الجزائري، وتم انتخاب مجلس إدارتها من:

1. عبد القادر فكاي، المرجع السابق، ص 43.

2. محمد ودوع، الدعم الليبي للثورة التحريرية، مؤسسة كوشكار، الجزائر، 2008م، ص 52.

3. المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، شعبة الوثائق العربية، ملف رقم (57/56)، لجنة جمع التبرعات لمساعدة الجزائر، وثيقة رقم (84)، عن (لجنة جمع التبرعات لصالح الجزائر بطرابلس تدعو كل من خليفة المخزومي وأحمد خليفة بغني ومحمد عطية، للمشاركة بالعمل من أجل تحرير واستقلال الجزائر بتاريخ 15 أبريل 1951م).

جدول رقم (2): يوضح قائمة أعضاء لجنة إعانة جيش التحرير الوطني الجزائرية بطرابلس⁽¹⁾

الصفة	لجنة إعانة جيش التحرير الوطني الجزائرية بطرابلس
رئيساً للصندوق	الهادي إبراهيم المشيرقي
مساعداً	سعد علي شريف
//	جميل مبروك
//	الهادي شنشن
عضواً	الأمين بوحاص
//	محمد النجار
//	سعد الشراح
//	محمد بن طاهر
//	محمد البهليل، أحمد راسم باكير

حيث قام المشيرقي بدور بارز على مستوى هذه اللجنة حيث استطاع دفع خمسة صكوك مالية إلى البنك لحساب الجزائر⁽²⁾، اهتمت اللجنة بجمع التبرعات من أهل البر والإحسان الذين يريدون أن يجاهدوا بأموالهم في سبيل استقلال ووحدة الجزائر، كما أسهمت اللجنة بأعمال الشؤون الاجتماعية، وعرفت اللجنة بعد تعدد نشاطاتها باسم (لجنة نصره الثورة الجزائرية)⁽³⁾، قسمت اللجنة الرئيسية إلى لجان داخلية فرعية، بحيث خُصِّصت لجنة مختصة بالجانب الإعلامي والثقافي، مهمتها إعداد الخطب والمناشير واللافتات والاتصال بال جماهير وغيرها، وقد كانت هذه اللجنة النواة الأولى لميلاد فكرة مشروع وطني قام به الشعب الليبي دعماً للثورة وتعددت مسمياتها ومنها الهلال الأحمر الجزائري، ولجنة نصره الثورة الجزائرية (وأزداد عدد الأعضاء

1. الهادي إبراهيم المشيرقي، قصتي مع ثورة المليون شهيد، دار الأمة، الجزائر، 2010م، ص 103.

2. المصدر نفسه، ص 60.

3. محمد ودوع، المرجع السابق، ص 101.

بزيادة نشاط اللجنة⁽¹⁾.

2. مكتب جبهة التحرير الوطني بطرابلس 1957م

عملت الحكومة الجزائرية المؤقتة بتكثيف العمل الإعلامي من أجل دعم الثورة، سواء على الصعيد الداخلي، أو الخارجي لذا عملت على تأسيس مكاتب خارجية عُرفت باسم (جبهة التحرير الوطني)، عملوا على إنشاء إذاعة جزائرية تحت عنوان (إذاعة صوت الجزائر الحرة المكافحة، صوت جيش وجهة التحرير)، من خلالها وصل صدى صوت الثوار إلى الدول العربية والعالمية، فأنشأت العديد من المحطات الإذاعية والدعائية للتعريف بالثورة في البلدان المغاربية، فكان مكتب الدعاية والإعلام بطرابلس إحدى الوسائل الإسهام في التعريف بثورة الجزائر، أُسس المكتب في طرابلس عام 1957م بإشراف بشير القاضي، ومحمد الصديق، وكُلفوا بالدعاية والتشهير بالثورة الجزائرية داخل الأقاليم الليبية، وأنشئ للمكتب فروع له في برقة وبنغازي، وتعددت مهامه الدعائية بتنظيم الحفلات وإلقاء الخطب والمراسلات الصحفية لإبراز أهم أحداث الثورة وتطوراتها⁽²⁾، إضافة إلى تزويد المكتب بصحيفة "المجاهد" في الجزائر بأخبار نشاط الثورة في الأراضي الليبية، وكما تولى المكتب بتوزيع الصحيفة وصحف الثورة الأخرى في ليبيا، فنجح المكتب من خلال تعاونه مع هيئات تحرير جريدة "طرابلس الغرب" بأن كسب تعاطف المشرفين على الجريدة ، ففي عام 1958م خصصه صحيفة أسبوعية للجزائر تنشر من خلالها الاخبار العسكرية، والتعليق السياسية، وعرض صور من فضائح المستعمر الفرنسي، ونشر كل مستجدات البلاغات الحربية، والبيانات

1. بسمة خليف ابولسين، الليبيون والثورة الجزائرية، دار الرائد للكب، الجزائر، 2010، ص 95.

2. عبد الله مقلاتي، المرجع فيث اريخ الثورة الجزائرية ونصوصها الأساسية (1954. 1962م)،

ديوان المطبوعاتا لجامعية، الجزائر، 2009م، ص 117.

السياسية للثورة، وبتاريخ 8 أكتوبر 1958 محضي أحمد بودة باستقبال الملك إدريس السنوسي، وقد قدم الملك إدريس تسهيل كافة الإجراءات التي تحتاجها الثورة الجزائرية ومنها تمرير السلاح القادم من مصر إلى الجزائر⁽¹⁾. فأسست الحكومة المؤقتة المكاتب الخارجية لجهة التحرير الوطني، وتولّى تسيير شؤون مكتب ليبيا وبصفة رسمية أحمد بودة، قام أحمد بالعديد من المهام في إطار الدعم التام للثورة الجزائرية والشعب واللاجئين في الدول المغاربية، إضافة إلى المهام الدعائية التي كان يقوم بها المكتب في سبيل التعريف بالقضية الجزائرية⁽²⁾، من أبرز حلقات الدعم الليبي الذي قُدِّمَ إلى الثورة الجزائرية، الدعم الإعلامي والشعبي من أجل التعريف بالقضية وتعبئة الرأي العالمي والمغاربي، ودفعه إلى تأييد حرية الثورة من خلال المقالات والنداءات الصحفية بالصحف والجرائد الليبية، ومن خلال الإذاعة والمسرح والسينما وغيرها، أُسْتُخْدِمَت كمنبر إعلامي لخدمة المسألة الجزائرية ومنها:

أ. الإذاعة

أسهمت إذاعتا طرابلس وبنغازي بتخصيص برنامج لصوت الجزائر الذي لدعم الدعاية للثورة، كما أنشئ مكتب للدعاية والإعلام في طرابلس، ومكتب للدعاية والإعلام في بنغازي سنعرج عل ذكرهما فيما يأتي:

- مكتب الدعاية والإعلام بطرابلس: أُسِّس عام 1957م ضمن بعثة جبهة التحرير الوطني بليبيا، من مهامه: دعم القضية والتعريف بالثورة، واعتمد المكتب على جهود فردية يقوم بها كل من بشير القاضي، ومحمد الصالح

1. عبد القادر فكاي، المرجع السابق، ص 43.

2. بسمة خليفة أبولسين، المرجع السابق، ص 96.

الصديق، ثم توسع المكتب بمهامه وفتحت له فروعاً ببرقة وبنغازي، كما تعددت مهامه الإعلامية كالإشراف على الصحف وتنظيم الحفلات، وإلقاء الخطب إضافة إلى مراسلة جريدة المجاهد لتغطية نشاط الثورة بليبيا.⁽¹⁾

- مكتب الدعاية والإعلام بنغازي: أُسسَ عام 1958م، وبدأ نشاطه الإذاعي باسم صوت الجزائر للتعريف بالثورة وإشهارها ونقل أخبارها، وخصص إذاعته في بث حصة كاملة عن الثورة ثلاث مرات أسبوعياً، تلبية لرغبة سكان بنغازي، بإشراف عبد الرحمن الشريف، وعبد القادر غوقة، وقد كان لصوت الجزائر من بنغازي تأثيراً كبيراً على الجماهير المساندة للثورة⁽²⁾.

ب . الصحافة

لقد كانت للصحافة الليبية دوراً بارزاً وفعالاً في مساندة الثورة، وتقديم الخدمات لها إلى جانب الصحف الجزائرية التي كانت مهتمة بالتعريف بالقضية، ومن أهم الصحف الليبية ما يأتي:

صحيفة طرابلس الغرب: من أهم الصحف التي تفاعلت مع القضية إعلامياً، فهي مصدر مهم ومرجعية تاريخية لأبرز أحداث الثورة بدقة منذ إعلانها 1954م⁽³⁾، حيث نشرت الأخبار والمقالات السياسية والعسكرية، إضافة إلى صور حربية تبرز فيها مقالات للجرائم الفرنسية اتجاه الشعب الجزائري، كما كانت للصحيفة بعثات ميدانية للجزائر في عام 1958م، تُسهم في جمع ونقل أخبار المجاهدين والأسرى وتتبع تطورات القضية، وتعمل على كشف حقيقة المستعمر الفرنسي من خلال عرض ساسته أمام العامة، من تعذيب وقتل

1. محمد الصالح الصديق، الشعب الليبي في جهاد الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2010م، ص 212.

2. عبد الله مقالاتي، المرجع السابق، ص 503.

3. صحيفة طرابلس الغرب، العدد 10915، بتاريخ يونية 1954م.

ونفي، وعرضها في مقالات مطولة بالصحيفة، كما كانت الصحيفة حريصة على نشر مقالات السياسيين والمناضلين الليبيين المساندين للثورة⁽¹⁾. صحيفة الرائد: من أبرز الصحف الليبية التي دافعت عن الثورة الجزائرية صحيفة الرائد، من خلال الدعاية وتعبئة الجماهير الشعبية مع فضح السياسة الفرنسية، كما خصصت الصحيفة جزءاً من أعدادها لصالح الدعاية للثورة باسم أبناء الجزائر، وفي عام 1957م أصبح هذا الجزء يهتم بنشاط المجاهدين وأخبارهم، وأبرز تطوراتهم، وفي عام 1958م عُرفَ باسم (أخبار الجهاد في الجزائر)، من خلاله نشرت الصحيفة مقالاً وضحت من خلاله اتفاقية تمرير أنابيب الغاز عبر ليبيا، واعتبرت تلك الخطوة من شأنها أن تكون ضربة قاسية للموظفين الجزائريين، ومن أجل تتبع أخبار الثورة ونقل أحداث المعارك أرسلت الصحيفة مسؤولاً عنها إلى الجزائر عام 1958م، وأصبحت أول صحيفة ليبية تتلقى الأخبار والوثائق والبيانات، وقرارات قيادة الثورة داخلياً وخارجياً من مكتب جبهة التحرير الوطني بطرابلس⁽²⁾.

كما تم تشكيل لجان بتاريخ 8 مارس 1985م، منها لجنة الدعاية، ولجنة الإشراف والاتصال، واللجان الثقافية، ولجنة أمانة السر، ولجنة الحفلات، سنخرج باختصار عن مهام هذه اللجان:

* لجنة الدعاية: قسمت اللجنة إلى فرعين (الكتابة، الخطابة) مهامهم الإشراف على الكتبة في الصحف والمجلات، والخروج إلى الشارع وتنظيم التجمعات الدعائية والخطابية.

* لجنة الإشراف والاتصال: تكونت من أعضاء لجنة الهلال الأحمر الجزائري، مهمتهم الاتصال والتنسيق مع أجهزة الدولة والمؤسسات العمومية والخاصة،

1. جريدة المجاهد، العدد 8، بتاريخ 1 مايو 1960م، ص 12.

2. عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص 120.

والإشراف على مهام اللجان الأخرى.

* **اللجنة الثقافية:** مهمتهم كتابة النشرات والخطب والدعاية، وجمع تبرعات من التجار والعمال والموظفين والطلاب⁽¹⁾.

* **لجنة أمانة السر:** تقوم اللجنة بطباعة الرسائل والكشوفات.

* **لجنة الحفلات:** مهمتهم عرض الأفلام الخاصة بحرب تحرير الجزائر، وتنظيم الحفلات التي يعود ريعها للشعب الجزائري.

شكلت هذه اللجنة في مختلف مناطق طرابلس وباشرت بحملات جمع التبرعات، التي أشرف عليها المتصرفون ورؤساء البلديات⁽²⁾.

ومن مهام مكتب جبهة تحرير الوطني الجزائري في طرابلس، متابعه مهام الدعم المادي للجنة العليا تنظيم حملات التبرع على مدار السنة من خلال لجان فرعية، مهمتها جمع التبرعات من مختلف مناطق ليبيا، كما تم فرض رسوم إضافية على الملاهي، والمركبات، والمقاهي، إضافة إلى إقامة الحفلات الخيرية، والنشاطات الرياضية، فقد وصلت القيمة المالية الأولى بصك 5000 جنية ليبي سلم إلى أحمد بن بلة عن طريق مصر، وصك آخر بقيمة 1000 جنية ليبي سلم إلى بشير محمد أحد مسؤولي بمكتب جبهة التحرير بطرابلس، وصك بقيمة 2000 جنية ليبي إلى أحمد بودة ممثل الحكومة الجزائرية المؤقتة بطرابلس، تم دفع هذه الصكوك بقرار من أعضاء لجنة الهلال بطرابلس عام 1959م⁽³⁾.

1. بسمة خليفة أبولسين، المرجع السابق، ص 32.

2. دليوح عبد الحميد، "الدعم الشعبي الليبي للثورة الجزائرية 1954 . 1962م"، مجلة أفاق للعلوم، مج 7، ع 3، جامعة زيان عاشور الجلفة، 2022م، ص 697.

3. بسمة خليفة أبولسين، المرجع السابق، ص 48.

وقد قدرت اللجنة العليا المبالغ التي تحصلت عليها خلال الفترة من 1956.1962م وفق تقرير سنوي، الذي وضع "بأن المجموع النقدي المتحصل عليه طيلة هذه لسنوات شملت قيمة ثلاثمائة وستة وأربعون ألفاً وأربعمائة وستة وثمانون جنهما لبيي وستة وأربعون مليماً، عدا الحلي والساعات وغيرها، وبالنسبة للسنتين الأولى والثانية 1956.1958م، حيث كانت تسلم عيناً لمكتب الحكومة الجزائرية بطرابلس، أما في السنوات الأخيرة فقد كانت تباع ويضاف مبلغها إلى الحساب، ويذكر أن المبالغ الأخرى المتحصل عليه كل سنة، فإنها تكون أما من خلال التبرع بالملابس والأدوية والتموين والإعانات الأخرى، ترسل إلى اللاجئين الجزائريين المقيمين في تونس والمغرب بواسطة سيارات الهلال الأحمر الجزائري، وتقدر في مجموعها بحوالي خمسة عشر سيارة شحن من الحجم الكبير" (1).

كما قدمت المساعدات النقدية من أموال الزكاة كزكاة الفطر وزكاة العام، وكانت تنظم من قبل اللجنة العليا من خلال أسبوع تضامني عرف باسم (أسبوع الجزائر)، يتم من خلال هذا الأسبوع جمع التبرعات المالية والعينية، ومع بداية النشاط الرسمي للجنة 1956م، حيث توجهت لطبع تذاكر لحملات التبرع وصل عدد الواصلات 297500 إيصال، قسم لفئتين منها فئة 50 قرش خصص لجلود أضاحي الماعز والضأن، وفئة جنية لجلود الأبل والأبقار، وقد وصلت القيمة المتبرعة من شراء الجلود إلي 558.90 جنية لبيي (2)، إضافة لبعض المساعدات التي قدمت، كإعانة من مكتب الجبهة بطرابلس للعائلات

1. المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، شعبة الوثائق العربية، ملف رقم (57/56)، لجنة جمع التبرعات لمساعدة الجزائر، تقرير، عن (كشف عام مجموعة تبرعات ولاية طرابلس الغرب بليبيا لصالح الثورة الجزائرية ابتداء من مايو 1956 - يوليو 1962م).

2. دلوح عبد الحميد، المرجع السابق، ص 699.

اللاجئة في طرابلس وتمثلت الإعانة في التموين كالسكر، والدقيق، والشاهي، زيت، وقماش رجال ونساء، وبطاطين⁽¹⁾، كما أسهم مكتب الجبهة بتشجيع وتحفيز كل فئات المجتمع بالتبرع والتطوع حسب الإمكانيات المتاحة.

* دعم المرأة الليبية للثورة الجزائرية

لقد تضامنت المرأة الليبية بجانب المرأة الجزائرية من حيث الدعم المادي والمعنوي، وتشجيع المرأة الليبية بالتبرع من خلال الأسبوع الجزائري الذي أقيم في طرابلس، جمع فيه التبرعات من الحلي الذهبية و الفضية لصالح الثورة، من خلال إقامة الحفلات النسائية وإلقاء الخطابات لتأييد المرأة الجزائرية في كفاحها ضد المستعمر، فقد ساهمت المرأة الليبية في عدة نشاطات وفق اختصاصها بجمع التبرعات لمساعدة ثوار الجزائر وحرصت على ضرورة مشاركة مختلف شرائح المجتمع في تأييد الثورة ودعم الأسر الجزائرية، حيث قامت جمعية النهضة النسائية منذ تأسيسها في الفترة ما بين 1953م إلى 1954م في مدينة بنغازي، تم فتح فرع للجمعية في مدينة طرابلس ساهمة بالتوعية الاجتماعية، وبدعم المرأة الليبية وتشجيعها للعمل بالأسبوع الجزائري، والعمل على عقد اللقاءات للمشاركة في جمع التبرعات، حيث ذكر السيد محمود المغربي أحد أعضاء اللجنة الليبية لدعم الثورة الجزائرية بأنه وصل الأمر لبعض النساء تبرع بمهرهن للثورة⁽²⁾، فقد ساعدت عضوات الجمعية السيدات الليبيات بتوعيتهن على العمل التطوعي لنصرة الثورة الجزائرية، والعمل على تحويل الوعي الوطني والحماسي إلى صرخات

1 المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، شعبة الوثائق العربية، ملف رقم (57/56)، لجنة جمع التبرعات لمساعدة الجزائر (الإعانة المرسلة من مكتب جبهة التحرير الوطني

الجزائرية بطرابلس ليبيا إلى اللاجئين الجزائريين في ليبيا بتاريخ 1962/1/18م)

2. المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، شعبة الصحف، جريدة طرابلس الغرب 1958/8/13م.

تعلوا في وجه المستعمر الفرنسي، وذلك من خلال مشاركة المرأة الليبية بكسر حاجز التردد وخروجها للشوارع للمشاركة في المظاهرات بجانب الشعب الجزائري حاملة بيده العلم الجزائري وشعارات تؤيد القضية الجزائرية⁽¹⁾ كما عملت الجمعية على إقامة الندوات والدعاية بين عامة الشعب لتكون عمليات جمع التبرعات أكثر نجاحاً⁽²⁾ لتحفيز الرأي العام قامت الجمعية برفع صور المجاهدين والمجاهدات الجزائرية، وعرضت بعض منها بأفلام سينمائية وضحت من خلالها كفاح الشعب الجزائري ضد المستعمر الفرنسي⁽³⁾.

كما ساهمت بعض المناضلات الليبيات بالكلمة، وبالقلم، والشعر، وبدعم التبرعات، ومنهن من شاركت بتنظيم الامسيات الشعرية التي ألفت فيها القصائد الداعمة لكفاح الشعب الجزائري ومن هؤلاء الشاعرات، الشاعرة المناضلة كوثر نجم أصدرت الشاعرة ديوانان هما: فجرو غيوم صدر عام 1965م، ونداء المعركة عام 1968م، إلى جانب العديد من القصائد التي نشرتها في الصحف والمجلات الليبية كصحيفة الرائد وغيرها في بداية الخمسينات 1950م، فقد قدمت قصيدة بعنوان "مرجل الثوار، وقصيدة النصر الجزائري"، حيث برزت من خلال الأبيات للقصيدتين مدي شجاعة وشهامة وبطولة الشعب الجزائري المكافح ضد الاستعمار الفرنسي⁽⁴⁾.

كما أسهمت المناضلة الأدبية زعيمة ابنة المجاهد سليمان الباروني في دعم القضية الجزائرية ومثقة، شاركه بفاعلية واضحة في الحياة الاجتماعية والثقافية الوطنية، كتبت المقالات والقصة تحت اسم "بنت

1. طرابلس الغرب 1960/12/17م، ص 2

2. طرابلس الغرب، 1958/2/24م، ص 3.

3. 1958/4/24م، ص 3.

4. المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، شعبة الصحف، صحيفة الرائد الليبية،

العدد 21، بتاريخ 1959/4/18م.

الوطن"، حيث أشارت في بعض مقالاتها وصف للمناضلة الجزائرية "جميلة بوحيرد" بمقال جاء بعنوان (سلام...على جميلة بوحيرد)، ان جميلة يجب الا تموت حيث طبعت هذه الكلمات مرفقة بصور المناضلة جميلة، وتم بيعها في المزاد العلني وقدمت الارباح لصالح القضية الجزائرية.¹

ومن ضمن المناضلات ايضاً التي كان لها دور السيدة بهيجة ابنة الهادي المشيرقي والسيدة عادلة زوجة الهادي المشيرقي، بتقديم عدد من المهام ومنها نشر بعض المقالات الداعمة للمرأة الجزائرية في الكفاح من خلال الصحف الليبية، والإذاعة المسموعة من أجل نصرة القضية الجزائرية ودعمها، كما قامت بعض العائلات الطرابلسية باحتضان أطفال يتامى جزائريين من أبناء الشهداء.⁽²⁾

لقد عرجنا من خلال هذا المبحث على دعم ليبيا لمكتب الجبهة تحرير الوطني الجزائري بطرابلس، وما قام به المكتب من نشاط للدعم الإعلامي والشعبي من أجل مساندة القضية الجزائرية، فقد كان للملكة الليبية ملكاً وشعباً دور كبير في الدعم المادي و المعنوي للثورة الجزائرية، فليبيا دائماً داعمه وسباقة لكفاح الشعب الجزائري، حيث كانت مواقف الحكومة الليبية بارزة ومميزة خاصةً فيما قدمته من تأمين المساعدات، والمؤن والمعدات والأسلحة إضافة إلى التبرعات التي قُدِّمَتْ من خلال لجان شُكِّلَتْ في البلاد من أجل نصرة القضية ومن أجل وحدة واستقلال الجزائر.

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث يمكن القول أنَّ عملنا هذا قد قادنا إلى تشكيل صورة حرصنا من خلالها على أن تكون أقرب إلى الدقة والصدق والموضوعية

1. جريدة طرابلس الغرب، 19/مارس/ 1958م، ص 1.

2. الهادي المشيرقي، المصدر السابق، ص 266.

في وصف دعم المملكة الليبية لجهة التحرير الوطني الجزائرية 1954. 1962م، وتوصلنا إلى النتائج الآتية:

- أثبتت جهة التحرير الوطني الجزائرية قدرتها على توحيد العمل على المستوى الداخلي والخارجي.

- تمثل نشاط جهة التحرير الوطني في الخارج في تنشيط عنصر الدعاية لدعم القضية الجزائرية باتجاه الدول العربية ودول جنوب شرق آسيا، حيث حصلت على الدعم المادي والمعنوي.

- بعد عقد مؤتمر الصومام 1956م عرفت القضية الجزائرية تطورات سياسية ودبلوماسية، كما لعبت مكاتب الجهة بالخارج دورا كبيرا للتعريف بالقضية الجزائرية، وبالتواصل مع جهات داعمة لها.

- لم يكن دعم المملكة الليبية مجرد شعار تم رفعه، إنما بُذِلَت الجهود في تفعيله من خلال إقامة لجان شعبية لجمع التبرعات وتقديمها للجزائر من أجل نصرة القضية الوطنية، إضافة إلى إقامة مكاتب داخل وخارج ليبيا والجزائر، لجمع المساعدات المادية والعينية، ونشطت هذه اللجان على مختلف الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية وحتى تمثلت في دعم المرأة الليبية مع إبراز دور أهم المناضلات الليبيات للقضية الجزائرية.

مذكرات امرأة مجاهدة من سطيف خلال ثورة التحرير الجزائرية: المجاهدة يمينة شراد: 'ست سنوات في الجبال' Six ans au maquis

د. خليل كمال
جامعة سيطيف 02
k.khelil@univ-setif2.dz

د. زهير بن علي
جامعة سيطيف 02
z.benali@univ-setif2.dz

مقدّمة

قلّة هنّ النساء المناضلات إبان الثورة الجزائرية اللواتي وثّقن كفاحهنّ، بعضهنّ ربما خاتمتن الجرأة لكسر حاجز الخوف أو 'الحياء'؛ بسبب ما تعرّضن له من تعذيب وممارسات مُشينّة من طرف ضباط جيش الاحتلال الفرنسي، وبعضهنّ لم تسعفنّ أقلامهنّ؛ بسبب ثقافتهنّ المتواضعة، التي لم تسمح لهنّ بالكتابة بكلّ حرية؛ نتيجة عقود طويلة من سياسة التجهيل التي فرضها المحتل الفرنسي أيضاً، وبعضهنّ لم يشأن النباش في جروح الماضي المؤلمة؛ فآثرن الصمت... إنّ ما يُؤسّف له حقّاً أنّ الكثيرات من المجاهدات والمناضلات والمسبّلات رحلن دون أن نوثّق يومياتهنّ الحافلة بالبطولة والفداء والتّضحية في سبيل الحرية.

وبالمقابل كتبت بعض النساء المناضلات سيرتهنّ الذاتية، والتي أصبحت مصدراً مهمّاً للباحثين في تاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، سيما المهتمّين بمساهمة المرأة الثورية وأدوارها خلال مرحلة مهمّة من تاريخ الجزائر، ويمكن هنا أن نذكر:

- المجاهدة زهرة ظريف وكتابها: مذكرات مجاهدة من جيش التحرير الوطني: الناحية المستقلة للجزائر العاصمة، والتي تروي ذكريات طفولتها، وعندما

كانت طالبة بالثانوية ثم الجامعة، وانضمامها إلى صفوف الحركة الوطنية؛ وصولاً إلى مشاركتها في الثورة.

- الأدبية والمجاهدة زهور ونيسي: والتي خلّفت العديد من المؤلفات، لعلّ ما يعيننا منها كتابها: يوميات مدرّسة حرّة، ومذكراتها: 'عبر الزهور والأشواك'.
- البطلة الجزائرية جميلة بوحيرد التي كُتب عن سيرتها النضالية الكثير.

في هذه المساهمة نناقش إشكالية إحجام المرأة الثورية عن كتابة مذكراتها، ونسعى لتبيان أهمية وقيمة هذه المصادر عبر تقديم قراءة تاريخية لمذكرات امرأة جزائرية عايشة يوميات الثورة إلى غاية الاستقلال، وهي ابنة مدينة سطيف المجاهدة: يمينّة شرّاد؛ من خلال كتابها الموسوم بـ 'ستّ سنوات في الكفاح بالجل' (Six ans au maquis)، والذي قدّم -دون شك- إضافة مهمّة لمذكرات صنّاع وصانعات الحدث خلال الثورة التحريرية الكبرى من مجاهدين ومجاهدات. فالكتاب الذي بين أيدينا للمجاهدة 'يمينّة شرّاد' التي خالفت القاعدة التي تقول: المرأة المجاهدة المثقفة الجريئة هي فقط من تكتب! لقد مثّلت الاستثناء، فكسرت حاجز الصمت، ووثّقت تجربتها الزاخرة بالكفاح والنضال والصبر والمعاناة.

يُحصى المؤرّخ الفرنسي بنجامين ستورا (Benjamin Stora) أكثر من مائة وتسعة وسبعون (179) مُؤلّفاً صدر بين سنتي 1962 و2000م؛ هذه المذكرات التاريخية أنجزت من طرف مائة وأربعون (140) امرأة أوروبية، توثّق شهادتهن عمّا عايشنه من أحداث خلال الثورة الجزائرية، وتحفظ ذاكرتهنّ وذاكرة عائلتهنّ، وجيل كامل من المستوطنين الأوروبيين عن 'حرب الجزائر'. في الوقت نفسه تعدّ شهادات ومذكرات المجاهدات الجزائريات قليلة جدّاً؛ قياساً إلى عددهنّ وأدوارهنّ البطولية في ثورة نوفمبر 1954م، فرغم أهمية هذه المصادر التاريخية لكتابة تاريخ وإسهامات المرأة في الثورة

التحريرية، وحفظ ذاكرة من صنعن أحداثها، لم تكتب إلا القليلات ممن حظين بفرصة التعليم على غرار زهور ونّيسي وزهرة ظريف -كما سبق وذكرنا- في حين بقيت الكثير من الحقائق طيّ الكتمان والنسيان بعد أن غيّب الموت صاحباتها.

وبالنظر إلى الدور التاريخي الذي لعبته المرأة الجزائرية أثناء الثورة التحريرية، ومساهمتها الفعّالة في الكفاح التحرري، يحقّ لنا أن نتساءل اليوم عن مكانة المرأة الثورية المجاهدة، وهل تمّ الاعتراف بهذا الدور بعد الاستقلال؟ وعن العوامل والظروف التاريخية التي جعلت المرأة الثورية تُحجم غالبًا عن الإدلاء بشهادتها، أو تدوين مذكراتها في مرحلة الجزائر المستقلّة؛ مثلما فعلت نظيرتها المرأة الأوروبية التي استوطنت الجزائر.

1- قيمة مذكرات المرأة الجزائرية الثورية كوثيقة تاريخية

تندرج المذكرات الشخصية ضمن الوثائق الأصلية المنشورة، وهي مادة تاريخية أصلية وأصيلّة؛ لكون أصحابها عايشوا الأحداث ودوّنوا الوقائع وكانوا بالقرب منها، وعاصروا من شاهدها أو صنعها، وكانوا قاصدين إيصال معلوماتها إلى الأجيال القادمة... فهي مصدر من مصادر التأريخ؛ بل هي التاريخ نفسه؛ لأنّها تُحيي الذاكرة وتبعث الماضي من جديد. وكثيرا ما يساعد هذا الصنف من المصادر في ملأ الفراغ الموجود، وسدّ الفجوة في المادة التاريخية، والمساهمة في إعادة بناء الحادثة التاريخية؛ لما تتضمنه الشهادات الشفوية والمذكرات المنشورة من وثائق هامة وصوراً ومراسلات متبادلة؛ بعضها كانت تحاط بالسريّة وقد تنشر لأول مرّة.

كما يمكن لهذه المذكرات أن تُجيب عن بعض الأسئلة العالقة في أذهان الباحثين والمهتمين، وتُطيء اللثام عن قضايا تاريخية بقيت محلّ جدل، سيما تلك المتعلقة بالخلافات السياسية، والصراع بين القادة أحيانا. وقد تعكس

الشهادة التاريخية أنماطاً معيّنة من التفكير، وتعبّر عن القيم التي تبلورت في حاضر أصحابها (الذي هو ماضي بالنسبة لنا)، وتعبّر أيضاً عن حالات عاطفية ونفسية، وعن لحظات المعاناة والتضحية والخوف، وحتى بوارق الأمل وحوافز الشجاعة والإقدام... وكل تلك الأحاسيس التي تختلج الشعور الإنساني أثناء لحظات الفعل الثوري البطولي. فالشهادة التاريخية الحية تكون مليئة بالعواطف والأحاسيس والمشاعر المتضاربة، خاصة إذا قدّمتها امرأة، بخلاف الوثيقة الأرشيفية التي قد تكون عادةً جافة وباردة.

وإذا كانت شهادات ومذكرات الرجال ممن صنعوا أحداث الثورة؛ تركّز على تدوين الحقائق الكبرى ونقل الأحداث الهامة؛ وظروف النشاط السياسي والكفاح التحرري والجهاد، فإنّ المذكرات النسوية ترسم لنا تفاصيل الحياة اليومية بالمدن والأرياف في ظلّ السرية، بما تضمّنته من مُداهمات وعمليات تفتيش وتمشيط، أو الحياة في الجبال في ظروف طبيعية قاسية، حيث للمرأة المجاهدة مهام وأدوار قد تختلف بطبيعة الحال عن مهام الرجل، كما أنّ مذكرات المجاهدات تنقل لنا مُعاشات المرأة الثورية لأحداث حقيقية بتجلياتها وتفاصيلها، كما تُعيد بناء صورة عن البيئة المحيطة بالحدث، وتضيء لنا الماضي بما يحمله من قيم ومشاعر وأحاسيس... إنّها محاولة لكتابة التاريخ بأسلوب مختلف، فمُسائلة النساء يعني تجميع حقائق جديدة عن تاريخ الثورة التحريرية؛ لكون المرأة بطبيعتها تركّز دوماً على التفاصيل وتهتمّ بدقائق الأمور عكس الرجال.

إنّ تناول لموضوع 'مذكرات المرأة الثورية' يندرج ضمن قناعاتنا بأنّه حان الوقت لكتابة تاريخ المرأة الجزائرية ومآثرها عبر العصور، لا سيما نشاطها ضمن الحركة الوطنية الاستقلالية، وهذا بعد أن توجّهت الدراسات التاريخية المعاصرة إلى الخوض في 'التاريخ النسوي' و'تاريخ النوع'، بالإضافة

إلى توجّه المدرسة التاريخية الحديثة إلى اعتماد الرواية الشفوية كمصدر للبحث التاريخي، "فقد نجحت نظرية 'التاريخ الشفوي' في إثبات حجيتها وجدواها"، مع ما تحتاجه من صرامة وضبط منهجي¹.

إنّ شهادات المرأة الثورية يُفترض أن تروي لنا ظروف اعتقالها، وما تعرّضت له من تعنيف أو اغتصاب، وترسم صورة جليّة عن أساليب التعذيب الجسدي والنفسي.. وعن معاناتها بعد اعتقال أحد أقاربها أو أبنائها، وعن شعورها بعد استشهاد رفيقتها في النضال، وبعد سقوط والدها أو أخيها أو زوجها شهيدا، وأحاسيسها حينما تفقد ابنها في ساحة المعركة.

قد تعبّر هذه المذكرات والشهادات عن حالة التضامن الشعبي والتكافل المجتمعي في ظلّ ظروف الحرب، تقول زهور ونّيسي: "إذا كان الكاتب هو ذلك الذي يسجّل الواقع الإنساني عبر إبداعاته، فما عليه في النهاية إلّا أن يكون صادقاً في إبداعاته الواقعية، إنّ المبدع الجزائري يتميز في إبداعاته، أنّه كان يعيش واقع مجتمعه، وأحاسيس مواطنيه وآلامهم وآمالهم، كان يكتب من واقع الجراح؛ لأنّه عاشها وعایشها وتفاعل معها، ولم يكن يكتب من الأخيلة أو الأحلام، لقد كان الواقع عنده أعظم من المتخيّل، لذلك تميّزت إبداعاته في مراحل معينة من التاريخ النضالي لبلده وشعبه..."².

كما تعكس المذكرات غالباً عن حالات نفسية تميّز المرأة الثورية بصفة خاصة، وتعبّر عن مواقف عاشتها صانعات الأحداث التاريخية المهمة من تاريخ الثورة الجزائرية، فالشهادات الحيّة قد لا تكتب التاريخ ولكنها تثمنه، وتبعث فيه روح جديدة ومتجدّدة.

1 - أحمد بن يغزر: "الشهادة الشفوية كمصدر لتاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية بين الإمكان والضيّط"، مجلة الحوار المتوسطي، ع. 13-14، ديسمبر 2016، ص ص. 239-251.

2- زهور ونّيسي: عبر الزهور والأشواك: مسار امرأة، دار القصبة، الجزائر، 2012، ص. 170.

2- السيرة الذاتية للمجاهدة 'يمينة شراد'

هي شابة من شابات مدينة سطيف المجاهدات اللواتي قدّمن تضحيات جسيمة، عملت بصفة ممرضة خلال الثورة الجزائرية؛ في واحدة من أصعب المناطق في الولاية التاريخية الثانية بالشمال القسنطيني، بجبال جيجل حيث المسالك الوعرة والظروف الطبيعية القاسية.

وُلدت يمينة شراد بحيّ بيلير (Bel Air) الشعبي بمدينة سطيف في الثالث من شهر أفريل عام 1936م، والدها هو 'محمد شراد' وأمّها 'بوخرصة عائشة'، لعبت شقيقتها الكبرى 'نانا مسعودة' دوراً مهماً في حياتها¹، فهي التي تولّت تربيته بعد مرض والدتهما، وقد حرصت على غرس مبادئ حبّ الوطن في نفسها، وتلقينها أبجديات النضال منذ الصغر، حيث كانت تتابع باهتمام الأحداث الجارية في الجزائر بعد 1945م، وتهتمّ لنشاط أحزاب الحركة الوطنية الجزائرية وشخصياتها، بعد أن أضحت منطقة سطيف عاصمة النضال السياسي الوطني الجزائري ضد الاستعمار والإمبريالية، كما تذكر أنها كانت تواظب على قراءة جريدة 'البصائر' لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

في عام 1942م؛ إلتحقت 'يمينة شراد' بالمدرسة الفرنسية بمدينة سطيف، ووجدت الدعم من مديرتها السيّدة 'خبزي' (Marcelle Khobzi)، وهي امرأة فرنسية متزوجة من جزائري، والتي تقول عنها: "عاملتنا بلطف وإنسانية كأمّ ثانية...". وفي عام 1950م تحصّلت على الشهادة الابتدائية، لكنها لم تكمل دراستها لأسباب خاصة. وما لبثت 'يمينة شراد' أن التحقت

1 - استندنا في التعريف بهذه المجاهدة على ما روته هي بنفسها في هذا الكتاب أو من خلال تصريحاتها ولقاءاتها الإعلامية. يُنظر: تقديم كتاب يمينة شراد ضمن منتدى جريدة المجاهد. الرابط:

<https://www.youtube.com/watch?v=-Hh84AR0IMQ>

بمدرسة التمريض بسطيف، التي كانت تقدّم تكويناً شبه طبيّ للفتيات الجزائريات المتعلّّقات، بعد إجراء مسابقة قبول وطنية تشارك فيها مرشحات من كامل القطر الجزائري، فكانت 'يمينة' من الناجحات رفقة درّازبيدة من سيدي بلعباس، والأنسة تمزالي من بجاية، ومليكة قايد من الجزائر، والأخوات بن محمود، وكان التكوين في هذه المدرسة المتخصصة يستمرّ لمدة ثلاث سنوات.

تخرّجت 'يمينة شراد' من مدرسة الممرضات بسطيف عام 1953م رفقة زميلاتهما: بهبار مسعودة، قايد مليكة، أومجقان فاطمة الزهراء، إيدور جميلة ولويّزة عطّوش (المعروفة بـ 'لويّزة الفرملية' عند ساكنة مدينة العلمة 'سانت آرنو' سابقاً)، وأجرت تربّصاً ميدانياً تطبيقياً بمستشفى بوقاعة 'الفاييت' سابقاً، ثم أُلحقت بمصلحة جراحة النساء بمستشفى سطيف أين عملت بصفة ممرضة، وكان ذلك عشية اندلاع الثورة التحريرية؛ أي في الأشهر التي سبقت شهر نوفمبر من عام 1954م.

3- تقديم كتاب 'ستّ سنوات في الكفاح بالجبّال

الكتاب صادر باللغة الفرنسية في 197 صفحة عن 'دار الكلمة' بالجزائر العاصمة سنة 2017، تمّت طباعته في شهر سبتمبر بمطبعة 'النّسخة'، وقد صدرت طبعته الثانية عن ذات الدّار سنة 2018، في واجهته صورة فوتوغرافية تاريخية بالأبيض والأسود لمؤلّفته 'يمينة شراد' بالبذلة العسكرية؛ تتوسّط اثنين من المجاهدين، وقد أخذت الصورة -حسب تصريحها- بجبّال الطاهير (ولاية جيجل) سنة 1960م، يقسم الصورة عنوان الكتاب باللون الأحمر الدّاكن (Six ans au maquis)، يعلوه اسم ولقب مؤلّفته كاملاً (Yamina Cherrad Bennaceur)، أما خلفية الكتاب فتحتوي على مقتطف منه.

عنوان الكتاب نجده بخط واضح يعلوه أيضاً اسم ولقب المؤلفة كاملاً، وتحتّه مباشرة بخط أصغر عبارة: 'بالتعاون مع رشيدة منصف' (يبدو أنّها محرّرة مضمون الكتاب)، وفي قلب الصفحة الأولى العنوان الرئيسي للكتاب باللغة الفرنسية (Six ans au maquis)، يليه اسم ولقب صاحب التقديم السيّد: 'لامين خان' (وهو أحد أطباء الثورة ووزراء الحكومة المؤقتة)، وفي أسفل هذه الصفحة اسم دار النشر.

جاء عنوان الكتاب مُختصراً في ثلاث كلمات، مُعبّراً عن مسار ممرّضة جزائرية مُجاهدة في صفوف الثورة لمدة ستّ سنوات إلى غاية تحقيق الاستقلال، وتمّ تدوين الكتاب باللغة الفرنسية التي تتقنها مؤلّفتها؛ بحكم تكوينها في المدرسة الفرنسية، ثم بمدرسة الممرضات بسطيف بذات اللغة، وهو حال قلة قليلة من أبناء الجزائريين؛ الذين نالوا فرصة التعليم في المدارس الفرنسية من جيل الثورة والأجيال السابقة التي عايشَت الاحتلال. في الصفحة الموالية نقرأ إهداء المؤلفة كتابها؛ للجزائر وكلّ الجزائريين، وإلى الشهداء، وكل الذين ماتوا من أجل الجزائر... وإلى عائلتها ورفيقاتها في الكفاح، وبعض صديقاتها... لنجد في الصفحة الموالية اعتراف وامتنان المؤلفة لوالديها ومعلّمها، وكل من ساعدها في إخراج هذا الكتاب.

تضمّن الكتاب مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة مقتضبة، كتبت المؤلفة في الفصل الأول عن حياتها قبل الكفاح من الطفولة إلى غاية التحاقها بالجبل سنة 1956م، أما الفصل الثاني فوثّقت فيه يومياتها في الكفاح إلى غاية عام 1961م، وجاء الفصل الثالث موسوماً بـ: نهاية الحرب (الثورة التحريرية) وغطّى آخر أيام ثورة نوفمبر بين سنتي 1961-1962. كما كان مضمون الكتاب متبوعاً بملاحق اشتملت نبذة عن مسيرة زوجها (بشير بن ناصر)، وثلاثة من رفقاءها النضال: لويّزة عطّوش (Louise Atouche)، أحمد لعباني

(Ahmed Laabani)، طيوشة (Tayoucha).

احتوت ملاحق الكتاب أيضاً على قائمة بأسماء الممرضات والمجاهدات والمرشدات اللواتي عملن مع 'يمينة شرّاد' بالولاية التاريخية الثانية خلال الثورة، فضلاً عن جدول بأسماء ممرضات مدرسة التكوين شبه الطبي بسطيف اللواتي التحقن بالكفاح، وختمتها بوثنائق أرشيفية شخصية وبعض الصور لعائلتها وزميلاتها في الدراسة ورفاقها في الكفاح.

4- سرد مضمون مذكرات المجاهدة يمينة شرّاد

تحدّث يمينة شرّاد في الفصل الأول عن طفولتها في حي بيلير بمدينة سطيف، حيث والدها معلّم القرآن (الطالب) 'سي محمد'، والذي كان يُؤجّر الأراضي التي يمتلكها بمنطقة برج بوعريّج التي تنحدر منها عائلة شرّاد، وكان هذا مصدر رزقه، وهو الذي لم يكن يعمل بحكم اشتغاله بتحفيظ القرآن، أما والدتها فهي 'بوخريصة عائشة' من عائلة تعود أصولها إلى الساقية الحمراء، وقد تزوّج والديها عام 1930م.

تعود 'يمينة شرّاد' بذاكرتها إلى مجازر 8 ماي 1945م، حيث كانت ابنة تسع سنوات، حين سمعت طلقات الرصاص، وشاهدت الجثث مرمية في الشوارع، كما تتذكّر معاناة الجزائريين الذين يتمّ القبض عليهم وجرّهم بالشاحنة العسكرية، ليتمّ اقتيادهم إلى غاية شعبة خراطة أين يتمّ رميهم هناك. ويبدو أنّ هذه المجازر بقيت صورها المرعبة عالقة بذهنها هي والكثيرين من أبناء جيلها، وأثّرت أيّما تأثير في بلورة وعيها السياسي وقناعاتها، فقد أدركت منذ نعومة أظافرها معنى العيش تحت سيطرة احتلال أجنبي.

أما عن سنوات تعليمها الابتدائي؛ فالمؤكّد أنّ الأقدار وحدها ساقتها رفقة قلّة من بنات مدينة سطيف؛ لارتياح المدرسة الفرنسية تحت إشراف السيّدّة 'خبزي'، تقول يمينة شرّاد عن فضل هذه المرأة في تعليمها: "هذه

المرأة ستلعب دوراً أساسياً في تكويني الفكري والنخبوي" (ص 35). وهي التي شملتها وزميلاتها التلميذات 'الأهليات' بالرعاية والتوجيه؛ كونها كانت متعاطفة مع 'الأهالي' وقريبة منهم، ودليل ذلك زواجها من مسلم جزائري، وهي عادة قلّة من النساء الفرنسيات من بنات المعمّرين، على غرار زوجات بعض أعلام الحركة الوطنية الجزائرية من أمثال: 'فرحات عباس' أو زوجة 'مصالي الحاج'، من اللواتي تعاطفن مع قضية الشعب الجزائري، وآثرن النضال إلى جانب أزواجهنّ الجزائريين.

بعد أن أنهت يمينه شراد مرحلة التعليم الابتدائي عام 1950م؛ وبدعم من السيّدة 'خزي' دائماً؛ التحقت بمدرسة تكوين الممرضات بسطيف، رفقة ثلّة من زميلاتها: لويز عطوش، مسعودة بهبار، مليكة قايد، فاطمة الزهراء أومجقان. وكانت حواراتها مع زميلاتها خاصة مليكة قايد تدور حول قضايا الوطن الجزائري، والحرية والنضال، وحالة البؤس التي كان يعيشها الشعب الجزائري تحت نير الاحتلال الفرنسي، وهو ما ساهم في تبلور الوعي السياسي والوطني لدى هؤلاء الفتيات، والتحاقهنّ بالثورة الجزائرية تواليا: مليكة قايد في أوت 1956؛ لتستشهد في عام 1957م، لويز عطوش، وتليها يمينه شرّاد (ص 45).

وقبل ذلك؛ تذكريمينه شراد أنّ زيارتها لمدينة الجزائر لمدة ثلاثة أيام سنة 1953م قصد إجراء الامتحان النهائي الخاص بالتكوين في سلك شبه الطبي؛ ترك تأثيراً قوياً على نفسيّتها وغير نظرتها للحياة، وقد كان عمرها حينذاك 17 سنة، فهناك لمست الفرق الشاسع بين نمط حياة الأوروبيين والمسلمين الجزائريين (الأهالي).

* دخولها معترك الحياة العملية: بعد نهاية عطلة صيف سنة 1953م؛ وُجّهت يمينه شراد إلى مدينة بوقاعة (لافايت)، لإجراء سنة تطبيقية

إجبارية، في حين عُيِّنَت صديقتها مليكة قايد بمستشفى خراطة، ولويس عطوش في آقبو، ومسعودة بهبار في برج بوعريرج، وبقيت فاطمة الزهراء أومجقان في سطيف. وهناك عملت يمينة شراد مع طبيب إسرائيلي في مركز الراحة الخاص بالمرضى القادمين من مدينة سطيف، واستقرت في منزل بسيط خاص بالمرضات رفقة شقيقتها مسعودة (نانا).

تؤكد 'يمينة شراد' أنها قرأت خبر اندلاع ثورة نوفمبر 1954م في الجرائد، وقد سكن الخوف حينذاك النفوس، وعاد الاضطراب إلى الحي الذي كانت تعيش فيه، واسترجعت ذكريات أحداث 8 ماي 1945م الأليمة، لكن شقيقتها أكدت لها أن الثورة حقيقية، وربطت الأمر بما يجري في الهند الصينية وتونس والمغرب، ونضال الملك 'محمد الخامس' وتنامي الحقد ضد الامبريالية... بالمقابل بدأت موجة من الغضب في أوساط المستوطنين الأوروبيين، وتنامت بينهم مشاعر العنصرية والكراهية والاستخفاف بالأهالي، وهو ما وسّع الهوة أكثر بين الجانبين.

في مقرّ عملها بالمستشفى الذي يتلقّى الجرحى من الطرفين الجزائري والفرنسي، تتحدّث 'يمينة شراد' عن تزايد الإهانات والهمجية تجاه الأهالي المسلمين، كما تصف مشاعر الحزن التي كانت تنتاب الطاقم الطبي الأوربي بالمستشفى حين يتعلّق الأمر باستقبال جنود جرحى من الجيش الفرنسي، بينما تختلف تلك المشاعر إذا تعلّق الأمر بجريح من صفوف الثوّار الجزائريين. شرعت يمينة شراد في التعاون مع الثورة من خلال مراقبة الجرحى الجزائريين في المستشفى، وتزويد المناضلين بالأدوية والضمّادات التي يتمّ استخراجها سرّاً من المستشفى عن طريق وسطاء، ومن بينهم المدعو 'محمد' الذي كان يشتغل عند الطبيب 'الطاهر سديرة'، والذي عرفت فيما بعد أنّه مسؤول منطقة سطيف.

* الالتحاق بالجبل عام 1956م: في 12 نوفمبر من عام 1956م، كان ل'يمينه شراد' موعد مع التاريخ في مكان غير بعيد عن المدرسة الابتدائية للذكور بحي 'بيلير'، بجانب الطريق الرابط بين سطيف وقسنطينة، وهنا تصف مشاعر الخوف والرهبة وألم فراق عائلتها، والتوجّس من الحياة الجديدة التي تنتظرها، وقد انتقلت من سطيف رفقة رجلين من رجال الثورة هما: 'عبد الرحمان عطية'، و 'إبراهيم زغار' (شقيق المجاهد مسعود زغار) إلى مدينة سانت آرنو (العلمة)، ثم إلى منطقة تاشودة حيث مكثت عند عائلة 'ديلي' (وهي عائلة ثورية مشهورة بالمنطقة)؛ لتواصل السير مع رفاقها عبر مسالك جبلية حتى لا ينكشف أمرهم، أو يتعرضون لغارات الجيش الفرنسي؛ وصولاً إلى جبال بابور؛ أين التقت ببعض المجاهدين، وهناك سيبدأ فصل جديد في مسيرتها النضالية.

في الفصل الثاني من شهادتها؛ تروي 'يمينه شراد' ذكرياتها وأيامها الأولى في الجبل بين عامي 1956 و 1957م بمنطقة بابور، ثم واد كبير وزويشة وجبل حلفة، حيث كان الاستقبال الحار من طرف نساء المشاتي؛ أين تلقّت التعليمات الصارمة من طرف مسؤولي جيش التحرير الجزائري، كما تصف الحياة في 'المركز'، وظروف الانتقال من مركز إلى آخر، وتجزم أنّ حياة أو مستوى معيشة الجندي في صفوف جيش التحرير كانت أفضل من معيشة المدنيين من عامة الناس، كما أنّ الظروف في الجبل لم تكن صعبة كثيراً في هذه المرحلة؛ لأنّ إستراتيجية الجيش الفرنسي لم تركز قوّاتها بعد على هذه المنطقة، حيث كان الاهتمام منصباً على منطقة لأوراس (الولاية التاريخية الأولى منطلق شرارة الثورة التحريرية)، كما تذكر أنّها كانت تتابع أخبار الثورة والعمليات العسكرية من خلال الصحافة الفرنسية.

من بين الأمور المهمة الذي تذكرها 'يمينة شراد' أنّ المجاهدات لم يكنّ يتولّين الواجبات اليومية (المهام النسوية) في الجبل؛ من إعداد الطعام وتنظيف الملابس... وغيرها، فكلّ مجاهد كان يقوم بخدمة نفسه بنفسه، وتؤكد أنّها مثلها مثل أغلب الجنود لم تكن تحمل سلاحاً؛ لذلك فقد كانت جلّ العمليات التي يقوم بها المجاهدون في هذه المرحلة من الثورة هي نصب الكمائن لجيش العدو الفرنسي؛ بهدف الحصول على أسلحة، والتي كانت تعوز الثوّار كثيراً، كما يخصّص قادة الثورة جلّ الوقت لإجراء لقاءات مع المدنيين للحديث عن جيش وجهة التحرير، ومحاولة ربط الأواصر بعامة الشعب، وتعريفه بالثورة الجزائرية وأهدافها.

بخصوص عملها في المجال الصحيّ تذكر أنّ أوّل مصحّة تمّ إنشاؤها في الولاية الثانية كانت بمنطقة 'راشدي بوسديرة'، لكن المشرفة عليها استشهدت بين سنتي 1955-1956م، وقد تمّ تعيين 'لامين خان' (كان حينها طالباً في الطب) مسؤولاً صحّيّاً بالولاية التاريخية، و'بشير بن ناصر' (طالب في الصيدلة وزوجها فيما بعد)؛ مسؤولاً عن المنطقة الأولى بالولاية الثانية، وبالتالي فهذين الرّجلين هما من أنشأ مصلحة الصحة بهذه الولاية بين عامي 1956 و 1958م، وقد تميّزا -وفق شهادتهما- بحسن التسيير والبراعة في التنظيم، لكن لم يستمر عملهما طويلاً بهذه المصلحة، حيث عُيّن السيّد 'لمين خان' ضمن تشكيلة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في سبتمبر 1959م، وتمّ تعويضه بالدكتور 'محمد تومي'، بينما تمّ تحويل 'بشير بن ناصر' إلى المصلحة السياسية بميلة ثم قسنطينة.

تنتقل بعدها المجاهدة 'يمينة شراد' إلى الحديث عن مرحلة أخرى في جهادها، وذلك بمنطقة 'منزل' بدوّار 'أولاد عسكر' وبمشتة 'زويتينة'، تحت إمرة القائد العسكري 'عز الدين بن مبارك'، وتروي ذكرياتها مع فتيات

ممرّضات التحقن بالجبل على غرار لويّزة من قسنطينة، سليمة، نعيمة بن شيخ، ليلى موساوي، وكانت من أوائل الملتحقات المجاهدة 'مسيكة زينة'، وكان ذلك في شهر فيفري 1957م، ثم الشهيدة 'مريم بوعتورة'، وهنا تقول 'يمينة شراد' أنها لم تحصل على سلاح (Petite Mitraillette) إلى غاية عام 1959م.

كما تطرح مسألة زواج جنود جيش التحرير الجزائري، وتؤكد أنه كان مسموحاً فقط للمجاهدين بالزواج من النساء المدينيات، بينما بقي الأمر ممنوعاً عن النساء المجاهدات إلى غاية سنة 1960م، وهو ما سرى عليها وعلى زوجها بشير بن ناصر¹، كما تروي الأيام العسيرة التي قضتها في الجبال تحت القصف المكثّف، وتصف عمليات التمشيط الواسعة التي كانت تقوم بها القوات الفرنسية، أين عرفت هذه الفترة زيادة الضغط على الثورة بالشمال القسنطيني، واستشهاد الكثير من المجاهدين، وتجزم 'يمينة شراد' أنها بمثابة بداية المرحلة الأصعب التي استمرّت حتى سنة 1961م، فمع تطبيق 'مخطط شال' تحوّلت الحياة في الجبال إلى جحيم لا يُطاق —على حدّ وصفها—.

وتُشير إلى أنّ 'بشير بن ناصر' طلب منها سنة 1958م، الالتحاق بعيادة بوداود، وتعتبر هذه العيادة أوّل عيادة حقيقية قامت بتسييرها منذ التحاقها بالثورة.

* بوداود – المنزل- أولاد عسكري: 1957-1958: تتحدّث عن مسؤولياتها في إدارة عيادة بوداود، والمهام التي أوكلت إليها، وكذا الزيارات التي كانت تتلقّاها،

1 -Raphaëlle Branche : « Combattants indépendantistes et société rurale dans l'Algérie colonisée », *Revue d'Histoire*, n°141/2019, Press de Sciences Po, p.p.113-127. Voir le lien: <https://www.cairn.info/revue-vingt-et-vingt-et-un-revue-d-histoire-2019-1-page-113.htm> Consulté le: 17/05/2023 à 08:54.

وتناقش مسألة غياب الحماية للممرّضين سواء ضمن أعراف القانون الدولي أو عمل الصليب الأحمر الدولي، وبذلك أصبح أفراد السلك الطّبي للثورة مثلهم مثل الجنود هدفًا للجيش الفرنسي.

ولعلّ من المواقف المؤثّرة التي تروىها المجاهدة يمينة شراد؛ حين استقبالها مجاهدين مُصابين، والذين كانوا غالبًا بحاجة إلى عمليات جراحية دقيقة؛ تتمثّل عادةً في بتر أحد أعضاء الجسم، فقد كانت تحتاج إلى شجاعة ورباطة جأش للقيام بهذه العمليات، كما كانت تستخدم وسائل بسيطة في معالجة الكسور، تتمثّل في أغصان الأشجار لتثبيت العظام، والأعشاب الطبيعية لتعويض ندرة الأدوية والمضادات الحيوية. كما تحدّثت في هذا الفصل عمّا أسمته بالحياة داخل مثلث الموت (تكسانة- العوانة- الميلية)، والأيام الصعبة لتي مرّت عليها بعد تحويلها إلى منطقة بني عافر.

* بني عافر- بوحنش- تيمزقيدة: 1958-1959: تذكر يمينة شراد أنّه ومنذ بداية 1958م عشت في 'بويوزور' أصعب لحظات حياتي... خاصة بعد الاشتباه بها واتّهامها بالتعاون مع العدو الفرنسي... وهنا عبّرت بصدق عن حالة الخوف والقلق الشديدين الذين عاشت في ظلّهما لعدّة أيام، قبل أن تتمّ تبرئتها (ص 103-104).

بالعودة إلى سياسة فرنسا الميدانية لقمع الثورة؛ نجد هذه المذكرات تتحدّث عن بعض تفاصيل وتجليات 'مخطّط شال' وسياسة 'الأرض المحروقة'، من خلال مراكز التجميع والمحتشدات لعزل الشعب عن الثورة أو ما أسمّتها المؤلّفة بعملية: 'إفراغ الماء لقتل السمك'، وهو أصدق تعبير عن حالة الحصار المطبق الذي فرضه الجيش الفرنسي على الثوار الجزائريين، وعمله على تجفيف منابع الدعم اللوجستيكي للثورة الجزائرية.

ولم تقتصر الكاتبة في مذكراتها على حياة الجبل والنّضال؛ بل كانت لها إضاءات على الحياة الريفية بالشمال القسنطيني، ونمط معيشة السكان الجزائريين في القرى والمداشر، كما طرحت قضية مُعاملة الرجل للمرأة في الريف (ص112)، وكذا نظرة الجنود للمجاهدات (ص113).

تذكر 'يمينة شراد' أيضا أنّ فرنسا شرعت في استخدام قنابل النابالم المحرمة دوليًا منذ مطلع سنة 1959م، والتي تسبّب جروحًا وحروقًا بليغة، كما تروي قصة تلك المرأة التي ضحّت بابنها؛ لإنقاذها هي رفقة مجموعة من الثوّار من الوقوع في أيدي الجيش الفرنسي (ص115)، وكذلك مهام وعمل مكاتب الفرق الإدارية المتخصصة (SAS).

* العودة إلى بني عافر... نهاية 1959: تتحدّث 'يمينة شراد' عن سنة أخرى عسيرة على المجاهدين بالشمال القسنطيني، حيث كثّف الجيش الفرنسي طلعات الطيران والقصف وعمليات التمشيط، كما زاد الوضع سوءاً بسبب ندرة المواد الغذائية؛ ما جعلها ورفاقها يبقون على الطوى (الجوع) لعدّة أيام، وتصف حادثة تعرّضهم لكمين في وادي الرحي نجو منه بأعجوبة (ص125)، وتذكر استشهاد رفيقاتها 'مليكة خرشي'، 'فاطمة' (بزويشة)، و'إلياس نيبوشة'، وكان ذلك في شهر نوفمبر 1959م على الأرجح.

* تكسانة- عقلة، نهاية 1960: هنا تروي حادثة تطبيبها 'عمّي علاوة' ونجاته من الموت المحقّق، ثمّ الترخيص بزواجها من 'بشير بن ناصر'، حيث كانت - حسب قولها- مناسبة بسيطة، دون حفل زفاف ولا لباس عروس ولا لحم، وكان ذلك بحضور بعض الرفقاء والمرضى من الذين يتطبّبون في العيادة فقط (ص134).

* قروش- عودة إلى بوحنش- إيرانس: 1960-1961: تقول 'يمينة شراد' أنّها كانت فعلاً السنوات الأصعب على الثوّار والشعب معاً، هذا الأخير الذي أرغم

على الالتحاق بالاحتشادات... وكان عناصر جيش التحرير معزولون تقريباً، وكانت تحركاتهم تتمّ بحذر، وتنتاب تنقلاتهم خطورة بالغة، ناهيك عن نقص الأغذية والدواء. مع ذلك كانت المعنويات جيّدة، حيث تنهّى إليهم الأخبار عبر إذاعة الثورة (إذاعة الجزائر الحرة) عن نجاحات دبلوماسية الثورة الجزائرية، والاعتراف الدولي المتزايد بكفاح الشعب الجزائري.

تذكر أيضاً ظروف وملايسات استشهاد زوجها 'بشير بن ناصر' بقسنطينة ليلة 1-2 ديسمبر 1961، وقد كانت التقت به لآخر مرة في شهر سبتمبر من السنة نفسها (ص146).

في الفصل الثالث الذي عنوانته بـ 'نهاية الحرب' من جيجل إلى مزرعة أمزيان بقسنطينة، تتطرق 'يمينة شراد' إلى إقامتها بجيجل من شهر أكتوبر 1961 إلى شهر جانفي 1962، حيث وضعت مولودها، وميلاد ابنها 'سعيد' بتاريخ 11 ديسمبر، في أحضان عائلة بلقاسم خلاّف بمدينة جيجل، ثم عوتها إلى منطقة عقلة وحمادشة عام 1962.. وتصف الشعور العام عند الإعلان عن وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962م، والفرحة العارمة التي عمّت الأرجاء، ومشاهد الاحتفالات الصاخبة، والزغاريد فرحاً بالنصر العظيم الذي حقّقه الشعب الجزائري، حيث ترددت كثيراً كلمات: الاستقلال والحرية الذي Istiqlal-Lhouria على كلّ الألسن.

في صائفة 1962م؛ كانت المجاهدة يمينة شراد في حيرة من أمرها، عمّا الذي يجب فعله، حيث لم تصلها أيّ أوامر من قيادة الثورة بخصوص العيادة التي كانت تشرف على تسييرها، وقد قرّرت مغادرة منطقة حمادشة في شهر جوان 1962م، وهو التاريخ الذي مثل بالنسبة لها طيّ صفحة نضالها بصفة مجاهدة في صفوف جيش التحرير عن عمر ناهز 26 سنة فحسب. (ص155).

* قسنطينة- مزرعة أمزيان- صيف 1962م

تتأسّف 'يمينة شراد' لأنها لم تتمكّن من الحصول على الدفتر الذي يحتوي مذكّرات زوجها، وتقول أنّها بقي بحوزة المؤرخ 'محمد حربي'، وهو الذي كان زميلاً لزوجها 'بشير بن ناصر' في مرحلة التعليم الثانوي بثنوية سكيكدة.

بعد الاستقلال عملت في مستوصف بحي باردو بقسنطينة؛ إلى جانب أطباء منظمة "أطباء بلا حدود"، وكانت الآثار الجسدية والنفسية الناجمة عن سنوات الحرب بادية على الكثير من الجزائريين، كما سجّل أنّ شعارات منظمة الجيش السري (OAS) وجبهة التحرير الوطني (FLN) وآثار الرصاص على جدران الشوارع؛ بقيت شاهدة عمّا حدث... ورغم كل شيء؛ كانت هناك سعادة غامرة على وجوه الجزائريين فرحاً بالاستقلال؛ والخلص من المحتلّ الفرنسي الغاشم، وعقب إعلان نتائج الاستفتاء في بداية شهر جويلية؛ كانت الفرحة لا توصف، بينما امتزجت مشاعرها هي بين الفرحة بتحقيق النصر؛ والحزن لفراق زوجها، الذي بكته بحرقة شديدة.

في الثالث من شهر جويلية تمّ تحويلها إلى مستوصف بمزرعة أمزيان (قسنطينة)، والتئم شمل عائلتها مجدّداً بلقاء والدتها وأختها الصغرى وشقيقها، حيث أمضوا أياماً سعيدة معاً، وقد كان ذلك بالنسبة لها أشبه بالمعجزة.. مع ذلك تقول أنّها لم تهناً طويلاً بالراحة، فقد بدأت فصول الصراع بين جيش الحدود وجيش الولايات، وهي التي 'لم تعد تفهم شيئاً' بخصوص ما يجري (ص160). وقد بقيت وحيدة لا أحد يسأل عنها، معزولة رفقة ابنها، ونتيجة ما عاشته خلال صائفة 1962م؛ قرّرت مغادرة الجزائر باتجاه دولة تونس المجاورة.

بعد عودتها إلى الجزائر استقرت بمدينة بسكرة، ومع الدخول الاجتماعي لعام 1963م، حصلت على منصب ممرضة بثنائية الحرية بمدينة قسنطينة، أين عملت هناك لخمس سنوات، لتنتقل بعدها إلى الجزائر العاصمة رفقة عائلتها.

خاتمة

إنّ القارئ لمذكرات 'يمينة شراد' التي تروي سنوات كفاحها بالجناب خلال ثورة التحرير الجزائرية، يدرك مدى أهمية شهادة المرأة الثورية، ويكتشف حقيقة العمل الثوري الذي خاضته المرأة الجزائرية في المدن والقرى والأرياف، والذي لم ينل حقه من الاعتراف والتثمين، فضلاً عن حجم الخسارة التي نشعر بها -كباحثين في تاريخ الثورة- بفعل النقص الواضح في الشهادات المتعلقة بمرحلة هامة جداً من تاريخ الجزائر، وما ضاع من سنوات دون توثيق مآثر هؤلاء المجاهدين والمجاهدات، الذين رحل أغلبهم في صمت. ولعلّ أهم ما خلصنا إليه في قراءتنا لمذكرات 'يمينة شراد':

- لم تمجّد هذه المجاهدة ذاتها كثيراً في المذكرات التي كتبتها بعد عقود من الاستقلال؛ على خلاف بعض ممّن كتب مذكراته الشخصية من صنّاع ثورة أوّل نوفمبر 1945م؛ بمختلف رتبهم ومسؤولياتهم ومواقعهم، وقد لمسنا في مذكرات هذه المجاهدة غياب 'لغة الأنا'، حيث أثنت كثيراً على قادتها ورفاقها ورفيقاتها في النضال، وعلى عموم الشعب الجزائري المقاوم، وخاصة المرأة الريفية التي ضربت أروع الأمثلة في الصبر والجلد والصمود في وجه المحتل الفرنسي.

- قد تكون أمانة شرّاد من بين قلة من المجاهدات اللواتي واصلن عملهنّ النضالي إلى غاية الاستقلال، وذلك منذ التحاقها بالثورة عام 1956م، حيث هناك من استشهدن، وهناك من تمّ اعتقالهن، في حين عايشن هي سنوات

الكفاح في واحدة من أصعب المناطق بالشمال القسنطيني، وبجبال جيجل تحديداً، وهي المنطقة التي تحوّلت إلى 'مثلث موت'، خاصة بعد هجمات الشمال القسنطيني في أوت 1955م، حيث أدركت فرنسا أنّ الثورة لم تعد في منطقة الأوراس وحدها... وفي ثنايا هذا الكتاب صوراً عن حجم التعبئة العسكرية والقمع والقصف، وعمليات التمشيط المتواصلة والحصار المطبق الذي فرضه الجيش الفرنسي على هذه الجهة.

- بالمقابل عكست هذه المذكرات حالات متباينة من المشاعر التي عاشتها الكاتبة خلال سنوات بالجبال في ظروف جدّ عسيرة، بين أحاسيس الخوف واليأس والأمل والشجاعة.. سيما حين تجد نفسها في مواقف إنسانية وطبيّة صعبة تتعلّق ببتّر أعضاء أحد المصابين أو إجراء عملية جراحية دقيقة، وهي مواقف شعورية لا أحد يُحسن التعبير عنها مثل امرأة مُجاهدة، وهذا ما نجحت فيه 'يمينة شراد'.

- تعتبر مذكرات 'ستّ سنوات في الكفاح' من الأعمال التاريخية النادرة التي وثّقت يوميات ممرّضة خلال ثورة التحرير الجزائرية، والتي نتمنى ترجمتها إلى اللغة العربية، ومع ذلك لنا أن نتساءل: لماذا فضّلت يمينة شراد الصمت لمُدّة فاقت 50 سنة؛ قبل أن تقرّر كتابة هذه المذكرات؟ ربّما يعيدنا هذا إلى إشكالية المقال الأولى حول إحجام المرأة الثورية عن تدوين شهادتها أو تردّدها لعقود من الزمن، جعلت الكثير من الحقائق يطويها النسيان، والعديد من النقاشات حول تاريخ الثورة الجزائرية تؤجّل إلى زمن غير زمنها.

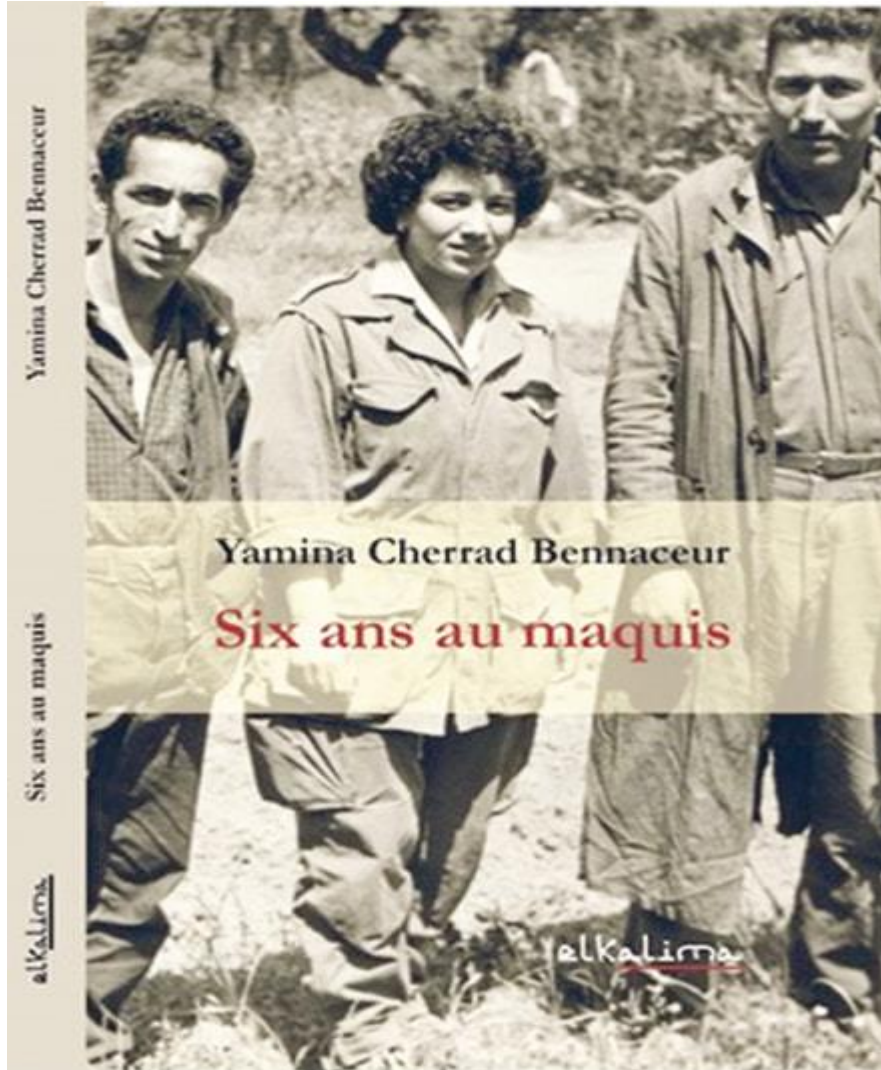
* المصادر والمراجع:

- Yamina Cherrad Bennaceur : Six ans au maquis, El Kalima, Alger, 2018.

-Raphaëlle Branche : « Combattants indépendantistes et société rurale dans l'Algérie colonisée », Revue d'Histoire, n°141/2019, Presse de Sciences Po, p.p.113-127.

- زهور ونّيسي: عبر الزهور والأشواك: مسار امرأة، دار القصة، الجزائر، 2012.

- أحمد بن يغزر: "الشهادة الشفوية كمصدر لتاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية بين الإمكان والضبط"،
مجلة الحوار المتوسطي، ع. 13-14، ديسمبر 2016.
- <https://www.youtube.com/watch?v=-Hh84AROIMQ>



كتاب: ست سنوات في الجبال. للمجاهدة. يمينة شراد

التنظيم السياسي والعسكري للثورة التحريرية بمنطقة الحضنة

د. نورالدين مقدر

جامعة المسيلة

megder1970@gmail.com

مقدمة

شكّلت ثورة الفاتح نوفمبر 1954م نقلة نوعية في الكفاح والنضال التحرري في الجزائر، وسجلت انتصارات عديدة وفي مختلف الجبهات التي خاضتها عسكريا وسياسيا، وأثبتت قدرتها على الاستمرارية، واتساع رقعتها، والتحكم في تنظيم قواعدها، ممّا صعب على السلطات الفرنسية السيطرة على مجريات الأحداث والوقائع التي أفرزتها الأشهر الأولى للثورة، مع ما سخرته من وسائل إعلامية وترسانة عسكرية، ومجهود سياسي لإجهاضها⁽¹⁾. بعد اندلاع الثورة وانطلاق الأفواج الأولى نحو مختلف جهات الوطن، وبعد الاتفاق على تنظيم القاعدة الشعبية وضرورة اختيار الرجال الذين يعوّل عليهم في العمل الثوري، ومن ثمّ تشكّلت الكوكبة الأولى من المناضلين في الحركة الوطنية والأعيان ووجهاء القوم وممن يتمتّعون بثقة الشعب وأهلهم وذويهم، ومن الجمعيات السياسية الخيرية والمتنورين فكريا وثقافيا وممن يتمتّعون بأخلاق حسنة وكرتمان السرّ والمخلصين للوطن. ويمكن اعتبار هذه الطلائع هي نواة اللجان الأولى التي تطوّرت مع الزمن، وصارت مجالس بلدية بكل مقوماتها التنظيمية والقانونية وحددت مهامها وصلاحياتها وحدود تسييرها الإقليمية والإدارية بعد مؤتمر الصومام 1956م، الذي كان وقفة

(1) الهادي درواز: الولاية السادسة التاريخية تنظيم ووقائع 1954 – 1962، ط 03، دار هومة

للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 59.

تنظيمية تاريخية حاسمة في الثورة.

سنتطرق إلى كيفية تشكيل اللجان الشعبية مع انطلاق الثورة التحريرية ومهامها، وتنظيم الثورة السياسي والعسكري بعد مؤتمر الصومام، ونتناول البدايات الأولى للثورة بمنطقة الحضنة والتنظيم السياسي والعسكري للثورة بالمنطقة.
اللجان الشعبية:

تشكّلت اللجان الشعبية في المدن والقرى والمداشم مع انطلاق الثورة؛ وهي هيكل قاعدي تمثّلت مهامه قبل مؤتمر الصومام في:

- تحسيس الناس بالثورة وتوحيد وتقوية الصفوف.
- توفير مستلزمات المعركة من مؤونة ولباس وسلاح.
- اختيار الرجال لدعم صفوف جيش التحرير الوطني.
- الدعم اللوجستيكي لعناصر جيش التحرير الوطني.
- رصد أخبار الاستعمار ومواجهة دعاياته وأعماله الإجرامية.

وكانت المرحلة الأولى هامة جدًا وحساسة، تتطلب يقظة أكثر وعملا مضاعفا، وجاء تنظيم هذه الهياكل حسب تواجد السكان في المدن والأرياف. وتشكّلت فروعاً لهذه اللجان فيما بعد حتى في السجون والمحتشدات والمعتقلات⁽¹⁾. ففي المدينة غالباً ما تكون خلية واحدة تعرف باللجنة الأم، تتفرع عنها عدة خلايا تزداد وتنقص تكبر وتصغر حسب عدد الأحياء وطبيعة السكان وعددهم والمتعارف عليه أن اللجنة تتكوّن من ثلاثة أعضاء إلى خمسة، وقلّما يُعرف أشخاص اللجنة الأم الأصلية حفاظاً على السّر والاستمرارية.

(1) المنظمة الوطنية للمجاهدين: التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع لتسجيل أحداث الثورة التحريرية من 01 جانفي 1959 إلى 05 جويلية 1962، ج 01، التقرير السياسي، 14 جويلية 1987، ص 13.

أما في القرى والمداشر فكان نفس التنظيم مع مراعاة الانسجام في القبيلة والعشيرة، وهنا يدخل عامل الشخصية الاعتبارية كلّ عرش أو قبيلة أوريث من حيث التقدير والثقة والاحترام، وقد يكون في القرية الواحدة أكثر من لجنة حسب السكّان وانتمائهم القبلي⁽¹⁾.

كما سعت هذه اللجان منذ نشأتها إلى الحفاظ على ثوابت وقيم المجتمع الجزائري، ويشترط في أعضائها الكفاءة والنزاهة ويُختارون بدقة وتمحيص. وتجدر الإشارة هنا إلى ضرورة استخلاف كل عضو في حالة تمّ القبض عليه أو سجنه أو استشهاده أو عجزه نتيجة مرض أو شيخوخة أو وفاته أو توقيفه لمخالفة ما أو ترقيته أو تكليفه بمهمة أخرى؛ وذلك تجنّباً لأيّ فراغ في أيّ مهمة⁽²⁾. وشرعت هذه اللجان في توفير المستلزمات الضرورية لجيش التحرير الوطني ومعالجة متطلباته اليومية والدائمة؛ إضافة إلى عملية التحسيس والتوعية وكانت على النحو التالي:

- جمع المال والمؤونة: كانت التبرعات من طرف رؤساء العشائر وكبار القوم وميسوري الحال والتجار بتقديم المال وشراء الألبسة والمؤونة والأدوية كلّ حسب جهده واستطاعته.

- شراء السلاح: تفيد الشهادات التي قدّمها الرعيل الأول للثورة (عمر صخري وابراهيم خباش والجموعي زميخ... وغيرهم) أنّ عملية التسليح كانت بالتطوّع والشراء وما يؤخذ من العدو، ويعدّ توفير السلاح العقبة الكبيرة التي واجهت العناصر الأولى للثورة وأحد مصاعبها، ومع ذلك استطاعوا توفيرها بالقدر الممكن بشقّى الوسائل وبمختلف الطرق⁽³⁾.

(1) الهادي درواز: المرجع السابق، ص ص 48 - 49.

(2) المنظمة الوطنية للمجاهدين، المصدر السابق، ص 19.

(3) الهادي درواز: المرجع السابق، ص 50.

انعقد مؤتمر الصومام في أوت 1956م، أول لقاء تاريخي لقادة الثورة ومفجريها، وإن تأخر عن موعد انعقاده (1955) نظراً للصعوبات والأحداث التي عرفت الثورة منذ الانطلاق إلى عقد مؤتمر الصومام، ومع أن المؤتمر لم يحضره بعض القادة الأساسيين في الثورة لأسباب متعددة؛ منها أن الكثير من هؤلاء القادة استشهدوا مثل: ديدوش مراد، باجي مختار، مصطفى بن بوالعيد، أو سجنوا وأسرُوا مثل: رابح بيطاط ومحمد بوضياف، أحمد بن بلة، محمد خيضر حسين آيت أحمد؛ إلا أن المؤتمر انعقد وترأسه محمد العربي بن مهيدي وناقش المؤتمر طوال عشرة أيام تجارب وانجازات الثورة، والصعوبات التي واجهت الثوار خلال اثنين وعشرين شهراً من عمر الثورة، ودراسة مختلف المجالات التنظيمية مستقبلاً؛ والعمل السياسي والعسكري في الداخل والخارج، وغيرها من القضايا التي طُرحت ودُرست ونوقشت، وقد اتُّخذت مجموعة من القرارات الهامة التي ظلت قائمة حتى استرجاع السيادة الوطنية منها:

- إعادة تنظيم جيش التحرير الوطني وإعطائه الشخصية المعنوية.
- وضع هياكل تنظيمية لجهة وجيش التحرير الوطني.
- إنشاء المجلس الوطني للثورة ولجنة التنسيق والتنفيذ.
- وضع ثلاثة مبادئ هامة: هي القيادة الجماعية، أولوية القيادة السياسية على العسكرية، أولوية الداخل على الخارج.
- إعادة تقسيم الوطن إلى ولايات، وحددت حدود كل ولاية ونشاطاتها الإقليمية⁽¹⁾.

وبعد مؤتمر الصومام تمّ تقسيم التراب الوطني إلى ستّ ولايات، بدل تقسيم المناطق الذي كان معتمداً قبل المؤتمر، وتقسيم الولاية إلى مناطق،

(1) الهادي درواز: المرجع السابق، ص 60.

والمنطقة إلى نواحي، والناحية إلى قسّمت⁽¹⁾. وأصبحت منطقة الحضنة مقسّمة بين الولايات الأولى (الأوراس) والولاية الثالثة (القبائل) وجزء قليل من سيدي عيسى وعين لحجل تابع للولاية الرابعة (الجزائر وضواحيها) والولاية السادسة (الصحراء) هذه الأخيرة التي استحدثت بعد مؤتمر الصومام.

فكانت الجهة الشرقية والشمالية الشرقية من منطقة الحضنة (الحضنة الشرقية) تمثل الناحية الرابعة (بريكة) من المنطقة الأولى (باتنة، عين التوتة سطيف، بريكة) من الولاية الأولى (الأوراس)، وما يهّمنا في بحثنا الناحية الرابعة (بريكة) التي قسّمت إلى أربع قسّمت وهي كالتالي:

1-القسمّة الأولى: وتضمّ نقاوس، أولاد رحاب، أولاد عوف، أولاد فاطمة أولاد سي سليمان، أولاد بشينة، أولاد علي بن عبد الله.

2-القسمّة الثانية: وتضمّ: بريكة، الجزائر، القصبات، المتكعوك (بلدية عزيل عبد القادر حاليا).

3-القسمّة الثالثة: وتضمّ: برهوم، مقرة، عين الكلبة (عين الخضراء حاليا) سلمان، الطلبة، الشرفة.

4-القسمّة الرابعة: وتضمّ: المعاضيد، الزيتون، المطارفة، مزير، المسيلة البراكتية، سعيدة⁽²⁾.

والمنطقة الشمالية الغربية من الحضنة كانت تابعة للناحية الأولى من المنطقة الثانية من الولاية الثالثة (القبائل)، وتضمّ المناطق التالية: (حمّام الضلعة، الدريعات، ملوزة، بني يلان، تارمونت، سيدي هجرس، جزء من

(1) محمد لحسن أزغيدي: مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائري، 1956-1962، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 124.

(2) المنظمة الوطنية للمجاهدين، المصدر السابق، ص 07.

سيدي عيسى، جزء من عين لحجل...) ⁽¹⁾، والجزء المتبقي من سيدي عيسى وعين لحجل تابع للولاية الرابعة كما أشرنا لذلك.

أما المنطقة الجنوبية والغربية من منطقة الحضنة بعد مؤتمر الصومام فأصبحت تابعة للمنطقة الثالثة؛ الناحية الأولى من الولاية السادسة (الصحراء) وتضمّ: القسمات التالية:

1-القسمّة الأولى: وكانت تابعة لها كل من: بوسعادة، الحوامد، أولاد سيدي إبراهيم، أولاد عزّوز.

2-القسمّة الثانية: وكانت تابعة لها كل من: بن سرور، واد الشعير، الجب الزرزور.

3-القسمّة الثالثة: وكانت تابعة لها كل من: عين الملح، سيدي أمحمد.

4-القسمّة الرابعة: وكانت تابعة لها كل من: الهامل، جبل امساعد ⁽²⁾.

كما ضمت هذه المنطقة جزءًا من سيدي عيسى، مسيف، الجهة الجنوبية من بريكة: امدوكال...).

وكان التنظيم الهرمي للولاية يبدأ من القاعدة إلى القمة باللجان الشعبية أو اللجان الخماسية وفروعها، ثمّ القسمات ثمّ النواحي ثمّ المناطق ثمّ الولاية وكان لهذه الهيئات دورا تنظيميًا هامًا للثورة ⁽³⁾.

(1) المنظمة الوطنية للمجاهدين: تقرير حول تاريخ الثورة بالناحية الأولى من المنطقة الثانية من الولاية الثالثة، 1954- 1962 (ندوة المعارك الكبرى)، المنعقدة بتيزي وزو، في 25- 26 نوفمبر 1999، ص ص 25- 27.

(2) عبد الحميد عباسي: منطقة بن سرور... جهاد متصل من الحركة الوطنية إلى ثورة التحرير، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2015، ص 152.

(3) المنظمة الوطنية للمجاهدين: التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع لتسجيل أحداث الثورة التحريرية من 01 جانفي 1959 إلى 05 جويلية 1962، المصدر السابق، ص 03.

وفي منطقة الحضنة تشكّلت اللّجان من الرجال الأكفاء والنزهاء في مختلف قراها ومداشرها، وسنذكر بعضها من مختلف جهات الحضنة بما توفّر لدينا من وثائق ومعلومات، ففي منطقة محارقة (مسيف) في الجهة الجنوبية للحضنة -هذه المنطقة التي أصبحت تابعة للولاية السادسة- اختير السادة: (خلفه العابد رئيس اللّجنة، العربي هلالي مكلف بالإصلاح والقضاء، عائب محمد مسؤول المكتب التجاري، سلطاني بوسعدة مسؤول الشرطة، بشيري عميرة أمين المال) استمرت هذه اللّجنة في نشاطها إلى غاية 1960م، حيث اكتُشف أمرها من طرف السلطات الفرنسية، ففرّ أعضاءها إلى الجبال المجاورة وبقوا يسيّرون مهامهم من هناك عن طريق لجنة أخرى تكوّنت من السادة: (عائب جلّة، شبيرة المسعود، بعلي محمد بن دهيليس) وعادت اللّجنة الأولى لنشاطها في المنطقة بعد خروج المركز العسكري الاستعماري من مسيف سنة 1961م إلى غاية الاستقلال⁽¹⁾.

وفي بوسعادة تشكّلت من السادة: (عبد القادر بن دلاوي عبد الله السعيد، علي بن كحيوش، بن دقيم عمر، مفتاح الطاهر) وفي الهامل تشكّلت من السادة: (الخليل القاسمي، حسني بو الأنوار، عبد اللطيف بديرة عيسى بن علي، عبد الكريم الحاج لخضر)⁽²⁾. وفي مسيلة تشكّلت من السادة: (إبراهيم كابوية، المداني وعواع، إبراهيم بن إبراهيم، علي بن المبروك مقري

(1) إسماعيل القطعة: المرجع السابق، ص 33.

(2) المنظمة الوطنية للمجاهدين: الندوة الولائية لكتابة تاريخ الثورة في مراحلها الأولى (1955 - 1956)، المنعقدة في 07 أفريل 1983، بالمسيلة، ص 61-62. ونفس المعلومات استقيناها من الرواية الشفوية للمجاهد محمد عيشوش، من خلال المقابلة التي أجريناها معه يوم 27 مارس 2012، بمنزله الكائن ببلدية مقرة ولاية المسيلة. والمجاهد محمد عيشوش من مواليد 1929 بمقرة، التحق بالثورة مبكرا، عمل بالناحية الرابعة القسم الثالثة. والولاية السادسة جهة مسيف، وتقلّد مناصب بعد الاستقلال، توفي سنة 2013.

زلوف الحركاتي، سليتان الدراجي، سلامي جلّول⁽¹⁾.

وفي الحضنة الشرقية تشكّلت نواة اللّجان الأولى بمدوكال مثلا من السادة: (محمد الحاج الميهوب، الحاج عبد الحفيظ، دلهوم علي، كريم عمر)⁽²⁾. وفي مقرة تكوّنت من السادة: (حساني الشريف الخثير، شالي النوي، إسماعيل بن الداخة محمد عيشوش، الشريف بيبي) وأشرف عليها محمد لعموري، وكوّنت هذه اللّجنة فيما بعد مسؤولي المشاتي على سبيل المثال: عيّنت رابح بوعافية على مشة أولاد منصور، وعمار بن ناصر على مشة المالح، وبكّور العمري على مشة أولاد زميرة)، وكانت تعقد الاجتماعات أثناء الليل للرجال والنساء لشرح مبادئ الثورة وأهدافها وبثّ روح الحماس في نفوس المواطنين وجمع التبرعات والمؤونة لصالح الثورة، وفي برهوم والدهاهنة تكوّنت اللّجنة الخماسية من السادة: (عبد العزيز صالح، بن بادي غرابي، إبراهيم بن زويد، أحمد بن شعبان فلاك، عبد الله حمداوي المدعوسي مناد)⁽³⁾.

اللّجان التي تشكّلت قبل مؤتمر الصومام 1956م تحوّلت إلى مجالس شعبية بلدية؛ من خلال التنظيمات التي أقرّها المؤتمر، فأصبحت بالإضافة للأعمال الثورية التي تقوم بها تحلّ مشاكل المواطنين اليومية؛ وبالتالي استغنى المواطن عن إدارة الاستعمار ومكاتبهم في كل القضايا الادارية

(1) مديرية الشؤون الدينية والأوقاف لولاية المسيلة: ندوة تاريخية حول الشهيد مشتي السعيد، بدار الثقافة قنفود الحملاوي بالمسيلة، 18 فيفري 2008.

(2) الهادي درواز: المرجع السابق، ص 76.

(3) رواية شقوية للمجاهد محمد عيشوش: من خلال المقابلة التي أجريتها معه يوم 27 مارس 2012، بمنزله الكائن ببلدية مقرة ولاية المسيلة. والمجاهد محمد عيشوش من مواليد 1929 بمقرة، التحق بالثورة مبكرا، عمل بالناحية الرابعة القسم الثالثة، والولاية السادسة جهة مسيف، وتقلّد مناصب بعد الاستقلال، توفي سنة 2013.

والاجتماعية فكان المجلس الشعبي البلدي وحدة متكاملة من حيث التسيير والأعمال، وتنوّعت مهامه وتعدّدت مسؤوليات أعضائه، كما يعدّ المجلس مسؤولاً أمام الهياكل العمودية كمجلس القسمة والناحية والمنطقة والولاية. وتختلف مهام المجالس الشعبية البلدية بين المدن والأرياف، بحيث المجالس الموجودة في المدن تعتمد في نشاطها على جمع المال واقتناء العتاد والأدوية وما يحتاجه الجيش من آلات كتابة وآلات سحب وآلات خياطة والمؤونة بصفة عامة، والدعاية المضادة والجوسسة وكشف نقاط تواجد العدو وتحركاته وتوزيع المنح المقدّمة من طرف جهة التحرير لعائلات الشهداء والمجاهدين والمساجين والمعتقلين؛ بينما في الأرياف والمناطق المحرّرة؛ إضافة لتلك المهام كانت لها مهام أخرى؛ كحلّ مشاكل المواطنين؛ إذ أغلب المواطنين يعرفون أعضاء مجلسهم ويحكمونه في كلّ صغيرة وكبيرة، ويرضون بالحكم الصادر عنه، ويمكن أن نوجز أعمال أعضاء المجلس الشعبي البلدي وخصوصيات كلّ مكتب كما يلي:

- 1- رئيس المجلس: وهو المسؤول العام والناطق الرسمي للمجلس أمام الهياكل العمودية (القسمة، الناحية، المنطقة، الولاية) يساعده مستشارون؛ فيهم الواعظ الديني والعارف بالعرف والعرف الاجتماعي والمقنع؛ للدعاية والرد على مناورات الاستعمار.
- 2- مكتب الإصلاح: يرأسه عضو من المجلس الشعبي ويساعده أعضاء؛ من مهامّه:

- الحالة المدنية؛ أي: تسجيل عقود الزواج والطلاق والمواليد وغيرها.
- ضبط وإحصاء ممتلكات المواطنين
- ضبط وتسجيل قوائم الشهداء وضحايا الاستعمار من منكوبين ومعتقلين وعائلات الشهداء.

- تعيين الأئمة ومعلّي القرآن الكريم.
- ضبط المنازعات والأحكام.
- تسجيل المداوالت ومحاضر الاجتماعات للمجلس⁽¹⁾.
- 3- المكتب المالي: يرأسه عضو من المجلس الشعبي ويساعده أعوان، ومن مهامه:
 - جمع الزكاة بعد جني المحاصيل الزراعية والمواشي.
 - تقدير وجمع الاشتراكات والضرائب، وقبض التبرّعات والهبات النقدية والعينية.
 - استلام الأموال التي تقدّر على ارتكاب المخالفات الدينية أو الأخلاقية أو الاقتصادية كالغشّ والسرقّة... الخ.
 - توزيع المنح على مستحقّين؛ كعائلات الشهداء والمعتقلين، والمعوزين والأئمة والمعلّمين، وكلّ ذلك يتمّ بوصولات قبض أو تسليم.
- 4- المكتب التجاري: ويقوم بتلبية حاجيات جيش التحرير الوطني من مؤونة وعتاد وأقمشة وأدوية.
- 5- مكتب الشرطة: ويتولّى الأمن العامّ للمواطنين وفكّ النزاعات والتوسّط لحلّ الخلافات، ومعاينة المخالفين ومتابعة الخونة والمجرمين وترصد حركة الاستعمار وأعوانه.
- كما توجد تنظيمات أخرى مكّلة للمجالس البلدية منها: هيئات التنوير والمكاتب السريّة والمسبلون ومراكز الاتصال⁽²⁾.

خاتمة

نستخلص مما سبق أن التنظيم السياسي والعسكري الذي اعتمدته

(1) الهادي درواز: المرجع السابق، ص 64 - 65.

(2) الهادي درواز: المرجع السابق، ص 67.

الثورة في كل ربوع الوطن كان العامل الأساسي في تحقيق الانتصارات والتي أدت إلى تحقيق الهدف الأسمى، وكانت هذه التنظيمات موجودة بمنطقة الحضنة يشرف عليها مناضلون أكفاء وتقوم بمهامها ونشاطاتها حسب الهيكلية التي تطرقنا لها وقوانين وتعليمات قيادة الثورة، وبهذا التنظيم والاستراتيجية والصرامة في تطبيق التعليمات والقوانين نجحت الثورة التحريرية في تحقيق هدفها التي سطرته.

مبدأ التسامح الديني تجاه الأقلية اليهودية بالجزائر: قراءة وتحليل لرسالة جبهة التحرير الوطني إلى يهود الجزائر الفاتح من أكتوبر 1956م

د.د. معوشي آمال

جامعة المسيلة

amel.maouchi@univ-msila.dz

الملخص

خاطبت الثورة الجزائرية كل أطراف المجتمع الجزائري دون تمييز عنصري أو ديني أو عرقي، واحترمت الحريات الأساسية مؤكدة أنها ليست "حرباً دينية ولا حرباً أهلية"، بل هي ثورة على الظلم والاستعباد الخصم الوحيد فيها هو الاستعمار الفرنسي نفسه وأعوانه، وركزت على الهدف الأساسي وهو الاستقلال الوطني، وجعلت منه قضية جميع الجزائريين دون استثناء بما في ذلك يهود الجزائر، حيث راعت ماضيهم وأصولهم الجزائرية رغم الجنسية الفرنسية التي يحملونها، فخاطبتهم ووجهت لهم عدة نداءات من خلال نصوصها الأساسية، كما وجهت لهم عدداً من الرسائل والمناشير، من أجل توضيح موقفهم والتحاقهم بالثورة باعتبارهم جزء لا يتجزأ من المجتمع الجزائري، ويبدو أن أدبيات الثورة تجاه يهود الجزائر قد غلب عليها عموماً مبدأ التسامح الديني، الذي يعد عنصراً راسخاً ومن ثوابت الدين الإسلامي، وبهذا أقامت الثورة الجزائرية الحجة على اليهود من جهة، وأثبتت من جهة أخرى أنها ثورة قائمة على المبادئ الإنسانية بعيدة عن كل أصناف التمييز العنصري، ومن بين رسائل الثورة لليهود الرسالة التي نشرت في جريدة المجاهد المؤرخة في الأول من أكتوبر 1956، والتي وجهتها إلى النخبة اليهودية بداية من الحاخام الأكبر للجزائر موريث إزنبات، وإلى أعضاء المجمع الديني الأكبر الإسرائيلي، وإلى جميع النواب والمسؤولين عن الطائفة اليهودية بالجزائر، هذه الرسالة هي التي نود تسليط الضوء عليها في دراستنا هذه محاولين الإجابة عن التساؤل التالي: ماذا تضمنت هذه الرسالة؟ وإلى أي مدى عكست مبدأ التسامح الديني تجاه اليهود؟ وما هي القيم التي حملتها لهذه الأقلية؟ والتأثير الذي تركته عليها؟

مقدمة

اعتبرت الثورة الجزائرية يهود الجزائر من السكان الأصليين رغم الجنسية الفرنسية التي يحملونها، وهذا راجع لتاريخهم الطويل وماضيهم بها، وعلى أمل

أن يتحلّى قاداتهم بالحكمة والتعقل في اختيار موقفهم تجاه الصراع القائم في الجزائر بين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، شملتهم في خطاباتها ونداءاتها من أجل تحرير البلاد وبنائها على أسس الحرية والإخاء، كما وجهت لهم نداءات على وجه الخصوص لمعرفة الطريق الذي سيختارونه، وقدمت خيار التواصل وجسر الاحترام والمودة على القطيعة والتعصب، فالثورة حملت شعاراً أساسياً تمثل في أنها ليست "حرباً دينية ولا حرباً أهلية"، بل هي ثورة على الظلم والاستعباد الخصم الوحيد فيها هو الاستعمار الفرنسي نفسه وأعدائه، ونبذت كل شكل من أشكال العنصرية التي عانى منها الجزائريون طويلاً على يد الاستعمار الفرنسي، وانطلقت من أسس دينية، وأبعاد تاريخية، راعت فيها حقوق وواجبات الأقليات غير المسلمة بالجزائر، وحاولت من خلالها القضاء على السياسة الاستعمارية المعروفة "فرق تسد" لتفكيك المجتمع الجزائري والسيطرة عليه، ومن بين أهم النداءات التي وجهتها الثورة الجزائرية لليهود والذي عكس سياسة التسامح الديني للثورة، هو ذلك النداء المباشر الذي نشر في جريدة المجاهد على شكل رسالة بتاريخ 1 أكتوبر 1956م، ووجه للنخبة اليهودية على وجه الخصوص: الحاخام الأكبر، وأعضاء المجلس الديني الأعلى الإسرائيلي، وإلى جميع النواب والمسؤولين عن جماعة الإسرائيليين بالجزائر، إن هذا النداء المهم هو الذي وقع عليه اختيارنا لدراسته وتحليله محاولين الكشف عن محتواه والإجابة عن الإشكالية التالية: إلى أي مدى عكس مبدأ التسامح الديني تجاه اليهود؟ وما هي القيم التي حملها لهذه الأقلية والتأثير الذي تركه عليها؟ وقد مررنا بعدة نقاط أساسية كما يلي: النقطة الأولى: اندلاع الثورة الجزائرية وموقف اليهود منها بصورة عامة، النقطة الثانية: ظروف تحرير النداء، النقطة الثالثة: نص النداء وتحليله، النقطة الرابعة: رد فعل يهود الجزائر على النداء.

1 اندلاع الثورة الجزائرية وموقف اليهود منها بصورة عامة

عندما اندلعت الثورة الجزائرية عام 1954، لم يكن عدد اليهود في الجزائر يتجاوز 130000، وقد تسبب اندلاعها في هجرة عدد منهم نحو فرنسا، وكذلك نحو الكيان الإسرائيلي، إلا أن الهجرة نحو الكيان الإسرائيلي كانت قليلة جدا ويمكن تقدير عدد المهاجرين اليهود بأكثر من 3000 مهاجر بين سنتي 1955م و1960م¹. واتسم موقف اليهود خلال السنوات الأولى لاندلاع الثورة بالحدروالحيطة، لكن بصورة عامة كان يسير تحت مظلة "الإبقاء على الجزائر فرنسية" وهذا له مبرراته حسب ستورا الذي ادعى أن الثورة استهدفت اليهود كما استهدفت الجالية الأوروبية، والدليل الذي قدمه سقوط ضحايا أثناء 20 أوت 1955م عائلة يهودية من قسنطينة عرفت بأنها عائلة مسالمة، وفي بداية الأشهر الأولى من عام 1956م ازدادت الهجمات ضد الرهبان ورجال الدين اليهود، وفي ماي 1956م وقعت اعتداءات على مقاهي لليهود في قسنطينة، وفي جوان 1956 تم الاعتداء على المعبد اليهودي في مدينة الشلف وتم حرقه كاملا، وفي نوفمبر من نفس السنة وضعت قنبلة في منزل إسحاق عزيزة حاخام مدينة ندرومة، حيث قتل هو وعدد كبير من أفراد عائلته، وأحس اليهود أنهم أصبحوا محاصرين وعبر واحد من نخبته عن الموقف "البركامو 1913-1960" Albert Camus في أكتوبر 1955 عبر صفحات جريدة "إكسبراس Expresse" بأن "الطائفة اليهودية كانت ممزقة وموزعة بين معاداة السامية من جانب فرنسا، وموقف انعدام الثقة في الطرف الإسلامي" وهذا ما أثر على يهود الجزائر ومنعهم من الدخول في مغامرة إعلانهم تأييد الثورة الجزائرية، وبقي موقفهم منها موقفا متذبذبا ولم يظهر بوضوح إلا بعد

1 Benjamin Stora, les trois exils juifs d'Algérie, Pluriel France, 2013, p.136

سنوات.¹

لم ينظر اليهود للثورة في سنواتها الأولى نظرة جدية، وحرصوا على عدم التورط المباشر في الصراع القائم بين المسلمين والاستعمار الفرنسي، ولأدوا بالصمت خاصة السنتين الأوليتين من عمر الثورة في انتظار ما ستسفر عنه النتائج، وادعى المجلس السنوي لجمعية "اتحاد الطوائف اليهودية الجزائرية" في 1956م أن اليهود جماعة دينية ولا علاقة لهم بالصراع السياسي بين الطرفين المتصارعين، وحذرهم من أي إثارة مهما كان مصدرها، كما دعا المنظمات اليهودية الخارجية إلى تجنب كل التصريحات العلنية التي تتعلق بمستقبل اليهود في شمال إفريقيا، كي تقطع السبيل أمام أي تفسير، لكن هذا لم يمنع الأفراد على مستواهم الشخصي من الإدلاء بمواقفهم الخاصة إما بمساندة فرنسا، وإما بالوقوف إلى جانب الثورة وأصحاب هذا الموقف كانوا قلة من المثقفين اليهود اليساريين والتحرريين، وتزايدت في صيف 1956 مواقف اليهود الداعمة للفرنسيين وبدأت تخرج للعلن شيئاً فشيئاً.²

2- ظروف تحرير النداء

حاولت الثورة التحريرية المباركة كسب جميع أطراف المجتمع لصالحها، وبالنظر لماضي اليهود وتاريخهم في الجزائر فقد رأت استمالتهم ومن خلال بيان أول نوفمبر وضحت أنها تسعى للاستقلال الوطني وتحترم جميع الحرات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني³، كما أشار ميثاق الصومام أوت 1956م إلى أن: "الثورة الجزائرية قد برهنت بالفعل على أنها جديرة بثقة

¹ibid, p.159, 139- 141

²- فوزي سعد الله، يهود الجزائر موعد الرحيل، ط.1، ج.2، دار قرطبة، الجزائر، 2005، ص.233، 234، 237.

³- بيان أول نوفمبر، كتاب النصوص الأساسية لجهة التحرير الوطني (1954-1962)، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1979، ص-ص.7-10.

الأقلية اليهودية، وأنها جديرة بأن تكفل لليهود حظهم من السعادة في الجزائر المستقلة، ولا تحتاج الثورة لاكتساب هذه الصفة إلى البحث عما سجله تاريخ بلادنا من دلائل على التسامح الديني، والتعاون في أرقى وظائف الدولة، والتعايش الصادق... هذا رغم أن اليهود اختاروا الجنسية الفرنسية حيث نادى ممثلوهم في المؤتمر اليهودي العالمي، الذي انعقد بلندن بتمسكهم بالجنسية الفرنسية التي تجعلهم في مكانة أرقى بالنسبة لمواطنيهم المسلمين¹. وأكد الميثاق أن هدف الثورة الجزائرية ليس "أن تلقي في البحر بالسكان الأوروبيين، ولكنها تحطيم نير الاستعمار الوحشي، وليست الثورة الجزائرية حرباً أهلية ولا حرباً دينية، وإنما تريد أن تسترد الاستقلال الوطني لإقامة جمهورية ديمقراطية واجتماعية تضمن المساواة بين جميع سكان الوطن دون تفریق ولا تمييز"². وبهذا أظهرت الثورة بما لا يدع مجالاً للشك أنها لم تقص اليهود، بل نظرت لهم على أنهم شركاء في الوطن، قضيتها الأساسية هي محاربة الاستعمار الفرنسي، لاسترداد الاستقلال الوطني وإقامة دولة قائمة على المبادئ الديمقراطية، والمساواة بين عناصر المجتمع دون تفریق ولا تمييز. رغم أن جبهة التحرير الوطني وضحت موقفها عموماً اتجاه اليهود من خلال بيان أول نوفمبر وميثاق الصومام، إلا أنها واصلت مخاطبة يهود الجزائر ومحاولة استمالتهم، لأنها لم تلمس منهم موقفاً رسمياً واضحاً، فاختارت هذه المرة توجيه نداء مباشر وصريح خاص بهم فقط، وهو الذي ظهر على شكل رسالة بعنوان: "رسالة إلى يهود الجزائر"، نشرت في جريدة المجاهد العدد الثالث، أرخت في 1 أكتوبر 1956م، وتم توجيهها: إلى الحاخام الأكبر للجزائر

1- المصدر نفسه، ص-ص.54-55.

2- نقلاً عن: نصر الدين لعوج، "الثورة الجزائرية 1954-1962 تجربة رائدة للتعايش المشترك"،

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج.10، ع.1، جوان 2019، ص.170.

"موريس إزنيث" حينها، وإلى أعضاء المجمع الديني الأعلى الإسرائيلي، وإلى جميع النواب والمسؤولين عن جماعة الإسرائيليين بالجزائر¹، وقد اختارت جبهة التحرير الوطني مخاطبة النخبة الدينية والسياسية ليهود الجزائر، لتأثير هؤلاء على عامة اليهود، فما هي ظروف التي صدر فيها هذا النداء وماذا تضمن؟

نداء الجبهة ليهود الجزائر في 1 أكتوبر 1956م ظهر في ظروف خاصة، كانت الثورة خلالها قاربت العامين الكاملين، وعرفت عن نفسها وقادت العديد من العمليات الناجحة كهجومات الشمال القسنطيني، وعقد مؤتمر الصومام، ومع ذلك لم تكن قد حصلت على موقف واضح وصرح من يهود الجزائر، باستثناء المواقف الفردية التي عبر فيها اليهود عن مواقفهم إما بدعم الثورة أو اختيار الطرف الفرنسي، كما سلك بعضهم طريقا أكثر خطورة، وارتى في أحضان اليمين المتطرف، وانضم إلى جهاز القمع الفرنسي المسلط على رقاب المسلمين، مثلما حدث بقسنطينة يوم 12 و 13 ماي 1956 من مجازر وحشية ضد السكان العزل على يد المتطرفين اليهود².

تعددت الروايات حول المجازر الدامية التي تعرض لها مسلمو قسنطينة على يد اليهود، لكن الأكيد أن اليهود كشفوا من خلالها الوجه البشع لهم، وحسب هنري شموي تتلخص في أن المسلمين اتهموا العناصر اليهودية في الشرطة الاستعمارية بقسنطينة بالمغالة في القمع، فقاموا بدورهم بسلسلة من العمليات في الحي اليهودي، فقام اليهود باقتحامين دامين للمدينة العربية، تحت مباركة وثناء المتطرفين من الكولون، وأكدت

1- رسالة إلى يهود الجزائر: مجلة المجاهد، ع.3، 1 سبتمبر 1956.

2- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، ج.2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص.303-304.

جبهة التحرير الوطني بأن الأمر يتعلق باستفزات استعمارية،¹ وحسب شهادة أحد الجزائريين المسلمين الذين عاشوا الحدث أكد أن صيف 1956 عرف اعتداء اليهود في قسنطينة على المسلمين، كرد فعل على الاغتيالات التي تعرض لها بعض اليهود المشتبه فيهم التعاون مع الاستعمار، وتم ذلك أثناء خروج المسلمين من الجامع الأخضر بعد انتهاءهم من صلاة العيد، فتم قتل وجرح عدد منهم، وتم الاعتداء على الأملاك والمحلات التجارية، وتسببت الحوادث في تشنج العلاقات بين مسلمي ويهود قسنطينة، وأدت إلى المقاطعة التدريجية للتجار اليهود، فتحتم عليهم بيع محلاتهم الواقعة في الأحياء العربية وكانت أغلبها محلات للصياغة والمجوهرات.²

مذبحة قسنطينة كانت لها أبعاد خفية وخطيرة ويبدو أن الصهيونية تورطت في الأمر، إذ حسبما انكشف مؤخرا أن الأجهزة السرية "الإسرائيلية" ساعدت بعض يهود الجزائر ضد جبهة التحرير الوطني، فقد ذكرت جريدة معاريف الإسرائيلية في عام 2005 م، في المقال المنشور بتاريخ 25 مارس 2005 "كيف سلح الموساد يهود قسنطينة في 1956م" وتم ذكر الحادثة للمرة الأولى بمناسبة التجمع العالمي الأول لليهود قسنطينة من 27 إلى 28 مارس 2005، وقامت خلية تابعة للموساد الإسرائيلي بتجنيد بعض يهود قسنطينة، وزودتهم بالسلح لتصفية إطارات من جبهة التحرير، وأشارت الجريدة لعضوين قديمين في الموساد هما: "أبراهام بارزلاي Abraham Barzilai وشلومو هافيليو Shlomo Havilio" العضوين وصلا لقسنطينة بتخطيط من الموساد في جانفي 1956م، وكانا تابعين للوحدة السرية رقم 131 التابعة لمصالح الاستخبارات "الإسرائيلية"، التي ساهمت في تجنيد بعض الشباب

1- نقلا عن فوزي سعد الله، المرجع السابق، ص238.

2- المرجع نفسه، ص238.

المصريين من أجل مهمة تصفية الرئيس المصري جمال عبد الناصر، عندما وصل "أبراهام بارزلای بمعية زوجته لقسنطينة كان في العشرين من عمره، وادعى أنه أستاذ اللغة العبرية، وتمكن من تشكيل خلايا سرية من يهود قسنطينة في ماي 1956، وكانت مهمتهم حماية يهود قسنطينة، وفي 12 ماي 1956 حينما كان مسلمو قسنطينة يستعدون لاستقبال عيد الفطرويكملون آخر أيام شهر رمضان، كلف أبراهام بارزلای أعضاء الخلية السرية التي كان يرأسها بحشو المسدسات والقيام باستطلاعات في واحد من الشوارع المهمة المسمى "شارع فرنسا" المركز الرئيس للشارع اليهودي، وجاء هذا الأمر بناء على إحساسه بأن أعضاء جبهة التحرير الوطني يستعدون للقيام بعملية فدائية، وفي منتصف النهار سمع صوت مدوي في "شارع فرنسا" نتيجة إلقاء قنبلة على مقهى من طرف جزائري، وعندما وصل أعضاء الخلية المجندة ووقفوا في المكان المقصود، أشارت إحدى النساء اللواتي ملأ صراخهن المكان إلى الجبهة التي هرب نحوها منفذ عملية التفجير، فلاحقه الصهاينة من أعضاء الخلية وقتلوه¹، وصرح أبراهام بارزلای بعد العملية أنه كان على يقين أن العرب سينتقمون لقتيلهم في الشارع اليهودي، ولذلك قام مع أعوانه بزرع أربعة خلايا في النقاط الإستراتيجية عند مدخل الشارع اليهودي، وكان بعض اليهود يحملون السلاح بترخيص من السلطات الفرنسية، وبسرعة ملأ صوت الرصاص كل الجهات، وبدأ اليهود المسلحون بالتوجه نحو الحي الإسلامي،

1- أشارت مصادر أخرى أن الشاب الذي قتل على أيدي الصهاينة، هو مجرد شاب دفعه الفضول للخروج من دكان أبيه بعد سماعه دوي الانفجار، وكان الذي ألقى القنبلة رجلا يرتدي الزي الأوروبي، فر بعد فعلته إلى الحي اليهودي، وفي النهاية ما حدث في قسنطينة من مجازر هي عبارة عن مؤامرة من صنع الموساد ويهود قسنطينة. ينظر: يوسف ط، "شهادة مثيرة عن مذبحه قسنطينة عشية عيد الفطر 1956 الموساد وراء اغتيال 80 جزائرياً" الخبر الأسبوعي، ع. (325)، 21 ماي إلى 27 ماي،

وأعطيت الأوامر لرجال الخلية بملازمة أماكنهم ومراقبة الوضع وتجنب الاستفزازات التي تزيد من تعقيد الوضع¹.

وحسب أبراهام بارزلاي أن ستة جنود فرنسيين فقط هم من حضروا للمكان، وكانت إدارة الأمور والسيطرة عليها في يد أعضاء الخلية، وصرح: "لقد نجحنا في نشر جالنا في المقاهي التابعة للعرب، واستطعنا أن نلحق بهم خسائر فادحة"، وأرسل أبراهام بارزلاي تقريراً مفصلاً عن الأحداث والعمليات التي قاموا بها، عن طريق رسالة مشفرة على المركز الرئيس للموساد في أوروبا والذي كان تحت إدارة شلومو هافيليو Shlomo Havilio في باريس، وتسبب هذا الاعتداء في نشر مشاعر التوتر والكراهية بين المسلمين واليهود في مدينة قسنطينة التي طالما كانت فضاء مشتركاً بين الطرفين، ودعت جبهة التحرير الوطني السكان المسلمين إلى مقاطعة التجار اليهود².

ضحايا المجزرة حسب بعض المصادر العربية وصل إلى 61 ضحية، غير أن الإحصاءات الرسمية ذكرت أن ضحايا يوم السبت 19 قتيلاً و 27 جريحاً من المسلمين، 15 جرحى من الأوروبيين، أما يوم الأحد فبلغ 6 قتلى و 4 جرحى، إلا أن الحقيقة أن عدد القتلى كان أكثر بكثير يمكن أنه تجاوز 70 فمشرحة مستشفى قسنطينة التي تبلغ طاقتها الاستيعابية 70 أصبحت لا تتسع لاحتواء الجثث، ومنع الدخول للمشرحة³، في حين أشارت بعض المراجع مؤخراً أن عدد الضحايا بلغ 80 جزائرياً⁴، وكان من بين ردود جبهة التحرير

1- Benjamin Stora, op.cit, p,152-153

2- Ibid, p.-p153-154.

3- فاطمة الزهراء نور، "يهود الجزائر في صحافة جبهة التحرير الوطني 1956-1962"، مجلة آفاق للعلوم، مج.7، ع.2، جامعة زيان عاشور، الجلفة، 1 مارس 2022، ص-ص.420-421.

4- يوسف ط، المقال السابق، ص.6.

الوطني أنها حكمت بالإعدام على شرطين يهوديين، لأنهما عملا على قتل وتعذيب المسلمين في السجون¹.

وبالإضافة لهذه المجزرة المروعة في حق مسلمي قسنطينة، انكشف مخطط فرنسي خطير يسعى لإراقة الدماء أيضا فقد بلغ مسامع محمد لجاوي² معلومات أكيدة، عن نية الاستعمار الفرنسي في ارتكاب مجزرة لكن هذه المرة ضد اليهود، بأيدي الفرنسيين حيث يلبس رجال ثقة من الأوروبيين من بينهم رجال شرطة، أزياء عربية على غرار القندورة، والبرنس، الشاشية... ويتربصون اليهود في مخارج القصبة نهار السبت، وهو يوم الصلاة في المعبد الكبير بساحة الحاخام الأكبر "أبراهام بلوش Abraham Bloch" ومقابل ذلك

1- فاطمة الزهراء نور، المقال السابق، ص421.

2- محمد لجاوي 1926-1992: عضو المجلس الوطني للثورة الجزائرية CNRA عام 1956، وقائد فدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا 1957، ولد في 20 فيفري 1926 بالجزائر العاصمة، كانت حالته المادية ميسورة فهو من الملوك، صاحب محل كبير للملابس بشارع باب عزون، احتك بالوسط اللبرالي الأوروبي كما احتك بالتيار الوطني، واقترب بصورة خاصة من الحزب الشيوعي الجزائري PCA، وكانت له معرفة بالحركة العمالية اكتسبها من خلال اهتماماته بالإضرابات العمالية، بدأ اتصالاته بجبهة التحرير الوطني أولا مع كريم بلقاسم عندما التقيا في بلاد القبائل، ثم مع عبان رمضان بالجزائر العاصمة عام 1955، خدم الثورة الجزائرية كثيرا وله إسهامات عديدة فيها، من أهمها المشاركة في التحضير لمؤتمر الصومام 20 أوت 1956، وعين في نهاية أشغاله عضوا مستخلفا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وفي ديسمبر 1956 أرسلته لجنة التنسيق والتنفيذ إلى باريس لقيادة فدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا، بعد القضاء على لجنتها، بعد وصوله في جانفي 1957 وبمجرد تأسيسه قيادة جديدة حتى تم اعتقاله في فيفري 1957، وأمضى ما تبقى من عمر الثورة في السجون الفرنسية متنقلا بين هذا السجن وذاك، وشارك في حركات الإضراب عن الطعام ليسجل كسجين سياسي، بعد وقف إطلاق النار أطلق سراحه، التحق بتونس ودعم التحالف الذي قاده بن بلة وبومدين وخيضر، عارض انقلاب 19 جوان 1965، له العديد من المؤلفات منها: حقائق عن الثورة الجزائرية، جزء من القمر ونجمة بلون الدم، أشعار وقصص عن الثورة، دفاعا عن حقوق الإنسان في الجزائر، محاولة سياسية... ينظر: عاشور شرفي، قاموس الثورة الجزائرية 1954-1962، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص-ص.290-291.

يتم تحريض المسلمين عن طريق الإشاعات الكاذبة وجر الجماهير وإدخالهم المعبد اليهودي، ليتكفل الفرنسيون بأنفسهم بذبح ثلاثين أو أربعين يهوديا، وتوجه بعدها أصابع الاتهام لجهة التحرير الوطني، ومهما كانت فظاعة المخطط، فحسب لبجاوي "ليس فيه ما يدعو إلى الدهشة" فقد سبق وأن أحبطت جهة التحرير الوطني أعمالا تحريضية مماثلة ضد طائفة النصاري العرب من تجار العاصمة، ولو قدر لمجزرة اليهود أن تقع لكانت النتائج وخيمة على الطرفين المسلم واليهودي، وكان هذا المخطط الرهيب هو ما جعل لبجاوي يطلب من القيادة دراسة قضية اليهود على وجه السرعة، واقترح استغلال الفرصة لإعلان الموقف الرسمي للجهة من الطائفة اليهودية، قائلا: "علينا بوضع نداء موجه من جهة التحرير الوطني إلى الجزائريين من الدين اليهودي"¹.

إذن في هذه الظروف بين المجازر والمؤامرات الاستعمارية، ومحاولة ضرب الطرف المسلم واليهودي أحدهما بالآخر، تم توجيه النداء لليهود الجزائري، وكما وضع لبجاوي: "وبفضل نفوذ عبان رمضان المعنوي المطلق، تمكنا، بنوع خاص، من وضع الحل الذي أملته علينا روح المسؤولية وكذلك واجبنا كرجال، لمشكلة الطائفة اليهودية في الجزائر"، لقد كان وضع الطائفة حسب لبجاوي متناقضا، فالأوساط الاستعمارية منذ بداية الاحتلال تنظر لهذه الأقلية باحتقار، وكما بثت السياسة الاستعمارية سموم العنصرية ضد المسلمين بثتها ضد اليهود، وفي عهد "فيشي" أصاب يهود الجزائر الكثير من أنواع النذل والزجر من قبل كبار المستعمرين والأوساط "البيتانية"، بالمقابل تجنب المسلمون أذية اليهود، بل أبدوا تجاههم تضامنا حقيقيا، خلال تلك

1 Mohamed Lebjaoui, vérités sur la révolution Algérienne, Gallimard, paris, 1970, p-p.114-

الأوقات العصيبة، وقامت السياسة الفرنسية على مبدأ "فرق تسد"، فأضرمت الخلافات باستمرار بين المسلمين واليهود، لخلق العداء بينهما، ورغم أن قانون "كريميو" الشهير قد منح الجنسية الفرنسية لليهود الجزائري، إلا أنه في طياته رفع اليهود لضرب المسلمين، وجعلهم يعتقدون أن لليهود حظوة عند الفرنسيين، فتعزل هؤلاء عن أولئك¹. من باب تحطيم بنية المجتمع الجزائري، فكان الغرض من النداء في هذا التوقيت بالإضافة لمعرفة موقف اليهود، القضاء على السياسة الاستعمارية القائمة على شعار فرق تسد، وتحريض المسلمين واليهود ضد بعضهم البعض، وازدادت أهمية الأمر بعد انكشاف المخططات الفرنسية بمحاولتها ارتكاب جريمة ضد اليهود واتهام جبهة التحرير بها، هذا المخطط الخطير جعل لبجاوي يسرع رفاقه الاهتمام بقضية هذه الأقلية، وحسم الأمور بصورة رسمية.

بعد طلب لبجاوي وافق الجميع على المبدأ، وطلب منه وضع النص، فسارع في التنفيذ برفقة بعض الإخوان، لكن قبل وضعه أجرى لبجاوي عدة مشاورات مع أصدقاء يهود، وتجار مسلمين على علاقة بأفراد الطائفة اليهودية، وخص بالذكر صديقه "بيتش اليهودي" وهو ممثل تجاري، كما أنه نسيب واحد من أكبر أصدقاء الشعب الجزائري المحامي "بيارستيب" الذي يعتبر أول محامي دافع في الجزائر وفي فرنسا، عن موقوفي جبهة التحرير الوطني، وتأكد لبجاوي من خلال مقابلاته على ضرورة توضيح موقف الثورة بتوجيه نداء مباشر إلى اليهود من طرف جبهة التحرير باعتبارهم جزائريين، واكتشف في هذه المناسبة أن اليهود كانوا منقسمين إلى داعمين للاستعمار ومعادين له تضامنا مع الجزائريين المسلمين².

1-ibid. p-p.114-117.

2-ibid. p-p.114-117.

بعد أن وجد مقترح لبجاوي موافقة من الجميع اجتمعوا مرة أخرى حسب روايته أين عرف اجتماعهم نقاشا حادا طول الليل، وحضر الاجتماع كل من لبجاوي، وابن مهدي، عبان رمضان، بن يوسف بن خدة، وكان سبب النقاش الحاد حول أسلوب النداء، فقد تحفظ ابن مهدي عن اللمجة "بالغة الحرارة" للنداء وعباراته الأخوية، لكن لبجاوي حرر النداء بالصيغة التي أرادها ولم يغير من نصه إلا كلمة واحدة حيث عوض "الأخ الإسرائيلي" "بالمواطن الإسرائيلي"، واعتبر أن موقف ابن مهدي وردة فعله نتيجة وجود يهود بين الجماعات المتطرفة، ودافع عن نصه أن هناك أيضا مسلمين بين الجماعات المتطرفة، والجهة تحكم عليهم كأفراد، وكذلك يجب أن تفعل مع اليهود، فليس من العدل أن يقيّموا اليهود من خلال مواقف بعض الأفراد الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الاستعمار، وهم يعرفون يهودا جزائريين وإن كان عددهم قليلا، لكنهم لم ينسوا العنصرية التي كانوا ضحاياها على أيدي المتطرفين، وهم من مؤيدي الثورة الجزائرية¹، وبهذا تم تحرير النداء حسب لبجاوي²، الذي وجه رسميا للطائفة اليهودية من أجل معرفة موقفهم الرسمي من الثورة الجزائرية.

1Ibid. p-p.114-117.

2- يشير فوزي سعد الله بخصوص رواية لبجاوي حول تحرير النداء أنه تحدث في لقاء مع بن يوسف بن خدة في صيف 1995م، وسجل هذا الأخير تحفظه على بعض تفاصيل محمد لبجاوي التي أشار لها، خاصة الاجتماع كقيادة فالاتصالات حسب بن خدة كانت فردية، كما كذب الاجتماع الثاني والسهرة طوال الليل لمناقشة النص، وتعويض العبارات المذكورة... فمن الممكن حسب ابن خدة أن يكون لبجاوي من لفت نظرهم لقضية اليهود، ويمكن أنه حرر النص أما الاجتماع مع لجنة التنسيق والتنفيذ، وبقية التفاصيل "فمن غير الممكن أن تكون قد حدثت". ينظر: فوزي سعد الله، ص-

3- نص النداء¹ وتحليله

إلى السيد الحاخام.

إلى السادة أعضاء المجلس الديني الأعلى للإسرائيليين.

إلى جميع النواب والمسؤولين عن جماعة الإسرائيليين بالجزائر.

سيدي الحاخام.

معشر السادة والمواطنون الأعزاء.

إن جبهة التحرير الوطني التي تتحمل قيادة الثورة ضد الاستعمار منذ سنتين بقصد تحرير الوطن الجزائري لثرى أنه قد حان الوقت على كل جزائري إسرائيلي ليفرض على نفسه بناء على ضوء تجربته الخاصة تجديد موقفه دون غموض أو إيهام في هذه المعركة العظيمة التاريخية.

إنه من المعلوم اليوم أن حرب تجديد الاحتلال التي أرغم عليها الشعب الجزائري قد أتت نهائيا بفشل مزدوج في الميدانين العسكري والسياسي، وأن القواد الفرنسيين أنفسهم وعلى رأسهم المارشال "جوان" ليبوحوون اليوم بعدم إمكانية القضاء على الثورة الجزائرية الظافرة.

وإن الحكومة الفرنسية الآن في بحثها عن حل سياسي لا مفر منه، لتريد الاستسلام إلى أمانها في غصب الشعب الجزائري انتصاره بتماديها في الأعمال السفهية والمناورات الدنيئة التي يكون جزاؤها منذ الآن الفشل الذريع، وأهم ما في هذه المناورات أنها تحاول عزل جبهة التحرير عن الشعب ولو بكيفية جزئية وذلك بحملها على إجماع الوطن إجماعا حصينا في قيامه ضد الاستعمار.

إنكم لا تجهلون يا معشر المواطنين الأعزاء أن جبهة التحرير التي جعلت رائدها إيماننا وطنيا رفيعا بينا، قد قضت على السياسة الشيطانية التي كانت

1- رسالة إلى يهود الجزائر، مجلة المجاهد، ع.3، 1 سبتمبر 1956.

تحاول بث التفرقة إذ برزت أخيرا في مقاطعة إخواننا التجار المزايين التي كادت تتعداهم إلى كافة التجار الإسرائيليين، إن هذه المحاولة التي قضينا عليها قبل استفحالها كانت كأخواتها السابقة، من صنع الإدارة الفرنسية العليا، وقد قامت بتطبيقها شرذمة من المغامرين والمخادعين التابعين لمصلحة البوليس، إن الشرطيين والخونة والوشاة ورجال الإرهاب المضاد السفاكين، قد قتل من قتل منهم لا باعتبار ملته ودينه، ولكن قتلوا باعتبارهم أعداء الشعب.

إن جبهة التحرير الوطني التي هي الممثل الحقيقي الوحيد للشعب الجزائري لترى اليوم إنه من الواجب عليها أن تتوجه رأسا إلى جماعة الإسرائيليين لتطلب منهم أن يصرحوا علينا بانتمائهم إلى الأمة الجزائرية، وأن هذا الاختيار إن وقع التعبير عنه بكل وضوح لمّا يبيد الشكوك والخلافات، وينتزع بذور الحقد التي غرسها الاستعمار الفرنسي في القلوب، وأنه من ناحية أخرى لخير معين على خلق الأخوة الجزائرية خلقا جديدا، بعد أن حطمها الاستعمار الفرنسي يوم أن فجعنا به، إن جماعة الإسرائيليين بالجزائر في تخوفها من سوء مصيرها ومستقبلها كانت منذ ثورة فاتح نوفمبر 1954، محل اضطرابات وتغييرات سياسية مختلفة.

إن المندوبين الجزائريين في المؤتمر اليهودي العالمي الأخير الذي انعقد بلندن، قد أظهروا تعلقهم بالجنسية الفرنسية خلافا لإخوانهم التونسيين والمغاربة، ونحن على هذا الموقف متأسفون.

ولم تتجه الجماعة الإسرائيلية نحو اتخاذ موقف محايد إلا بعد أن ظهرت قلاقل سادس فبراير ذات الصبغة الاستعمارية الفاشستية، وظهرت فيها من جديد تلك العبارات المعادية لليهود، ثم ظهرت من بعد جماعة من الإسرائيليين تنتهي إلى جميع الطبقات، وظهرت خصوصا بعاصمة الجزائر

وأدت بها شجاعتها إلى القيام بعمل مضاد للاستعمار بكيفية واضحة، إذ صرحت باختيارها الحكم النهائي للجنسية الجزائرية، إن هؤلاء لم ينسوا تلك القلاقل المعادية لليهود، سواء منها الاستعمارية والعنصرية إذ تتابعت بكيفية طاحنة سفاكة إلى نظام "فيشي" الذي فعلى الجماعة الإسرائيلية أن تفكر في الحظ القاسي الذي حازه إليها "بيتان" وكبار المستعمرين، من نزع للجنسية الفرنسية وإصدار قوانين وقرارات استثنائية، واغتصاب وإذلال واعتقال ورمي في النيران، وبعد ما ظهرت حركة بوجاد وظهرت بوادر انبعاث الفاشستية، فإنه يمكن اليهود أن يعرفوا من جديد رغم جنسيتهم الفرنسية ذلك الحظ الذي عرفوه أثناء نظام "فيشي".

وأننا لا نريد تتبع مجرى التاريخ في القديم، ولكنه يجدينا نفعا أن نذكر بالعهد الذي كان فيه اليهود بفرنسا، أقل اعتبارا من الحيوان، وكان ممنوع عليهم دفن موتاهم وكانوا يضعون الأموات تحت التراب اختلاسا بالليل في أي مكان، لأنه كان ممنوعا عليهم منعا كليا أن يملكوا أدنى مقبرة من المقابر، وقد كانت الجزائر في نفس الوقت مأوى لجميع الإسرائيليين وأرض حرية لهم يفرون إليها من القمع والاضطهاد الديني، وفي نفس الوقت كانت الجماعة الإسرائيلية فخورة بأن تجود على وطنها الجزائري لا بالشعراء والتجار والفنانين وأهل القانون فحسب، بل كانت تجود بالقناصل والوزراء.

إن يكن الشعب الجزائري قد أبدى أسفه عن سكوتكم فإنه أبصر بعين الاعتبار الموقف المعادي للاستعمار، الذي أبداه الرهبان الكاثوليكين مثل أولئك الذين كانوا في مناطق الحرب كالرمشي وسوق أهراس، وإنه ليرى بعين الاعتبار حتى موقف كبير الأساقفة الآن، رغم أنه كان في الماضي القريب يتصف بصفت القمع الاستعماري.

إن جبهة التحرير الوطني لترجو من قادة الجماعة اليهودية، أن تؤدي

بهم الحكمة إلى المشاركة في تشييد الجزائر الحرة ذات الإخاء الحقيقي، وما هذا الرجاء منها إلا لأنها تعتبر الإسرائيليين الجزائريين من أبناء وطنها. إن جبهة التحرير الوطني لواقفة من أن المسؤولين سيفهمون أنه من واجهم وأنه من المصلحة الرشيدة لجماعتهم الإسرائيلية، ألا تبقى بعيدة عن الغوغاء، وأن تحكم دون تحفظ على النظام الاستعماري المحتضر، وأن تصح باعتناقها الجنسية الجزائرية.

وتقبلوا تحياتنا الوطنية.

حرر بمكان ما بالجزائر في فاتح أكتوبر. 1956.
جبهة التحرير الوطني.

أكدت بعض الدراسات الجزائرية أن النداء تضمن عبارات ملفتة للنظر، على رأسها: "مواطنينا"، وجاء مختلفا عن بعض خطابات الثورة لليهود السابقة، فقد كان في شكل طلب وتمنيات وتفسيرات، وتقديم تقارير وشروحات للسياسة الاستعمارية ضد اليهود، ولم يتناول الأحداث المأساوية التي تعرض لها المسلمون على يد اليهود والمعمرين قبل الثورة أو أثناءها، ولعل السبب في أن يكون موقف الثورة في هذه الأثناء بهذه اللهجة (سواء النداء أو قبله) هو هيمنة الروح اليسارية على بعض قيادات الثورة¹، في حين ذهب فوزي سعد الله أن اعتدال الثورة في ندائها لليهود عام 1956 راجع لمحمد لبجاوي، ولولاه لكانت الأمور مختلفة، وقد ذهب هنري شمويي بأن معرفة لبجاوي لبعض اليهود قد تكون وراء لهجة النداء المعتدلة، وادعى أنهما من نفس المدينة، ولم يتردد هنري شمويي في وصف لبجاوي بأنه "رجل رقيق الطباع وسياسي بارع صادق ومناضل من أجل المثل كما يجب أن يكون الرجل

1- يوسف مناصرية، النشاط الصهيوني في الجزائر 1897-1962، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص.

السياسي، لبجاوي يبدو لي صادق النية حتى في مكائده الحربية، وعندما يتحدث عن اليهود فإنه يتحدث بثقة وعن اطلاع وتشعر أنه عرفهم واحتك بهم، وأنه يتمتع بثقتهم وصدقتهم¹، ونتيجة اللهجة المعتدلة للبجاوي، وشهادته على المواقف الإيجابية لليهود، اتهمته بعض الكتابات بأنه كان من بين الذين حسموا أمر موقف يهود الجزائر، بأنهم كانوا من أنصار الثورة الجزائرية، وحذروا من الانسياق وراء أقواله².

قد يعد ما ذكر من بين الأسباب في لهجة واعتدال النداء، وروح التسامح الديني التي غلبت عليه، لكن يجب أيضا أن لا ننسى تأثير البعد الديني والتاريخي في الأمر، فآثر الدين الإسلامي في تكوين رجال الثورة وقادتها لا نقاش فيه³، ومن تعاليمه بث روح التسامح الديني بين أتباعه تجاه بقية الملل والمعتقدات، ومع أن المجال لا يتسع هنا لمناقشة هذه المسألة لكن لا بأس أن نذكر أن وضع اليهود والنصارى في المجتمع الإسلامي محكوم بموجب قانون أهل الذمة، يتمتعون بالحرية الدينية ويدفعون الجزية، لهم حقوقهم وواجباتهم باعتبارهم شركاء في الوطن، ولا يجوز أذيتهم ما لم يخرجوا عن المتعارف عليه⁴، فالتسامح الديني أصيل عند كل مسلم عامة، وقد تربى الشعب الجزائري عليه ومنهم قادة الثورة، وطالما كان المجتمع الجزائري

1- فوزي سعد الله، المرجع السابق، هامش الصفحة 234.

2- نصر الدين لعوج، المقال السابق، ص. 186.

3- للتوسع في تأثير الدين الإسلامي على الثورة الجزائرية ينظر: فتح الدين بن أزواو، البعد العربي الإسلامي في الحركة الوطنية الجزائرية وثورة أول نوفمبر، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، 2012-2013.

4- نحيل القارئ للتوسع في موضوع أهل الذمة والجزية إلى: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، تحقيق: صبحي صالح، مطبعة الجامعة، دمشق، 1961، وأيضا: حسن المهي، أهل الذمة في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

متعدد الأجناس والثقافات والأعراق دون أي مشاكل والتاريخ شاهد على ذلك، حتى أن الجزائر كانت لآلاف السنين الملاذ الآمن لليهود خاصة خلال المحنة التاريخية الشهيرة بعد سقوط الأندلس 1492م، والطرده الجماعي لهم منها، وعاشوا فيها بكل أمان خلال العهد العثماني، ويستحيل أن تضرب الثورة بكل هذا الميراث الديني والتاريخي عرض الحائط وتطرح منهجا مغايرا في التعامل مع اليهود دون أسباب وجيهة، كما أن اعتدال الثورة عموما راجع لتركيزها على القضية الأساسية، فطالما أكدت أن عدوها الأساسي هو الاستعمار الفرنسي في حد ذاته وكل أعوانه، وأن كل من يساندها في عملية الكفاح ومحاربة الاستعمار الفرنسي هو من الأصدقاء والإخوة والرفاق، فالثورة الجزائرية سارت على مبدأ احترام الأقليات بما في ذلك الأقلية اليهودية، وتصدت للتعصب الديني، ومنعت كل انحراف يؤدي إلى الكراهية الدينية أو العرقية، مؤكدة أن المطلب المهم والأساسي هو الحرية في إطار ديمقراطي¹.

بالنسبة لمحمد لبحاوي الذي خط النداء كان على الثورة رفض مبدأ العنصرية الذي عانى منه الجزائريون مرارا وتكرارا، وإحباط اتهامها بالطائفية ومعاداة اليهود، وأن كل مناصر لاستقلال الجزائر فهو صديق، وأن كل مناهض لاستقلال الجزائر فهو عدو، مهما كان انتماءه ودينه وعبر عن ذلك بقوله: "كان ثمة مشكلة مبدأ تطرح نفسها علينا في مطلع كفاحنا: التصميم على رفض كل ما من شأنه أن يذكر، من قريب أو بعيد، بهذه العنصرية المقيتة التي نعاني منها، فبإمكاننا محاسبة هذه الشخصية أو تلك سياسيا، وكذلك هذه المجموعة أو سواها، غير أنه يستحيل عمل ذلك بأية حال على

1- فتح الدين بن أزواو، المرجع السابق، ص.ص. 246-295 .

أساس ديني أو عنصري، فاليهودي أو المسلم المناصر للاستقلال الوطني هو أخونا، وأعداؤنا الوحيدون هم أنصار الاستعمار، مسلمين كانوا أم يهودا أم أوروبيين"¹، وأضاف بأن هذا النداء الذي خطه على ورق دفتر مدرسي سيكون دليلا على نضج الثورة من الناحية السياسية بقوله: "أنبئكم سلفا بأن هذا النص سيلف العالم، وأنه سيعطي فكرة صحيحة عن نضج الثورة الجزائرية السياسي". واستطاع لاحقا الاطلاع عليه في الصحف، وفي المنشورات، وفي الكتب، وقد ترجم إلى عدة لغات: الإنجليزية، العربية، الإسبانية... وبعد محنة توقيفه وسجنه ثم الإفراج عليه، أكد أنه التقى في تونس أحد قادة البعثة الجزائرية لنيويورك، وأكد له هذا الأخير فائدة ذلك النداء للجزائر تجاه جميع وفود هيئة الأمم المتحدة، فقد قضى في المهمل على جميع تهمة العنصرية التي تم الترويج لها من البعض كذبا، ضد الثورة الجزائرية، كل هذه الأمور جعلت لبجاوي معتزا بما قام به².

وأكد أيضا أنه كان على الثورة الجزائرية اتخاذ موقف لا لبس فيه، في وقت كانت الأمور توشك على الانفجار، وتكذيب الاستعمار الذي اتهم الثورة منذ اندلاعها بأنها ثورة طائفية، يقودها رجال دين متعصبون، وحاولوا حتى إقحام الصراع العربي الصهيوني في القضية الجزائرية وتحريك ورقة معاداة السامية خاصة بعد وقوع أزمة قناة السويس، لكن باءت جهودهم بالفشل ولم يتحول عدااء الشعب المشروع للصهيونية، إلى عدااء ومعاركة بين الجزائريين من دين يهودي ودين إسلامي، وبالنسبة لموقف اليهود العام الذين فضلوا البقاء بعيدين عن الصراع، ولم يلتزموا مثل المسلمين، فإن لبجاوي رأى أن على جبهة التحرير الوطني أن تهدئ من مخاوف اليهود التي غذاها

1 Mohamed Lebjaoui, op. cit, p.117.

2Ibid. p.117-118.

الاستعمار ضد الثورة، "فإن نجحنا في كسب تأييدهم، نكون قد أحبطنا مناورات الاستعمار، وإذا فشلنا نكون قد برهننا على الأقل على نضجنا السياسي، برفضنا الاستسلام للسهولة، وهذا ما لا يليق بنا، على الثوري الحقيقي ألا يصدر عنه أي ضعف تجاه اللاسامية، ولو بصورة غير مباشرة، وانطلاقاً من هذا أخيراً يمكننا إحباط جميع التحريضات المحتملة..."¹.

إن ما نستطيع تأكيده حول النداء أن المطلع عليه يتأكد أن سياسة الثورة تجاه اليهود يمكن وصفها بالسياسة المعتدلة، قامت على مبدأ التسامح الديني، لها بعد تاريخي وديني نابع من الشخصية الجزائرية الأصيلة، وكانت لمسة وأفكار لبجاوي ظاهرة فيه، ومن بين ما وقفنا عليه ما يلي:
-لقد كان النداء وثيقة تاريخية أثبتت الثورة من خلالها احترامها للأقلية اليهودية وتسامحها الديني معها، ونادراً ما تم مخاطبة اليهود بصورة خاصة كما فعلت الثورة الجزائرية.

-اعتبرت الثورة الجزائرية يهود الجزائر شركاء في الوطن ونظرت إليهم على أساس ماضيهم وتاريخهم في الجزائر، وذكرتهم بمرحلة العيش الرغيد فيها، فالجزائري كانت لهم في فترة من الفترات التاريخية ملاذاً آمناً فأثروا وتأثروا فيها، ودعيتهم لمعركة تحرير وطنهم مع مواطنيهم القدماء، وتوضيح موقفهم دون التباس في المعركة التاريخية العظيمة.

-كان النداء صريحاً موجهاً لليهود، وطالبت من خلاله الثورة باعتبارها الممثل الحقيقي والوحيد للشعب الجزائري، اليهود صراحة بإعلان موقفهم وانتمائهم إلى الأمة الجزائرية، وأن اختيار الطرف الجزائري سوف يقتلع بذور الحقد التي يربعاها الاستعمار الفرنسي، كما سيساهم في إعادة بناء نسج الأخوة الجزائرية التي حطمتها السياسة الاستعمارية.

- أظهر النداء الخطاب المعتدل للثورة تجاه يهود الجزائر، وأكد انتماءهم التاريخي للجزائر وتفاعلهم معها، وعيشهم بسلام فيها، وتم استعمال العبارات "الودية" مثل: السادة، والمواطنون الأعزاء، الجزائري الإسرائيلي، الجماعة الإسرائيلية فخورة بأن تجود على وطنها الجزائري بالشعراء والتجار والفنانين وأهل القانون والقناصل والوزراء....

- وضحت الثورة من خلال النداء أنها ضد أي تعصب ديني وتفرقة بين أبناء الوطن الواحد، وأن المساعي الاستعمارية هي التي تحاول بث التفرقة على أساس عرقي وديني، كما أشارت للتقلبات السياسية التي خضعت لها الطائفة الإسرائيلية منذ اندلاع الثورة، والتي جعلتها قلقة بخصوص مصيرها في الجزائر.

- اعتبرت الثورة أن العقاب الذي تنزله بأي كان هو بسبب معاداة الشعب وليس بسبب المعتقدات الدينية، وهذا لتوضيح سياستها، وأن العدو الوحيد هو الاستعمار الفرنسي وأعوانه.

- تأسفت الثورة من خلال النداء على اختيار المندوبين الجزائريين في المؤتمر اليهودي العالمي الأخير المنعقد بلندن، الجنسية الفرنسية، عكس إخوانهم التونسيين والمغاربة.

- استخدم النداء الأدلة التاريخية والتأثير النفسي لإحياء ضمير اليهود، وفتح أعينهم على حقيقة الاستعمار الفرنسي الظالمة، حيث ذكّرهم بالسياسة الفرنسية الاستعمارية الفاشية، وتجدد شعارات المناهضة لليهود في كل مرة، مما دفع جماعة من الإسرائيليين في مدينة الجزائر خاصة، لاختيار الجنسية الجزائرية وتأكيد عدائها للاستعمار، لأن هذه الجماعة الشجاعة لم تنس المواقف الاستعمارية التي تحي في كل مرة معاداة اليهود، خاصة خلال الحرب العالمية الثانية حيث أسقطت الجنسية الفرنسية عن يهود الجزائر،

وصدرت المراسيم والقوانين الاستثنائية، التي كانت مصحوبة بسيطرة المعمرين، وحالة القطيعة من الجنرال "بيتان" والإذلال... فالجنسية الفرنسية لم تنقذ اليهود من ظلم الاستعمار الفرنسي.

-رجع النداء بيهود الجزائر إلى الفترة التاريخية التي كان اليهود خلالها في فرنسا في وضع مزر، حيث كانوا أقل اعتبارا من الحيوانات، ولم يكن لهم الحق في دفن موتاهم، وكانت الجزائر في هذه الفترة ملاذهم الأمن وأرض الحرية لكل الفارين من القمع والاضطهاد الديني.

-نقل البيان أسف الجزائريين لصمت اليهود، في حين قدّر موقف رجال الدين الكاثوليكين، الذين عبروا عن مناهضتهم للاستعمار.

-جدّد النداء في الأخير الدعوة للنخبة اليهودية وقادتها للمساهمة في بناء الجزائر حرة وأخوية، وهذا لأن جبهة التحرير تنظر لليهود الجزائريين على أنهم أبناء الوطن الجزائري.

-حمل النداء النخبة اليهودية مهمة قيادة الطائفة، وإشراكها فيما يحدث، وألا تبقى بعيدة عن الصراع، وأن تندد بكل قوة بالنظام الاستعماري الفرنسي المحتضر، وأن تصرح باختيارها للجنسية الفرنسية.

4- رد فعل يهود الجزائر على النداء

لقد عكس النداء بما لا يدع مجالا للشك مبدأ التسامح الديني للثورة اتجاه اليهود، فكيف كان رد فعل هؤلاء عليه؟ وهل حقق المراد؟ لم يحقق النداء الهدف المطلوب ولم يؤثر كما كان ينبغي على الأقلية اليهودية في الجزائر، كما لم يسفر عن موقف جماعي لهم، ولم تتبن أي جبهة الحديث باسم الأقلية، لكن كانت هناك ردود فعل مختلفة ومتباينة عبر فيها كل طرف عن موقفه الخاص بين القبول والرفض.

وبما أن نداء الجبهة موجه للحاخام الأكبر فهو المخول بالإجابة

بالاستجابة أو عدم الاستجابة، ومع ذلك فإن حاخامات الجزائر بما فهمم الحاخام الأكبر قد صرحوا بأنهم لا يريدون القضاء على الإرادة اليهودية العامة، وأنهم ليسوا في مقام إملاء المواقف، والمواقف متروكة لحرية التعبير والأمر راجع لعامة اليهود فيما يختارون، وصرح هنري شموي Henri Chemouilli رفضاً لنداء الثورة: "أيها السكان هل يمكننا أن ننضم إلى قبيلة كبيرة من البربر؟ أيها الفرنسيون هل يمكننا أن نخون فرنسا؟ هذا مشكل أخلاقي ولكل واحد أن يفكر فيه حسب ما تمليه عليه قناعته"¹.

ويبدو أن كثيراً من يهود الجزائر بعد مشاورات تمت في هيئاتهم الدينية، قد أخذوا بالرأي الذي يشجع الحل السلمي والتفاوض لإنهاء الصراع بين الطرفين المتصارعين فرنسا والجزائر، وحسنت جمعية "اللجنة اليهودية الجزائرية للدراسات الاجتماعية" أمرها بخصوص الرد على بيان جبهة التحرير الوطني وجعلت المسألة متروكة للمواقف الشخصية، وليس للهيئة الدينية والحاخام اليهودي، وأنها ترغب في تسوية سلمية للصراع بين فرنسا والجزائر.² ورفض أندري ناربوني "André Narboni" نداء جبهة التحرير الوطني فعلى حد قوله: "إنه يطلب منكم خيانة وطن قائم يضمنا من أجل وطن لا وجود له على الإطلاق، نحن نريد أن نعيش أوفياء لفرنسا ولقيم العدالة والديمقراطية"³.

لقد التزم المجلس الديني اليهودي الصمت وعلى رأسه الحاخام الكبير موريس إزنبات، بحجة أن صلاحياته دينية فقط، وأنه لا دخل له في السياسة، ودعا إلى بقاء اليهود بعيداً عن الصراع بين فرنسا والشعب

1- Benjamin Stora, op.cit, p143,144.

2-Ibid. p,145.

3- Ibid.p,146.

الجزائري، ومن جهتها تحركت اللجنة اليهودية الجزائرية للدراسات الاجتماعية تحت قيادة أمينها العام جاك لازاريس، وقامت بتوجيه اليهود وتشجيعهم على البقاء موالين لفرنسا¹. وفي نوفمبر 1956 كتبت ردا على نداء الجبهة عبر صفحات جريدة "الخبر اليهودي" بأن الطائفة اليهودية لا يجب عليها بأي شكل من الأشكال أن تشكل كيانا سياسيا²، وبأنه "لا توجد أية مؤسسة يهودية ولا أية شخصية يهودية بإمكانها أن تدعي أنها تتحدث باسم طائفة تحتوي على جملة من وجهات النظر المختلفة، كغيرها من بقية المجموعات الإثنية، إسرائيليو الجزائر لديهم في هذا المجال آراء جد متضاربة مع بعضها البعض إلى حد أنه يستحيل إخضاعهم لموقف جماعي". وعبرت اللجنة عن أملها في عودة السلم وضمان حقوق الإنسان، كما أكدت اعترافها بفرنسا وفي نفس الوقت تعلقها بالأرض الجزائرية، لأن اليهود "يريدون البقاء أوفياء إلى القدر الذي جعلهم أيضا متقاربين مع الجاليتين الدينيتين المسلمة والمسيحية"، وفي الوقت الذي نشر هذا الموقف كان عدد من اليهود قد أعلن ولاءهم لفرنسا أو انخرط في أجهزة القمع الرسمية والسرية لقمع المسلمين، لكن أيضا اختارت أقلية صغيرة من المثقفين اليساريين التعاطف مع الثورة أو التحقت بها، والبقية انتظرت نتيجة الحرب، ومنهم من حزم أمتعته للهجرة خارج الجزائر³.

من المواقف الاستثنائية التي حاد بها بعض اليهود عن موقف أهل ملتهم العام، هو موقف بعض الشخصيات اليهودية المثقفة، هذه الشخصيات

1 فوزي سعد الله، المرجع السابق، ص. 243، 244، 245.

2 Richard Ayoun et Bernard Cohen, les juifs d'Algérie 2000 ans d'histoire, Rahma, Alger, 1994, p.172.

3 فوزي سعد الله، المرجع السابق، ص. 250.

آمنت بعدالة الثورة الجزائرية، وأسست تحت إشراف جبهة التحرير الوطني: "لجنة اليهود الجزائريون المؤيدون للاستقلال" Comité des Juifs Algérienne "pour l'indépendance de l'Algérie" في ديسمبر 1956، وعلى رأس هؤلاء اليهود المهندس "كلود سيكسو" و"الطيب بيار بن كمون" "Pierre Ben" "kemoun"،¹ والأستاذ "بيار أثال (عتال)" (Pierre Attal)، و"جون ألوش (علوش)" (Jean Allouché)، و"إيلان سيكسو" (Hélène Cixous)، و"أندري أكون (عقون)" (André Akoun) وغيرهم من شرفاء اليهود، وعارضت هذه اللجنة استئثار المجمع الديني اليهودي في التكلم باسم كل يهود الجزائر، وموقفه المؤيد للجزائر فرنسية، وأعلن أعضاؤها عن مساندتهم لاستقلال الجزائر، لقد اختارت هذه الأقلية المثقفة من اليهود من ذوى التوجه اليساري والتحرري، الوقوف بجانب القضية الجزائرية العادلة²، ووضعت يدها في يد جبهة التحرير الوطني.

وفي البيان الذي أصدرته لجنة اليهود الجزائريون المؤيدون للاستقلال، استجابة لنداء الجبهة الفاتح من أكتوبر 1956م ورد فيه من بين ما ورد: "ما يزال الوقت أمامنا اليوم لنعود إلى المجموعة الجزائرية، فإن التعلق بصفة المواطن الفرنسي المفتعلة هو خديعة، في وقت تتكون فيه بخطوات واسعة الأمة الجزائرية الحديثة الفتية والقوية"³. كما أكد تأثر هذه المجموعة بمضمون نداء الجبهة لليهود وأن خيار الانتماء بصورة علنية إلى الأمة الجزائرية، من شأنه القضاء على كل سوء تفاهم، وأن يقتلع جذور الكراهية

1- عاشور شرفي، المرجع السابق، ص. 391.

2- رشيد خطاب، الخاوة والرفاق، قاموس بيوغرافي للجزائريين ذوي الأصل الأوروبي واليهودي والحرب التحريرية الجزائرية (1954-1962)، ترجمة محمد رضا بوخالفة ونسرين لولي، دارالخطاب، 2012، ص. 255.

3- نصر الدين لعوج، المقال السابق، ص. 185، 186.

التي رعاها الاستعمار الفرنسي، كما ندد بقوة بسياسة الاستعمار التي تدعي نشر السلام، ويبدو أن لبجاوي كان حاضرا أيضا مع هذه الجماعة، وأكد أنه اتصل بيهود جزائريين مقيمين بباريس عندما كان هناك، وأسس معهم لجنة اليهود الجزائريين من أجل استقلال الجزائر، وساهم حتى في تحرير نداءهم الذي تمت إذاعته، وظهر في جريدة "المقاومة الجزائرية" العدد 21-22 في 28 فيفري 1957، ثم كلف محمد حربي بالمساهمة في أعمال هذه اللجنة باسم جبهة التحرير الوطني، ونقل لبجاوي أيضا الموقف الداعم للثورة الجزائرية، لمهندس الطيران اليهودي جوزيف سيكسو، الذي أعلن عن موقفه من خلال توجيه رسالة كتابية عن طريق جريدة العمل التونسية في 2 سبتمبر 1957، إلى رئيس الجمهورية الفرنسية، واستجاب لنداء جبهة التحرير لعام 1956، وأعلن تمرده وعصيانه لفرنسا ونظامها الاستعماري والقيام بالخدمة العسكرية¹، هذه الشهادات عرضت لبجاوي لاحقا لاتهامات بأنه حسم موقف يهود الجزائر اتجاه الثورة، بأنهم كانوا من أنصارها كما أشرنا سابقا. بعد بضعة أشهر من صدور نداء جبهة التحرير الوطني، قامت أيضا مجموعة من يهود الجزائر داخل الوطن وخارجه من ذوي التوجه اليساري، بدعم النداء والثورة، من خلال مقالات منشورة في بعض الجرائد، والتحق عدد منهم بصفوفها، وناضلوا مثلهم مثل بقية المناضلين من المسلمين بكل الطرق²، ونخص بالذكر يهود الجزائر المقيمين بالمغرب الذين أعرب بعضهم عن مساندتهم للثورة، وهو ما نشرته جريدة المقاومة الجزائرية في عددها 18 بتاريخ 20 جانفي 1957م، وكان عنوان المقال: "وعي اليهود الجزائريين المستقرين بالمغرب"، وبعث هؤلاء اليهود برقية إلى هيئة الأمم المتحدة، في

1Mohamed Lebjaoui, op.cit. p. 120-124.

2 فوزي سعد الله، المرجع السابق، ص.246.

الوقت الذي كانت القضية الجزائرية ستعرض على الجمعية العامة، وعبروا عن رغبتهم أن يتم التفاوض بين الحكومة الفرنسية وجهة التحرير الوطني، ممثل الشعب الجزائري، على أساس الاعتراف باستقلال الجزائر مع احترام وحماية كل أطراف المجتمع الجزائري¹.

وقامت جماعة من يهود الجزائر بكتابة مقال في جريدة المقاومة الجزائرية تحت عنوان: "تصريح جماعة من اليهود" في العدد 20 من 1-10 فيفري 1957، هذه الجماعة كتبت لمحة تاريخية عن تاريخ اليهود في الجزائر منذ العصور القديمة حتى مرحلة الاحتلال الفرنسي، وسلطت الضوء على سياسة الاستعمار القائمة على التفرقة بين عناصر المجتمع الواحد، وكتكلمة لهذا المقال وفي موضع جديد من الجريدة ذكرت هذه الجماعة من اليهود أنه حان الوقت للعودة للمجموعة الجزائرية، وأن الإخلاص للمواطنة الفرنسية وهم وخيال، حتى أن أغلب اليهود يحملون أسماء عربية لا يمكن إنكارها، كما أن مطلب جهة التحرير واضح وهو عودة اليهود لأصولهم وحقيقتهم التاريخية، كما ذكرت هذه الجماعة أن من التحق من اليهود بصفوف الجزائريين المناضلين من أجل الحرية إنما فعلوا ذلك كرها للعنصرية، وفي ختام التصريح أعربت الجماعة اليهودية عن رغبتها في عودة السلام للجزائر عن طريق فتح باب المفاوضات بين الحكومة الفرنسية وجهة التحرير الوطني، مع تمنياتهم أن يروا حاخام اليهود الأكبر يرغب في تلك المفاوضات².

1- فاطمة الزهراء نور، المقال السابق، ص.420.

2- المقال نفسه، ص.ص.422-423.

لخص جاك لازاريس¹ Jacques Lazarus موقف اليهود من النداء لاحقا عام 1979 من خلال تصريحه للصحفي جون لوك ألوش Jean-luc Allouche "خلال الثورة الجزائرية كنا فرنسيين وكنا نود أن نبقي فرنسيين، ولكن هذا لم يكن يمنعنا من مطالبة السلطة الفرنسية الحاكمة بضرورة حماية حقوق المسلمين، وأمام هذين المتناقضين لم نكن نود أن نصبح مواطنين من الدرجة الثانية"²، وهذا يؤكد أن المصالح الشخصية لليهود هي المتحكم الرئيس والموجه لهم عند اتخاذ أي قرار أو موقف، ولا ولاء لغير مصالحهم، فهم لا يحبون الإضرار بها وبمكتسباتهم السياسية، ولم تكن لهم مشاعر وطنية اتجاه الجزائر، فأكثرهم ساند الاستعمار الفرنسي، ومع ذلك للأمانة التاريخية اختارت قلة قليلة منهم الجنسية والانتماء للجزائر، ويمكن أن نقول أن موقفهم بصورة عامة لم يكن موقفا موحدا، بل تعددت المواقف حسب دوافعهم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية³.

الخاتمة

- اعتبرت الثورة الجزائرية يهود الجزائر جزءا من المجتمع الجزائري، واحترمت ماضيهم وتاريخهم في البلاد، وخاطبتهم على هذا الأساس، وفتحت أمامهم أبوابها وحاولت إشراكهم في الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي، مثلهم

1- جاك لازاريس من مواليد الألزاس مناضل سابق لصالح فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، بعد وصوله للجزائر (1947) شغل منصب مدير جريدة الخبر اليهودي بالجزائر العاصمة، وهذه الجريدة الشهرية هي لسان حال وصحيفة جمعية اللجنة اليهودية الجزائرية للدراسات الاجتماعية حيث الأمين العام لها هو أيضا لازاريس، والتي تسعى جاهدة لتوجيه وتمثيل خط سير الجالية اليهودية بالجزائر. ينظر: Benjamin Stora, op.cit. p.141

2- Benjamin Stora, op.cit, p141

3- Frantz Fanon, "la minorité européenne d'Algérie en l'an 5 de la révolution", la temps modernes N 159-160, Mai-juin, paris, 1959, p.1846

مثل المسلمين فهم شركاء في الوطن لهم حقوق وعليهم واجبات، رغم الجنسية الفرنسية التي يحملونها.

- قامت الثورة الجزائرية على نبذ كل مظاهر العنصرية والتفرقة، وأثبتت أنها ثورة ضد الظلم والطغيان، خصمها الوحيد هو الاستعمار الفرنسي وأعوانه، وسعت للقضاء على السياسة الفرنسية التي عملت على تفكيك المجتمع الجزائري، وفق مبدأ فرق تسد.

- يعتبر نداء 1 أكتوبر 1956م من بين أهم النداءات المباشرة الموجهة خصوصا ليهود الجزائر، وجاء على شكل رسالة ودية لمعرفة موقف اليهود من الثورة، ومحاولة استمالتهم لصالحها، وكان الأسلوب الغالب عليه هو أسلوب التسامح والمودة ونبذ العنصرية والتطرف، واستخدمت فيه مصطلحات للدلالة على ماضي اليهود وتاريخهم الطويل في الجزائر، وتجاوز كل ما من شأنه أن يحدث شرخا في العلاقات الجزائرية مع اليهود حتى أنه لم يتعرض بالذكر لاعتدائهم قريب العهد على مسلمي قسنطينة، ويبدو أن لهجة النداء كانت شديدة المرونة حتى احتج عليه أحد قادة الثورة البطل ابن مهيدي واعتبره "بالغ الحرارة".

- أثبتت الثورة الجزائرية نضجها السياسي من خلال نداء 1 أكتوبر 1956م الموجه ليهود الجزائر، و"قضت بذلك في المهد على جميع تهم العنصرية التي كان بعضهم يروجها"، ونال النداء حظه في الانتشار والترجمة لعدة لغات، واستفادت منه الثورة خلال معركتها في هيئة الأمم المتحدة.

- يعتبر نداء الفاتح أكتوبر 1956م لليهود وثيقة تاريخية هامة، عكست البعد الديني والتاريخي للثورة الجزائرية، ومن خلاله غلبت سياسة التسامح الديني، ومدت جسر التواصل والحوار في تعاملها مع اليهود، لتوضيح موقفهم من الصراع الدائر في الجزائر.

- رغم أن تأثير البعد الديني في قادة الثورة موجود وأكيد، وسياسة التسامح الديني مستمدة من تعاليم الإسلام الذي أوصى خيرا بأهل الذمة، لكن لا مفر من القول حسب بعض الدراسات أن أسلوب النداء الموجه لليهود الجزائر، عكس أيضا الروح اليسارية التي تحلى بها بعض قادة الثورة، ممن كان لهم أصدقاء من اليهود.

- يعتبر محمد لبجاوي صاحب النصيب الأكبر في صياغة البيان وإخراجه، ودافع عن لهجته وأسلوبه الذي أخرج به البيان، بأنه كان يسعى للتعامل العادل مع كل أطراف المجتمع، وإفساد مناورات العدو والبعد عن العنصرية، ونفي تهمة معاداة اليهود عن الثورة خاصة على المستوى الدولي.

- نظرا للهجة البيان التي اتسمت بالمرونة، واستعراض مواقف اليهود الايجابية من الثورة، صنفت بعض الدراسات محمد لبجاوي بأنه حسم أمر موقف يهود الجزائر، بأنهم كانوا من أنصار الثورة الجزائرية.

- لم يحقق البيان الهدف المنشود من طرف الثورة، والتزم أكثر يهود الجزائر الحياد والصمت ولم يقوموا بالرد عليه، وعلى رأسهم الحاخام الأكبر موريس إزنبث، معتبرا مؤسسة المجمع الديني هيئة دينية وليست سياسية، وليس لها الحق في تمثيل كل اليهود سياسيا، وهذا ما ذهبت إليه بعض جمعيات اليهود الفاعلة على المستوى المدني.

- رغم عدم وجود استجابة جماعية من طرف يهود الجزائر للنداء، إلا أن التصريحات الشخصية والمواقف الفردية كانت موجودة، واختار أصحابها الطرف الفرنسي والوفاء لقيم وعدالة فرنسا، على حساب الثورة الجزائرية.

- تجاوب عدد من يهود الجزائر إيجابيا مع النداء مشكلين استثناء عن بقية مواطنهم الصامتين أو الرافضين للثورة، واختاروا الوقوف مع المسلمين ونضالهم ضد الاستعمار الفرنسي، وأعلنوا ذلك صراحة من خلال جمعياتهم

أو الصحف والجرائد والرسائل...، وعبروا بذلك عن موقف جماعة صغيرة من يهود الجزائر ذوي التوجه اليساري الداعمين للثورة الجزائرية.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- باللغة العربية:

1- الكتب المطبوعة:

- بن قيم الجوزية شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، أحكام أهل الذمة، تحقيق: صبيح صالح، مطبعة الجامعة، دمشق، 1961
- بيان أول نوفمبر، كتاب النصوص الأساسية لجهة التحرير الوطني (1954-1962)، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1979
- خطاب رشيد، الخاوة والرفاق، قاموس بيوغرافي للجزائريين ذوي الأصل الأوروبي واليهودي والحرب التحريرية الجزائرية (1954-1962)، ترجمة محمد رضا بوخالفة ونسرين لولي، دار الخطاب، 2012
- سعد الله فوزي، يهود الجزائر موعود الرحيل، ط.1، ج.2، دار قرطبة، الجزائر، 2005
- سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، ج.2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988
- شرفي عاشور، قاموس الثورة الجزائرية 1954-1962، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007
- المعي حسن، أهل الذمة في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998
- مناصرية يوسف، النشاط الصهيوني في الجزائر 1897-1962، دار البصائر، الجزائر، 2009

2- الدوريات:

- رسالة إلى يهود الجزائر: مجلة المجاهد، ع.3، 1 سبتمبر 1956
- ط. يوسف، "شهادة مثيرة عن مذبحه قسنطينية عشية عيد الفطر 1956 الموساد وراء اغتيال 80 جزائرياً" الخبر الأسبوعي، ع. (325)، 21 ماي إلى 27 ماي، 2005
- لعوج نصر الدين، "الثورة الجزائرية 1954-1962 تجربة رائدة للتعايش المشترك"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج.10، ع.1، جوان 2019
- نور فاطمة الزهراء، "يهود الجزائر في صحافة جهة التحرير الوطني 1956-1962"، مجلة آفاق للعلوم، مج.7، ع.2، جامعة زيان عاشور، الجلفة، 1 مارس 2022

3- رسائل الدكتوراه:

- بن أزواو فتح الدين، البعد العربي الإسلامي في الحركة الوطنية الجزائرية وثورة أول نوفمبر، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، 2012-2013

ب- باللغة الفرنسية:

Ayoun Richard et Cohen Bernard, les juifs d'Algérie 2000 ans d'histoire, Rahma, Alger, 1994

Fanon Frantz, "la minorité européenne d'Algérie en l'an 5 de la révolution", la temps modernes N

159-160, Mai-juin, paris, 1959,

Lebjaoui Mohamed, vérités sur la révolution Algérienne, Gallimard, paris, 1970

Stora Benjamin, les trois exils juifs d'Algérie, Pluriel France, 2013

إضراب الثمانية أيام 1957م: الأهداف والتداعيات

✍ أ.د. عبد القادر خليفي

جامعة المسيلة

abdelkader.khelifi@univ-msila.dz

مقدمة

تعد الإضرابات الشعبية، أحد الأشكال الجديدة التي عرفها تطور الفعل الثوري، حيث باتت تمثل خيارا مطروحا لدى القيادة، ومن ثمة، فقد شرعت جبهة التحرير الوطني في تبني آليات العمل الجماهيري لتجاوز حالة التوجس والتردد لدى الغالبية من الجزائريين، وفي هذا الصدد، عملت ومنذ العام الثاني للثورة على خרט الجزائريين ولو بكيفية متدرجة، وذلك باعتماد محطات معلمية لها دلالات خاصة في إطار الصراع مع المحتل، حيث عملت على جعل تواريخ بعينها أياما للتحدي، على غرار ذكرى الثامن ماي والخامس جويلية والفتاح نوفمبر، وهي المناسبات التي جعل منها عناوين لتنشيط المواجهة، وإبراز الالتفاف خلف قيادة جبهة التحرير.

ولعل من التساؤلات المثارة هنا، ما تعلق بحقيقة الانتشار الجبهي على الساحة الوطنية بعد مضي بضعة أشهر فقط على انعقاد مؤتمر الصومام، فما هي قدرات جبهة التحرير التجنيدية؟ وكيف هي حال العلاقة مع القاعدة الجماهيرية العريضة؟ وهل كانت الجبهة فعلا صاحبة سطوة ميدانية قبل إقدامها على رفع خطاب التحدي في وضوح النهار؟

1- السياق التاريخي لإضراب الثمانية أيام

بات معروفا أن المؤتمرين في الصومام، قد ناقشوا فكرة تعميم المعركة بمختلف الصيغ بإشراك المدن بعد أن ظلّ الريف يتحمل العبء الكبير للمواجهة مع المستعمر وهكذا جرى الحديث عن ضرورة إقحام المدن في الانتفاضة، وهي الخطوة التي ستجد تطبيقها العملي مع حلول الذكرى الثانية لاندلاع الثورة في الفاتح نوفمبر 1956م¹.

وتفعيلا لمسعى تحريك المدن، ودمج الفئات المختلفة في الثورة، يأتي قرار تنظيم إضراب لمدة 24 ساعة بمناسبة الذكرى الثانية لاندلاع الثورة، والذي يعد أول اختبار للاستراتيجية الثورية المتبناة بعد 20 أوت 1956م، وأول مبادرة تقوم بها لجنة التنسيق والتنفيذ بصفتها سلطة مستحدثة، وتعكس رسالة عبان رمضان المؤرخة في 06 أكتوبر 1956م الموجهة إلى الوفد الخارجي بالقاهرة تلك الإرادة القوية في إعطاء نفس جديد للعمل الثوري، فقد جاء فيها (لقد قررنا تنظيم إضراب عام على المستوى الوطني بمناسبة الفاتح من نوفمبر يوم اندلاع الثورة الجزائرية، سوف نقوم بكل ما في وسعنا لإنجاح هذا الإضراب، ونحن في اتصال مع المنطقة الوهرانية، وسنرسل لهم المنشورات المطلوبة... يجب إصدار نداءات ابتداء من 25 أكتوبر عبر أمواج الإذاعة (القاهرة ودمشق)، ونحن متيقنون هنا بالنجاح 100% بالعاصمة

1 - محمد حربي، جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، ترجمة كميل قيصر داغر، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، دار الكلمة للنشر، بيروت 1983م، ص 166. وبمناسبة الاحتفال بالذكرى الثانية لاندلاع الكفاح المسلح وجهت ج ت ونداء إلى الشعب الجزائري من أجل الوحدة والتضامن ودعته إلى المشاركة القوية في الإضراب العام، حيث ورد: "سيكون فاتح نوفمبر 1956م يوم ذكرى في انتظار اليوم الذي سيصبح فيه عيداً وطنياً، فلن يسمح في هذا اليوم بأي عمل... يجب أن يكون إضراب الفاتح نوفمبر شاملاً... حتى تظهر ملياً وحدتنا الكاملة في الأفكار والعواطف". ينظر: جريدة المقاومة الجزائرية، الطبعة ب، العدد 11، دت، ص 82.

وضواحيها، وكل منطقة القبائل الكبرى والقبائل الصغرى، وفيما يخص ما تبقى من المقاطعة فنتوقع نجاح العملية بنسبة 70 إلى 80%)¹.

لقد أرادت جبهة التحرير الوطني بعد أن أيقنت أو هكذا بدا لها أنها قد تحكمت في تأطير الشعب البرهنة في الميدان بأنها أصبحت فعلا الممثل الشرعي الوحيد لتطلعاته في التحرر والاستقلال، وكان عليها أن تقدم الدليل في سياق محلي ودولي يبدو في غاية التعقيد والخطورة وينذر بالتعقيم على القضية الجزائرية إلى أجل غير مسمى². كانت المسألة الأساسية في كل هذا الحراك، هي معرفة مدى التجاوب الشعبي مع مثل هذه الخطوة الجريئة، فالحبضة الاستعمارية أخذت في التوسع، ودرجة القمع ازدادت، ومع ذلك فإن قيادة الثورة وتحديد ل ت CCE كان لديها من المؤشرات المشجعة ما يجعلها تمضي قدما في هذا الاتجاه، فلقد أبدت الجماهير الشعبية في أوت 1955م تأييدها العلي لجيش التحرير الوطني، وقد سبقها وأعقبها العديد الإضرابات بالجزائر، فهناك إضراب 5 جويلية 1955م ذكرى غزو الجزائر، وهناك إضراب 20 سبتمبر بمناسبة افتتاح الدورة الخامسة لهيئة الأمم المتحدة، وإضراب 1 نوفمبر 1955م إحياء للذكرى الأولى للثورة.

وفي عام 1956م كانت الحركة أكثر متابعة في نفس المحطات السالفة الحديث، ذلك أن اضطرابات عديدة³ قد أثبتت نجاحها في مناسبات

1 - محفوظ قداش، وتحررت الجزائر، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر 2011م، ص 118. ينظر أيضا مبروك بلحسين المراسلات بين الداخل والخارج: الجزائر القاهرة 1954-1956م ترجمة الصادق عماري، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2004م، ص 96.

2- محمد عباس، نصر بلا ثمن الثورة الجزائرية 1954-1962، دار القصبة للنشر، الجزائر 2007م، ص 222.

3- من بين تلك الإضرابات الرمزية، نذكر ما وقع في تلمسان بتاريخ 19 جانفي 1956م بعد اغتيال الدكتور بن زرجب، حيث انتظمت حركة إضرابية متبوعة بمظاهرات في الشارع لاسيما في شارع

مختلفة، كما تفجر في يوم 23 أكتوبر 1956م إضراب ومظاهرات بعد واقعة اختطاف طائرة القادة الأربعة، وهي الاحتجاجات التي انتشرت أكثر خاصة في القطاع الوهراني ودامت أسبوعا كاملا¹، وبرأي أحد المعاصرين، فقد استفتت جبهة التحرير الوطني الشعب بشأنها في مناسبات شتى، وأطلقت شعارات اتبعها الجزائريون قاطبة، ومنها مقاطعة بعض المنتجات مثل التبغ، ولكن بالإضرابات العامة التي كانت تشمل الجزائر بأسرها، عبّرت الجماهير بصورة لا تقبل الجدل عن تأييدها غير المشروط معركة التحرير².

2- الإعداد للإضراب العام

لقد احتاجت خطوة من هذا القبيل إلى الكثير من التفكير والتدبير، واستقراء واقع الثورة وآفاق تطورها، ذلك أن الإقدام على هذه العملية الخطيرة يتطلب بلا جدال جرأة كبيرة وثقة عالية في النفس ورهانا غير عادي يتعلق بمدى النفوذ الذي صارت تتمتع به جبهة التحرير الوطني من جهة،

سيدي بومدين، مما حدا بالسلطة الفرنسية إلى فرض حظر للتجول لمدة 16 ساعة يوميا استمر إلى غاية اليوم 24 من نفس الشهر.

ومثل إضراب 1800 عامل بشركة البناء جاتمان بوهران المكلفة بإنجاز مشروع قاعدة المرسى الكبير، لمدة 24 ساعة تعبيرا عن موقف سياسي يدين حادثة اختطاف الطائرة، المقلة لزعماء الثورة بتاريخ 22 أكتوبر 1956م.

ينظر: سهام بن غليمة، إضراب الثمانية أيام 28 جانفي - 04 فيفري 1957 وانعكاساته على مسار الثورة الجزائرية رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2009-2010م، ص ص 04-05.

1 - Patrick Kessel, Giovanni Pirelli, le Peuple algérien et la guerre: lettres et témoignages 1954-1962, l'harmattan, paris, 2003, p83.

ينظر أيضا: محفوظ قداش، المصدر السابق، ص 114.

2 - محمد بجاوي، الثورة الجزائرية والقانون 1960-1961، ترجمة علي الخش، ط2، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2005، ص 90.

ويقتضي في المقابل تقديرا موضوعيا لردود العدو الفرنسي في مواجهة هذا التحدي غير المسبوق، ومن ثمة فعلى المرء أن يتساءل إلى أي حد وفق القادة في حساباتهم؟ وهل خضع اختياراتهم لمناقشات جادة، واستشارات متعددة؟ تفيد الشهادات أن اللجنة قد عقدت أول اجتماع لها بعد شهر من مؤتمر الصومام لتدارس الوضع على الصعيدين الوطني والدولي وخلصت إلى ضرورة المعالجة بالقيام بعمل ذو طابع وطني لإظهار شمولية الثورة، وفي خضم هذا المسعى، طرأت تطورات سياسية دولية بالغة الأهمية، تتمثل في تحويل الطائفة المقلدة لقادة الثورة والعدوان الثلاثي على مصر، وتبني الكتلة العربية الآسيوية للقضية الجزائرية واعتزامها عرضها على الجمعية العامة للأمم المتحدة¹.

اتخذ القرار في العشر الأوائل من شهر نوفمبر 1956م، لأنه كان مقررا أن تنعقد جمعية الأمم في شهر ديسمبر، وفي تلك الفترة كانت الجماعة المساندة للجزائر في جمعية الأمم تسمى الكتلة العربية-الآسيوية ولم تكن الإفريقية والآسيوية كما عرفت فيما بعد، فعزمت على الدفع بالقضية بعد أن تبنتها ولتأييد ذلك الموقف كان يتعين على قيادة الثورة أن تعمل عملا يزيكي ويدعم مسعى هذه الكتلة، لأن فرنسا كانت تزعم بأن الجزائر فرنسية، ولذلك كان على ج ت و أن تعلن للعالم بأن الجزائر ليست كذلك وهذا بمشاركة الجماهير الشعبية من خلال عمل واحد وموقف موحد².

حملت الأدبيات المؤرخة للحدث ما يفيد بأن ابن مهيدي كان صاحب الفكرة، ومن ذلك شهادة سعد دحلب التي جاء فيها: (العملية الكبرى التي

1 - بن يوسف بن خدة، حوار مع عبد الحميد السقاي والوزير بوشلاغم، بمناسبة الذكرى الثلاثين لإضراب الثمانية أيام مجلة أول نوفمبر، العدد 81، الجزائر، 1986، ص 8.

2 - بن يوسف بن خدة، شهادات ومواقف، المصدر السابق، ص ص 115-116.

قمنا بها سويا والتي كان من الممكن أن تجعلنا نتضاد بعضنا بعضا كانت إضراب الثمانية أيام ... وإذا لم تخن الذاكرة فالفكرة كانت لبن مهيدي¹، وأيضا ما أورده الباحث في تاريخ الثورة أليستر هورن Alistair Horne²، ويشاطر هذا الرأي عبد الكريم حساني وهو صهر ابن مهيدي، الذي ذهب إلى أن فكرة تنظيم انتفاضة شعبية جماهيرية لم تبارح أبدا ذهن الرجل ولعله كان يفكر بها حتى حين كان قائدا للناحية الوهرانية، وهذا الحماس جعله يتوقع النصر القريب وفي هذا المنحى أطنب المؤرخ محمد حربي في معالجة المسألة بالحديث على أن ابن مهيدي يكون قد حدد لابن طوبال بحسب هذا الأخير موعدا في العاصمة للاحتفال بالنصر في بداية عام 1957م³، وإذا كان حلول هذا التاريخ لم يكن مرادفا للاحتفال بالنصر، فقد كان يسمح بتحريض السكان على الانتفاضة لتحقيق ذلك، ومن هنا جلبت فكرة جر الجماهير إلى الإضراب انتباه العديد من المعاصرين، لاسيما وأن سجل الثورة يحوي العديد من المواقف المشابهة ولو جزئيا، فكان أن حظي الطرح بالقبول⁴، غير أن ياسف سعدي، أدلى في الفترة القريبة بشهادة مغايرة يقول فيها أن ابن مهيدي أخبره بعد اتخاذ القرار بأن عبان⁵ هو الذي اقترح الفكرة خلال

1- سعد دحلب، المهمة منجزة من أجل استقلال الجزائر، منشورات دحلب، الجزائر، 2007م، ص 44-45.

2 - Alistair Horne, Histoire de la guerre d'Algérie, traduit par: Yves du Guerny et philippe Bourdel, 4ed, Editions Dahlab, Alger, 2007, p198.

3 - علي كافي، مذكرات الرئيس علي كافي من المناضل السياسي إلى القائد العسكري 1946-1962، ط2، دار القصة للنشر، الجزائر، 2011م، ص 137. ينظر أيضا: محمد حربي، المصدر السابق، ص 167.

4 - خالفة معمري، عبان رمضان، تعريب زينب زخروف، منشورات ثالة، الجزائر 2008م، ص 410.

5 - ومن بين الكتابات أيضا التي نسبت فكرة الإضراب إلى عبان رمضان نذكر: -Sid Ahmed Dendane, Chronique d'un citoyen ordinaire, l'Harmattant, paris 2001, p84.

الاجتماع وكان مؤمنا بها وأنه وافقه الرأي، في حين أبدى كريم تخوفه من المغامرة¹.

إن قرار الإضراب قرار خطير، ولذلك يؤكد كل من بن يوسف بن خدة وسعد دحلب أن الاتفاق عليه كان جماعيا، ولم يتم تسجيل أية معارضة لهذا المقترح، لكن الاتفاق على المدة التي اعتمدت في النهاية احتاج إلى وقت ومناقشات مطولة²، دافع بن مهدي عن فكرة أن يستغرق الإضراب شهرا كاملا، وكان يرى أن الطابع الاستثنائي لظاهرة من هذا القبيل مرتبط أساسا بما تستغرق من مدة زمنية³، فبقدر ما تطول مدتها، بقدر ما تكون رسالتها الثورية أبلغ تأثيرا، وكان عبان من ناحيته يؤيد فكرة طول المدة، غير أنه لا يشاطر زميله في مقترحه بأن تكون لمدة شهر فتلك مبالغة، وهورأي يطابق ما جنح إليه كل من كريم بلقاسم وبن يوسف بن خدة⁴.

وفي تحليله للمدة المقترحة للإضراب، ذهب أحد الباحثين إلى أنه كان يتعين أن تكون أطول من أية فترة مضت لغرض مزدوج، إظهار قدرات

- Hassan Aissat, Aissatldir: sa lute politique et syndicale pour l'indépendance de l'Algérie l'harmattan, paris, 2006, p113.

1 - عبد الله مقلاتي، التاريخ السياسي للثورة الجزائرية، الكتاب الثاني، شمس الزيبان للنشر والتوزيع، 2013، ص 263.

2 - سعد دحلب، المصدر السابق، ص 44. ينظر أيضا: الطاهر أيت حمو، رجال صنعوا التاريخ: لقاء مع الرئيس بن يوسف بن خدة، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 100.

3- يقول سعد دحلب بشأن إصرار بن مهدي على طول المدة: " حيث أن بن مهدي كان يدافع ويكل حدة عن فكرة القيام بالإضراب لمدة شهر، لم أره أبدا ينظر إليّ بمثل ذلك الازدراء وربما الشفقة وهو الذي كان يعاملني بلطف عندما غامرت باقتراح يوم أو يومين على الأكثر زد على ذلك أن أحدا لم يجبني فكتمت أنفاسي دون نقاش ". المصدر نفسه، ص 45.

4 - بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة 1956-1957م، ترجمة مسعود حاج مسعود، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2005، ص 52.

الجماهير على الصمود من جهة، وإبراز التمايز عن الإضراب الذي دعا له المصاليون¹، كما أن توسيع الإضراب إلى خارج الحدود والتركيز على فرنسا، يصب في نفس الهدف خاصة وأن الأخيرة تعرف تمركزا كبيرا للمصاليين². استقر الرأي بعد التداول الحاد على مدة أسبوع، وإن كان أعضاء اللجنة قد اتفقوا على برمجته عشية انعقاد دورة الأمم المتحدة، غير أنهم أبدوا مواقف مختلفة بخصوص نتائج وانعكاسات خطوة جريئة مثل هذه وقد كان الثلاثي عبان وبن مهدي وبن خدة متفقون على قيام الجزائريين وخاصة في العاصمة بإضراب عام يناهز المطالبة بالاستقلال، في الوقت الذي تطرح قضيته للنقاش على منبر الهيئة الأممية لأول مرة، في حين كان الثنائي كريم ودحلب متخوفين من انعكاسات ردة الفعل الفرنسية التي قد تقوض نهائيا نشاط الثورة في منطقة تمركز حيوية أي العاصمة³، التي يكون بها صدى الأعمال الثورية قويا بسبب وجود التمثيل الأجنبي والصحافة بأنواعها، علاوة على كونها مركز الإدارة الاستعمارية نفسها⁴، وعن مكان اتخاذ القرار، يؤكد بن خدة أنه تم في المكان الذي ألفت لجنة ت الت اجتماع فيه وهو في شقة يملكها المناضل الشهيد محمد عمارة المدعور شيد وتقع في 133 شارع كريم بلقاسم بأحد الأحياء الأوروبية الراقية وهذا لإبعاد الشبهات⁵.

1 - لقد وقع الباحث جيلالي صاري في خطأ، حينما ذكر أن الحركة الوطنية الجزائرية دعت إلى إضراب لمدة ثلاثة أيام بينما في الواقع لم تدع هي سوى لإضراب محدود لمدة يوم واحد فقط.

2 - جيلالي صاري، ثمانية أيام من معركة الجزائر (28 جانفي - 04 فيفري 1957)، ترجمة خليل أواينية، موفم للنشر، الجزائر، 2012 ص 37.

3- عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص 264.

4- بن يوسف بن خدة، حوار مع عبد الحميد السقاوي والوزير بوشلاغم، المرجع السابق، ص 6.

5 - الطاهر آيت حمو، المرجع السابق، ص 108.

أطلق الاتحاد العام للعمال الجزائريين نداء للاستجابة والمشاركة القوية في الإضراب العام، وشرحت جريدة "العامل الجزائري" في عددها الـ 13 ليوم 26 جانفي 1957م بأن الأمر يعد تزكية لجهة التحرير قائدة الكفاح، ودعت العمال إلى الانخراط بقوة في هذه المعركة المصيرية، وكسر حاجز الخوف والتردد وإظهار الوحدة والعزيمة¹، وفي سياق متصل دعت جهة التحرير الوطني بمعية المركزية النقابية العمال القادمين من المناطق الداخلية للالتحاق ببلديات إقامتهم تجنباً لإجراءات الاعتقال التي يتوقع أن تستهدفهم²، كما وجه إ.ع.ع ج من ناحية أخرى رسالة مفتوحة إلى العمال الجزائريين من أصل أوروبي حاثاً إياهم على مساندة زملائهم وتعميم الإضراب³. على صعيد الامتدادات الجغرافية لهذا الحراك خارج الوطن، فقد كانت فرنسا مجالا رئيسا، فهناك حيث التمرکز الأقوى للجالية الوطنية يكتسي الإضراب بعدا متميزا، إذ كان على الجهة أن تبرهن بذكاء للرأي العام الفرنسي والأوروبي والعالمي عن صفتها التمثيلية الحصرية للشعب الجزائري، وأن تقوّض الضبابية التي لا تزال إلى تلك الآونة تلقي بظلالها على الكثير من المهاجرين وحتى لدى الأوساط الفرنسية، حول حقيقة الجهة التي تقود حركة الكفاح، لاسيما وسط حالة التجاذب القائمة بين الإخوة في التنظيمين المتنافسين ج ت و والحركة الوطنية المصالية، وهذا ما عبّر عنه محمد لبجاوي الذي كان مشرفا على قيادة الفدرالية لحظة الإضراب، حيث ذكر أن الصحافة والمراقبين الفرنسيين الأكثر اطلاعا، كانوا ما يزالون يتساءلون حينه

1 - محمد تقيّة، الثورة الجزائرية المصدر الرمز والمآل، ترجمة عبد السلام عزيزي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2010م، ص 218.

2 - محفوظ قداش، المصدر السابق، ص 115.

3 - خلوفي بغداد، المرجع السابق، ص 232.

هل جبهة التحرير أم حركة مهية من تمثل فعلا الثورة الجزائرية؟¹
وفي ذات السياق، جاء في شهادة محند أكلي بن يونس² أن إضراب الثمانية أيام بفرنسا مثل التجربة الأولى في تجنيد الجزائريين سياسيا والتفافهم حول ج ت و، وتحدث عن عمليات التوعية بالحدث والتي تمت على مستوى المقاهي والفنادق، من خلال الاحتكاك المباشر مع مرتاديها، وأيضا عبر آلية توزيع المنشورات والكتابات الحائطية الممجة، ولم يخف ذات المصدر بأن المسألة لم تكن باليسيرة، على اعتبار أن المكلفين بها كانوا مضطرين إلى الظهور العلني، مع ما يصاحب ذلك من مخاطر³ قد تلحق بأمنهم علاوة على صعوبات إقناع الكثير من الرعيل الأول من المهاجرين الذين

1 - محمد لبجاوي، المصدر السابق، ص 94.

2- محند أكلي بن يونس، أصيل بلدية عين الحمام بولاية تيزي وزو، ولد سنة 1936، هاجر إلى فرنسا بغرض مساعدة والده في تسيير أعماله التجارية بعي سان دوني بضواحي باريس، مع اندلاع الثورة انضم إلى صفوف جبهة التحرير الوطني حيث دخل النشاط السري في الدائرة 18 بالعاصمة الفرنسية وبدأ بمعية مجموعة من المناضلين في هيكلة الأفواج الأولى للجبهة وتحسيس الجالية بأهمية دعم الثورة انتحل هويتين مزورتين هما مازين دانيال ومنور موسى وقد ساعده في ذلك أحد أعضاء شبكات الدعم المشهورين في هذا المجال أدولفو كامينسكي كان ينشط تحت اسم مستعار هو دانيال، بعد مظاهرات 17 أكتوبر 1961م عينته اللجنة الفدرالية المقيمة بألمانيا منسقا عاما على مستوى التراب الفرنسي، غداة الاستقلال يسلك طريق المعارضة ويتم توقيفه وسجنه بضعة أشهر ثم ينضم إلى جبهة القوى الاشتراكية المؤسسة عام 1963م، ليغادرها سنة 1965م ويتفرغ لاهتماماته العائلية، يرأس جمعية مجاهدي فدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا منذ سنة 2004م.

3- في هذا الإطار وتناغما مع هذه الشهادة، حملت إفادة أحد كوادر الفدرالية الناشطين بباريس بأن أول ضحية سقط برصاص المصاليين بمنطقة كليشي أثناء مباشرة مهام توعية المهاجرين في المقاهي تحضيرا للإضراب هو المناضل ربيع الربيع، الذي تحولت جنازته يوم 4 فيفري 1957م إلى مناسبة التفّ خلالها المهاجرون أكثر حول الجبهة. محمد غفير، مقابلة شخصية، حسين داي، الجزائر، 03 أكتوبر 2015م.

بقوا تابعين لتيار مصالي، ورغم كل هذه التحديات فقد لقي الإضراب استجابة واسعة في صفوف الجالية¹.

لقد بدأ الإعلان عن الإضراب شهرا قبل التاريخ المحدد، حيث تحدثت التقارير الاستخباراتية الفرنسية على أن الإشعار بالتهيو للإضراب قد وصل إلى مختلف مناطق الجزائر، وفي هذا الصدد، ذكر تقرير سري بأن أول نشر لهذا الأمر قد تم بتاريخ 22 ديسمبر 1956م على الساعة العاشرة ليلا، بواسطة جهاز إرسال سري، وقد أذيع نص النداء باللغة الفرنسية، وأعيد بثه مع إضافة تعليق يوم 24 من نفس الشهر وفي ذات التوقيت².

كانت أهداف ج ت وهذه المرة أكثر أهمية، لذلك حضرّت للإضراب بكل عناية، فقد شكلت لجانا من 03 إلى 04 مسؤولين على مستوى الولاية، وهناك لجان فرعية على مستوى المناطق والنواحي في المدن والأحياء، وأولت اهتماما خاصا بالمدن المعنية وحددتها في 26 مدينة، وخلقت أيضا لجانا عمالية للإضراب على مستوى الهيئات الهامة، أما السكان، فقد تمت دعوتهم إلى أخذ الاحتياطات المتعلقة بالتموين لمدة ثمانية أيام، ومن ناحية أخرى جرى الترخيص لمسؤولي لجان الإضراب بتوظيف صندوق التبرعات التابع لج ت و لمساعدة العائلات المحتاجة، التي ليست قادرة على دفع مستحقات اقتناء الحاجيات لهذه المدة³.

1 - محند أكلي بن يونس، سبع سنوات في قلب المعركة حرب الجزائر في فرنسا 1954-1962، ترجمة عبد السلام عزيزي، دار القصة للنشر الجزائر، 2013، ص ص 24-26.

2 - ANOM, 12 CAB, Boite N° 222, Menace de Grève Générale, rapport du 28 Décembre 1956/ Secret.

3- Patrick Kessel, Giovanni Pirelli, Op. Cit, p83.

ينظر أيضا: خالفة معمري، المرجع السابق، ص ص 413-414.

ومهما يقال حول هذه الجزئية، فالمؤكد أن لجنة ت ت حرصت على تحضير وإنجاح مواجهة تكون في مستوى شعب بأكمله ضد الاحتلال، وبما أنه لم يكن من الممكن إخفاء التحضير لمثل هذه المواجهة قامت ج ت و بعمليات تحسيس وتجنيد لم يسبق لها نظير في اتجاه سكان المدن،¹ وقد حملت شهادة زهرة ظريف الكثير من التفاصيل والجزئيات المتعلقة بالتحضيرات على مستوى العاصمة عموما والقصبة على وجه الخصوص خلال أوائل شهر جانفي 1957م، فتحدثت عن مبادرة ياسف سعدي² التي وصفها بالفكرة الرائعة، والقاضية بالاستعانة بالنساء الفنانات، لما يتمتعن به من شعبية كبيرة للقيام بعملية التحسيس والتوعية وإحصاء العائلات المعوزة، وبالفعل، فقد أشرف بمعيتها رفقة علي لابوانت، وجميلة بوحيرد على اجتماع حضرته زهاء 15 فنانة من بينهن فضيلة الدزيرية، حيث جرى تقسيمهن إلى فرق تكفلت بالولوج إلى كل البيوت ومحاورة ربائهن، كما تم التشديد في ذات اللقاء على عدم الضغط أو التلويح بالتهديد ضد العائلات المترددة أو المشككة³.

1- خالفة معمري، المرجع السابق، ص 415.

2- ذكر ياسف سعدي في أحدث شهادة له أن بن مهدي قد اتصل به طالبا منه الشروع في تحسيس كل سكان العاصمة بغرض تجنيدهم لحركة الإضراب المرتقبة، الأمر الذي فاجأه، وبعد تفكيره في الكيفيات التي تسمح بالولوج إلى العائلات وسط الطبيعة المحافظة للأسر الجزائرية، حيث يكون من العسير أن يقوم الرجال بهذا الدور، خطرت بباليه فكرة توظيف العنصر النسوي وخاصة فئة الفنانات وبالفعل قام بجمع ما يناهز 40 امرأة في لقاء قصير بالقصبة، حيث شرح لهن المهمة، فكان أن لقيت العملية نجاحا كبيرا. للمزيد ينظر شهادة المعني في الجزء الثاني من حصة خاصة بعنوان "la Bataille d'Alger"، بثتها قناة النهار الجزائرية ومتاحة للمشاهدة على الرابط:-

www.youtube.com/watch?v=PVHFmCb0Tf0.

3- زهرة ظريف، مذكرات مجاهدة من جيش التحرير الوطني، ترجمة محمد ساري منشورات الشهاب، الجزائر، 2014م، ص ص 356-357.

كتبت جريدة المقاومة الجزائرية في افتتاحية العدد 05 الصادر في 12 جانفي 1957م، أي قبل موعد انطلاق الحدث بأسبوعين بعنوان: الإضراب العظيم جاء فيها: (يستعد الشعب الجزائري هذه الأيام لشن إضرابه العظيم المعين لموعد عرض القضية الجزائرية على الأمم المتحدة، والذي سيستغرق ثمانية أيام كاملة وسيشمل هذا الإضراب كل ميادين الحياة، وكل طبقات الأمة الجزائرية، وستتوقف فيه حركة التجارة والنقل والفلاحة والتعليم والإدارات التي فيها أغلبية من الجزائريين، وتتوقف المواصلات في داخل المدن وفيما بينها ستتوقف كل حركة في هذا الإضراب إلا حركة الكفاح، وحركة الكفاح هي التي ستندشط وتشتد وتتعرز وأن لهذا الإضراب العظيم أهدافا عظيمة)¹.

بعد طول ترقب، حدد أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ تاريخ انطلاق الإضراب في اجتماعهم ليوم 22 جانفي 1957م بعد أن ضببت الهيئة الدولية رزنامة دورتها، وبعد أن تأكدت الخماسية بأن الدورة ستفتتح يوم 28 جانفي قررت اعتماد هذا التاريخ، غير أن القيادة الثورية فوجئت بتأخير جديد إلى منتصف شهر فيفري، مما جعلها في وضعية لا يمكن معها التدارك، فالتريبات أخذت، والتعليمات أرسلت والمناشير وزعت فكان من المستحيل التراجع عنها دون حصول خلخلة كبيرة في الإعداد والتنفيذ²، مع أن أعضاء اللجنة كانوا يفضلون على ما ذهب إليه دحلب أن يتركوا آخر الشهر يمر، حتى يتيحوا للموظفين والمستأجرين أن يتقاضوا رواتبهم، وهي المسألة التي

1 - المقاومة الجزائرية، العدد 05، 12 جانفي 1957م، ص 1.

2 - سهام بن غليمة، إضراب الثمانية أيام 28 جانفي - 04 فيفري 1957 وانعكاساته على مسار الثورة الجزائرية رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2009-2010م ص 52.

حاولت القيادة تداركها لاحقا، بالتركيز على روح التضحية الإرادية، وهو الموقف الذي رآه ذات الشاهد بأنه وبكل بساطة غير معقول¹. في مقابل استعدادات جبهة التحرير الوطني، قام العدو الفرنسي بالاستعلام حول ضخامة الوسائل المعبأة والإمكانات البشرية التي تم تجهيزها تحضيراً لهذا الرهان الكبير، وقادت المعطيات التي جمعتها الأجهزة الفرنسية المختلفة إلى إعداد قوات كبيرة للتصدي للأمر²، وجرى تكليف الجنرال ماسي بمهمة رئيسة تتمثل في تحطيم ج ت و، وإفشال خططها المبرمجة، ويا له من اختيار.

وفي الإفادات التي زودنا بها ياسف سعدي، فإن الاستعدادات الفرنسية لمحاصرة الجزائر الكبرى قد بدأت منذ 20 جانفي 1957م، عبر توزيع مفرزات من الصاعقة التي تلقت أوامر بتغطية كل زاوية وركن في العاصمة، كما سخرت آليات ومصفحات الفرقة الخامسة للمحاربين لمراقبة كل المفترقات، وتم نصب المدافع باتجاه الأحياء العربية، وهكذا صارت المدينة تحت حصار حقيقي³، كما وضعت القوات المتواجدة بسهولة متيجة والساحل والتي يناهز عددها 100 ألف عسكري بمعدات ثقيلة في حالة تأهب، تنتظر فقط الأوامر بالزحف عليها⁴.

لم تكتف السلطات الاستعمارية بالوسائل العسكرية للتصدي للإضراب المرتقب، بل لجأت إلى توظيف سلاح الدعاية والحرب النفسية، وفي

1 - سعد دحلب، المصدر السابق، ص 46.

2 - Boualem Bourouiba, les syndicalistes algériens leur combat de l'éveil à la liberation, l'Harmattan, paris, 1998 , p 280.

3 - Yacef Saadi,, pp 10 la Bataille d'Alger: l'Affrontement, tome 2, Casbah Editions, Alger, 1997-110.

4 - Ibid, pp 120-121.

هذا الباب ويهدف تغليب المواطنين أصدر لأكوست منشورا نسبه إلى جيش وجهة التحرير الوطني جاء بلغة دارجة، حذر فيه من الاستجابة لدعوات الإضراب، ومما ورد فيه: (يا إخواننا المسلمين ردوا بالكم، حاذروا نفوسكم المستعمرين يحبوا يغلطوكم، ردوا بالكم الحكومة تحاول باش تبطلوا الخدمة وتعملوا لقريف، هذا شيء غير باش يكتشفونا ويقبضونا ويضربونا بضربة قاسية فضيعة اليوم نهار 27 جانفي، لاتتبعوا هذا الأمر المكذوب، إن يومنا لازال لم يحل وقته حاذروا نفوسكم من الناس اللي يدزوكم إلى الغلط، ثقوا بنا نعلموكم في الوقت اللازم، تحيا الجزائر حرة مستقلة)¹.

3- تنفيذ الإضراب

لقد استفاقت الجزائر عموما والعاصمة خصوصا صبيحة 28 جانفي 1957م على واقع جديد بعد أن أمضت أطول ليلة حيث بات الجميع يتقرب، فعلى مستوى المدينة العتيقة أي القصبة فإن غالبية السكان لم تغمض لهم جفون، فالحدث الكبير قد أعلن عنه إنه الإضراب²، لقد تم تجميع السكان وخصوصا الرجال منهم مقابل الواجهات الخارجية للمنازل، وأمروا بالوقوف متجهين صوب الجدران رافعين أيديهم فوق رؤوسهم، وأطلقت الكلاب فوق الأسطح لتتبع الأشخاص ونهشهم، وصاحب ذلك إحداث الضجيج الصاخب باستخدام مكبرات الصوت، لتضخيم الأصوات المنبعثة من المروحيات القتالية التي كانت تجوب سماء العاصمة على ارتفاع منخفض لمضاعفة حالة الهلع والخوف، وهي تجربة قد سبق استخدامها في الفيتنام بمثابة سلاح بيسيكولوجي³.

1 - المقاومة الجزائرية، العدد 07، 16 فيفري 1957م، ص 3.

2 - YacefSaadi, Op.Cit, pp 120-121.

3- Yacef Saadi, Op.Cit, pp 122-123.

يعرض سعد دحلب صورة مدينة الجزائر في أول أيام الإضراب فيكتب عن الهيجان الذي أصاب المظليين الذين تحولوا إلى وحوش مسعورة، بحيث كانوا يقتحمون بيوت المسلمين بيتا بيتا، ثم يقومون بسحب المتواجدين بها وتكديسهم في الشاحنات فوق بعضهم البعض، تحت وابل من الضربات بأعقاب البنادق والعصي والأرجل، ثم يجري تحويلهم باتجاهات مختلفة نحو أي مصلحة أو مكان عمل ووسط ذلك الصمت الرهيب الذي سيطر على المدينة أصبحت حى المظليين جحيما لا يطاق¹.

لقد امتدت حى الإضراب إلى داخل القلاع التي اعتقدت فرنسا أنها نجحت في فصلها عن حاضنتها الشعبية والثورية، فقد عاشت الكثير من المعتقلات وتفاعلت مع حدث الإضراب بالرغم من ظروف الاعتقال وفي هذا الإطار نلقي نظرة على الحركة الاضرابية بمعتقل الجرف بإقليم أولاد دراج بالمسيلة، حيث أن هذا الأخير قد عرف وافدين جدد، كانوا ضحايا حملة التوقيفات والاعتقالات التي دشنتها السلطات الفرنسية في سياق مخططها لإفشال الإضراب، وبوصول هؤلاء انتقلت أخبار الحدث والتي تدعمت بالأخبار المنشورة على صدر الجرائد التي تسربت واحدة منها إلى المعتقلين، حيث دخلت كلفة لبعض المواد، وبدخول المعتقلين في اتصالات مع قيادة الثورة في المنطقة والتأكد من حقيقة الأمر، قامت مندوبية ج ت و داخل المعتقل بتوجيه أمر المشاركة للنزلاء، حيث التزم هؤلاء بعد خضوعهم لإجراء المناداة اليومي بعدم القيام بأي نشاط اعتادوا عليه سابقا، وهي السلوكات التي استرعت انتباه الإدارة التي كتبت تقارير عديدة أرسلت إلى السلطات العليا

- ينظر أيضا: زهرة ظريف، المصدر السابق، ص 361. و Alistair Horne, Op.Cit, p198.

1 - سعد دحلب، المصدر السابق، ص ص 50-51.

تحدث عن التزام المعتقلين الكامل بالإضراب¹.

4- الاضراب في التناول الإعلامي

حظي إضراب الثمانية أيام بتغطية إعلامية هامة من قبل مراسلي الصحف ووكالات الأنباء الأجنبية والفرنسية، وفي هذا الصدد نشرت برقية لوكالة "أسوشيتد بريس" الأمريكية بقلم مراسلها في الجزائر يصف مشاهداته خلال جولة قاداته لأحياء العاصمة في اليوم الأول: (إنني لم أشاهد كامل نهار أمس أثناء تجولاتي صحبة الدوريات العسكرية بمختلف أنهب القصبة سوى جماعات القطط الجائعة التي تتسابق لاستقبال الجنود وهي تموء، إنني لم أر في حياتي مدينة يخيم عليها شبح الموت في وضف النهار كمثل القصبة في إقفار شوارعها ورهبة السكون العميق النازل على دورها، حتى لكأن سكانها في نومة كهفية)².

وغطت الصحافة الفرنسية الحدث، فصحيفة لوموند le Monde وتحت عنوان "المدينة الصامتة في اليوم الأول من الإضراب العظيم"، تحدث مراسلها بالجزائر عن الانخراط القوي في الحركة، وعلق على الممارسات التي قام بها الأوروبيون المتمثلة في عمليات النهب، فرأى بذلك أن هؤلاء كانوا بفعلتهم تلك يطبقون دروس الأخلاق الاستعمارية التي تعلموها أكثر من قرن³. ونقلت من جهتها وكالة رويتر البريطانية صورة الحدث حيث ذكرت أن 90% من الحوانيت في المدن الرئيسية في الجزائر كانت مغلقة، وأن حوالي 70% من الموظفين الذين ليسوا من الفرنسيين لم يذهبوا إلى أعمالهم،

1 - خميسي سعدي، معتقل الجرف بالمسيلة أثناء الثورة التحريرية 1954-1962، ط1، دار الأكاديمية، الجزائر، 2013، ص ص 194-195.

2 - المقاومة الجزائرية، العدد 07، 16 فيفري 1957م، ص 3.

3 - المصدر نفسه، ص 5.

وتشهد العاصمة والأحياء العربية على غرار القصبة انتشارا أمنيا وعسكريا كبيرا، فيما غطت سماء المدينة عشرات الطائرات العمودية التي قامت بإلقاء المناشير تدعوا من خلالها السكان إلى عدم الاستجابة لنداء الإضراب، وتحذرت الوكالة على أن الإضراب كان وطنيا امتد من مغنية بالحدود الغربية إلى تبسة على الحدود الشرقية، وأن الالتزام به كان شاملا على مستوى المدن كما في الأرياف¹.

ومن المناظر التي استوقفت أحد صحفيي جريدة "التايم" Time الذي كان يرافق الجنود الفرنسيين بحي القصبة، وأثارت فيه حالة من الضحك لافتة ألصقها أحد التجار على باب متجره المغلق وقد كتب عليها "مصطفى بن عبد القادر توفي، ولن يفتح دكانه حتى إشعار جديد"، وهي عبارة تهكمية اعتبرها مراسل الصحيفة مزاحا رائعا يسود سكان يسيطر عليهم القلق والاضطراب².

ومن الصور التي تبرز السلوكيات اللصوصية للكلولون وجنود الجيش الفرنسي ما وقع مثلا في مدينة قسنطينة، حيث اضطّر المبشرون المسيحيون (الآباء البيض) إلى المبادرة بحراسة بعض محلات الجزائريين التي فتحها السلطات الفرنسية بالقوة، بغرض حمايتها من أعمال السلب والنهب، وقد أثارت هذه الوضعية استياء رئيس أساقفة الجزائر "دوفال"، الذي أصدر نداء يجرم فيه استعمال العنف ويندد بكل السلوكيات والأعمال التي لا تليق بالضمير والحضارة المسيحية³.

1 - المقاومة الجزائرية، العدد 07، 16 فيفري 1957م، ص 11.

2 - Jacques Le Prevost, La Bataille d'Alger (Janvier – Février 1957), Editions Baconnier Alger, 1957, p 54.

3 - المقاومة الجزائرية، العدد 07، 16 فيفري 1957م، ص 6.

وتناولت التغطية الصحف العربية، ومن ذلك جريدة "الأهرام" المصرية، التي رأت بأن الإضراب يعتبر دعوة صارخة إلى الأمم المتحدة لوضع حد للحرب المدمرة، ونداء للوقوف أمام الأساليب الاستعمارية القائمة في الجزائر¹، وتعليقا على فشل السلطات الفرنسية في إحباط الإضراب، كتبت "جريدة الصباح" التونسية في افتتاحيتها تقول: "فقدت السلطات الفرنسية الأمل في تحطيم الإضراب بعدما استعملت جميع الوسائل لمنع حصوله... إن الشعب الذي تجلت فيه صفات الصمود والاستبسال في أروع مظاهرها لن يجد صعوبة في الوقوف ثمانية أيام ساخرا ينظر إلى المستعمرين وهم يضغطون على زناد السلاح تارة ويعرضون الحلوى تارة أخرى، ويعزفون الألحان العسكرية طورا ويرقصون غضبا وحنقا طورا آخر².

وخارج الوطن وعلى مستوى فرنسا حيث تتواجد الجالية الجزائرية، فقد رافق حملة التحضيرات والاستعدادات الكثير من اللغط والتوتر وسط حالة الصراع بين الإخوة الأعداء، ومع ذلك، فإن تحركات الجبهويين لضمان النشر الواسع للمعلومة وتطوير الدعاية، بتوزيع المناشير والبيانات، وتوجيه طلبات إلى الديمقراطيين الفرنسيين للقيام بفضح سياسة الحكومة الفرنسية تجاه الجزائر، ظهرت ثمارها جلية، حيث قدرت نسبة الاستجابة للإضراب من طرف السلطات الفرنسية بـ 40% بمقاطعة باريس وضواحيها خلال اليوم الأول، بينما وصلت في اليوم الثاني إلى 70%، وهي دليل قاطع على قوة الاستجابة، وعلى مدى تأثير ج ت و ومن خلفها إ ع ع ج في أوساط العمال والتجار بفرنسا، رغم عدم وجود خلايا تنظيمية لهذا التنظيم النقابي

1 - صالح لميش، "الثورة الجزائرية في الإعلام العربي: مصر أنموذجا"، مجلة المصادر، العدد 10، السداسي الثاني، 2004، ص 93.

2 - المقاومة الجزائرية، العدد 07، 16 فيفري 1957م، ص 8.

هناك¹.

5- صدى الاضراب عربيا ودوليا.

لعل من المحطات المفصلية التي تركت بصماتها ملموسة في تاريخ الثورة التحريرية حدث الإضراب الشامل، ليس فقط من حيث الخصوصيات التي تميز بها، ولا من حيث الأصداء المباشرة والنتائج الظرفية التي خلفها، ولكن أيضا على مستوى ارتداداته البعيدة المدى والتقييمات المتباينة التي أعطيت له، علاوة على الروح النقدية والشجاعة التي وسمت المواقف البعيدة لمهندسيه.

كانت أصداء الإضراب حاضرة على المستوى العربي والدولي وداخل منظومة الاحتلال أيضا، فمن مظاهر التضامن الشعبية والرسمية التي شهدتها الساحة العربية، نسجل تلك الوقفة التضامنية للشعب المصري حيث تم توقيف الدوام في المصالح الحكومية والشركات والمؤسسات والمحلات التجارية، وتوقفت حركة القطارات والسيارات في كل المحافظات والأقاليم المصرية لمدة يوم واحد²، كما أذاعت محطة صوت العرب بلاغا موجها من ج ت وبالقاهرة إلى الشعب الجزائري يمجده فيه موقفه الرائع في تنفيذ نداء الإضراب، وقام شيخ الأزهر بإرسال برقية تأييد إلى وفد الجبهة بالقاهرة باسمه وباسم علماء الأزهر وطلبته، كما طلب في نداء وجهه لجميع الشعوب المحبة للسلام أن تناصر قضية الجزائر، وأعلن عن إضراب الأزهر يوم الخميس 31

1- خلوفي بغداد، الحركة العمالية الجزائرية ونشاطها أثناء الثورة التحريرية 1954-1962م، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران 1، 2014-2015م، ص ص 253-254.

2- عمار بن سلطان وآخرون، الدعم العربي للثورة الجزائرية، منشورات المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 2007، ص 188.

جانفي 1957م تضامنا مع الشعب الجزائري المجاهد، والملاحظ أن المدرسين قد خصصوا الدرس الأول من يوم الخميس لشرح القضية الجزائرية للطلبة.¹ وفي تونس، عاشت البلاد يوم الأربعاء 30 جانفي 1957م إضرابا عاما إلى منتصف النهار تضامنا مع الشعب الجزائري واستجابة لنداء المنظمات القومية ممثلة في الحزب الحر الدستوري التونسي والاتحاد العام التونسي للشغل، والاتحاد العام التونسي للصناعة والتجارة والاتحاد القومي للمزارعين.

وفي دمشق، عقدت لجنة الاتصال للشعب العربي يوم الثلاثاء 29 جانفي 1957م اجتماعا بالعاصمة السورية، بحثت فيه تطورات الموقف الدولي والأحداث الجارية في الجزائر، وقررت الإضراب العام في جميع أجزاء الوطن السوري بداية من الساعة الواحدة إلى الثانية بعد ظهر الخميس 31 جانفي تضامنا مع الجزائر، وقد بعث رئيس اللجنة السيد معروف الدوالي برقية إلى سكرتير الأمم المتحدة، يطلب منه التدخل لفائدة القضية الجزائرية، كما وجه نداءات إلى جميع الشعوب العربية يحثها على بذل مزيد من الإعانة للجزائريين.

وفي الرباط، أعلنت المنظمات القومية بالمغرب الأقصى إضرابا عاما رمزيا لمدة ساعة من الخامسة إلى السادسة يوم الخميس 31 جانفي تأييدا لكفاح الجزائر في سبيل تحريرها وتقرير مصيرها بنفسها، وقد استجابت أغلب شرائح الشعب المغربي لهذا النداء بشكل كامل، حيث أغلقت جميع المتاجر، وتعطلت حركة السيارات ووسائل النقل الجماعي والمقاهي، وفي مدينة تطوان، نظمت جمعية نساء المدينة مهرجانا كبيرا حضره جمع كبير من النساء المغربيات بمشاركة فرع النساء الجزائريات التابع لجيش التحرير

الوطني بطنجة، وألقيت في الحفل خطاب حماسية تأييدا للثورة، كما أرسلت الجمعية المذكورة برقية مساندة للقضية الجزائرية، وجهت إلى الأمين العام للهيئة الأممية، وشكلت لجانا لجمع التبرعات لفائدة الجزائر¹.

ومن القضايا المهمة أن حضور الإعلام الأجنبي من خلال مراسلي الصحف المختلفة ومبعوثي وكالات الأنباء بالجزائر، قد ساهم في نقل صورة حقيقية عن مجريات الإضراب للرأي العام العالمي، وعن الأساليب القمعية التي تستخدمها السلطات الفرنسية لإفشال هذه العملية، وفي هذا الصدد يمكننا أخذ عينات من مواقف الصحف الأجنبية والفرنسية التي شغلها الحدث وسلطت أضواءها على مناقشة القضية الجزائرية بالمحفل الأممي، فهذه مجلة "ذي سكوتشن" البريطانية كتبت (لكي يتحقق السلم في الجزائر يجب إرضاء المطامح الوطنية فيها، وذلك سواء برضا فرنسا، أو بالرغم عنها وهي كارهة، أما توقيف الحرب وإجراء انتخابات والبحث عن دستور مقبل للجزائر يمكن أن يرضي المسلمين الجزائريين، فإنها لا يمكن أن تتحقق إلا بواسطة مفاوضات تجري مع الثوار، وبالاعتراف بالقومية الجزائرية)².

كان من النتائج اللافتة والتي مثلت رهان جبهة التحرير، قيام هيئة الأمم المتحدة بمناقشة القضية الجزائرية في جمعيتها العامة في 15 فيفري 1957م أي بعد 11 يوما من توقف الإضراب، ولكنها كانت تحت تأثير التغطية الإعلامية له وبنجاحه رغم موقف فرنسا السلبي، ووافقت الجمعية العامة على لائحة تعبر فيها عن أملها في إيجاد حل سلمي وديمقراطي وعادل للقضية الجزائرية طبقا لميثاق الأمم المتحدة والتعاون بين الأطراف وبوسائل مناسبة،

1 - المقاومة الجزائرية، العدد 07، 16 فيفري 1957م، ص 8.

2 - عبد الله شريط، الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية 1957، ج1، ط1، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، دت، ص 59.

وهذا معناه تدويل القضية الجزائرية وهذا ما كان يرمي إليه الإضراب¹ فلقد أعد خصيصا من أجل هذه المداولة، ويقول سعد دحلب عن هذا المكسب المحقق بالهيئة الدولية بأن قيادة الثورة ومن ورائها الشعب الجزائري لم تكن ننتظر أن يأتي التحرير من قاعات الاجتماع في نيويورك، ولكن باعتراف العالم كله ضمنيا بأن الجزائر لم تكن مقاطعة فرنسية كما كانت تدافع عنه الدولة المحتلة وحلفاؤها وبأنها كانت بلدا متميزا يجب العثور له على حل مطابق لميثاق الأمم المتحدة، الشيء الذي يعني الحق في تقرير المصير، فهذا المكسب جاء نتيجة لإضراب الثمانية أيام الذي أجاد ممثلو ج ت و بنيويورك استغلاله والاستفادة منه².

6- الاضراب بين رؤيتين

كانت الثقة بالنصر والمعينة اليومية لتأصل ج ت والسياسي والإداري، ونجاح المنظمات النقابية والاقتصادية عوامل دفعت بالشعب إلى أن يثبت للملأ فيما هو يدلل على تعلقه بأهداف الثورة، أنه شعب متجانس منظم، لقد أكد نجاح الإضراب ما لجهة التحرير من مكانة بالجزائر، وما لكلماتها من وقع في نفوس الجماهير، وكرسها بذلك ممثلة عنه على ملأ من الرأي العام الدولي³، وبالنسبة لجريدة المجاهد فإن الإضراب كان بمثابة منعطف حاسم للثورة وبالرغم من كل الوسائل القمعية فقد شكّل فوزا سياسيا⁴.

1 - زهير إحدادن، المختصر في تاريخ الثورة الجزائرية 1954-1962م، ط1، مؤسسة إحدادن للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص 40.

2- سعد دحلب، المصدر السابق، ص 65. ينظر أيضا: محفوظ قداش، المصدر السابق، ص 117.

3- محمد بجاوي، المصدر السابق، ص 90.

4 - محفوظ قداش، المصدر السابق، ص 117.

من المواقف التي جنحت إلى الإشادة بالعملية ما صدر عن بعض قيادات الثورة ولاسيما أعضاء الخماسية أنفسهم الذين بادروا بإعلان هذا التحدي، فابن خدة يرى أن هذا الإضراب جدير لوحده بأن يؤلف بشأنه كتاب، معتبرا ما حدث بأنه يدخل ضمن العمليات النادرة ذات البعد الوطني التي شهدها الشعب الجزائري¹.

وبالنسبة لسعد دحلب، فإن محطة 28 جانفي- 4 فيفري 1957م قد أظهرت أن الشعب الجزائري مجتد بالإجماع خلف الجبهة، فكل طبقات السكان من موظفين وتلامذة المدارس وتجار وعمال بسطاء ومستخدمين تظاهروا تعلقا بفكرة الاستقلال، وهم محاطين بأعظم جهاز بوليسي وعسكري يمكن تصوره².

أما عبان رمضان، فقد رأى من جهته من خلال وثيقة مؤرخة في 24 أفريل 1957م، بأن الإضراب قد ساهم في تعزيز الوحدة الوطنية والقومية والثورية ضد الاحتلال، وكشف همجية جنود ماسي التي ستظل وصمة عار في جبين فرنسا³، وفي تقديره، فإن الثورة الجزائرية قد واصلت تقدمها بدون أي ضعف نحو النصر الأكيد، مع تشديده على أن الشعب الجزائري لم يسبق له وأن عبر بهذا الوضوح عن تأييده وتزكيته لجبهة التحرير الوطني منذ اندلاع الثورة⁴، وتظهر الروح المتفائلة التي طبعت سلوك عبان في ذات الوثيقة بحديثه على أن الشعب الجزائري لن يستسلم للخوف والممل، وسيظل وراء ج ت ولمواصلة نضاله الحازم من أجل استقلال هذا البلد الشهيد، وإذا كان

1 - خالفة معمري، المرجع السابق، ص 424.

2- شارل أنري فافرود، الثورة الجزائرية، ترجمة كابوية عبد الرحمن وسالم محمد، منشورات دحلب، الجزائر، 2010م، ص 426.

3- عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص 268.

4- خالفة معمري، المرجع السابق، ص 425.

ما حصل يبدو محبطا، فإن الحكمة تقول: "إن الضربة تكسر الزجاج، ولكنها تصقل الفولاذ"¹.

ومن جهته، يعتبر محمد لبجاوي وقد كان على رأس فدرالية ج ت وبفرنسا أثناء الأحداث أن الإضراب يمثل مرحلة هامة في الكفاح الوطني، فهو لوحده يستحق العديد من الإصدارات، وهو يشكل عقدا وطنيا غير مسبوق خلال كامل تاريخ الجزائر².

أما بالنسبة لقيادة ج ت و، فإن تقييم الإضراب يجب أن ينظر إليه من زاويتين، زاوية الانعكاسات السلبية المباشرة، وزاوية المكاسب المحققة على المدى الطويل، وهنا مربط الفرس، حيث يتعين إدراج النتائج على صعيد أوسع وغير فوري، ذلك أن مقتضيات الثورة ليست هي نفسها مقتضيات الاحتلال، فالذي كان يهم الجبهة هو تجنيد الشعب بأسره وراءها، ولفت أنظار الرأي العام العالمي حول عدالة وعمق نضالها وأخيرا انتزاعها استقلال الجزائر مهما طال الزمن، ومهما كانت جسامه التضحيات.

وتبعاً لهذا التصور، فإن العديد من الفاعلين والدارسين قد أجمعوا على أن الإضراب قد حقق الكثير من النقاط الايجابية حتى ولو كان ثمنه غاليا، ويمكننا رصد تلك الجوانب في العناصر الآتية:

- تأكيد التمثيلية الحصرية لجبهة التحرير الوطني.
- فشل كل محاولات خلق القوة الثالثة.
- تزكية الشعب وجماهير المدن بصفة خاصة لمطالب الاستقلال.
- تخريب أسس الثقة والتعاون بين المناضلين وغلاة الاستعمار.

1 - خالفة معمري، المرجع السابق، ص 426.

- تجميد قوة عسكرية هائلة مكونة من 10.000 مظلي يمثلون القوة الضاربة في الجيش الفرنسي لمدة تسعة أشهر بالعاصمة، مما خفف الضغط إلى حد ما على الولايات وعلى الحدود¹.

- تعزيز وحدة الشعب الجزائري في محنته وصموده للقمع الذي كان يرتكب بدون أي تمييز ضد المثقف والعامل والبطال²، فقد حقق إضراب الثمانية أيام بحسب الفاعلين نتيجة هامة وهي اندماج البرجوازية الحضرية في الثورة التي كان ينهض بها حتى ذلك الوقت سكان الريف والطبقة المحرومة ذلك أن القمع الوحشي قد قضى على أية إمكانية لبروز القوة الثالثة أو بقاء قنوات الاتصال مع الجزائريين³.

- لقد كان من النتائج البعيدة المدى لإضراب الثمانية أيام، وفقا لعضوين من ل ت ت وهما بن خدة ودحلب تلك المظاهرات الشعبية الضخمة لشهر ديسمبر 1960م، حيث بينت بعد ثلاث سنوات أن المظليين قد خسروا حقاً المعركة، ليس في العاصمة وحدها فحسب بل وفي الجزائر كلها، وأن مساهمتهم في تحطيم أسس الجزائر الفرنسية لا يعادلها نظير غير ذلك الذي قامت به المنظمة السرية الإرهابية بعد وقف إطلاق النار⁴.

- النجاح وبصفة نهائية في القضاء على فكرة المائدة المستديرة، حيث أن الطرف الفرنسي كان يراهن على تميع القضية، بإشراك أطراف عديدة على غرار الحركة المصالية والشيوعيين والمستقلين.

1- Hassan Remaoun, « La Grève des huit jours (28 janvier – 4 février 1957) : La vision des dirigeants du FLN, in « L'évènement dans l'histoire récente de l'Algérie (1954-1962), université du 20 aout 1955 skikda, éditions CRASC, p159.

2 - خالفة معمري، المرجع السابق، ص 424.

3 - عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص 270.

4- سعد دحلب، المصدر السابق، ص 51.

- انتشار الشعور بالخوف الحاد الممزوج بالرعب في أوساط الفرنسيين بعد أن شاهدوا الشعب الجزائري منضبطا ومنفذا لأوامر ج ت و، وفهم هؤلاء الفرنسيون الذين فروا من الريف أن المدينة لم تصبح هي الأخرى معقلا آمنا، وقد تطور هذا الشعور بتطور الحرب وساهم في اتساع الهوة مع الجزائريين¹.

- تدعيم صفوف جيش التحرير الوطني بالتحاق آلاف الشبان الجزائريين من ذوي المعارف والتكوين السياسي بوحداته المقاتلة فرارا من الاضطهاد والقمع، مما ساعد في تنظيم مصالحة فصار يتمتع بالكثير من المواصفات التي كانت تعوزه من قبل، كما سجل ابتداء من هذه الفترة توافد النساء على الجبل².

- حققت الأعمال الوحشية المقترفة خلال معركة الجزائر نتائج مغايرة تماما لتلك التي خطط لها كل من غي مولي، ولاكوست، وماسي، وصالان، فقد ذاع صيت جبهة التحرير الوطني على الصعيدين الداخلي والخارجي، وتم التشهير بفرنسا بسبب ما ارتكبه جيشها من جرائم لا تغتفر³.

- كشف المناورة التي حاولت النقابة الموالية لمصالي أن تعاكس بها الإضراب، فانكشف أمرها وباءت بالفشل، وقد اتضحت الرؤية إثر ذلك أمام المناضلين ولاسيما بفرنسا، مما أدى إلى الانضمام إلى الجبهة بصفة جماعية، وفقدان الحركة المصالية لحضورها على الساحة الدولية⁴، ويؤكد ذلك عمر بوداود الذي قاد الفدرالية لمدة خمس سنوات (1957-1962م) عندما أشار إلى أن إضراب الثمانية أيام هو الذي وضع بشكل جلي للمهاجرين الجزائريين الجبهة

1- بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة 1956-1957م، ترجمة مسعود حاج مسعود، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2005م، ص 95.

2- سعد دحلب، المصدر السابق، ص 61. ينظر أيضا: بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة 1956-1957م، مصدر سابق ص 95.

3 - بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة 1956-1957م، مصدر سابق، ص 93.

4 - Boualem Bourouiba, Op-Cit, p 283.

التي تقود الثورة التحريرية فعلا وهي جبهة التحرير الوطني، لاسيما وأن هؤلاء عاشوا أشهراً من الغموض وسط ادعاء المصاليين بأنهم يقفون وراء التفجير المسلح، إلى أن جاءت مناسبة الإضراب العام لتكشف القناع أمام الجالية بعدما التزمت الغالبية الساحقة بأسبوع الإضراب،¹ ويشاطره الرأي أيضاً القيادي بن يوسف بن خدة حينما صرح: (لقد غررت الدعايات الزائفة بإخواننا المهاجرين، فجاء إضراب الثمانية أيام ليفتح لهم أبصارهم ويضع الحقيقة ناصعة أمامهم، ولم يخدعهم الموقف الاستعراضي الذي دعت إليه الحركة الوطنية المصالية للقيام بإضراب لمدة أربعة وعشرين ساعة وعليه فإننا سنرى ابتداء من هذا التاريخ بأن الهجرة الجزائرية بدأت تلتف حول ج ت و)².

- من التأثيرات التي أحدثتها المواجهة بين جبهة التحرير الوطني والمظليين تحطيم التيار الليبرالي وإسكات الأصوات المعتدلة لهذه المرحلة، كما أدت إلى ارتفاع وتيرة النقاش الدائر حول التعذيب، الذي بدأ الحديث عنه سنة 1955م مع مقال لفرنسوا موريك François Mauriac بجريدة l'Express حيث أصبح قضية الرأي العام وفي صلب اهتمام النقابات والكنائس وأدى إلى انقسام العائلات حيث رأى الجميع أن فرنسا قد أضاعت شرفها وتجاوزت الحدود السياسية المعهودة لقد أضحت أزمة كبيرة داخل المجتمع الفرنسي.³

1- عمر بوداود، تعقيب في " الملتقى الوطني الأول لتاريخ الثورة 28-31 أكتوبر 1981"، مجلة أول نوفمبر، العدد 57 الجزائر، 1982 ص52.

2- بن يوسف بن خدة، حوار مع عبد الحميد السقاوي والوزير بوشلاغم، المرجع السابق، ص14.

3 - Benjamin Stora, " la Bataille d'Alger ", Site: www.lexpress.fr/politique/462144.html

- انتشار الوعي في أوساط الجزائريين المنخرطين في صفوف الجيش الفرنسي وخاصة منهم الضباط الذين وجّه 52 منهم في نفس الشهر رسالة إلى رئيس الجمهورية وقتها روني كوتي، جاء فيها (إذا لم تعمل السياسة الفرنسية على إيجاد حل عادل للقضية الجزائرية، فإنه لم يعد لدينا من الوسائل ولا من الحجج المقبولة ما يبرر مهمتنا في صفوف الجيش الفرنسي)، غير السلطات الفرنسية لم تأخذ كتابهم بعين الاعتبار، واعتبرت مبادرتهم خروجاً عن القوانين العسكرية يستحقون عليها التوبيخ والعقاب، فدفع بمجموعة أولى في شهر سبتمبر 1957م إلى تقديم استقالتها¹.

لقد أوجز بن خدة تقيّمه للإضراب بالقول: (أنه بالرغم من الخسائر البشرية والمادية الناجمة عن إضراب الثمانية أيام، فقد كان انجازاً إيجابياً دفع قضية الثورة الجزائرية إلى الأمام، وكان الإضراب كارثة عسكرية، لكنه كان نصراً سياسياً ونفسياً وضع فرنسا في وضعية حرجة أمام حلفائها وأمام الرأي العام الدولي، وهو من هذا المنظور كان مؤشراً صريحاً سلط الضوء على نوع الرهانات وكشف الغايات الاستراتيجية للصراع)².

ورأى سعد دحلب بأن إضراب الثمانية أيام قد عزف اللحن الجنائزي على الجزائر الفرنسية بأن ساعتها الأخيرة قد حانت، ووضع قادة الاحتلال في أكبر كمين لم ينصب قط من قبل لكل الوجود الفرنسي³.

إن تغني البعض بالحصار الإيجابي الذي حققه الإضراب في حدود معينة، لم يكن ليخفي تلك النتائج السلبية البالغة التأثير في مسيرة الثورة،

1- محمد بلعباس، الوجيز في تاريخ الجزائر، دار المعاصرة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 177-178.

2- بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة 1956-1957م، مصدر سابق، ص 101.

3- سعد دحلب، المصدر السابق، ص 61-64.

ولا أن يخفت تلك الأصوات التي تعالت على قلبها منتقدة ومستتهجنة هذه المبادرة، وبعيدا عن المكابرة أو إدخال الرأس في الرمال، كان لزاما إجراء تقييم موضوعي لهذه الخطوة حتى وإن كانت الأحكام التي ستصدر ستبقى رؤى شخصية قد لا ترقى إلى فهم روح الحدث في حينه، ثم على المرء أن يعي أولا وأخيرا بأن الفعل الثوري ليس عملية رياضية محققة النجاح سلفا تقتضي الإقدام، ولا خطوة صوب العالم المجهول تستوجب الإحجام.

فخارج معسكر لجنة التنسيق والتنفيذ، ارتفعت الأصوات المنتقدة للخطوة ومن ذلك ما ذهب إليه المؤرخ محمد حربي من أن امتحان القوة الذي بدأ في جانفي 1957م بإضراب الثمانية أيام هدف إلى جعل الجزائر بلدا ميتا سياسيا، وساقه إلى ذلك الاعتقاد الخاطئ بإمكانية الوصول إلى ثورة معممة، وهو ما يعبر عن فرط ثقة في إمكانيات انتصار سريع، فلقد تسببت ضخامة الوسائل التي استخدمها الجيش الفرنسي آنذاك لتحطيم ج ت وفي الجزائر العاصمة بأضرار كبيرة، حيث أدت إلى تفكيك الجهاز البوليسي والعسكري واحتلال القسبة، وتعرض الشرائح الاجتماعية الميسورة وتلك الفقيرة إلى قمع واسع النطاق كانت الضريبة التي دفعتها كل الطبقات المدنية في معركة الجزائر ثقيلة للغاية¹، وفي رؤية تتقاطع مع الموقف السالف عبّر أحد الباحثين الأجانب الذي لا يمكن أن نعتبر تحليلاته متحاملة، على أن جبهة التحرير الوطني وعبر لجوئها إلى هذا الخيار الخطير، قد ارتكبت الغلطة التكتيكية العظمى في كل مسيرتها الثورية².

ومن المواقف الحادة المنتقدة بشدة لهذا القرار، يستوقفنا ذلك الموقف المتميز الذي عبّر عنه أحد إطارات الولاية الرابعة بوشمعة لخضر في رسالة

1- محمد حربي، المصدر السابق، ص 167.

موجهة إلى الحكومة المؤقتة مؤرخة في 22 مارس 1960م وجّه من خلالها اتهامات صريحة لقيادة ج ت و بالخارج، متهما إياها بالتقصير والانتفاعية وإهمال الواجبات المقدسة الملقاة على عاتقها، وعدم الالتفات إلى معاناة الجماهير في الداخل، وذكر الجميع ببعض القرارات التي تم اتخاذها دون دراسة جدوى موضوعية أو التنبيه إلى مخاطرها، ومن ذلك قرار إضراب الثمانية أيام والذي قال بشأنه: (من الأحداث والقرارات المؤسفة التي انعكست على مجرى كفاحنا ما كان في سنة 1956م عندما تلقى الشعب والمجاهدون بنوع من الذهول التعليمات الأولى المتعلقة بإضراب الأيام الثمانية، لقد ظهرت علامات الفشل منذ الأيام الأولى للإضراب، وتخلّى المضربون عن تعليمات القيادة وجاءت نهاية الإضراب لتكرّس الهزيمة السياسية والنفسية وحل معظم تنظيماتنا عبر الجزائر كلها والعاصمة خاصة، الأمر الذي انتزع من حظوظ دعم وتيرة الكفاح بالدرجة التي تجبر فرنسا على التفاوض، مما جعل العدو يتعنت في مواقفه والنزاع يطول...إن المسؤولين لم تحدد أبداً، بل أن المسؤولين المعنيين بتلك الأخطاء تحصلوا على مزيد من الترقية)¹.

ومن جهتها لم تتأخر الحركة الوطنية الجزائرية MNA المنافس العنيد للجهية في صب جام غضبها على قيادة الثورة وهذا موقف طبيعي، حيث الرغبة في ركوب القاطرة من جديد تحرك مسيرهم الذين تجاوزتهم الأحداث، فقد جاء في الحصيلة التي أصدرتها الحركة المصالية مطلع سنة 1958م، والمتعلقة بأحداث الثلاثي الأول لسنة 1957م ومنها الشق المتعلق بإضراب الثمانية أيام، رأت بأن الإضراب سلاح ذو حدين، فإذا سِير بعقلانية وبطريقة

1 - لخضر بورقعة، شاهد على اغتيال الثورة، ط2، دار الحكمة، الجزائر، 2000م، ص ص 322-

ناجحة فإنه يقدم نتائج رائعة، ويمنح في الوقت ذاته انتصارات ميدانية، ولكن إذا حصل العكس ونفذ بكيفية خاطئة أو بطريقة يائسة، فيتحول إلى حالة تجرح الشعب في العمق، وهكذا في تصور هذا التنظيم، فإن ج ت وقد قامت بحركة استعراضية ودفعت الشعب الجزائري إلى سلسلة من الإضرابات الفئوية والقطاعية ومنعت قراءة الجرائد الفرنسية، وهي بذلك قد عملت على تحطيم الشعب ودفعه إلى اليأس وأن قادتها البعيدون عن واقع الجماهير قد تجاهلوا فقر مواطنهم، وأن لجؤهم إلى هذا الخيار كان مغامرة بكل المقاييس للغطية على فشلهم السياسي والتكتيكي وللإيهام بموقع القوة. ويرى أصحاب هذا التقرير أن الجبهة وعبر إعلانها المسبق وبمدة زمنية طويلة بلغت الشهر، قد مكنت الخصم من أن يستعد جيدا لسحق الحركة مما يظهر لا مسؤولية قادتها¹.

بالنسبة للمبادرين به أي أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ، فقد كان لا مناص من الإقرار بالنتائج السلبية والآثار المدمرة التي ترتبت عن هذا القرار، إذ بالفعل بلغت الخسائر درجات هائلة وتعطلت الأنشطة في المدن وبالخصوص في العاصمة، وفي هذا الشأن صرح بن يوسف بن خدة بأن الإضراب غير الوضع كلياً، فبعد 48 ساعة من انطلاقه فقدنا روح المبادرة في العاصمة التي تم قلبها رأساً على عقب بسبب التجاوزات الغاشمة للفرقة العاشرة للمظليين بقيادة الجنرال ماسي، وبسبب المرتزقة التابعين لبيجارو غودار وأمثالهم وأحيط السكان والمناضلين القلائل الباقين داخل المدينة بمراقبة بوليسية وعسكرية محكمة².

1 - Mohamed Harbi, Les Archives de la Révolution algérienne, les editions jeune afrique paris, 1981, pp 143-144.

ففي خضم الحركة الإضرابية ووسط موجة القمع الرهيبة كانت جبهة التحرير الوطني بحسب بن خدة مشغولة بما هو أدهى وأمر، فعندما وصل الإضراب إلى منتصف الطريق طرأت صعوبات لم تكن في حسابان لجنة التنسيق والتنفيذ، حيث تساقط المئات من الإطارات والمناضلين بفعل التوقيفات العشوائية، أو كانوا ضحايا الوحشية تحت وطأة التعذيب، مما أحدث في نسيج التنظيم ثغرات يعتبر سدها ضربا من المستحيل فتعطلت الاتصالات بين المسؤولين، وعزلت الشبكات، لكن ما يجب الوقوف عنده تنويعها وإكبارها، هو تلك الروح المعنوية العالية والصلابة وعدم الاستسلام التي تحلى بها غالبية المناضلين¹.

ويمضي بن خدة في سياق الانتقادات الذاتية إلى الاعتراف أكثر بالآثار المدمرة للإضراب فيكتب بكل شجاعة، على أنه لا مفر من الاعتراف بكل تواضع بأن إضراب الثمانية أيام كان خطأ استراتيجيا ارتكبه لجنة التنسيق والتنفيذ، حيث أدى إلى خسارة العاصمة كمقر لقيادة الثورة، وتفكيك الهيكل التنظيمية الخاصة بها، وأدى إلى خروج اللجنة من التراب الوطني، وتبعها في ذلك الهياكل المركزية لجيش وجهة التحرير الوطني، وأدت هذه الهجرة إلى تطورات سريعة ساهمت في اختلال التوازن الداخلي لأجهزة الثورة نفسها².

وبالنسبة لزميله سعد دحلب، فإن التنظيم السياسي لج ت و، قد عانى الكثير بل تم تحطيمه كلية في بعض الأحياء والمدن، كما لقي الآلاف من الجزائريين ومن بينهم عدد كبير من المناضلين مصيرا شنيعا بفعل وحشية التعذيب وأساليب الاستنطاق، وتم تفكيك الشبكات بما فيها المصلحة

1 - بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة 1956-1957م، مصدر سابق، ص ص 79-80.

2- المصدر نفسه، ص ص 98-99.

الإعلامية التي كانت متواضعة جدا والتي أزيلت نهائيا، كما اختفت مصالح الاتصالات والاستعلامات¹.

لقد كان من أقوى النتائج السلبية فقدان القائد الرمز بن مهدي الذي تعرض للاعتقال يوم 23 فيفري في ظروف يحيط بها الكثير من التساؤلات²، وقرار بقية أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ التعجيل بالخروج من العاصمة في بداية شهر مارس 1957م، حيث تكفل المناضل محمد رشيد أوعمارة بنقل دحلب ثم ابن خدة، ونقلت المناضلة المتعاطفة كلودين شولي عبان وكريم في سيارتها وذلك في نفس اليوم الذي اعتقل فيه زوجها بيارشولي في منزله، وكان لقاء الأربعة في منطقة الشريعة بالأطلس البليدي، ومنها توجهوا صوب مقر قيادة الولاية الرابعة، وحفاظا على صيرورة الثورة قرروا عدم المغامرة بالبقاء داخل الوطن فاختر اثنان منهم طريق الغرب وهما دحلب وعبان بغرض الوصول إلى المغرب، بينما أثر كريم وبن خدة التوجه إلى تونس³.

1 - سعد دحلب، المصدر السابق، ص 60.

2- بعد نجاح قوات ماسي في تدمير البنية التنظيمية لج ت و بالعاصمة وتوسع حركة الاعتقالات التي مست الآلاف شعر أعضاء لجنة ت ت بدرجة الخطورة المحيطة بالأمكنة التي كانوا يترددون عليها وخاصة القصبة، فانتقل بن مهدي إلى شقة بالحي الأوربي كانت مكانا استثنائيا للقاءات، وقيم بها ابن خدة بصفة استثنائية، ولا يعرفها سوى المناضل هاشمي حمود، ولما اعتقل هذا الأخير يوم 21 فيفري 1957م أقرحت التعذيب الفظيع بمعرفته بابن خدة دون أن يباح بمكان اجتماعات اللجنة الذي يعرفه جيدا، حيث وجّه جلاديه إلى الشقة التي كان يعتقد أن ابن خدة لن يكون متواجدا بها وأنها شاغرة، فكان أن صادف تواجد القائد بن مهدي بها لحظة مدهمتها فوقع بين أيدي المظليين دون أن يكون المستهدف بعملية الاقتحام. ينظر: سعد دحلب، المصدر السابق، ص 52-53.

3- سعد دحلب، المصدر السابق، ص 57-59.

حظي الإضراب الذي نوقش في الذاكرة الجماعية للجزائريين بنصيب معتبر في الأعمال الأدبية المخلفة لمسيرة الثورة التحريرية، فقد حرّك الحس الفني لعدد من الشعراء فتفاعلوا معه بحماس، ويكفي هنا أن نعرض نموذجين لهذا التفاعل، فقد نظم فيه الشاعر الجزائري حسن حموتن قصيدة طويلة أبدى من خلالها إعجابه وإكباره للحدث، ننتقي منها هذه الأبيات.

حدّث خليلي عن مدى الإضراب ... وانقل صداه إلى ذوي الألباب
إضراب أسبوع وهل سمع الورى ... في العالمين نظير ذا الإضراب.¹
وتبقى في تقديرنا ما جادت به قريحة مفدي زكرياء، من أبلغ التصويرات الفنية التي تعاطت إيجابيا مع هذه المحطة التاريخية.
تبارك شعبٌ، تحدى العنادا فصام، واضرب سبعا شدادا
وأنف أن يستسيغ الحياة تجرّع ذلة واضطهادا
واقسم، أن لا يعيش النهار عميلا... يوفّر لليوم زادا
وجنّت فرنسا لإضراب شعبٍ فعاثت بعرض البلاد فسادا
بكت فضحكنا، وقال الزمان تبارك شعب تحدى العنادا.²

خاتمة

لعل ما يمكن استخلاصه من تجربة الاضراب الشامل، أن الثورة التحريرية الجزائرية قد خاضت كل المسالك، وطبقت أساليب متنوعة ومتباينة في درجة تأثيرها محليا وخارجيا، ولم يكن اضراب الثمانية أيام خيارا بل كان ضرورة حتمية اقتضتها المرحلة، حينما كان ولا بد من اظهار سلطة

1 - مصطفى بيطام، الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي 1954-1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1996 ص 68.

2- مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 77.

وحصرية التمثيلية لجهاز جهة التحرير الوطني، في ظل وجود ترسانة هائلة من الوسائل والأساليب الدعائية والقمعية التي طبقها الاستعمار لمحاولة ثني الشعب الجزائري عن معركة التحرير، وإذا كان طريق إثبات الذات والتطلع إلى الحرية لا يمر إلا عبر هذا النوع من الجسور، فإن تجربة 28 جانفي - 04 فيفري 1957م تعكس هذا التوجه بالذات، بغض النظر عن التداعيات السلبية المصاحبة والتي قد لا يتفق الجميع بشأنها، وإذا كان التاريخ لا يحتمل تبني الفرضيات، فإن السؤال المطروح هل كان ثمة بدائل أمام قيادة الثورة يمكنها أن تخدم مسعى التدويل وتوسيع رحي المعركة، وإن الإجابة المقنعة لهذا الأمر، لا يمكن أن تكون بأثر رجعي، بل هي وليدة اللحظة التاريخية التي تجسد فيها اعتماد القرار المصيري.

نشاط مكاتب جبهة التحرير الوطني في قارة آسيا 1957-1959

ك.أ.د. عمر بوضربة

جامعة المسيلة

omar.bouderba@univ-msila.dz

مقدمة

شكّلت مكاتب جبهة التحرير الوطني بالخارج آلية رئيسة في العمل الدبلوماسي للثورة الجزائرية 1954/1962، والتي شرع في تأسيسها من سنة 1955 في بلدان المشرق العربي، وارتأت قيادة الثورة ممثلة خصوصا في الوفد الخارجي لج.ت.و بالقاهرة لتوسيع مجال نشاط هذه المكاتب لتشمل دول آسيا وأوروبا الغربية، من أجل التعريف بالقضية الجزائرية والحصول على مختلف مظاهر الدعم المادي والبشري والدبلوماسي، ومواجهة الدعاية الفرنسية خصوصا والعمل على الإسهام في عملية تدويل القضية الجزائرية في الهيئات الدولية وبخاصة الجمعية العامة للأمم المتحدة.

ومعلوم بأن أول حضور لموفدي ج.ت.و في المؤتمرات الدولية كان من بوابة مؤتمر الشعوب الأفروآسيوية في باندونغ ما بين 18 و24 أفريل 1955، من خلال مشاركة حسين آيت أحمد ومحمد يزيد ضمن وفد مغاربي مشترك قدم وثيقة موحدة طلب من خلالها دعم الدول أفروآسيوية لتدويل قضايا المغرب العربي في هيئة الأمم المتحدة، وهو ما أثمر تضمين توصية تخص هذا الجانب ضمن الوثيقة النهائية للمؤتمر، وقد أدى ذلك إلى تقديم أربعة عشر دولة أفروآسيوية في جويلية 1955 طلبا إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة لتسجيل ومناقشة القضية الجزائرية ضمن جدول أشغال الجمعية العامة.

أدّى هذا الفتح الدبلوماسي إلى تطور اهتمام الوفد الخارجي لج.ت.و بالقارة الآسيوية وذلك من خلال توجيه مبعوثين لاستكشاف دول القارة من خلال المشاركة في المؤتمرات المختلفة، ثم من خلال تأسيس مكاتب شكلت غرفة عمليات للنشاط الدبلوماسي والدعائي لجهة التحرير في بلدان محورية في آسيا، وسنركز في دراستنا هذه على تناول عمل مكاتب ج.ت.و بالقارة الآسيوية م إلى غاية نهاية بداية سنة 1960.

1- مكتب جاكرتا -إندونيسيا-

قام لخضر إبراهيمي¹ في سنة 1957 بتأسيس مكتب لجهة التحرير الوطني بجاكرتا الإندونيسية، بتكليف من قيادة الوفد الخارجي بالقاهرة²، وقد حظيت جهود لخضر إبراهيمي بتقدير وإشادة وزارة الخارجية في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، ورغم طلبه الإغفاء من تأدية مهامه بتلك المنطقة من جراء معاناته من متاعب صحية تسببت فيها الرطوبة العالية لمناخها الاستوائي، إلا أنّ الوزارة الوصية لم تستطع الاستغناء عن لخضر إبراهيمي لإدراكها بعدم قدرتها على إيجاد خليفة مناسب يكون في مستوى أداء هذا الدبلوماسي الشاب الذي سيكتب له مستقبل واعد في علم

1 - لخضر إبراهيمي: مناضل في صفوف جبهة التحرير الوطني سياسي ودبلوماسي لامع سواء في فترة الثورة -حيث مثلها في آسيا- أو في فترة استرجاع السيادة الوطنية، مثل الثورة في جنوب شرقي آسيا حيث أشرف على افتتاح وتسيير مكتب لجهة التحرير الوطني بجاكرتا الأندونيسية، وقام بعدد الجهود للتعريف بالقضية الجزائرية وحشد الدعم لها في أندونيسيا والدول المجاورة لها، لخضر إبراهيمي مكنته دبلوماسية الثورة من اكتساب رصيد ثري رشحه لأن يصبح من أهم دبلوماسي عالمنا المعاصر.

2 ANA: GPRA, "Rapport d'Activité Diplomatique, Novembre 1958, Bureau de JDAKARTA, b07, dos01,doc 04,Et Voir Aussi: ANA: b03,dos05,doc01 "Lettre de Lakhdar Brahimi à MR Mohamed Lamine Debaghine".

الدبلوماسية العالمية¹.

وبعد تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية واعتراف إندونيسيا بها بصفة رسمية أصبح التمثيل الجزائري لجمهورية ت. و، بهذا البلد في مستوى رسمي، وهو ما انعكس إيجاباً على نشاط مكتب جاكارتا، فقد تعددت لقاءات واتصالات لخضر إبراهيمي مع أعلى مستويات السلطات الرسمية الإندونيسية بدءاً باستقباله من طرف رئيس الجمهورية أحمد سوكانو في جانفي 1959، ولقائه برئيس الوزراء الدكتور جواندا في مارس وجوان 1959، وبوزير الخارجية سوبندريو في أوت 1959، إضافة إلى استقباله بشكل متكرر من موظفين سامين بوزارة الخارجية.

وعقب اعتراف حكومة إندونيسيا بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية قدّمت لها دعوة لزيارة إندونيسيا، وتمّت برمجة زيارة وفد الحكومة المؤقتة برئاسة فرحات عباس، فحاولت الحكومة الفرنسية التدخل والضغط لإلغاء الزيارة المبرمجة كما طالبتها بسحب اعترافها بالحكومة الجزائرية، غير أن السلطات الإندونيسية رفضت هذه الاحتجاجات الفرنسية وأكدت عن دعمها بإعلانها تقديم هبة مالية ثانية بعد تلك التي منحتها للثورة والمقدرة بـ خمس مائة ألف (500000) دولار في مارس 1958².

هذا الوضع الإيجابي مكّن إبراهيمي ممثل الحكومة المؤقتة. ج. ج من تطوير أداء نشاطه الدبلوماسي بهذا البلد والدول المجاورة له، فكان يجدد طلب الدعم الإندونيسي عند مناقشة القضية الجزائرية في الدورات السنوية

1- ANA: CNRA59/1960, b2, dos15 Ou MF C012, Op. Cit, "Rapport d'activité du MAE", 5/1/1960, P6.

2- ANA: GPRA, MF G004, "Intervention de Ahmed Toufik Almadani", PV de Réunion du 01/07/1959.

للجمعية العامة للأمم المتحدة، وطلب دعم إندونيسيا لدى حكومات الدول الآسيوية، وتلقّى بهذا الشأن تأكيدات الحكومة الإندونيسية بأنّها وجّهت تعليمات إلى السفارات الإندونيسية بنيودلهي وطوكيو، من أجل دعم نشاط ومواقف ممثلي الجزائر بهاذين البلدين اللذين كانا يعانيان من عراقيل بالنظر لعدم اعتراف اليابان والهند بالحكومة. م. ج. ج.

وبمناسبة الزيارة الرسمية للرئيس فرحات عباس إلى إندونيسيا خصّص إبراهيمي قسما كبيرا من نشاطه لإنجاح الزيارة بالتحضير لها بشكل جيد، وهذا منذ فيفري 1959، الزيارة التي تم تأجيلها لاحقا.

امتد نشاط مكتب جاكارتا ليشمل جمهورية ماليزيا، حيث كلفت وزارة خارجية الحكومة. م. ج. ج. لخضر إبراهيمي للقيام بمهمة دعائية فيها، فقام بزيارة لها في جويلية 1959، وتمكن من الالتقاء بالرئيس تونغ كو عبد الرحمن، وبزعماء من أحزاب المعارضة الماليزية.

وقد ركّز مسؤول مكتب ح.م.ج.ج. في محادثاته مع الرسميين الماليزيين على طلب دعم بلدهم للقضية الجزائرية في هيئة الأمم وتقديم يد المساعدة للاجئين الجزائريين، فقدّمت له وعود مؤكدة بشأن الدعم الماليزي للقضية الجزائرية في الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكذا تقديم المساعدات للاجئين الجزائريين، بل ذهب الرئيس الماليزي إلى حد تقديم وعد بإنشاء "صندوق أسود" من أجل تمويل المساعدات للاجئين، ومن مظاهر التضامن العميق التي أبدتها الماليزيون أن أقدم حزب التحالف -الحزب الحاكم- على إدراج القضية الجزائرية في برنامجه الانتخابي، وهي المرة الأولى في تاريخ البلد التي تدرج فيها مسألة متعلّقة ببلد أجنبي ضمن برنامج الحملة الانتخابية، وقد أحرز حزب التحالف في أوت 1959 على سبعين مقعدا من أصل مائة وأربعة مقاعد في الغرفة السفلى للبرلمان مما مكّنه من الحصول على أغلبية

مريجة¹.

وقبيل افتتاح دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة بعث ل. إبراهيمي برسالة إلى الرئيس الماليزي يذكره بطلب ح.م.ج.ج لدعم طرح القضية الجزائرية من طرف بعثة بلاده إلى نيويورك، إضافة إلى طلب التدخل في حدود الإمكان لصالح الجزائر لدى الدول الصديقة لماليزيا، مثل الفلبين، اليابان، وتايلاندا، وهو ما تلقى بشأنه ل. إبراهيمي تأكيد السلطات الماليزية بتسليم رئيسها لتعليمه بهذا الشأن للبعثة الدبلوماسية الماليزية إلى نيويورك برئاسة وزير الخارجية.

رغم هذا النشاط المعتبر لممثل الجزائر بجاكارتا، أشار تقرير وزارة الخارجية إلى أن نشاط لخضر إبراهيمي اعترضته معوقات وصعوبات حدّت من فعاليته، ومردّها تخطيط الحكومة المؤقتة في أزمتها الداخلية التي ألتهما عن القيام ببعض التزاماتها، وتمثّلت هذه المعوقات في:

- عدم حصوله على التوجيهات الحكومية اللازمة من قبل ح. م. ج. ج، خصوصا فيما يتعلّق بالمستجدات، وموقف قيادة الثورة منها، مما كبّل إبراهيمي وعطلّ نشاطه وحدّ من مبادراته.

- عجز ل. إبراهيمي عن الإجابة على بعض الأسئلة التي طرحها الحكومة الإندونيسية والتي اعتبرتها شرعية بحكم دعمها للثورة الجزائرية، منها على وجه الخصوص: -قضية الزبير²- قضية نقل مقر الحكومة المؤقتة الجزائرية

1-ANA: CNRA, Op.cit, MAE "Rapport d'activité du MAE", pp:6-7.

2 - حميدة طاهر المدعو سي زبير كان في الجيش الفرنسي برتبة ضابط صف 1955 بمنطقة الغزوات "الولاية الخامسة" فر من الجيش الفرنسي والتحق بصفوف جيش التحرير الوطني محملا بكمية من السلاح أصبح ملازما في المنطقة السابعة تيارت الولاية الخامسة، على اثر خلا ف مع مسؤول المنطقة النقيب مختار بوزيان بسبب رفضه لبعض القرارات الصادرة من بعض القيادات في قوات الحدود الغربية في حق جنوده، حول الى المنطقة الأولى "تلمسان" في فيفري 1958 برتبة نقيب

من القاهرة إلى تونس-الأخبار المتعلقة بعدم الرضا في صفوف جيش التحرير الوطني وقضايا أخرى.

- الحرج الكبير الذي وقع فيه ممثل الجزائر، والنتائج عن قلّة التنسيق بين المصالح الوزارية للحكومة. م. ج. ج. بخصوص بعض القضايا الهامة المتناولة من بعض أعضاء الحكومة والحكومة الإندونيسية، دون إعلام وزارة الخارجية الجزائرية بفحوى ما يتم الاتفاق حوله، مما لا يتيح للإبراهيمي فرصة الاطلاع عليها، من ذلك مثلا: عدم إعلام وزارة الخارجية ومن ورائها ممثل الجزائر في إندونيسيا باللقاءات التي جرت بالقاهرة في شهر ماي 1959، وجمعت بين نائب رئيس الحكومة الإندونيسية والرئيس فرحات عباس بحضور بعض الوزراء، ونفس الشيء بالنسبة للاجتماع الذي جرى في جوان 1959 بالقاهرة بين وزير الخارجية الإندونيسية سوبندريو والرئيس فرحات عباس، ورغم طلب وزارة الخارجية شفويا من فرحات عباس تزويدها بالتقارير المتعلقة بهذه اللقاءات الهامة بين الحكومتين إلا أنّ الرئيس رفض ذلك¹.

ومن القضايا التي ذكرتها الوزارة الوصية في هذا الإطار قضية البيانات أو الكشف، وفحواها أنّ لخضر إبراهيمي أبلغ الحكومة المؤقتة باستعداد الحكومة الإندونيسية تقديم هبة مالية معتبرة، وباعتبار الطابع السري

حينها انتقل ما بين مركز قيادته بالداخل ومركز قيادة جيش الحدود بالمغرب حيث أعلن حركة عصيان ضد مسئوليه بداية من ديسمبر 1959 إلى مارس 1960، سلّم نفسه ثم حوكم وأعدم من طرف قيادة الأركان العامة للحرب، للمزيد يُنظر:

Hamoud Chaid: Sans Haine Ni Passion, Alger, Ed Dahlab, P:271. Et voir aussi: Messaoud

Maadad: La guerre D' Algérie-Chronologie et Commentaires-, Algérie, SAD,

ENAG.EDITION,1992, PP:116-117, pp:134-148.

1-ANA: CNRA, Op.cit, MAE "Rapport d'activité du MAE", p7.

للعلمية فقد تمّ صيها مباشرة في الحساب البنكي للحكومة المؤقتة، ومن أجل توجيه رسالة شكر رسمية للحكومة الإندونيسية، ظل إبراهيمي منذ مارس 1959 يستفسر عن مصير هذه الأموال هل تلقتها الحكومة أم لا، لكن وزارة الخارجية لم تتمكن من الإجابة لجهلها بالمعطيات المتعلقة بالقضية، وبفضل مجهوده الشخصي علم ممثل الجزائر بجاكارتا بأن المبلغ قد صب في شهر ماي 1959، وأن قيمته بلغت: خمسين ألف (50000) دولار، ولم تجد وزارة الخارجية إلا التأسف عن هذا التصرف الذي يتنافى والتقاليد الحكومية، وبالتساؤل: ما حاجة الحكومة الإندونيسية إلى ممثلنا وإلى وزارتنا؟¹.

وتفسير ذلك برأينا أن وزارة الخارجية عانت من التهميش منذ استقالة وزيرها محمد أمين دباغين في 15 مارس 1959، من قبل الوزراء الفاعلين: كريم بلقاسم لخضر بن طوبال وعبد الحفيظ بوصوف إضافة إلى الرئيس فرحات عباس، علما أن أمين دباغين كان قد اتهم بوصوف وعبّاس بتدبير عملية اغتيال رفيقه عميرة علاوة في بداية سنة 1959، وهو السبب الذي أدّى إلى شل نشاط الحكومة المؤقتة خصوصا بعد استقالة دباغين، فدخلت الحكومة. م. ج. ج. في نفق الأزمة المعلنة في بداية جويلية 1959، وتم اللجوء إلى تحكيم العسكريين أو قادة الداخل من أجل دعوة المجلس الوطني للثورة الجزائرية للانعقاد والبت في مصير الحكومة ومسائل أخرى، وعرف باجتماع العقدا العشرة أو اجتماع المائة وعشرة أيام².

2- نشاط بعثة دلهي الجديدة -الهند -

1-ANA: CNRA, Ibid, MAE "Rapport d'activité du MAE", pp:7-8.

2- محمد يزيد: مقابلة شخصية، وكذلك:

Mohamed Harbi: Le FLN Mirage et Réalité, pp: 239-240.

أدركت ج.ت.و، أهمية ومكانة الجمهورية الهندية في منطقة آسيا وفي مجموعة دول الكتلة الأفروآسيوية، نظرا لما لعبه زعيمها جواهر لال نهرو من دور رائد في تأسيس الكتلة والتنظير لها، لكن موقف الهند بقي متحفّظا تجاه جبهة التحرير الوطني لتحيز نهرو لصالح رفيقه وصديقه مصالي الحاج العدو اللدود والخصم العنيد للجبهة، فقد ربطتهما علاقة متميّزة منذ مؤتمر بروكسل 1927¹.

لكن منذ سنة 1957 استطاعت ج.ت.و، أن تتفوّق في مجال التمثيل والحضور الدوليين على الحركة الوطنية الجزائرية المصالية كما استطاعت كسب المعركة أمام ذات الحركة في الجزائر وفي فرنسا، فتغيّرت مواقف الحكومة الهندية المتحفّظة من ج.ت.و، دون أن تُقدم على الاعتراف بالحكومة المؤقتة، وهو ما حاولت استغلاله ج.ت.و، فقرّرت تأسيس بعثة لها بالعاصمة الهندية دلهي الجديدة عُيّن على رأسها شريف قلال²، بمساعدة

1- هذه العلاقة هي التي مكّنت مصالي من تبليغ صوته بشكل قوي في مؤتمر باندونغ 1955، أنظر

الفصل الثاني من الأطروحة، و: Jacques Simon: Messali Hadj., op.cit, pp:115-116.

2- شريف قلال (1932/ 2009) مناضل سياسي ودبلوماسي جزائري في الجزائر، بعد حصوله على البكالوريا درس بجامعة إيكس بمرسيليا عام 1956، ناضل في صفوف الحركة الوطنية الجزائرية شابا، وبعد اندلاع الثورة وتأسيس إ.ع.ط.م. ج. UGEMA أصبح من مسؤوليه، ثم عين شريف قلال ممثلا لجبهة التحرير الوطني في نيودلهي، دبلوماسي مرموق في الثورة التحريرية وبعد استرجاع السيادة الوطنية، حيث عين سفيرا للجزائر في الولايات المتحدة الأمريكية (من 1963 إلى 1967) في عهد الرئيس جون فيتزجيرالد كينيدي، كما يعد أول سفير للجزائر في كندا (1964 إلى 1967)، وبعد تفرغه من الدبلوماسية أصبح رجل أعمال في الولايات المتحدة وحظي بنفوذ كبير في الأوساط السياسية والاقتصادية الأمريكية، كما عمل مستشارا لعدد من المؤسسات والشركات منها سوناطراك، ولعب دورا في إيجاد متعاملين (1971-1978) جدد لتعويض فرنسا التي قاطعت المنتوجات الغازية والبتروولية الجزائرية بعد تأميم المحروقات في عهد الرئيس هواري بومدين.

توفيق بوعتورة، إلى غاية شهر جوان 1959 تاريخ مغادرة بوعتورة الهند لأسباب صحية¹.

رّكّز شريف قلّال ومساعدته بوعتورة خلال هذه الفترة على التعريف بالقضية الجزائرية، سواء في الأوساط الحزبية الهندية أو لدى الأوساط الحكومية والسلك الدبلوماسي المعتمد بالهند، فقد أعدّت البعثة مذكرة مفصّلة باللغة الإنجليزية تم تقديمها في مؤتمر حزب المؤتمر الهندي الحزب الحاكم، الذي انعقد ما بين 6 و13 جانفي 1959، وفي الندوة الأفروآسيوية المنعقدة بنيودلهي ما بين 2 و5 أفريل 1959، وفي التجمع الأفروآسيوي المنعقد كذلك بنيودلهي في شهر سبتمبر 1959، لإدانة التجارب النووية الفرنسية بالصحراء الجزائرية، وفي مؤتمر الحزب الاشتراكي المنعقد بمدينة بومباي ما بين 5 و9 نوفمبر 1959.

وقد قام ممثل الجزائر بتلاوة رسالة لوزير الخارجية لمن دبّاغين في الدورة السنوية لحزب المؤتمر الهندي، وتتويجا لهذا الحضور الفاعل والدائم تبنت هذه المؤتمرات والندوات لوائح كانت في عمومها لصالح القضية الجزائرية وموقف الحكومة المؤقتة.

كما قام مسؤول البعثة بإجراء لقاءات مع الموظفين السامين بوزارة الخارجية الهندية في جانفي وفيفري وسبتمبر 1959، وسلّم في أوت مذكرة باللغة الإنجليزية حول القضية الجزائرية لأعضاء البرلمان الهندي، كما قام قلّال بمبادرة بالتنسيق مع السفراء العرب المعتمدين بالهند، يوم 21 أوت 1959، لدى بيلاي الأمين العام لوزارة الخارجية الهندية، قصد الحصول على

1 ANA: GPRA,b07,dos01,doc04,"Rapport d'Activité Diplomatique-Novembre 1958", Délégation de New Delhi.

اعتراف الهند بالحكومة المؤقتة الجزائرية، ودعم طرح القضية الجزائرية بالأمم المتحدة¹.

وقام قلّال بالاتصال بمسؤولي سفارتي الجمهورية العربية المتحدة والسودان، من أجل التدخل لدى الرئيس الغاني نكروما عند مروره بنيودلهي، لدعم القضية الجزائرية لدى السلطات الهندية، وهو ما تمّ فعلا في شهر جانفي 1959.

هذا وقد أشرفت بعثة نيودلهي على تحضير زيارة وفد الحكومة المؤقتة بقيادة فرحات عباس لكل من الهند وباكستان في شهر أفريل 1959، وفي هذا المسعى توجه قلّال إلى كراتشي الباكستانية من أجل الاتصال بالسلطات الباكستانية، والتحضير لتأسيس مكتب لجهة التحرير الوطني بكراتشي، علما أن الحكومة المؤقتة الجزائرية كانت قد أعلنت بالحاجة الماسة لإقامة هذا المكتب بالباكستان، غير أنّ الحكومة المؤقتة التي كانت منشغلة بأزماتها الداخلية لم تقم بالبت في المسألة.

كما حرص المشرفون على بعثة ج. ت. و، بنيودلهي على ربط الاتصال الدائم بالشخصيات الهامة على الساحة السياسية الهندية، خصوصا المؤيدة للثورة الجزائرية، منها السيدة: أنديرا غاندي ابنة الزعيم جواهر لال نهرو ورئيسة حزب المؤتمر الهندي.

واغتنمت بعثة الحكومة. م. ج. ج مناسبة محاكمة نقابيين جزائريين في جانفي 1959، وحادث اغتيال أمين عام الاتحاد العام للعمال الجزائريين الشهيد عيسات ايدير في أوت 1959، للقيام بحركة احتجاجية كبيرة وواسعة شهيرا بممارسات السلطة الاستعمارية الفرنسية، بمساعدة حزب المؤتمر

1-ANA: CNRA, Op.cit, MAE "Rapport d'activité du MAE", pp:1-2.

الهندي واللجنة الأفروآسيوية للحزب الاشتراكي بمشاركة الحزب الشيوعي الهندي.

كما دأبت بعثة ح.م.ج.ج. على إحياء مناسبة الاحتفال بالذكرى الخامسة لاندلاع الثورة الجزائرية -أول نوفمبر 1959- وتوظيف المناسبة للحصول على مزيد من الدعم المادي والمعنوي من الهند والحصول على اعترافها، فاشتركت البعثة في عدة تجمعات نظمها الأحزاب الهندية وعلى رأسها حزب المؤتمر، الذي نظم تجمعا كبيرا بالمناسبة احتضنته العاصمة نيودلهي، شارك فيه شريف قلال وقدم عرضا عن الأوضاع في الجزائر وتجاوزات الجيش الفرنسي في حق الشعب الجزائري، واختتم التجمع بلائحة لصالح القضية الجزائرية. إضافة إلى هذه الأنشطة لمثل الجزائر بالهند، أصدرت بعثة الجزائر بنيودلهي عدة وثائق إعلامية دعائية باللغة الإنجليزية، ومطبوعة عن تاريخ الأمة الجزائرية والاستعمار الفرنسي لها وسياسته الاضطهادية فيها منذ 1830¹.

ورغم ما تصفه تقارير الحكومة المؤقتة من نجاح ممثليها في الهند إلا أن هذا النجاح لم يُترجم إلى اعتراف رسمي من الحكومة الهندية بالحكومة الجزائرية.

3- بعثة طوكيو-اليابان-

في 29 جويلية 1958 تم تعيين عبد الرحمن كيوان² على رأس بعثة جبهة

1- ANA: CNRA59/1960, Ibid. "Rapport d'activité du MAE", PP:2-3.

2 عبد الرحمن كيوان (1925-2014): يعد المرحوم كيوان من الشخصيات البارزة في الحركة الوطنية الاستقلالية، وقد دافع ابتداء من سنة 1947 باعتباره محاميا عن مناضلي حزب الشعب الجزائري-الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، للمناضل كيوان كتاب مهم حول العمل الدبلوماسي للثورة الجزائرية (Les Débuts d'une Diplomatie de Guerre (1956-1962)). رصد فيه نشاطاته الدبلوماسية للتعريف بالقضية الجزائرية، إذ قام بالعديد من المهام في أمريكا

التحرير الوطني بالشرق الأقصى ومقرها طوكيو من طرف محمد لمين دباغين مسؤول مصلحة الشؤون الخارجية في لجنة التنسيق والتنفيذ، وعُيّن عبد المالك بن حبيلس مساعدا له في مهامه¹، إلى غاية سبتمبر 1959 تاريخ التحاقه بالقاهرة.

شمل نشاط هذه البعثة دولة اليابان والدول المجاورة لها بمنطقة الشرق الأقصى، وهي: الفيليبين، فورموزا، كوريا الجنوبية، الفيتنام، اللاوس، وكمبوديا.

ونظرا للتوجه الليبرالي الغربي لليابان وتعاضم النفوذ الرأسمالي خصوصا الأمريكي فيها فقد اعترضت مهمة البعثة الجزائرية بطوكيو صعوبات كبيرة، إضافة إلى ضعف روابط التضامن الأفروآسيوي بهذا البلد، والبعد الجغرافي الشاسع بين الجزائر واليابان، الأمر الذي جعل القضية الجزائرية مجهولة لدى أغلبية اليابانيين ولا تحظى بالأولوية ضمن القضايا الدولية الأكثر حضورا في وسائل الإعلام اليابانية.

شرع في نشاطه عبد الرحمن كيوان بعد وصول إلى طوكيو- يوم 1958/8/6-، حيث عقد اجتماعا مع أمانة اللجنة الأفروآسيوية، وفي يوم 7 أوت زار وزارة الخارجية اليابانية، حيث استقبل من طرف مدير الشؤون الأوروبية والآسيوية المكلف بمتابعة المشكل الجزائري، حيث خرج الممثل الجزائري بانطباع حسن، ليتمكن بعد ذلك من الالتقاء بوزير الخارجية السيد: فوجياما لبضعة دقائق، وفي نفس اليوم التقى بالنائب كيتامورا من

اللاتينية وفي أوروبا والأمم المتحدة، ومثل جبهة التحرير الوطني بوصفه رئيسا لبعثتها في الشرق الأقصى في كل من طوكيو والصين الشعبية وتقلد غداة الاستقلال عدة مناصب عليا في الإدارة الجزائرية.

الحزب الليبرالي الديمقراطي، الحزب الحاكم، ثم بالسيد: أوكادا النائب الاشتراكي ورئيس اللجنة الدولية للحزب الاشتراكي، والذي قدم للسيد كيوان تأكيده بمساعدة حزبه لإنجاح مهمته، كما حضر كيوان يوم 8 أوت اجتماعا موسعا للجنة الأفروآسيوية، اللجنة التي شكّلت أولوية في تحركاته وهمزة الوصل التي تصله بمختلف أطراف الساحة السياسية اليابانية.

وتعد مشاركة كيوان وبن حبيلس في أشغال "الندوة الدولية المناهضة للقنابل النووية والهيدروجينية ومن أجل نزع السلاح" التي احتضنتها اليابان يوم 9 أوت 1958، من أهم أنشطة البعثة قبل الإعلان عن تأسيس ح. م. ج. ج، كما أصبحت مشاركة كيوان في هذه المناسبة الدولية مألوفة ومنتظمة في السنوات التالية¹.

وعلى إثر الإعلان عن تأسيس الحكومة المؤقتة الجزائرية هنا الأمين العام للجنة الأفروآسيوية السيد نقانو رئيس الحكومة المؤقتة الجزائرية فرحات عباس، في برقية أرسلها إلى مقر الحكومة بالقاهرة، وشكّل هذا الحدث تحولا هاما في نشاط ممثلي البعثة الجزائرية الذين أصبحوا يركزان على نقطتين اثنتين:

- التعريف بالحكومة المؤقتة الجزائرية التي تمثل الجهاز التنفيذي للثورة الجزائرية والتي تتمتع بشرعية تمثيلها لإرادة الشعب الجزائري.
 - السعي للحصول على الاعتراف الرسمي بها من طرف الحكومة اليابانية.
- ومن أجل تنفيذ هذه المهمة عقد كيوان وبن حبيلس ندوة صحفية يوم 25 سبتمبر 1958، تناولوا فيها هذا الحدث السياسي الهام، والأهداف المرجوة

1-ANA: CNRA, Op.Cit."Rapport d'activité du MAE", PP: 3-5.

منه، وختما تصريحهما بتوجيه نداء للحكومة اليابانية لمد يد العون للشعب الجزائري من أجل أن يمكن من حقه في تقرير المصير¹.

ارتكز النشاط الدعائي لبعثة جبهة التحرير باليابان على دعم النقابات العمالية اليابانية التابعة للحزب الاشتراكي الياباني، وكذلك على دعم اللجنة اليابانية للتضامن الأفروآسيوي، وذلك للتعريف بالقضية الجزائرية لدى الرأي العام الياباني.

وحاول عبد الرحمن كيوان التأثير على الموقف الياباني في الجمعية العامة للأمم المتحدة من خلال حثه الحزب الاشتراكي الياباني على إرسال برقية إلى البعثة اليابانية بنيويورك في جانفي 1959، من أجل دعم القضية الجزائرية بالأمم المتحدة، كما حرص على ربط علاقات متينة ومنتظمة مع البرلمانين الاشتراكيين اليابانيين من خلال اللقاءات التي عقدها معهم في جانفي ومارس وأكتوبر 1959، وإذا كان تقرير وزارة الخارجية أكد على أنّ الاتصالات مع النواب الاشتراكيين، الأعضاء في لجنة الشؤون الخارجية قد أثمرت بتدخلهم لدى وزارة الخارجية اليابانية بشأن الموقف الرسمي الياباني من القضية الجزائرية، إلا أنّ الملاحظ على الموقف الرسمي الياباني أنّه بقي على حاله يسير في فلك الدول الغربية المعارضة للوائح التي تصبّ في صالح القضية الجزائرية في الجمعية العامة للأمم المتحدة.

مكّنت العلاقات الجيدة التي ربطت بعثة ج. ت. و، بطوكيو مع النقابات العمالية اليابانية، من الحصول على دعمها في القضايا المتصلة بقمع النقابيين الجزائريين ومصادرة الحقوق النقابية في الجزائر، وتجسّد ذلك في تنظيم حركات احتجاجية تزامنت مع محاكمة السلطات الفرنسية لنقابيين جزائريين في شهر جانفي 1959، كما نظّمت احتجاجات مماثلة بعد اغتيال

الشهيد عيسات ايدير الأمين العام للاتحاد العام للعمال الجزائريين في أوت 1959¹.

كما حرص كيوان على ربط الاتصال بوزارة الخارجية اليابانية من خلال لقاءه بموظفين سامين فيها، ويستغل الفرصة للفت نظرهم إلى القضية الجزائرية وبالأخص موقف اليابان في الجمعية العامة للأمم المتحدة، هذه اللقاءات حدثت في: جانفي، جوان، جويلية، أوت وسبتمبر 1959، وبسبب الموقف الرسمي الياباني المتحفظ وقلة الدعم الدبلوماسي للمثليين الدبلوماسيين العرب المعتمدين باليابان، طلب السيد كيوان في جانفي 1959، من الأمين العام للجامعة العربية السيد: حسّونة إصدار بيان حول سياسة اليابان تجاه الجزائر، وطلب منه كذلك التدخل لدى الدول العربية المعتمدة باليابان وهي: الجمهورية العربية المتحدة، لبنان، والعربية السعودية، من أجل دعم جهود ممثل الجزائر بطوكيو باسم التضامن العربي مع الشعب الجزائري، وهو ما تضمّنته الرسالة التي أرسلها كيوان إلى فرحات عباس رئيس الحكومة الجزائرية في 4 فيفري 1959، وبعدما لاحظ كيوان عدم إقدام الحكومة على إجراءات فعالة توجه برسالة إلى وزارة الخارجية للجمهورية العربية المتحدة يوم 6 جويلية 1959 واصفا موقف اليابان "بالمعتدل جدا"².

وفي شهر أوت 1959 شارك عبد الرحمن كيوان بشكل فاعل في الندوة الدولية ضد القنابل النووية والهيدروجينية، التي استضافتها مدينة

1-ANA: CNRA, Op.Cit. "Rapport d'activité du MAE", PP:4-5.

2- أشار تقرير وزارة الخارجية في هذا الموضوع إلى أن وزارة الخارجية لم تعلم برسالة كيوان عبد الرحمن، ومن أن الحكومة أهملت المسألة-موقف اليابان من القضية الجزائرية، أنظر:

ANA: CNRA, Ibid."Rapport d'activité du MAE", P4.

هيروشيما، وحضرها مندوبون عن اثنين وعشرين (22) دولة، حيث تدخل في الندوة وقدّم عرضاً موثقاً كان له أثراً كبيراً لدى الحاضرين، مما أثمر تخصيص فقرة في اللائحة الختامية للندوة، كما شهدت مختلف أنحاء اليابان إحياء يوم احتجاجي ضد التجارب النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية، وحضر كيوان كل التجمعات المناهضة للتجارب النووية، ليستغل الفرصة للتنديد بالسياسة الفرنسية في الجزائر.

وبمناسبة زيارة الوزير الفرنسي أندري مالرو¹ مبعوث ديغول إلى اليابان والذي جاء في مهمّة دعائية إلى المنطقة قام عبد الرحمن كيوان بحملة مضادة في شهر جانفي 1959، والتي ذكر بشأنها كيوان أنّها حظيت بتغطية إعلامية من الإذاعة والتلفزيون والصحافة المكتوبة، وأنّها حقّقت نجاحاً مُعتبراً والدليل على ذلك هو احتجاج السفارة الفرنسية عن طريق سفيرها بطوكيو، وبهذه المناسبة تمّ عرض فيلم "جميلة" في أفريل 1959 الذي كان له وقع إيجابي كبير في الرأي العام الياباني تجاه القضية الجزائرية².

وشملت اتصالات كيوان منظمات يابانية هامّة، مثل الصليب الأحمر الياباني، وجمعية الصداقة اليابانية العربية، وكان له لقاء آخر مع جمعية مسلمي اليابان والحزب الليبرالي الديمقراطي الياباني، ومنذ فيفري 1959 شرع عبد الرحمن كيوان في التحضير لإنشاء جمعية الصداقة الجزائرية اليابانية، وقام باستشارة شخصيات سياسية يابانية معروفة مثل السادة: كيتامورا رئيس سابق للحكومة، وهارا رئيس سابق للبرلمان، وتاكازاكي وزير

1- أندري مالرو ضابط عسكري ورجل فكر وسياسي فرنسي ولد سنة 1901، شارك كطيار في صفوف الجيش الجمهوري، قاوم الاحتلال الألماني تحت قيادة ديغول وعين سنة 1958 وزيرا منتدبا لدى الرئاسة، م. ع. الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر، ج: 2، دار هومة الجزائر، 1998، ص: 264.

2-ANA: CNRA, Op.Cit."Rapport d'activité du MAE", PP:5-6, Et voir aussi: Abderrahmane Kiouane:Op.cit, p52.

سابق، وماتسومورا وزير سابق وعضو الحزب المحافظ، وموزومي مسؤول الفرع الدبلوماسي في الحزب الاشتراكي¹.

وقامت بعثة ح. م. ج. ج بتنظيم حفل بطوكيو يوم 30 أكتوبر 1959 للاحتفال بالذكرى الخامسة لاندلاع الثورة الجزائرية، حضرته شخصيات سياسية يابانية ممثلة للأحزاب السياسية اليابانية، وقرأت فيه رسالة لوزارة الخارجية الجزائرية، ومن الأنشطة الإعلامية التي دأبت البعثة على القيام بها إصدار نشرية شهرية باللغة الفرنسية واليابانية كانت تصدر بشكل منتظم. اتسم الموقف الرسمي لليابان بقلّة التعاون مع جبهة التحرير الوطني والميل المفرط إلى الطرف الفرنسي، ومرد ذلك قدم العلاقات بين الدولتين، فمن الناحية السياسية وباعتبار فرنسا عضوا في منظمة حلف الشمال الأطلسي التي تحظى بالتعاطف من لدن الحكومة اليابانية، حليفة الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن بسبب استمرار السياسة الفرنسية في تعنتها وعدم تعاونها مع لحل سلمي تفاوضي ومضيها في مساعيها لامتلاك القنبلة النووية، تراجع هذا التعاطف وهو ما يفسّر زيارة الوزير الفرنسي مالرو إلى اليابان مرتين خلال سنة 1959².

وفي مطلع سنة 1960 شرع عبد الرحمن كيوان في مهمة سياسية إعلامية في دول الشرق الأقصى: كمبوديا، اللاوس، الفيليبين، وهذا تنفيذا لتعليمات من وزير الخارجية الجديد كريم بلقاسم في 18 مارس 1960، بهدف كسب مواقف هذه الدول في المعركة الدبلوماسية الدائرة رحاها في الجمعية العامة للأمم المتحدة³.

88. -Aderrahmane kiouane: Op.Cit, PP:491-

2-Idem,Et aussi: Aderrahmane kiouane: Op.cit,P.P:89-91.

3-Ibid,PP:87-90

خاتمة

شكل توجه دبلوماسية جهة التحرير - منذ وقت مبكر - نحو بلدان آسيا توجها استراتيجيا في سياستها الدبلوماسية لما تتوفر عليه هذه المنطقة من عوامل النجاح، من ضمنها تحرر كثير من دولها في فترة مبكرة عكس القارة الإفريقية، يضاف إليها تقدمية بعض دولها ووجود شخصيات وطنية سياسية قادت حركات التحرر فيها مثل نهرو الهندي وسوكارنو الاندونيسي، وكانت من ضمن الشخصيات العالمية التي ساهمت في بلورة حركة البلدان الأفروآسيوية حديثة الاستقلال ضمن كتلة اعتمدت الحياد الإيجابي ودعم حركات التحرر وتصفية الاستعمار.

استطاع ممثلو مكاتب جهة التحرير الوطني في كل من أندونيسيا والهند واليابان من تمثيل الثورة الجزائرية بنجاح معتبر، من خلال حضور فعاليات عديدة رسمية وغير رسمية ونسج علاقات مع أحزاب حاكمة أو معارضة وكذا مع منظمات غير حكومية، ودعوتها لمساندة الثورة الجزائرية من خلال تقديم مساعدات للاجئين الجزائريين على الحدود الشرقية والغربية ودعم تدويل القضية الجزائرية في الجمعية العامة للأمم المتحدة خصوصا.

كتابات فرانز فانون عن: المرأة الجزائرية المستعمرة بين التعنيف ومحاولات الاستلاب

د. سليم سايج

جامعة قسنطينة 02

تمهيد

يصنف النقاد فرانز فانون، كأحد أبرز وجوه الجيل الثاني من النخبة الفرنسية في "الأزمة الحديثة"، الذي تمرد على تعاليم جيل "النخبة الثقافية" المولع بالثقافة. فقد نشأ فانون، في ظل وجودية جون بول سارتر، وميرلوبونتي، وموريس وريمون آرون، الذين هيمنوا على الحياة الثقافية في فرنسا بين الحربين العالميتين، وخلال حرب الجزائر. وقد تجاوز فانون، التفاصيل الطاغية في فكر أساتذته، لينكب على دراسة الظواهر الجزئية الجوهرية في الفكر الوجودي كالرجل الأبيض، والرجل الأسود، والمستعمر، والمستعمر¹، وهو ما حدا بجيرار شاليان (أحد أهم المهتمين بتاريخ حركة الثورات التحريرية في العالم الثالث) إلى وصفه (فانون) بأحد الأساطير الثورية إلى جانب كل من أميلكار كابريال، وتشبي جيفارا².

1 محمد الشيخ، ما معنى "التفكيك"؟، مشروع التفكيك عند جاك دريدا أصوله الفلسفية وضوابطه المنهجية وتطبيقاته التربوية (1967-1984)، الطبعة الأولى، دار بدائل للطبع والنشر، مصر، 2014، ص.34-35.

2 نقلا عن حمدي عبد الرحمن، جيفارا الأفريقي، دراسة في الفكر السياسي لتوماس سانكارا، مكتبة جزيرة الورد، مصر، 2015، ص.05.

وعلى الرغم من قلة مؤلفاته (التي م تتعد الثلاث مؤلفات بالإضافة إلى الكثير من المقالات التي نشرت في عديد المجالات)، فقد أثار فرانز فانون بمضامينها (خاصة ما تعلق منها بشرعية العنف الثوري التحرري) الكثير من الجدل، خاصة من طرف النقاد الأوروبيين الذين اتهموه بالتكرار لقيم الثقافة الغربية. انطلاقا من هذه المقاربة، تحاول هذه الدراسة، تلمس موقف فانون من رهان الإدارة الاستعمارية الفرنسية، على المرأة الجزائرية بوصفها عماد الأسرة، لتفكيك المجتمع الجزائري، ومسح هويته.

1- لكن من هو فرانز فانون؟

ولد فرانز فانون في الـ 20 جويلية 1925، بعاصمة المارتينيك¹، فور دو فرانس (Fort de France). ينحدر من عائلة زنجية، تنتمي إلى طبقة البرجوازيين الأنثيلية (الصغيرة التي تدعي عدم انتمائها للزوج) عمل أبوه موظفا بالجمارك، وأمه بالتجارة.²

خلال الحرب العالمية الثانية، اعتقد فانون أنه أصبح بالفعل، يمثل جزءا من المكون الحضاري الغربي، فانساق إلى صف الدوغوليين في نهاية 1943، في أعقاب الانقسام الذي عاشه الفرنسيون خلال الحرب العالمية الثانية بين الجنرال دوغول (De Gaulle)، والماريشال بيتان (Pétain)، استجابة كما يقول فانون نفسه، لواجب الدفاع عن الحرية، إذ يروي

1 احتل الفرنسيون، المارتينيك في العام 1636، وفي العام 1946، أصبحت مقاطعة فرنسية. فرانسواز فرجاس، شبح فرانس فانون أو نسيان العالم الثالث، ترجمة س. لطفي، أعمال الملتقى الوطني الأول حول "فرانس فانون" المنعقد بجامعة الطارف من 12 إلى 13 جوان 2004، ص. 80
فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدرومي، وجمال الأتاس، دار الطليعة للنشر، بيروت، 1979، ص. 17، 20.

2 محمد الميلي، فانون كما عرفته، أعمال الملتقى الوطني الثاني حول "فرانس فانون" المنعقد بجامعة الطارف يومي 30 و 31 ماي 2005، ص. 53. وكذلك فرانس فارغاس، المصدر السابق، ص. 81.

صديقه محمد الميلي، أن قانون بلغ به الأمر إلى حد سرقة وبيع قطعة قماش فاخرة من ملابس أبيه، ودفعها ثمنا لتذكرة الالتحاق بالدوغوليين في "الدومينيك"، دفاعا عن الحرية واستجابة لنداء الواجب والضمير بوصفه فرنسيا.¹

لكن قانون المنتشي بالدفاع عن قيم الحرية، انهيار عندما وقف على زيف شعارات الغرب ونفاقه، وزادته مظاهر الاحتفالات قبل أسبوع من إعلان نصر الحلفاء، في ميناء طولون (Toulon) عندما كان يشاهد النساء والبنات، يهتفن للجنود الأمريكيين ويراقصنهم، وكن يرفضن أن يرقصن مع الملون. كانت مشاهدا جارحة فكان كتابه "بشرة سوداء أقنعة بيضاء" (Peau Noir Masques Blancs) الذي كتبه في سنة 1952، صرخة قانون وإدانتته لقيم الغرب الكاذبة.²

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، عاد لالتحاق بكلية الطب في ليون، ولكنه أيضا درس الفلسفة وعلم النفس³، وتخرج سنة 1953 كطبيب للأمراض العقلية، وعين بمستشفى "بونترسون" بالنورموني، ليحول في نفس السنة (23 نوفمبر 1953)، إلى مستشفى "جوانفيل" (البليدة حاليا).⁴ لعل صيحة قانون المنددة بزيف حضارة الغرب، تأتي في وقت تراجعت فيه الكثير من أصوات اليسار الذي ظل، يدعي الدفاع عن الإنسان في وجه

1 محمد الميلي، قانون كما عرفته، المصدر نفسه، ص.64. وكذلك محمد الميلي، فرانز قانون والثورة. المصدر السابق، ص.17.

2 محمد الميلي، قانون كما عرفته، المصدر نفسه، ص.64.

3 محمد الميلي، قانون كما عرفته، أعمال الملتقى الوطني الثاني "فرانز قانون" المنعقد 30-31 ماي 2005، بالطارف، منشورات مديرية الثقافة لولاية الطارف، ص.53.

4 فرانسوا فرجاس، شبح قانون أو نسيان العالم الثالث، الملتقى الأول "فرانز قانون" المنعقد بالطارف يومي 12 و13 ماي 2004، منشورات مديرية الثقافة- الطارف، ص.30، 80.

توحش الليبرالية، بل أنها تخلت عن الكثير من أطروحاتها وبرامجها، ولعلها كانت تريد بذلك، الحفاظ على وجودها في حد ذاته، بعدما جرفت المادية الليبرالية¹. وقد انتقد فانون، في أكثر من مناسبة، تراخي اليسار في الدفاع عن القيم الإنسانية: "...ولقد كنا نحب بكل تأكيد، العثور لدى الأطباء والمثقفين الأوروبيين في الجزائر، على الاهتمام بتخفيف التوتر، وتسهيل الاتصالات، وإزالة مأساة الصراع، بل المعروف على العكس، أن المثقفين الأوروبيين هم الذين تولوا توزيع المعمرين إلى فرق..."².

إن انفراد الدراسات الغربية بفكر فانون على الرغم من أن تجربة هذا الأخير في مقاومة الاستعمار والتحرير على استئصال الظاهرة الاستعمارية، ولدت في بيئة غير غربية (في موطن عربي مسلم)، أدى بشكل مقصود، إلى اختزال التجربة القانونية، في مسألتي "الغضب والعنف"، وقد سبقه إليهما الكثير من المفكرين التحرريين غير البيض كمالكوم إكس، والفهود السوداء، وكثير من المفكرين العرب والمسلمين والأفارقة، وتقديم فكر فانون على النحو، هو "تقزيم" مقصود، ويكاد يكون تقليدا مألوفا في الفكر الغربي الذي يقدم نفسه، على أنه الحامل دون سواه، للفكر التنويري حتى يظل هذا الأخير، حكرا على جان جاك روسو، وفولتير، وامانويل كانط، ونيودور أدورنو³.

لكن الطريف أيضا، أن النقد الذي طال فكر فانون، لم يطل فكر سارتر على الرغم من مؤازرته لفانون في مسألة العنف: "إن قتل المستوطن

1 محمود اسماعيل، المهمشون في التاريخ الأوروبي، رؤية للنشر والتوزيع- القاهرة، 2009، ص.11.

2 حول الموضوع، أنظر فرانز فانون، معذبو الأرض. المصدر السابق، ص.13- 56.

3 فرانز فانون، سوسيولوجية ثورة، ترجمة ذوقان قرقوط، دار الطليعة - بيروت، 1970، ص.151.

وكذلك ديفيد كوت، المرجع السابق، ص 9.

المستعمر ينتج عنه شيئان، قتل الظالم، وخلق أو ولادة إنسان حر"¹، ويذهب دي كابوا مثلاً، إلى حد رفع الحرج عن سارتر، بأن نعت مقدمته في "معذبو الأرض" بالمقدمة "الانفعالية" أي البعيدة عن المنطق الفلسفي، وإن كان في هذا، شيء من الصحة. فقد التزم سارتر "الحياد إلى حد الغياب"²، ويستشهد نقاد نظرية العنف الثوري (أو العنف الإيجابي)، بما ما سماه قانون نفسه بمزالق الشعور القومي حينما نبه، إلى أن استعجال العامة في البلاد الخارجة للتو من الاستعمار، في البحث عن التخلص من تبعات العهد الاستعماري التي ما تزال تطبق على حياتهم اليومية، في العمل، كما في المدرسة وفي الإدارات، جعل من البرجوازية الوطنية التي استلمت الحكم بعد خروج المستعمر، تتحول إلى وسيط ليس، بين الدولة المستقلة حديثاً وبين برجوازية الغربية التي هي ليست سوى "قناع الاستعمار الجديد"³.

على المستوى الفكري العام، لا يمكن إنكار التوجه الوجودي لفانون، لكن لا يمكن أيضاً في الوقت نفسه، التسليم بانغماس فانون، في كليات الفكر الوجودي. فقد انصرف فانون على مستوى الكتابة، إلى القضايا الجزئية التي تشكل جوهر الموضوعات الكلية الوجودية عند أساتذة الوجودية، وكتب عن الوجود انطلاقاً من مضامينه الجزئية، فتحدث عن العنصرية، وعن الاستعباد (في بشرة سوداء، أقنعة بيضاء)، وعن المستعمر، وعن المستعمر (في معذبو الأرض)، وعن العنف، وعن العالم الأهلي (في سوسيولوجية ثورة) وهو في هذا، يظل على مقربة من فكر المناضل والسياسي

1 ديفيد كوت، ص 11.9.

2 ديفيد كوت، المرجع نفسه، ص 14.

3 محمد الداخني، "لا مخرج: الوجودية العربية وجان بول سارتر وتفكيك الاستعمار"، مراجعة لكتاب "لا مخرج" لـ ليوناف دي- كابوا، في صفحة آفاق فلسفية على الرابط (afak.falssafeya@gmx.fr)، تاريخ الاطلاع 2019/08/28

وأستاذه في المارتينيك، إيميه سيزير (1913- 2008) الذي ناضل من أجل التحرر واستعادة الهوية الإفريقية، وهو صاحب (مجموعة من الكتب، أهمها "العبودية والاستعمار"، و"المشكلة الاستعمارية" وغيرهما¹، ويكون كتاب فانون "معذبو الأرض" الذي في سنة ألفه في سنة 1952²، قد جاء في سياق هذه الموجة من الكتابات.

وبعيدا عن الأسئلة التي يمكن أن تثار حول التحول المفاجئ في فكر فانون، من أنتيلي فرنسي مثقف لم تظهر عليه فيما مضى حينما كان شابا يافعا، أي من أنواع الانفصام أو الإحساس بالندم، الندم لتراخيه في الدفاع عن الوطن الأنتيلي والهوية الإنتيلية، سأحاول في هذه العجالة، تلمس مقاربة فانون في معالجة واحدة من القضايا الجوهرية في علاقة الاستعمار بشعوب المستعمرات بوجه عام، وعلاقة الاستعمار الفرنسي بالشعب الجزائري على وجه الخصوص. وسأحاول الحديث عن جانب مهم في هذه العلاقة، وهي المرأة بوصفها أساس البنية المجتمعية للشعب الجزائري.

في "سوسيولوجية ثورة"³، يشرح فانون الظاهرة الاستعمارية بكثير من الإسقاطات على التجربة الجزائرية، فلم يكن من الصعب عليه وهو الطبيب النفسي والعقلي والمفكر والفيلسوف، أن يرصد الظاهرة الاستعمارية، بكثير

1 ديفيد كوت، فرانز فانون (سيرة فكرية)، ترجمة عدنان كيالي، منشورات مدارات والنشر للأبحاث، مصر، ص. 31- 32.

2 هو أول كتاب قدمه فانون قدم لأول مرة كأطروحة طبية، لكنه رفض من طرف اللجنة العلمية التي تحفظت على الشكل الذي عليه جاء نشر سنة 1952، يقول عنه فانون أنه دراما بسيكولوجية تتناول عقد الأنتيليين الناتجة عن التمييز والاستعمار. فرانسوا فرجاس، المرجع السابق، ص. 80.

3 صدر لأول مرة تحت عنوان "العام الخامس للثورة الجزائرية"، وأعيد نشره بالفرنسية، ثم بالعربية تحت عنوان "سوسيولوجية ثورة" فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي، وجمال الأتاسي، دار الطليعة - بيروت، ص. 6.

من التحليل والدقة، وأن يرصد التناقضات التي تحملها في ثناياه، والأحسن في دراسة فانون هذه، أنه يرصد آليات زوال الظاهرة الاستعمارية. ولا ريب في أن يكون مؤلفه "سوسيولوجية ثورة" تجربة غنية مشفوعة بكثير من المعاشية والفكر والتحليل خاصة، وهي انعطاف على مؤلفه "معذبو الأرض" الذي آمن فيه بالعنف كشرعية للمضطهد، ووسيلته لاستعادة كرامة المستعمر المضطهد¹ أينما وجد، في الجزائر وفي الأنتيل، وفي كل أفريقيا.

على أنه من الصواب أيضا، التأكيد على ضرورة وضع كتابات فانون في سياقها الطبيعي، فهو وانطلاقا من كونه طبيبا وفيلسوبا، فهو وإن كان يكتب للتاريخ، فإنه لا يكتب بمنطق التاريخ، بل بمنطق وروح السوسيولوجي. ومن ثمة نراه لا يهتم بتدوين الأحداث التاريخية وتفصيلها، ويستدعي بعضها فقط، لتفسير الفعل التاريخي وفق منظور سيكولوجي، واضعا بلك صانع التاريخ أمام المسألة الأخلاقية.

2- المرأة... الحجاب

يفرد فانون في "سوسيولوجية ثورة، حيزا كبيرا لموضوع المرأة الجزائرية، من منطلق الحيز نفسه الذي مثلته هذه المرأة، في إستراتيجية الإدارة الاستعمارية الفرنسية للقضاء على الثورة الجزائرية: "وقد رأينا أن الإستراتيجية الاستعمارية لتفتيت المجتمع الجزائري، قد خصت على مستوى الأفراد، المرأة الجزائرية بمكانة من الدرجة الأولى..."².

1 فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي، وجمال الأتاسي، دار الطليعة- بيروت، ص.13-

14.

2 فرانز فانون، معذبو الأرض، المصدر السابق، ص. 83- 88. وكذلك ديفيد كوت، المرجع السابق،

ص.15- 17.

فقد خصص فانون أكثر من نصف مؤلفه (109 صفحة من 191) لموضوع المرأة، وكيف راهنت الإدارة الاستعمارية على دورها (المرأة) التفكيكي، لإضعاف الأسرة والمجتمع، ومن ثمة الثورة التحريرية برمتها. يعالج فانون موضوع المرأة الجزائرية، على مستويين، الأول وهو المستوى الرمزي التعبيري الذي يتمثله "الحجاب" كأحد أكثر أشكال المقاومة، استفازا للمستعمر. أما المستوى الثاني وهو المستوى الانفعالي أو الهجومي لمن اختارت منهن، العمل الثوري، وتخلت عن "الحجاب" بإرادتها الحرة، تكملة لواجب المقاومة الذي يدعوها هذه المرة، أن تقاوم بشكل آخر (تبعاً لضرورات المعركة)، أن "ترفع الحجاب" لتشارك بهذا "السفور الإرادي" الرجل، في مقاومة المستعمر بقوة السلاح.

"الجزائر تلقي الحجاب" هكذا اختار فانون عنواناً للحديث عن دور المرأة في معركة التحرير الوطني، عنوان يحمل الكثير من الرمزية ومن الدلالات. وقد جاء متمشياً مع صيرورة "معركة الحجاب" التي انبرت لها المرأة الجزائرية مع المستعمر الفرنسي، فكان "الحجاب" الذي أراد المستعمر نزعها عنها بكل الطرق والأساليب، أداة للممانعة والمقاومة في الشوارع والساحات، وحيثما يتواجد المستعمر، وكان الحجاب نفسه مرة أخرى حينما قررت هي بإرادتها الحرة، التخلي عنه لتسحب من المستعمر، سلاحاً ظل يشهره في منابره الدعائية، حينما كان يصف الحجاب بأنه "عادة بالية" وأن المرأة حبيسة لهذه العادة، فكان جواب المرأة الجزائرية، أن عبرت على أن حجابها الذي هو جزء من هويتها الثقافية، هو رمز لمقاومتها، وقد رفعته حينما اقتضت ضرورات الكفاح، لتلتحق بساحات المعركة، في الجبال وفي المدن.

وقد رمز فانون للمرأة بالحجاب (رمز المرأة المسلمة)، واستعاض عن المرأة بالجزائر لموقع المرأة في معركة التحرير الوطني ضد الاستعمار الفرنسي، فجاء

العنوان ليوضح فكرة أكبر، وهي أن الأساس في "معركة الحجاب" هي بقاء حجاب الظلم والعبودية، الذي قررت الجزائر أن ترفعه في الفاتح نوفمبر 1954، لتحرير الوطن واستعادة كرامة أبنائه.

لا يتوانى فانون في التعبير، على أن "الحجاب"، كان مدار معركة ضخمة، عباً لأجلها الاحتلال الفرنسي، موارد ضخمة ومتنوعة، غير أن المستعمر المجرد من "الموارد"، بسط لها قوة من الصمود المذهل، ويحيلنا فانون إلى أن "معركة الحجاب"، لا تعود للراهن التاريخي، بل تعود بداياتها إلى سنوات 1930-1935، عندما عززت السلطات الاستعمارية الفرنسية، إمكانات أجهزتها الإدارية العسكرية المختلفة، لتحطيم "الحجاب" الذي يمثل أحد أهم الأشكال التعبيرية، التي تبرز محافظة المرأة على أصالتها وهويتها الجزائرية، وهو جزء من "الحجاب" العام الذي يمنع عن المستعمر، كشف أسباب مقاومة الشعب الجزائري برمته، لسياسة المسخ والتفكيك، الاستعمارية.¹

لقد إنبتت سياسة الإدارة الاستعمارية الفرنسية، على استمالة المرأة واستلابها من هويتها الجزائرية. ويقول فانون، أن: "...ذلك أن الصمود في وجه المحتل إزاء هذا العنصر المحدد- أي الحجاب- معناه إلحاق الفشل به على مرأى من جميع الناس..."، أبعاده في الصراع وفي الحرب فقد كانت، تدرك أنه متى تحقق ذلك، أمكنها جر الشعب الجزائري بكامله: "إذا أردنا أن نضرب المجتمع الجزائري في صميم تلاحم أجزائه، وفي خواص مقاومته، فيجب علينا قبل كل شيء، اكتساب النساء، ويجب علينا السعي للبحث عنهن، خلف الحجاب حيث يتوارين، وفي المنازل حيث يخفين الرجل" و: "لنعمل على أن تكون النساء معنا وسائر الشعب سوف يتبعنا". هكذا وعلى هذا النحو،

1 فرانز فانون، معذبو الأرض، المصدر السابق، ص. 83-88. وكذلك ديفيد كوت، المرجع السابق،

سارت الإدارة الاستعمارية لجعل المرأة، المدخل الرئيس لخلخلة وتفكيك البنية الاجتماعية للكيان الجزائري، عبر التركيز على إظهارها في صورة الضحية البائسة التي تركز تحت سلطة رجل "غير إنساني" جردها من ذاتيتها وقيمتها¹.

ويعدد فانون، الكثير من الأساليب والوسائل التي اعتمدتها الإدارة الاستعمارية، "لإقناع" المرأة الجزائرية، بالثورة والتمرد على سلطة الرجل، والخروج عن إرادته، لتغيير مصيرهن: "... وما دامت زوجة الجزائري، لم تكفى له القدر، فإنه يبقى مطمئنا ويصمد في وجه الاستعمار". وقد تراوحت هذه الأساليب، بين الترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى.

أولا بالترغيب عبر مختلف "جمعيات التضامن والتعاون مع النساء" التي كانت تزعم، الدفاع عن الحقوق "المغتصبة" للمرأة الجزائرية، وتتأسس كطرف لرفع الشكاوى ضد الرجل (الزوج) الجزائري².

وبالفعل، فسوف يتعزز هذا الاتجاه بعد اندلاع الثورة، عبر عمل "الفصائل الإدارية المتخصصة" (SAS) التي أنشئت في الـ 25 سبتمبر 1955، وارتكز عملها (في إطار الدعاية والحرب النفسية) على الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية، كالصحة والتعليم وغيرهما. ففي الميدان الصحي، توسعت نشاطاته إلى إنشاء "فرق المساعدة الطبية" (Groupes d'Assistance Médicale) التي تم إنشاؤها في جويلية 1956، وعززتها "الفرق الطبية الاجتماعية الجواله" (Groupes médico-sociales itinérantes) في سنة 1957. وهي فرق تتظاهر بتقديم المساعدة الطبية والاجتماعية للسكان، غير

1 فرانز فانون، سوسيولوجية ثورة، المصدر السابق، ص. 25، 27، 39.

2 المصدر نفسه، ص. 27-28.

أن هدفها، هو الوصول إلى إحداث تغيير في الوسط النسائي¹. وثانيا، من خلال تكريس المزيد من الضغوط النفسية العنيفة، على المرأة الجزائرية، وتوجيه عبارات الذم والاحتقار، في كل مناسبة. ويقول فانون أن مع كل توزيع للقدر الهزيل من المساعدات الغذائية التي لا تتعدى الكيلو الواحد من الدقيق لكل فرد، يجري إسماع المرأة الجزائرية، صنوف من عبارات السخط على الحجاب، وعلى الوضع الأسري لها. هذا السخط والقدح، ليس هذه سوى، مرحلة التمهيد لما هو أهم بالنسبة لأعوان الإدارة الاستعمارية، وهو تحريض النساء على رفض التبعية لأزواجهن، "تبعية فرضت منذ عصور" ليوصف لهن بعد ذلك، الدور الذي يجب عليهن القيام به².

ثالثا- لكن على خلاف ما سرده من أساليب التضيق والمحاصرة النفسية، يبدو فانون أكثر انفعالا وهو يتحدث عن ظاهرة اغتصاب النساء الجزائريات من قبل جنود الاحتلال، في واحدة من أقصى مظاهر الهمجية الاستعمارية التي تنم عن إفلاس "المشروع" الاستعماري، وقرب نهايته، لذلك نراه يعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى، في "سوسيولوجية ثورة". فقد أثار فانون في مؤلفه "معذبو الأرض"، الألم والاضطراب النفسي الكبيرين اللذين يحدثهما فعل الاغتصاب على المرأة وعلى زوجها على حد سواء، وهي الحقيقة التي وقف عليها فانون حينما كان يستمع (أثناء المعاينة) إلى أحد أفراد جبهة التحرير، أرسلته له "الدائرة الصحية لجبهة التحرير الوطني" نظرا لتدهور حالته النفسية بسبب ما وصله من أنباء عن تعرض زوجته للاغتصاب من

1 فرانز فانون، سوسيولوجية ثورة، المصدر السابق، ص.29

2 إستراتيجية العدو الفرنسي في القضاء لتصفية الثورة الجزائرية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص.179، 319

طرف جنود الاحتلال "عقابا لها على صمتها - لأنها- لم تذكر لهم اسما واحدا على الأقل من المناضلين، فمهدوا إلى الشبكة ويحطموها.."، وتطلب منه ويصف قانون، كيف استسلم هذا المناضل برغم المساعدة الطبية النفسية التي كان يخصصه بها، للكثير من الكوايس والتشنجات النفسية العنيفة التي أنهكته.. وأثرت على نشاطه الثوري بشكل واضح، رغم ما كان يبيده من إرادة على تجاوز هذه الحالة¹.

يحولنا قانون مرة أخرى في "سوسيولوجية ثورة"، إلى أن المستعمر وهو يقترب جرم الاغتصاب، فإنه بذلك يكون قد "اتخذ شكلا بهيميا، وسادية شبه عصبية" يربطها قانون بالطبيعة الإجرامية للاستعمار: "... إن هجمات الجيوش على القرى ومصادرة الأموال وهتك أعراض النساء، ونهب البلاد، قد أسهم في نشوء هذه الثورة الديناميكية نفسها وبلورتها- في إشارة لثورة أول نوفمبر 1954- فإن تذكر هذه الحرية المعطاة لسادية المحتل ولخلاعته، تخلق على مستوى الترسبات النفسية لدى المحتل، شقوقا ونقاطا خصبة حيث تستطيع أن تطفو في آن واحد، ألوان من السلوك المتعلقة بالأحلام وفي بعض المناسبات، تصرفات إجرامية". إن فقدان المستعمر لكل أمل في تطويع المرأة والمجتمع الجزائري، سوف ينقله إلى تبني سلوكات "بهيمية وسادية"، ولا فرق هنا بين الأحلام والواقع².

ويواصل قانون، أن سياسة المحاصرة، كانت أسلوبا ممنهجاً، لم يقتصر على المرأة لوحدها، بل طال الأسرة برمتها. فقد تعدت الضغوط والإكراهات النفسية، لتطال الرجل هو الآخر. فكثيرا ما كانت تحاصره أسئلة الأوروبيين، في المعمل وفي المكتب، عن زوجته إن كانت سافرة أو محجبة،

1 فرانز قانون، سوسيولوجية ثورة، المصدر السابق، ص.29

2 فرانز قانون، معذبو الأرض، المصدر السابق، ص.149-152.

ولماذا لا يصطحبها معه، بل أنه كثيرا ما كان يتعرض لأساليب المساومة على عمله، وله أن يختار إما إحضار زوجته إلى مناسبات أعياد الميلاد أو رأس السنة الميلادية، وبالتالي "تعريض زوجته للمهانة (...)" وعرضها على الأنظار، والتخلي عن كيفية من المقاومة"، وإما الامتناع ومن ثمة، مغادرة العمل كرها. كما الأمهات والآباء، البنات في المدارس هن أيضا، لم تسلمن من أسلوب الحصار هذا، فكثيرا ما تعرضن لأساليب المسخ والإغراء المسموم، من قبل المعلمين الأوروبيين ومن الراهبات اللواتي كن يكثرن من عبارات المدح "العجيب" على المراهقات النجيبات، ليصار إليهن، تمرير أفكار "التحرر" المسموم، وإذا ما تعرضت البنت للتوقيف، فلا تتوانى إدارة المدرسة، يقول فانون، في اقتراح قبول الفتاة في القسم الداخلي، حتى تجنب الأب، إحراج العائلة والقبيلة¹.

3- المرأة الثائرة أو المرأة حين قررت أن ترفع حجابها

مرة أخرى، يحيلنا فانون إلى رمزية أخرى حينما أراد الحديث عن التحاق المرأة الجزائرية بميادين المعركة التحريرية المسلحة، فأختار مرة أخرى شكلا آخر من أشكال الصمود والمقاومة التي أظهرها الشعب الجزائري في مواجه المستعمر الفرنسي، وهي الأسرة، كمنطلق لبداية التحول في موقف المرأة الجزائرية والمجتمع الجزائري، التي فرضها الكفاح التحرري الوطني: "لقد أقلع الناس عن الحجاب أثناء العمل الثوري، فإن ما كان مبعثه الاهتمام لتفشيّل هجمات المحتل البسيكولوجية والسياسية، قد أصبح وسيلة وأداة. فالحجاب يساعد الجزائرية في الإجابة على المسائل الجديدة التي يطرحها الكفاح².

1 فرانز فانون، سوسيولوجية ثورة، المصدر السابق، ص.38.

2 فرانز فانون، سوسيولوجية ثورة. المصدر السابق، ص.57.

لا شك أن مواجهة الحرب الشاملة التي كان المستعمر على الشعب الجزائري، "وتمسكه الجنوني بالأرض الوطنية"، كان يتطلب من المجتمع الجزائري، تحولا جذريا على المستوى الفكري والاجتماعي، وسوف تظهر معالم هذا التحول، مع انقضاء العام الأول من عمر الثورة. " سوف يتبدل موقف المرأة الجزائرية ومجتمع السكان الأصليين، بتبدلات هامة بمناسبة كفاح التحرير.. فقد أديرت المعركة حتى عام 1955 من قبل الرجال فحسب، إذ أن الخصائص الثورية المميزة لهذه المعركة وضرورة السرية المطلقة، ألزمت المناضل على إبقاء زوجته في جهل من ذلك جهلا مطبقا (...) وبالتدريج، فإن الشعور بالحرب الشاملة، قد فرض نفسه.. كانت وسائل العمل الثوري قد اتسع نطاقها إلى حد بعيد (...) ولم يكن بالإمكان، النظر إلى النساء باعتبارهن فئة بديلة، وإنما كعنصر قادر تمام القدرة على مواجهة المهمات الجديدة"¹.

على هذا النحو إذن، كان على قيادة الثورة تجنيد المرأة الجزائرية في مختلف أشكال المعركة، فكن في الجبال. لكن أي المهام سيعهد للمرأة القيام بها(؟) خاصة وأن تجنيد المرأة على نحو غير مدروس، يضع الثورة أمام الكثير من المخاطر، فقيادة الثورة وقد مر كثير منهم بسجون العدو، أو من معسكرات الاعتقال ومن زنانات البوليس الفرنسي، أو سمعوا ممن نجوا من مطارداته، كانوا على يقين أن "كل جزائرية توقف سوف تعذب حتى النوت". كما أن طبيعة المرأة، خاصة امرأة المدن التي تفتقد "السهولة والاطمئنان"، يجعل من نشاط المرأة خاصة في الأفق الضيقة في المدينة حيث الدروب والشوارع الضيقة، والأرصفة المنبسطة وحركة العربات، كل هذا، يجعل كل محاولة للزج بالمرأة في العمل الثوري المباشر، أمر صعب، لكن "أمام المسائل اليومية المستعجلة المطروحة من قبل الثورة، أقر تجنيد العنصر المؤنث، بالتعيين في

1 فرانز فانون، سوسيولوجية ثورة، المصدر السابق، ص.39-40.

الكفاح الوطني"¹.

4- أشكال نضال المرأة ضمن هياكل الثورة

أ- داخل خلايا الدعم والإسناد

وتبعاً للاعتبارات السالفة الذكر، فقد بدئ بتجنيد النساء ضمن خلايا الثورة المالية والإستعلامية، وقد جرى في البداية، تجنيد النساء زوجات المناضلين، اللواتي ذقن صنوفاً من التعذيب ومن امتهان لكرامتهن، بسبب اكتشاف السلطات الاستعمارية، لنشاطات أزواجهن، فالتحقن بصفوف الثوار، ولحقت بهن بعض المطلقات والأرامل (اللواتي عانين من الجهل والفقر والبؤس). لكن وأمام تزايد رغبة الفتيات في التطوع، جعل قيادة الثورة، تقبل بتجنيد النساء بلا قيود. وهكذا أصبحت المرأة المحجبة، ضابطة اتصال أو ناقلة منشورات وهي ما تزال محجبة².

لكن سوف يتغير عمل المرأة بشكل "لم يكن ليصدق مطلقاً"، فانتقلت من حالة المقاومة التقليدية (بالتزامها بالحجاب) إلى حالة المقاومة، بـ "السفور" - الذي اقتضته ضرورات المعركة- في شوارع ومدن الأوروبيين، متقمصات مختلف الأدوار المدنية والثورية. وقد أحرزن بنشاطهن الجديد، انتصارات باهرة، جعلت المراقبين، يشبهون بعض المناضلات، بالعمليات السريات في الأجهزة المتخصصة. لقد كسرن، الحصار الذي كان يضربه الاستعمار على المدن، فكانت المرأة، حلقة الربط بين تنظيمات الثورة في المدن الكبرى كالعاصمة وهران وقسنطينة، فكن يقمن بنقل أوامر الثورة الشفوية البالغة التعقيد³.

1فرانز فانون، سوسيولوجية. المصدر السابق، ص 40- 43.

2 المصدر نفسه، ص. 43.

3 المصدر نفسه، ص. 43، 40، 45.

هذه الحقيقة، تشير إليها المجاهدة أنيسة بركات، إذ تؤكد أن المرأة في المدن، نهضت بكل الأدوار داخل هيئات الثورة، من المناضلة المسبلة التي تقوم بتنظيم الخلايا النضالية النسائية لتعبئة الجماهير، والقيام بأعمال الاستخبار عن العدو، وتوزيع منشور وبلاغات الثورة، وجمع الاشتراكات والتبرعات لصالح الثورة، والقيام بإيواء المناضلين والمجاهدين، إلى الفدائية التي تقوم بنسف مراكز الشرطة والدرك، والمقاهي والملاهي ودور السينما، كما كانت تقوم بتخزين بنقل الأسلحة والوثائق، وحماية المناضلين داخل المدن، بعد كل عملية تخريب. وقد اعترف الجنرال ماسو (Massu) بالدور الذي لعبته المرأة الجزائرية في ثورة التحرير، وأنها استطاعت، أن تخترق الأوساط التي تريدها دون إثارة انتباه الأجهزة الأمنية الفرنسية، خاصة في المرحلة الأولى التي كانت فيها الشكوك بعيدة عنها. وبصفتها مسؤولة عن الاتصال، تمكنت المرأة من القيام بمهام في غاية الدقة، وهي في غاية الانبساط من مظهرها المتحرر (في إشارة إلى سفورها)، لعل من أبرز بطولات المرأة، ما كتبتة شجاعة مناضلات ومجاهدات من أمثال جميلة بوحيرد، وزهرة ظريف، وحسيبة بن بوعلي، وجانين بلخوجة، وغيرهن. وقد تعرضت الكثيرات من النساء المناضلات والفدائيات، لأبشع أنواع التعذيب بعد أن رفضن الكشف عن أسرار الثورة¹. ويعبر فانون عن نجاح المرأة الجزائرية في تقمص المظهر الأوروبي بالقول: "... وهكذا تتطور المرأة الجزائرية السافرة، كالسمكة في المياه الغربية، يبتسم لها العسكريون وتبتسم لها الدوريات الفرنسية وهي مارة، ومن هنا وهناك، ترشقها الإطراءات حول مظهرها ولكن لا أحد يشك أن في

1 أنيسة بركات، ص. 51-57. وكذلك بسام العسلي، المجاهدة الجزائرية، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، ص. 40. لمزيد من المعلومات حول موضوع تعذيب النساء المناضلات والمجاهدات، يرجى العودة لبسام العسلي، المرجع نفسه، ص. 97-121.

حقائبها يقبع المسدس- الرشاش الذي سوف يحصد عما قليل، أربعة أو خمسة من أفراد إحدى الدوريات". لكن ابتداء من سنة 1957، سوف تضرب على النساء السافرات من الجزائريات وحتى الأوروبيات بعد اكتشاف أمر مشاركتهن في الثورة، وأصبح الجميع يخضع للتفتيش والاستجواب، فعاد "الحايك" (الحجاب) إلى الظهور من جديد¹.

ب- المرأة المجاهدة في الجبال

لكن فانون الذي أسهب في الحديث عن دور المرأة في شبكات الدعم والإسناد في المدن، لا نجده أنه يولي نفس الحماسة عندما يتحدث عن دور المرأة المجاهدة في ساحات المعارك الجبال، ويمر سريعاً على بعض المهام التي اضطلعت بها المرأة في جهات القتال، واكتفى بالإشارة إلى بعض المهام التي اضطلعت بها (المرأة) في المراكز الصحية ومراكز النقاهاة في الجبال، كالتمرريض وإسعاف، الجرحى والمرضى². ويشعر فانون بهذا "التقصير" لكنه يجد لنفسه العذر حينما يذكر القارئ بأنه يكتب كطبيب نفساني، ويوجه الدعوة للدارسين وأهل الاختصاص في التاريخ، لدراسة الأدوار التي قامت بها، المرأة والتي لا يكاد يخلو منها، أي نشاط من أنشطة الثورة: "أننا هنا نتبع طريقة وصف المواقف، فهناك على العكس، عمل قائم بذاته يجب أن يجري حول دور المرأة في الثورة، المرأة في المدينة وفي الجبل وفي الإدارات العدو، والمرأة المومس والمعلومات التي تحصل عليها، المرأة في السجن أو هي تحت التعذيب، أو في مواجهة الموت أو أمام المحاكم. إن جميع هذه البنود، لا بد أن تتكشف

1 فرانز فانون، سوسيولوجية. المصدر السابق، ص. 51، 54.

2 المصدر نفسه. ص. 40.

بعد تفحصها، عن عدد لا يحصى من الوقائع الأساسية في تاريخ الكفاح الوطني¹.

مع ذلك، لا يبدو فانون أكثر من ذلك الطبيب النفساني الذي لا يرغب بالحديث إلا عن التجارب التي عايشها (في المدينة)، تماما كما يفعل في أعمال التطبيب، إذ لا يمكنه وصف العلاج للمريض إلا بعد المعاينة، لذلك كما يبدو، ترك فانون الحديث عن تجارب المرأة في الجبال، لغيره ممن عايشوا وقائعها.

وفي الفصل الثالث، يبدي فانون اهتماما أكبرا بتفسير "الانقلاب" والتحول الذي حدث، في فكر وسلوك المرأة الجزائرية التي ظلت حبيسة بيئة محافظة "لا تسمح بأي تجديد"، يهيمن فيها الرجال على مجمل مظاهر الحياة، ليس للمرأة فيها إلا أن "تأخذ مكانها في شبكة التقاليد المنزلية الواسعة في المجتمع الجزائري"، سوف تتحول إلى "حلقة صغيرة أساسية في بعض الأحيان في الآلة الثورية، تعرف السلاح، تعرف مخابئ هامة..."، ولم يحدث ذلك، إلا لأن "تلك القيود جميعها، هي التي سوف تُقلب قلبا كاملا..."². لا شك أن مفهوم الثورة، قد أحدث تصورا جديدا، أعاد فيه للمجتمع الجزائري تجديد نفسه بما يستجيب لراهن البلاد. فقد أوجت حرب التحرير بما حملته من ويلات، للجزائريين، أن عليهم إعادة صياغة قيم جديدة تحقق لكل فرد من أفرادها، رجالا كانوا أو نساء، موقعا يتيح له تحديد موقعه وموقفه من الثورة، بعيدا عن إكراهات "الولاء للأسرة".

وهكذا وبالنسبة، فقد استجابت الأسرة سريعا، ولم تعرقل التحول المطلوب، ويقول فانون أن منبع هذا التحول هو الأسرة التي لطالما اعتبرت

1 فرانز فانون، سوسيولوجية. المصدر السابق، ص. 53.

2 المصدر نفسه، ص. 106.

بأنها المانع لأي تغيير: "أن أهم نقطة في هذا التبدل كما تبدو لنا هي (...) الأسرة المتجانسة". فقد بدا للجميع فيها، أن ما كان يعده "حقائق ثابتة لا تتبدل"، ثبت اليوم عقم هذه الحقائق ووجب تركه، فلم تعد تلك الفتاة التي ظلت حبيسة الأعراف وتقاليد الأسرة (الجزائرية) المحافظة، وسوف تقلب هذه القيود الأسرية¹، انقلابا مفاجعا للمستعمر.

والحقيقة، أنه ما كان للمرأة أن تعرف كل هذا التحول لولا جملة المفاهيم الجديدة التي أحدثتها الثورة في "الأسرة الجزائرية وتحولها وتغييراتها الكبرى". فقد طال التغيير كامل الأسرة، وتخلّى الأب عن جزء من سلطته الأحادية المطلقة التي لا تناقش، لصالح باقي أفراد عائلته، وأصبح الابن الذي انضم إلى الثوار سرا، وهو الذي لم يكن إلى وقت قريب ليس إلا جزءا من أبيه، يجاهر ويدافع أمام أبيه، عن صحة مسلكه الجديد. وشيئا فشيئا، يقتنع الأب بصواب رؤية ابنه، ويدرك أنه لا سبيل أمامه للإبقاء على وجوده - ووجود الأسرة وعشيرته والمجتمع عامة - سوى الانضمام لصف الابن الذي سوف يكون في الأخير هو من يدفع الأسرة إلى دائرة حركة التحرير الواسعة².

وعلى ذات المنوال، وأمام اتساع الثورة وتعدد أساليب المواجهة، تزداد حاجة الثورة لتجنيد المرأة في العمل الثوري، فتبدو المرأة السافرة (التي خلعت حجابها) في كل مكان. فهذه المرأة يقول قانون، التي تنقل في طرقات الجزائر أو قسنطينة، القنابل اليدوية أو خزانات البنادق، أو البنادق سريعة الطلقات، لم تعد تعنيها، التفاصيل الخاصة بتصرفاتها "المسلكية القديمة" لذلك تجدها جنبا إلى جنب أخيها الرجل في كل مواضع المعركة من أجل تحطيم النظام الاستعماري، وسوف تؤدي المرأة الجزائرية، الأدوار الموكلة إليها

1 فرانز فانون، سوسيولوجية. المصدر السابق، ص. 98، 103.

2 المصدر نفسه، ص. 97، 101-103.

بمستوى رائع من الثبات وضبط النفس والنجاح، ولم يعوزها في ذلك، قصر الفهم لدى بعض الأسر الذي يصل أحيانا إلى مواقف قاسية، وستواصل المرأة الجزائرية أداء جميع المهمات التي تسند إليها¹.

خاتمة

على هذا النحو الدياليكتي، يشرح قانون كيف استطاع المجتمع الجزائري أن يكيف منظومة قيمه التي ورثها جيلا عن جيل حينما أدرك أنه لا سبيل لتغيير رايه، فهضت الأسرة برمتها، "تتنازل" عن جزء جوهري من كينونتها القديمة، لصالح تحرير الوطن، دون أن يصاحب هذا التنازل، أي من الشقاق أو التصدع في العلاقات البينية داخل الأسرة.

ولا ريب في أن تلعب المرأة التي تمثل خاصرة الأسرة والمجتمع، دورا بارزا في مقاومة المستعمر الفرنسي، فهي التي أرهقت الدوائر الإدارية الاستعمارية، وكانت حصنا تكسرت أمامه مختلف سياسات هذا المستعمر.

إن قانون وهو يحيلنا إلى جملة التحولات التي فرضها الكفاح المسلح على المجتمع الجزائري، إنما كان ذلك في حقيقة الأمر، تكيفا مع ظروف المقاومة، وتكملة لمسار المقاومة الذي كان قد بدأه الشعب الجزائري منذ أن وطئت أقدام المستعمر، أرض الجزائر في سنة 1830.

المراجع:

- 1- محمد الشيخ، ما معنى "التفكيك"؟، مشروع التفكيك عند جاك دريدا أصوله الفلسفية وضوابطه المنهجية وتطبيقاته التربوية (1967- 1984)، الطبعة الأولى، دار بدائل للطبع والنشر، مصر، 2014.
- 2- صدر لأول مرة تحت عنوان "العام الخامس للثورة الجزائرية"، وأعيد نشره بالفرنسية، ثم بالعربية تحت عنوان "سوسيولوجية ثورة"، ترجمة سامي الدروبي، وجمال الأتاسي، دار الطليعة - بيروت.
- 3- فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي، وجمال الأتاسي، دار الطليعة - بيروت.
- 4- ديفيد كوت فرانز فانون سيرة فكرية، ترجمة عدنان كيالي، مدارات للأبحاث والنشر، مصر، 2017.
- 5- محمود اسماعيل، المهمشون في التاريخ الأوروبي، رؤية للنشر والتوزيع- القاهرة، 2009.

- 6-فرانز فانون، سوسيولوجية ثورة، ترجمة ذوقان قرقوط، دار الطليعة – بيروت، 1970.
- 7-محمد الدخاخي، "لا مخرج: الوجودية العربية وجان بول سارتر وتفكيك الاستعمار"، مراجعة لكتاب "لا مخرج" لليوناف دي-كابوا، في صفحة آفاق فلسفية على الرابط (afak.falssafeya@gmx.fr)، تاريخ الاطلاع 2019/08/28.
- 8-إستراتيجية العدو الفرنسي في القضاء لتصفية الثورة الجزائرية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.
- 9- بسام العسلي، المجاهدة الجزائرية، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت.

أرشيف المنتصر قراءة في الأرشيف الفرنسي وواقع كتابة تاريخ الجزائر

د. إدريس لعبيدي

جامعة الطارف

i.labidi@univ-eltarf.dz

مقدمة

في إطار إبراز أهمية التاريخ وإحيائه وتعريف الأجيال الصاعدة بتاريخ وتراث هذا الوطن فإننا نساهم بهذه المداخلة التي تبين مدى أهمية التاريخ والذاكرة الوطنية، ارتباطها بالأرشيف والمذكرات، كأدوات ضرورية لكتابة التاريخ بموضوعية.

لقد ظهرت كثير من الدراسات التاريخية، والكتابات السياسية والأدبية عن ثورة نوفمبر وأسبابها ونتائجها وعناصر القوة فيها، ولكن ما كتب اليوم عن هذه الثورة في الحقيقة، وبالقياس إلى ما يجب أن يكتب، قليل من كثير، ولعل الصعوبة التي تساور سبل الباحثين والمؤرخين تتمثل في انعدام الوثائق المادية طورا وندرتها طورا ثانيا، مما أملى علينا أن أقوم بهذه المحاولة الصغيرة البسيطة، ارتأيت تقديمها تحية زكية عطرة لثورة محررة، رائدة، حررت الإنسان الجزائري¹. تتمثل هذه المحاولة في موضوع بعنوان: أرشيف المنتصر.

1-دوافع اختياري للموضوع

لا شكّ في أن لاختيار أي موضوع دوافع متنوعة لعلّ ما دفعني لخوض هذا الموضوع الهام والحساس في نفس الوقت هي الرغبة في الخروج من تلك

1- عبد المالك مرتاض، المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية، 1954-1962، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، الغلاف الخارجي.

الرتابة أو الروتين الذي لزم الحديث عن الثورة الجزائرية، حيث في كل مرة يعاد سرد الأحداث التاريخية المناسبة، كما أن للموضوع علاقة بأهمية الأرشيف في كتابة التاريخ بصفة عامة وتاريخ الجزائر بصفة خاصة.

والذي حفزني بشكل مباشر هو قراءتي لموضوع ورد في إحدى الصحف اليومية الجزائرية بتاريخ 15 جانفي 2015 يتضمن موقف كاتب الدولة الفرنسي المكلف بقدماء المحاربين والذاكرة (جون مارك دوتشيني) حول الأرشيف الفرنسي في فترة الاستعمار الذي قال بخصوصه بأنه لا يزال محكوما بالسرية لعدة أسباب من بينها مصالح الدولة الفرنسية الأساسية، وأضاف يقول هناك نوع من الأرشيف لا يمكن الاطلاع عليه إلا بعد انقضاء مدة معينة من أجل حماية الحياة الخاصة للأشخاص وضمان بعض المصالح الأساسية للدولة، كالوثائق التي تمس أسرار الدفاع مثلا¹، فما هي القيود التي يعاني منها تاريخ الجزائر ترى؟

2- واقع تاريخ الجزائر

في حقيقة الأمر يخضع تاريخنا إلى قيود مزدوجة، فقد تسلمنا فترة ما قبل الإسلام منه، في الصيغة التي ارتضتها له الإمبراطورية الرومانية، والتي كادت لم تحتفظ لنا من بعض عظماء تلك الحقبة أمثال صيفاكس، والقدیس دونا، وتاكفاريناس، إلا بأسمائهم نظرا للمعاناة التي لقيتها منهم. وبقي تاريخنا الحديث رهين الطرح الفرنسي، فبالإضافة إلى المخطوطات النفيسة التي أتلقت عن قصد إبان الغزو، فإنّ جل محفوظات الجزائر تم نقلها غداة الاستقلال إلى أكس آن بروفانس، وباريس، وفانسان،

1- محمد سيدمو، برلماني فرنسي يتلقى ردا من كاتب الدولة لقدماء المحاربين، باريس تغلق باب الاعتراف بجرائم الاستعمار وتحرير الأرشيف، جريدة الخب اليومي، العدد 7617، الخميس 15 جانفي 2015.

وغيرها من المتاحف الفرنسية في خرق سافر للقوانين الخاصة بالملكية الفكرية.

وكما قيل يبقى الشعب الجزائري يعاني، من مرض "فقدان الذاكرة" مادامت هذه المحفوظات ذات الطابع القانوني والأدبي والسياسي والأمني محجوزة هناك وينظر إليها وكأنها غنائم حرب.

وكانت بالماضي رواية الأحداث عن طريق السماع مضمونة الجانب داخل مجتمعاتنا المتينة المهيكلية، لكنها اليوم معرضة للمسح جراء تفكك الفضاءات الاجتماعية، ورحيل من صنعوا الحدث ومن عايشهم من أبناء جيلهم.

ويقدر بالنسبة لنا رحيل كل جزائري من الجيل القديم خسارة لا تعوز لأنه يأخذ معه قطعة نفيسة من ذاكرتنا الجماعية، وقد سمحت فترة الاعتقال لعدد من المعتقلين الشروع في صياغة مذكراتهم، أو على الأقل في جمع رسائل اعتقالهم، لكن هذه الشهادات المكتوبة قد تم حجزها أو إتلافها من طرف إدارة السجون، وقليل جدا منهم من حاول بعد الاستقلال جمع شتات الأفكار التي دونوها في السجون، إلا أنهم وجدوا أنفسهم في خضم مهام جديدة لا توفر لهم أدنى وقت للكتابة، أو انتابهم الحرج بعودتهم بالذاكرة إلى آلام وقلق وشكوك وآمال وأفراح، وربما أخذت تساورهم الشكوك في نجاح المهمة بإعطاء ذكرياتهم رونقها الأصلي.

ومن جراء هذا الإخلال بواجب التدوين ضاعت على الأجيال الصاعدة وكل المعنيين بالقضايا التاريخية فرصة فذة¹ ويمكننا أن نطرح سؤالاً لإثراء الموضوع أكثر، هو كيف كان موقف الفرنسيين من تاريخ الجزائر عند

1-صالح بن القبي، عهد لا عهد مثله، أو الرسالة التائفة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2004، ص 42، 43، 44، 45.

الاحتلال؟

3-موقف الفرنسيين من تاريخ الجزائر عند الاحتلال

الجواب هو أن الفرنسيين قد أدركوا عند دخولهم الجزائر أهمية التاريخ، رغم جهلهم في أول الأمر بواقع الجزائر وتاريخها، ورغم انشغالهم بعمليات الحملة والاحتلال، فإنهم اتجهوا في البحث في ثلاث مجالات في الوقت نفسه، فالمجال الأول يتعلق بنشر الآثار القديمة عن الجزائر ككتب الرحلات، ومراسلات دايات الجزائر مع حكام فرنسا، ومذكرات القناصل والجواسيس الفرنسيين، والوثائق العثمانية التي وجدوها في الجزائر.

وبخصوص المجال الثاني الذي يتعلق بإنشاء (اللجان العلمية)، فقد أنشأت وزارة الحربية سنة 1837 لجنة باسم (اكتشاف الجزائر العلمي) قامت بنشر دراسات هامة على الآثار والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة والتاريخ وعلم السلالات، واللهجات وطبائع السكان والزوايا والحياة القبلية والمدن... أما المجال الثالث (الجمعيات والصحف)، حيث كانت جريدة (المرشد الجزائري) وهي أول جريدة فرنسية في الجزائر تهتم بالتاريخ المحلي، وجريدة (الأخبار 1839) تهتم بالأبحاث التاريخية، غير أن تأسيس (جمعية قسنطينة للآثار) سنة 1852 قد أدى إلى ظهور (الدوريات المتخصصة) في الدراسات التاريخية والأثرية، وفي مدينة الجزائر ظهرت سنة 1856 (الجمعية التاريخية الجزائرية) التي أصدرت (المجلة الإفريقية) التي أصبحت مرجعا هاما للباحثين في تاريخ الجزائر، وفي وهران ظهرت (جمعية وهران الأثرية)، وإلى جانب هذه الدوريات والمجلات ظهرت مكتبة ومتحف الجزائر¹، كلها اهتمامات في مجالات متنوعة لها دلالات على مدى اهتمام الإدارة الاستعمارية بالتاريخ

1- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص ص 13، 14، 15، 16.

كعنصر هام ومقوم أساسي في هوية الأمة الجزائرية تستطيع من خلاله القيام بعملية الإخضاع والسيطرة.

في الواقع لقد انطلق الفرنسيون في كتابة تاريخ الجزائر من عدة معطيات أهمها كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة، أي أنهم ارتدوا ثوب المنتصر سنة 1830، وكونهم شعبا متحضرا حكموا شعبا متخلفا، وكونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم.

وهذه المعطيات متفرقة ومجموعة هي التي قررت نوعا من (الحتمية التاريخية) عندهم وحددت منهجهم، ولعل تلك المعطيات هي التي ما زالت تتحكم في الكتابات الفرنسية عن الجزائر حتى اليوم.

ولاهتمام الفرنسيين بالتاريخ الجزائري، دوافع كثيرة أولا الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الأوروبية، وهناك ثانيا دافع السيطرة والاحتلال الذي لا يتحقق إلا بجمع الآثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتقييمها واستخلاص النتائج منها.

وهناك دافع ثالث هو الفضول العلمي برغبة العقل الأوروبي الولوج في ميادين المعرفة وآفاق الحياة، وأخيرا دافع الدين، فقد احتلت الجزائر بعد صراع شديد بينها وبين أوروبا المسيحية دام ثلاثة قرون (عهد القرصنة عند الأوروبيين)، ولذلك اهتموا بتاريخ الجزائر أولا لمعرفة أسرار العهد المشار إليه، وثانيا لتحطيم المعنويات، فاهتموا بالدراسات الإسلامية والطرق الصوفية ورجال الدين ذوي النفوذ الروحي¹.

ويمكن تقسيم فترات البحث في تاريخ الجزائر إلى عهدين كبيرين هما عهد المؤرخين العسكريين، وعهد المؤرخين المختصين (الجامعيين)، فالعهد الأول (1830-1880) كان في ظل الإدارة الفرنسية العسكرية (1830-1871،

1- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 17، 18.

ماعدا من 1858-1860)، حيث اعتمدت في إدارة (الشؤون الأهلية) على ضباط أسندت إليهم (المكاتب العربية)، ومن هنا تولى العسكريون الذين كانوا على صلة مباشرة بالجزائريين كتابة تاريخ محكومهم فكتبوا عن القبائل الجزائرية وعن العلاقات الاقتصادية بينها، وعن لهجات ونظم الجزائريين، وعن الخط العربي، وعن تاريخ شمال إفريقيا وعن التاريخ الروماني في إفريقيا¹.

أما العهد الثاني، وهو عهد المؤرخين الاختصاصيين (1880-1954)، فيبدأ بتأسيس (جامعة الجزائر) منذ 1909، حيث تكاثفت جهود أساتذة الجامعة مع جهود رؤساء الجمعيات التاريخية والأثرية وكتاب الدوريات، وأساتذة التاريخ في الثانويات، ونتج عنه اهتمام خاص بتاريخ الجزائر، وتعكس الدراسات التي ظهرت خلال هذا العهد مدى تبعية كتابة التاريخ للاستعمار، وتبرير هذا الأخير والتأريخ له وإنجاحه واستمراره، ولقد لقي هؤلاء الأساتذة، وتلك الأبحاث تسهيلات وتشجيعات مادية ومعنوية².

ورغم بحث الفرنسيين عن المصادر الأهلية فإنهم كثيرا ما شككوا في قيمتها، ونادى بعضهم بعدم الاعتماد عليها والاعتماد على المصادر الأوروبية. والمفارقة العجيبة هو أن هؤلاء المؤرخون قد أرجعوا شدة مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي لا إلى الروح الوطنية والنفور من الحكم الأجنبي وإنما لضيق الأفق والتعصب الديني، كما كان الهدف البعيد لهؤلاء المؤرخين هو تجريد الجزائريين من أبطالهم كما حاولوا تجريدهم من إسلامهم الحق، وكانوا قد تناولوا كل الموضوعات ماعدا موضوع (الشعب الجزائري) الذي أطلقوا عليه (أهليون) أي مواطنين من الدرجة الثانية عليهم واجبات وليس

1- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 20، 21.

2- المرجع نفسه، ص 23، 24.

لهم حقوق¹. فما هو واجب المثقفين والاعلاميين والمؤرخين، وكل من له صلة بالقضية تجاه تاريخ الجزائر؟

4- واجب المثقفين والاعلاميين والمؤرخين، وكل من له صلة بالقضية تجاه تاريخ الجزائر

إن التغي بأبطال المقاومة الوطنية وبشهداء نوفمبر لا يكفي، ذلك أن تاريخنا والتاريخ عموما عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات، فأين نحن من أبطال العروبة والإسلام في هذه الديار الذين ظهروا منذ الفتح الإسلامي، ماذا نعرف عن عبد المؤمن بن علي موحد المغرب العربي، عن عبد الكريم المغيلي ناشر الإسلام في إفريقيا، عن معركة الجزائر 1541 التي انهزم فيها شارلكان؟ وغيرها من الأحداث الهامة والشخصيات البارزة؟

إنّ تاريخنا لا يبدأ من 1954، أو من 1830، إن رفع الشعارات والتغني بالأمجاد لا يكفيان، والحديث عن أهمية التاريخ في المناسبات ليس حلاً للقضية، ويعتقد أن التركيز أكثر على التاريخ في المناهج التربوية، وتوجيه الإعلام، ونشر التراث المكتوب كلها تخدم الهدف.

ففي أعظم دول العالم يتابع الطلبة دراسة اللغة والتاريخ الوطني في جميع قطاعات التعليم الجامعي كمادتين إجباريتين مهما كان تخصص الطالب². ومن هذا المنطلق يبرز دور المؤرخ والمثقف الجزائري في كتابة تاريخ وطنه، لا كما يكتب عن أوطان أخرى ببرودة وجفاف، أو حتى من دون مبالاة كما فعل من كتب عن تاريخنا من الأجانب.

1- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 27، 29، 30.

2- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 241.

فعلى المؤرخ أن يرصد الأحداث ويتمثلها، وأن يسجل في وعيه وعلى بطاقاته خطوات التيار العام، ثم ينتحي ناحية بعيدة دارسا متأملا مقدما بعض الأحداث على أخرى محكما عقله وضميره، بعيدا عن المؤثرات الخارجية مهما كان نوعها، ثم يصدر حكمه الذي يعتقد أنه الحق مهما خالف ذلك الرأي العام أو ما اتفق عليه الناس أو ما كان يتوقعه هذا المسؤول أو ذاك¹. فمahi الوسائل التي يمكن الاستعانة بها لكتابة التاريخ بكل موضوعية؟ أهم وسيلة هي توفير المؤرخ الكفاء، ويأتي بعد ذلك فتح مجال الاستفادة من الوثائق وأدوات النشر والتوزيع، وحرية التعبير هي أعظم وسيلة، وكيف نطمح إلى الوصول إلى الحقيقة إذا كان على المؤرخ أن يداري أفكاره وآراءه وأن يشوه الأحداث لكي يكون مقبولا.

إن التخلص من العقد والحساسيات هو الكفيل بتجنب التاريخ والكتابة فيه، وسد الذرائع أمام الأجانب والمتطفلين².

فالتاريخ الحق هو الذي تكتبه الأجيال اللاحقة وليس ذلك الذي يكتبه بعض المعاصرين المتأثرين بالعلاقات الشخصية والإيديولوجية والحزبية. ويعد الأرشيف أيضا المادة الأولية لدى الباحثين والمؤرخين لمعالجة وكتابة التاريخ، هذا الأخير الذي يستمد قيمته من قيمة حفظ واستعادة الأرشيف. ففضلا على أن الأرشيف يساعد على صياغة الإشكالية الحقيقية لموضوعات البحث، فإننا نشير إلى أن الوثائق التاريخية لا تجيب بنفسها بقدر ما تحتاج إلى من يضع الأسئلة المناسبة ويصوغ الإشكاليات السليمة لكشف الحقائق أو تأكيدها، وبالتالي يتعذر وجود الموضوعية المطلقة في التاريخ، لأن فهم الوثيقة هو الذي يؤدي إلى إدخال الذاتية.

1- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص 238، 236.

2- المرجع نفسه، ص 239.

وتزداد أهمية الأرشيف مع الوقت نظرا لزيادة عدد الباحثين الجامعيين، وإعداد البرامج الوثائقية، ولعل أبرز دليل على ذلك هو سعي الدول إلى إنشاء مراكز للأرشيف وخاصة البنايات الضخمة للأرشيف الوطني التي تضيف مصداقية لسيادة الدولة¹. إن كل ما يمكن أن يساعد المؤرخ على الوصول إلى الحقيقة فهو مفيد، ويدخل في ذلك التسجيل والمخطوط والمذكرات.

على أن هناك عملية مزدوجة يجب أن تكون متكاملة، وهي أن يجمع المثقف من أفواه المناضلين المجريين تجاربهم، وأن يصوغوها صياغة نابضة بالحياة كأنها تجاربه الذاتية. فالعملية أولا وقبل كل شيء هي عملية اقتناع بالثورة وولاء لها². وماذا إذا عن أرشيف الجزائر الموجود خاصة في فرنسا؟ لا يختلف اثنان في أن من بين المصادر الأساسية لكتابة تاريخ الثورة: الأرشيف الفرنسي الخاص بالثورة والمعروف هناك في فرنسا بـ "أرشيف الجزائر" الذي فتح أبوابه للباحثين والمهتمين والمعنيين ولمحي الأرشيف في سنة 1992، أي بعد مرور ثلاثين سنة على استقلال الجزائر، وثلاثون سنة هي المدة القانونية التي تبقى خلالها الأرشيفات محفوظة قبل وضعها بين أيدي الباحثين، وإن كان منها ما يخضع لفترة ستين سنة.

يشتمل الأرشيف الفرنسي المتعلق بالثورة على خمسة آلاف علبة بملفات تغطي الفترة الواقعة ما بين 1945 و1964، بل تتعداها إلى سنة 1967 لتشمل الأرشيف الخاص بالمرسى الكبير وأماكن بالصحراء الكبرى. وكل هذه الأرشيفات من انتاج الجيش الفرنسي بالجزائر على اختلاف مستوياته³.

1- نور الدين ثنيو، الأرشيف، الذاكرة وكتابة التاريخ، مجلة الهجرة والرحلة، العدد الثاني، أفريل 2008، جامعة منتوري، قسنطينة، ص45.

2- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، المرجع السابق، ص49.

3- عبد الحميد زوزو، مصادر تاريخ الثورة، مجلة الثقافة العدد 110، 111، سبتمبر، ديسمبر 1995، ص13.

إنّ تاريخ الجزائر خلال فترة الاحتلال لازال يحتفظ براهنيته، ولم يستقل تماماً كبنية مكتفية بذاتها تمكنا من التعرف عليه بالدراسة والتحليل والمعالجة.

ووجه المفارقة في إشكالية الوثائق والأرشيف في كتابة تاريخ الجزائر تكمن في انطواء هذا الأرشيف (على تاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر، فالمادة الأولية التي يروم الباحث اعتمادها في معالجة قضايا التاريخ تكاد تكون حصريا مادة فرنسية تصلح في الغالب لكتابة التاريخ الفرنسي زمن الاستعمار، بينما طريقة مقارنة موضوع التاريخ عند الباحث الجزائري تستدعي منه استبعاد حضور الظلّ الفرنسي من وثيقة الأرشيف.

فتاريخيا فقدت الجزائر أطنانا من الأرشيف الحديث والمعاصر الخاص بالمرحلة الاستعمارية بلغت في بعض التقديرات 200000 علبة خلال سنوات 1960 و1962 نقلته السلطة الفرنسية قبل مغادرتها النهائية أرض الجزائر بحجة أنها هي التي أنتجته طوال وجودها في الجزائر، ويعبر عن سيادتها على الجزائر وكامتداد للمتروبول الفرنسي وكان لفقدان هذا الأرشيف دوره البالغ على ذاكرة الجزائر ووعيمها التاريخي والاجتماعي.

خاتمة

صحيح أن الأرشيف كما يدعي الطرف الفرنسي، أنتجته الإدارة الفرنسية كتعبير عن سيطرتها وسيادتها على الجزائر، وعليه يمكنها الاحتجاج بإقليمية التشريع لكن بعد هزيمة فرنسا عام 1962 يتغير الموقف تماما ليصبح الأرشيف حقا لصاحب السيادة الجديدة، لأن الأرشيف نفسه يعبر عن السيادة.

فالأرشيف في صلته بالسيادة وبكيان الدولة لازال يمثل مادة حرجة لا يمكن الاقتراب منه ومقارنته بحرية كما يقتضيهما البحث العلمي، وحتى وإن

استطاع الباحث الجزائري الانتقال إلى فرنسا حيث توجد المادة التاريخية فإنه يصادف مجموعة من المتاعب والعوائق التي تواجه الباحث الفرنسي نفسه، فعلاوة على مشكل الوقت والمال، فإن الوثائق لا تقدم إلا بعد فوات ستين عاما عن تاريخ صدورهما، أما الأرشيف المتعلق بالأشخاص خاصة التقارير الطبية فيجب أن يمر عليها مائة وسبعون عاما قبل أن تصبح قابلة للتداول، وتصبح بالتالي فاقدة لحيويتها في توكيد أو كشف الحقيقة، وتناثر الوثائق المتعلقة بالجزائر في العديد من بنايات الأرشيف¹.

ولمسألة استعادة الأرشيف وجهان، وجه قانوني، ووجه تاريخي، أما الوجه القانوني فيبقى لأهل القانون، أما الجانب التاريخي فحقا أن وثائقنا موزعة هنا وهناك والمفقود عن طريق النهب والضياع والتلف لا يحصى ولا يعد والفرنسيون لم يأخذوا ما يثير الحساسيات فقط بل أخذوا أيضا مخطوطات وتحفا وأسلحة وعدد من الجماجم والرؤوس المقطوعة من أجسام المقاومين، أخذوا خزينة الدولة الجزائرية.

أليس من حق الجزائر المنتصرة بعد هزيمة أن تستعيد تراثها وحقوقها الثقافية كما استعادت سيادتها وحقوقها السياسية².

1- نور الدين ثنيو، المرجع السابق، ص.ص 46، 48، 50، 51.

2- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص. ص 239،

فهرس المحتويات

- التعريف بموضوع الكتاب 06
كلمة مدير مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية
ك.أ.د/ عبد الله مقلاتي..... 09

الفصل التمهيدي

حياة وأعمال المؤرخ الدكتور العيد مسعود

الدكتور الباحث العيد مسعود

من جامع الأزهر إلى التدريس وإدارة الجامعة الجزائرية

- ك.أ. / الأخضر رحموني - جامعة بسكرة..... 11

الفصل الأول

بحوث في التاريخ الحديث

نشأة مدينة بوسعادة

- ك.د. خميسي سعدي - المركز الجامعي بركة..... 17

جدلية مسار العلاقات الجزائرية العثمانية بين التبعية والتحالف

- ك.أ. د. حميدي أبوبكر الصديق - جامعة المسيلة..... 45

التغيرات المجالية لبلاد الزاب خلال العهد العثماني

في ضوء مدونات الرحلة والجغرافيا

- ك.د. زباني الصادق - جامعة سطيف 02..... 58

أساليب تعيين حاكم الجزائر خلال عصر الدايات (1671م-1830م)

- ك.د. هشام بن سالم - المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة..... 81

إطالة على الأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر خلال العهد

العثماني من خلال مضمون رحلة الحسين الورتلاني "نزهة الأنظار في

فضل علم التاريخ والأخبار"

- ك.د. عبد النور أيت بعزیز - جامعة البلدة 02..... 98

الفصل الثاني

بحوث في التاريخ المعاصر

- 123 دة. سعدية بن حامد- جامعة المسيلة.....
المجتمع الجزائري في ظل الدراسات والسياسات الاستعمارية الفرنسية
..... دة. كوثر هاشمي - جامعة 8 ماي 1945 -قلمة.....
- 141
- 163 دة. فاطمة دجاج - جامعة الأغواط.....
الحياة اليومية للمهجرّين الجزائريين في المستعمرات العقابية
الفرنسية (1870- 1900)
- 195 د. خيري الرزقي- جامعة باتنة 01.....
دور الصحافة في نشر الفكرة الإصلاحية بمنطقة الزيبان
..... أ.د. عبد القادر قوبع - جامعة الجلفة
- 222 أ.د. محمد السعيد قاصري - جامعة المسيلة.....
قراءة في النشاط السياسي لمصالي الحاج كزعيم لنجم شمال إفريقيا
من خلال مذكراته 1925-1936
- 244 دة. يمينه بن رحال - جامعة المسيلة.....
بلعيد عبد السلام و8 ماي 1945م بعين الكبيرة في مراسلة سرية
للشرطة الفرنسية
- 263 أ.د. بشير فايد - جامعة سطيف 02.....
دور معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس وشيوخه في الثورة التحريرية
- 283 أ.د. عبد الله مقلاتي- جامعة المسيلة.....
دعم المملكة الليبية لجهة التحرير الوطني الجزائرية 1954. 1962م
- 309 دة. سمية سالم الشعالي - جامعة سرت - ليبيا.....

- مذكرات امرأة مجاهدة من سطيف خلال ثورة التحرير الجزائرية:
المجاهدة يمينة شراد: 'ست سنوات في الجبال' Six ans au maquis
- ك. د. زهير بن علي - جامعة سطيف 02
- 328 ك. د. خليل كمال - جامعة سطيف 02
- التنظيم السياسي والعسكري للثورة التحريرية بمنطقة الحضنة
- 349 ك. د. نورالدين مقدر - جامعة المسيلة
- مبدأ التسامح الديني تجاه الأقلية اليهودية بالجزائر: قراءة وتحليل
لرسالة جبهة التحرير الوطني إلى يهود الجزائر الفاتح من أكتوبر 1956م
- 360 ك. دة. معوشي آمال - جامعة المسيلة
- إضراب الثمانية أيام 1957م: الأهداف والتداعيات
- 393 ك. أ.د. عبد القادر خليفي - جامعة المسيلة
- نشاط مكاتب جبهة التحرير الوطني في قارة آسيا 1957-1959
- 429 ك. أ.د. عمر بوضربة - جامعة المسيلة
- كتابات فرانز فانون عن: المرأة الجزائرية المستعمرة بين التعنيف
ومحاولات الاستلاب
- 447 ك. د. سليم سايج - جامعة قسنطينة 02
- أرشيف المنتصر قراءة في الأرشيف الفرنسي وواقع كتابة تاريخ الجزائر
- 468 ك. د. إدريس لعبيدي - جامعة الطارف